

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(تفسير سورة الصافات وهي مكية)

قال النسائي أخبرنا إسماعيل بن مسعود حدثنا خالد : يعني ابن الحارث - عن ابن أبي ذئب قال أخبرنا الحارث بن عبد الرحمن عن سالم بن عبد الله عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات ، تفرد به النسائي

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّسْلِيَتِ ذِكْرًا * إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾

قال سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال (والصافات صفا) وهي اللائكة (فالزاجرات زجراً) هي اللائكة (فالتاليات ذكراً) هي اللائكة ، وكذا قال ابن عباس رضى الله عنهما ومسروق وسعيد بن جبيرة وعكرمة ومجاهد والسدي وقتادة والريبع بن أنس قال قتادة : اللائكة صفوف في السماء . وقال مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن أبي مالك الأشجعي عن ربيع عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فضلنا على الناس ثلاث . جعلت صفوفنا كصفوف اللائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء » وقد روى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش عن المسيب بن رافع عن تميم بن طرفة عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تصفون كما تصف اللائكة عند ربهم ؟ » قلنا وكيف تصف اللائكة عند ربهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم « يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف » وقال السدي وغيره معنى قوله تعالى (فالزاجرات زجراً) أنها تزجر السحاب ، وقال الريبع بن أنس (فالزاجرات زجراً) ما زجر الله تعالى عنه في القرآن ، وكذا روى مالك عن زيد بن أسلم (فالتاليات ذكراً) قال السدي اللائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس وهذه الآية كقوله تعالى (فالمليكات ذكراً * عذرا أو نذرا) . وقوله عز وجل (إن إلهكم لواحده رب السموات والأرض) هذا هو القسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض (وما بينهما) أى من المخلوقات (ورب المشرق) أى هو للملك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق وتغرب من المغرب . واكتفى بذكر المشرق عن المغرب لدلتها عليه وقد صرح بذلك في قوله عز وجل (فلا أقسم برب المشرق والمغرب إنا لقادرون) وقال تعالى في الآية الأخرى (رب المشرقين ورب المغربين) يعنى في الشتاء والصيف للشمس والقمر

﴿ إِنَّا بِنَا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بَزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنِ خَطِئَ أَلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾

يغير تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزين الكواكب ، قرئ بالإضافة وبالبدل وكلاهما

بمعنى واحد فالكواكب السيارة والثوابت تثقب ضوءها جرم السماء الشفاف فتضيء لأهل الأرض كما قال تبارك وتعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين * وأعتدنا لهم عذاب السعير) وقال عز وجل (ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين * وحفظناها من كل شيطان رجيم * إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) فقوله جل وعلا ههنا (وحفظاً) تقديره وحفظناها حفظاً (من كل شيطان مارد) يعنى المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع أناه شهاب ثاقب فأحرقه ولهذا قال جل جلاله (لا يسمعون إلى الملائكة) أى لئلا يصلوا إلى الملائكة الأعلى وهى السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحى الله تعالى بما يقوله من شرعه وقدره كما تقدم بيان ذلك فى الأحاديث التى أوردناها عند قوله تبارك وتعالى (حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلى الكبير) ولهذا قال تعالى (ويقتفون) أى يرمون (من كل جانب) أى من كل جهة يقصدون السماء منها (دحورا) أى رجما يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ويرحمون (ولهم عذاب واصب) أى فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجه مستمر كما قال جل جلاله عظمت (وأعتدنا لهم عذاب السعير) وقوله تبارك وتعالى (إلا من خطف الخطفة) أى إلا من اختطف من الشياطين الخطفة وهى الكلمة يسهها من السماء فيلقها إلى الذى تحته ويلقها الآخر إلى الذى تحته فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقها وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتية الشهاب فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن كما تقدم فى الحديث ولهذا قال (إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) أى مستنير . قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان للشياطين مقاعد فى السماء قال فكانوا يستمعون الوحي قال وكانت النجوم لا تجرى وكانت الشياطين لا ترمى قال فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض فزادوا فى الكلمة تسعا قال فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه قال فشكوا ذلك إلى إبليس لعنه الله فقال ما هو إلا من أمر حدث قال فبعث جنوده فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم صلى بين جبلين نخلة قال وكيع يعنى بطن نخلة قال فرجعوا إلى إبليس فأخبروه فقال هذا الذى حدث ، وستأتى إن شاء الله تعالى الأحاديث الواردة مع الآثار فى هذا المعنى عند قوله تعالى إخبارا عن الجن أنهم قالوا (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً * وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً * وأنا لا تدرى أشراً أريد بمن فى الأرض أم أراد ربهم رشداً)

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ * بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ * وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ * وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَهَذَا مِثْقَالٌ وَمَتْنٌ وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظًا أَدْنَى لِمَبْعُوثُونَ * أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ * فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ) يقول تعالى : فسل هؤلاء النكيرين للبعث أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والشياطين والخلوقات العظيمة ؟ وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه أم من عددنا فانهم يقرون أن هذه الخلوقات أشد خلقاً منهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكروا البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا كما قال عز وجل (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ثم بين أنهم خلقوا من شئ ضعيف فقال (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ) قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك : هو الجيد الذى يلتصق ببعضه ببعض ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة هو اللزج الجيد ، وقال قتادة هو الذى يلتصق باليد ، وقوله عز وجل (بل عجبنا ويسخرون) أى بل عجبنا يا محمد من تكذيب هؤلاء النكيرين للبعث وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب وهو إعادة الأجسام بعد فناها وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك

قال قتادة: عجب محمد صلى الله عليه وسلم وسخر ضلال بني آدم (وإذا رَأَوْا آية) أى دلالة واضحة على ذلك (يستسخرون) قال مجاهد وقتادة يستهزئون (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) أى إن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين (أندامتنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون) يستبعدون ذلك ويكذبون به (قل نعم وأنتم داخرون) أى قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون ترابا وعظاما وأنتم داخرون أى حقرون تحت القدرة العظيمة كما قال تبارك تعالى (وكل أتوه داخرين) وقال (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين). ثم قال جلست عظمتهم (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون) أى فأنما هو أمر واحد من الله عز وجل يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة والله تعالى أعلم .

﴿ وَقَالُوا يَوْمَئِذٍ هَذَا يَوْمُ الدِّينِ * هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَقَاصِرُونَ * بَلْ هُمْ أَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم (وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين) فتقول لهم الملائكة والمؤمنون (هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في عشرهم ومشرهم ولهذا قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) قال النعمان بن بشير رضى الله عنه يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدى وأبو صالح وأبو العالية وزيد بن أسلم ، وقال سفيان الثوري عن ممالك عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه (احشروا الذين ظلمون وأزواجهم) قال إخوانهم . وقال شريك عن ممالك عن النعمان قال : سمعت عمر يقول (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) قال أشباههم . قال يحيى وأصحاب الزنا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الحجر مع أصحاب الحجر ، وقال خفيف عن مقسم عن ابن عباس رضى الله عنهما أزواجهم نساءهم وهذا غريب والمعروف عنه الأول كما رواه مجاهد وسعيد بن جبير عنه أزواجهم قرناءهم وما كانوا يعبدون من دون الله أى من الأصنام والأنداد تحشر معهم فى أما كنهم . وقوله تعالى (فاهدوهم إلى صراط الجحيم) أى أرشدوهم إلى طريق جهنم وهذا كقوله تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم غمايا وبكيا وصما) وأهم جهنم كلما خبت زنادهم سعيرا) وقوله تعالى (وقفوههم إنهم مسئولون) أى قفوههم حتى يستلوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا كما قال الضحاك عن ابن عباس يعنى احبسوهم إنهم محاسبون . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا النفيلي حدثنا العتمر بن سليمان قال سمعت لينا يحدث عن بشر عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفا معه إلى يوم يوم القيامة لا يفارقه وإن دعا رجل رجلا» ثم قرأ (وقفوههم إنهم مسئولون) ورواه الترمذى من حديث ليث بن أبى سليم ، ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم عن معتمر عن ليث عن رجل عن أنس رضى الله عنه مرفوعا . وقال عبد الله بن المبارك سمعت عثمان بن زائدة يقول إن أول ما يسئل عنه الرجل جلساؤه ، ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ (ما لكم لا تنصرون ؟) أى كما زعمتم أنكم جميع منتصر (بل هم اليوم مستسلمون) أى متقادون لأمر الله لا يخالفونه ولا يعيدون عنه والله أعلم

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ * قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا

مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ * فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ * فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَوِينَ * فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَنْنَا لَنَارِكُوا إِلَهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار (فيقول الضعفاء الذين استكبروا إننا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إننا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد) وقال تعالى (ولو ترى إذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكانا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له انداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وهكذا قالوا لهم ههنا (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) قال الضحاك عن ابن عباس يقولون كنتم تقهرونا بالقدرة منكم علينا لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء ، وقال مجاهد يعني عن الحق والكفار تقوله للشياطين . وقال قتادة قالت الإنس للجن إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين قال من قبل الخير فتنهوا عنه وتبطئوا عنه ، وقال السدي تأتوننا من قبل الحق وتزيناو لنا الباطل وتصدونا عن الحق وقال الحسن في قوله تعالى (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) أي والله يأتيه عند كل خير يريد فيصده عنه ، وقال ابن زيد معناه تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به ، وقال يزيد الرشك (١) من قبل لا إله إلا الله وقال خفيف يعنون من قبل ميامنهم ، وقال عكرمة (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين) قال من حيث نأمنكم .

وقوله تعالى (قالوا بل لم تكونوا مؤمنين) تقول القادة من الجن والإنس للاتباع ما الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان قابلة للكفر والعصيان (وما كان لنا عليكم من سلطان) أي من حجة على صحنه مادعونكم إليه (بل كنتم قومًا طافين) أي بل كنتم طافين ومجازرة للحق فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذي جاءكم به الأنبياء وأقاموا لكم الحجج على صحنه ما جاءوكم به فخالفتموهم (فحق علينا قول ربنا إننا لذائقون * فأغويانا كما كنا غاوين) يقول الكبراء للستضعفين حقت علينا كلمة الله إننا من الأشقياء الدائمين للعذاب يوم القيامة (فأغويانا كما) أي دعوناكم إلى الضلالة (إننا كنا غاوين) أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا ، قال الله تبارك وتعالى (فانهم يومئذ في العذاب مشتركون) أي الجميع في النار كل بحسبه (إننا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا) أي في الدار الدنيا (إذ قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون قال ابن أبي حاتم حدثنا عبيد الله ابن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثنا الليث عن ابن مسافر يعني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل » وأنزل الله تعالى في كتابه وذكر قومًا استكبروا فقال تعالى (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) . وقال ابن أبي حاتم أيضا حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن سعيد الجريري عن أبي العلاء قال : يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون نعبد الله وعزيراً فيقال لهم خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون نعبد الله واليسع فيقال لهم خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالشركيين فيقال لهم لا إله إلا الله فيستكبرون ثم يقال لهم لا إله إلا الله فيستكبرون

ثم يقال لهم لا إله إلا الله فيستكبرون فيقال لهم خذوا ذات الشمال . قال أبو نضرة فينطلقون أسرع من الطير . قال أبو العلام ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد الله تعالى فيقال لهم هل تعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون نعم ، فيقال لهم فكيف تعرفونه ولم تروه ؟ فيقولون نعلم أنه لا عدل له . قال فيتعرف لهم تبارك وتعالى وتقدس وينجي الله المؤمنين (ويقولون أننا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) أى آنحن ترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون يعنون رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى تكذيبا لهم وردا عليهم (بل جاء بالحق) يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالحق فى جميع شرعة الله تعالى له من الاخبار والطلب (وصدق الرسلين) أى صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله تعالى فى شرعه وأمره كما أخبروا (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) الآية

﴿ إِنكُمْ لَذِئْقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ * قَوَائِمُهُمْ مُكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بِيضَاءٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْطَّرْفِ عَيْنٌ * كَأَنَّهُمْ يَبِغْضُ مَكْفُونٌ ﴾

يقول تعالى مخاطبا للناس إنكم لذائقو العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون (ثم استثنى من ذلك عبادة المخلصين كما قال تعالى (والعصر إن الإنسان لئى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال عز وجل (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقال تعالى (وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا * ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) وقال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين) ولهذا قال جل وعلا ههنا (إلا عباد الله المخلصين) أى ليسوا يذوقون العذاب الأليم ولا يناقشون فى الحساب بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله تعالى من التضعيف . وقوله جل وعلا (أولئك لهم رزق معلوم) قال قتادة والصدى يعنى الجنة ثم فسره بقوله تعالى (فواكه) أى متنوعة (وهم مكرمون) أى يخدمون ويرفهن وينعمون (فى جنات النعيم * على سرر متقابلين) قال مجاهد لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض . وقال ابن أبى حاتم حدثنا يحيى بن عبدك القزوينى حدثنا حسان بن حسان حدثنا إبراهيم بن بشر حدثنا يحيى بن معين حدثنا إبراهيم القرشى عن سعيد بن شرحبيل عن زيد بن أبى أوفى رضى الله عنه قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا هذه الآية (على سرر متقابلين) ينظر بعضهم إلى بعض حديث غريب . وقوله تعالى (يطاف عليهم بكأس من معين * يضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) كما قال عز وجل فى الآية الأخرى (يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون) نزه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن وهو الغول وذهابها بالعقل جملة فقال تعالى هاهنا (يطاف عليهم بكأس من معين) أى بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها قال مالك عن زيد بن أسلم : خمر جارية يضاء أى لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردى من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة إلى غير ذلك مما ينفى الطبع السليم . وقوله عز وجل (لذة للشاربين) أى طعمها طيب كلونها وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك وقوله تعالى (لا فيها غول) يعنى لا تؤثر فيهم غولا وهو وجع البطن قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة وابن زيد كما تفعله خمر الدنيا من القولنج ونحوه لكثرة مايتها ، وقيل المراد بالغول ههنا صداع الرأس وروى هكذا عن

ابن عباس رضى الله عنهما وقال قتادة هو صداع الرأس ووجع البطن وعنه وعن السدى لا تقتال عقولهم كما قال الشاعر :
فما زالت الكأس تقتالنا * وتذهب بالأول الأول

وقال سعيد بن جبير لا مكروه فيها ولا أذى ، والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن ، وقوله تعالى (ولا هم عنها ينزفون) قال مجاهد لا تذهب عقولهم وهكذا قال ابن عباس وعمر بن كعب والحسن وعطاء بن أبي مسلم الخراساني والسدى وغيرهم وقال الضحاك عن ابن عباس في الحمر أربع خصال السكر والصداع والقيء والبول فذكر الله تعالى خير الجنة فزها عن هذه الخصال كما ذكر في سورة الصافات وقوله تعالى (وعندهم قاصرات الطرف) أى عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن كذا قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وزيد بن أسلم وقاتدة والسدى وغيرهم . وقوله تبارك وتعالى (عين) أى حسان العين وقيل ضخام العين وهو يرجع إلى الأول وهى النجلاء العيناء فوصف عيونهم بالحسن والعفة كقول زليخا في يوسف عليه الصلاة والسلام حين حملته وأخرجته على تلك النسوة فأعظمته وأكبرته وظن أن ملك من الملائكة لحسنه وبهاء منظره قالت (فذلكم الذى لم تنتنى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) أى هو مع هذا الجمال عفيف تقى وهكذا الحور العين (خيرات حسان) ولهذا قال عز وجل (وعندهم قاصرات الطرف عين) وقوله جل جلاله (كأنهن يبض مكنون) وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان قال طى بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (كأنهن يبض مكنون) يقول اللؤلؤ المكنون ويشدهن بيت أبى دهل الشاعر وهو قوله في تصيدته وهى زهراء مثل لؤلؤة الغو * اص ميزت من جوهر مكنون

وقال الحسن (كأنهن يبض مكنون) يعنى محصون لم تمسه الأيدي ، وقال السدى : البيض فى عشه مكنون وقال سعيد بن جبير (كأنهن يبض مكنون) يعنى بطن البيض وقال عطاء الخراساني هو السحاء الذى يكون بين قشرته العليا ولباب البيضة ، وقال السدى (كأنهن يبض مكنون) يقول يياض البيض حين ينزع قشره واختاره ابن جرير لقوله مكنون قال والقشرة العليا يسما جناح الطير والعش وتناولها الأيدي بخلاف داخلها والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنا أحمد ابن عبد الرحمن بن وهب حدثنا محمد بن الفرج الصدفى الدمياطى عن عمرو بن هاشم عن ابن أبى كريمة عن هشام عن الحسن عن أمه عن أم سلمة رضى الله عنها قالت قلت لرسول الله أخبرنى عن قول الله عز وجل (حور عين) قال « العين الضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت لرسول الله أخبرنى عن قول الله عز وجل (كأنهن يبض مكنون) قال « رقهن كرقعة الجلدة التى رأسها فى داخل البيضة التى تلى القشر وهى العرق » . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو غسان النهدي حدثنا عبد السلام بن حرب عن ليث عن الربيع بن أنس عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا لواء الحمد يومئذ يدي ، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر ، يطوف على ألف خادم كأنهن يبض المكنون - أو اللؤلؤ المكنون - ، والله تعالى أعلم بالصواب .

(فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَأَنَّى ذَاكَ الْمَتَدِينُ * أَوْ أَذًا مِّتَنًا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ * فَأَطْلَعَ * فَأَسَدًا الْجَحِيمُ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرْدِينَ * وَلَوْلَا رَحْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُم مِّنَ الْمُهَضَّمِينَ * أَمَّا نَحْنُ مُبْتَلَيْنِ * إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * لِيُنْزِلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون أى عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا وماذا كانوا يعانون فيها وذلك من حديثهم على شراهم واجتماعهم في تنادهم ومعاشرتهم في مجالسهم وهم جلوس على السرر والخدم

بين أيديهم يسعون ويحيثون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (قال قائل منهم إني كان لي قرين) قال مجاهد يعني شيطاناً . وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما هو الرجل للشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا ، ولاتنافي بين كلام مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان وكلاماً يتعاونان قال الله تعالى (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وكل منهما يوسوس كما قال الله عز وجل (من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) ولهذا (قال قائل منهم إني كان لي قرين يقول أأنك لمن المصدقين) أي أنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد (أنذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون) قال مجاهد والسدى لمحاسنون ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومحمد بن كعب القرظي للحزبيون بأعمالنا وكلامهما صحيح قال تعالى (قال هل أأنتم مطلعون) أي مشرفون يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة (فاطلع فرآه في سواء الجحيم) قال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبيرة وخليفة المصري وقادة والسدى وعطاء الخراساني يعني في وسط الجحيم ، وقال الحسن البصري في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ، وقال قتادة ذكر لنا أنه اطلع فرأى حجاجم القوم تغلي ، وذكر لنا أن كعب الأحمبار قال في الجنة كوي إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فيها فازداد شكراً (قال تالله إن كدت لتردين) يقول المؤمن مخاطباً للكافر والله إن كدت لتهلكني لو أعطتك (ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين) أي ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت محضر معك في العذاب ولكنه تفضل علي ورحمي فهداني للإيمان وأرشدني إلى توحيده (وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله) . وقوله تعالى (أئنا نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعدين) هذا من كلام المؤمن مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ولهذا قال عز وجل (إن هذا هو الفوز العظيم) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله الظهري حدثنا حفص بن عمر المدني حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تبارك وتعالى لأهل الجنة (كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون) قال ابن عباس رضي الله عنهما قوله عز وجل (هنيئاً) أي لا يموتون فيها فعندها قالوا (أئنا نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعدين) وقال الحسن البصري : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا (أئنا نحن بميتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعدين) قيل لا (قالوا إن هذا هو الفوز العظيم) وقوله جل جلاله (مثل هذا فيعمل العاملون) قال قتادة هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير هو من كلام الله تعالى ومعناه مثل هذا النعيم وهذا الفوز فيعمل العاملون في الدنيا ليعيروا إليه في الآخرة وقد ذكرنا قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في ضمن عموم هذه الآية الكريمة ، قال أبو جعفر بن جرير حدثني إسحاق بن إبراهيم ابن حبيب بن الشهيد حدثنا عتاب بن بشير عن خفيف عن فرات بن ثعلبة النهري في قوله (إني كان لي قرين) قال إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة ، فقال الذي له حرفة للآخر ليس عندك حرفة ما أراي إلا مفارقك ومقامك قفاهمه وفارقه ثم إن الرجل اشترى داراً بألف دينار كانت للملك مات فدفعا صاحبه فأراه فقال كيف ترى هذه الدار ابتعتها بألف دينار ؟ قال ما أحسنها ، فلما خرج قال اللهم إن صاحبي هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار وإني أسألك داراً من دور الجنة فتصدق بألف دينار ، ثم مكث ماشاء الله تعالى أن يمكث ، ثم إنه تزوج امرأة بألف دينار فدفعا وصنع له طعاماً فلما أتاه قال إني تزوجت هذه المرأة بألف دينار قال ما أحسن هذا فلما انصرف قال يارب إن صاحبي تزوج امرأة بألف دينار وإني أسألك امرأة من الخور العين فتصدق بألف دينار ، ثم إنه مكث ماشاء الله تعالى أن يمكث ثم اشترى بستانين بألفي دينار ثم دعاه فأراه فقال إني ابتعت هذين البستانين بألفي دينار فقال ما أحسن هذا فلما خرج قال يارب إن صاحبي قد اشترى بستانين بألفي دينار وأنا أسألك بستانين في الجنة فتصدق بألفي دينار ، ثم إن الملك أتاهما فتوفاهما ثم انطلق

بهذا التصديق فأدخله داراً تعجبه وإذا بامرأة تطلع يضيء ما تحتها من حسناتها ثم أدخله بستانين وشيئاً الله به عليم فقال عند ذلك ما أشبه هذا برجل كان من أمره كذا وكذا قال فانه ذاك ولاك هذا المنزل والبستانان والمرأة ، قال فانه كان لي صاحب يقول أئتتك لمن المصدقين قيل له فانه في الجحيم قال هل أتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه في شواء الجحيم فقال عند ذلك (تالله إن كدت لتردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين) الآيات قال ابن جرير وهذا يقوى قراءة من قرأ (أئتتك لمن المصدقين) بالتشديد ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن الأبار أخبرنا أبو حفص قال سألت إسماعيل السدي عن هذه الآية (قال قائل منهم إني كان لي قرين * يقول أئتتك لمن المصدقين) قال فقال لي ما ذكرك هذا قلت قرأته آنفاً فحبيت أن أسألك عنه فقال : أما فاحفظ ، كان شريكاً في بني إسرائيل أحدهما مؤمن والآخر كافر فافترقا على ستة آلاف دينار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار ثم افترقا فمكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا ، ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن ما صنعت في مالك ؟ أضربت به شيئاً أتجرت به في شيء ؟ فقال له المؤمن لا فإما صنعت أنت ؟ فقال اشتريت به أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار - قال - فقال له المؤمن أو فعلت ؟ قال نعم ، قال فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال : اللهم إن فلانا - يعني شريكه الكافر - اشترى أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً بألف دينار ثم يموت غداً ويتركها ، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف دينار أرضاً ونخلاً وثماراً وأنهاراً في الجنة - قال : ثم أصبح فقسمها في المساكين - قال - ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن ما صنعت في مالك أضربت به في شيء ؟ أتجرت به في شيء ؟ قال لا قال فما صنعت أنت ؟ قال كانت ضيعتي قد اشتدت على مؤنتها فاشتريت رقيقاً بألف دينار يقومون لي فيها ويعملون لي فيها فقال له المؤمن أو فعلت ؟ قال نعم - قال - فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فلما انصرف أخذ ألف دينار فوضعها بين يديه ثم قال اللهم إن فلانا - يعني شريكه الكافر - اشترى رقيقاً من رقيق الدنيا بألف دينار يموت غداً فيتركهم أو يموتون فيتركونه ، اللهم إني اشتريت منك بهذه الألف الدينار رقيقاً في الجنة - قال - ثم أصبح فقسمها في المساكين - قال - ثم مكثا ما شاء الله تعالى أن يمكثا ثم التقيا فقال الكافر للمؤمن ما صنعت في مالك أضربت به في شيء ؟ أتجرت به في شيء ؟ قال لا قال فما صنعت أنت ؟ قال كان أمري كله قد تم إلا شيئاً واحداً فلانة قد مات عنها زوجها فأصدقته ألف دينار فجاءتني بها ومثلها معها فقال له المؤمن أو فعلت ؟ قال نعم قال فرجع المؤمن حتى إذا كان الليل صلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فلما انصرف أخذ الألف الدينار الباقية فوضعها بين يديه وقال اللهم إن فلانا - يعني شريكه الكافر - تزوج زوجة من أزواج الدنيا بألف دينار فيموت غداً فيتركها أو يموت غداً فتركها اللهم وإني أخطب إليك بهذه الألف الدينار حوراء عينا في الجنة - قال - ثم أصبح فقسمها بين المساكين - قال - فبقى المؤمن ليس عنده شيء . قال فلبس قبيصاً من قطن وكساء من صوف ثم أخذ مراً فجعله على رقبته يعمل الشيء ويحفر الشيء بقوة . قال فجاءه رجل فقال له يا عبد الله أتؤاجرني بنفسك مشاهرة شهراً بشهر تقوم على دواب لي تعلفها وتكنس سرقينها قال أفعل قال فواجره نفسه مشاهرة شهراً بشهر يقوم على دوابه ، قال وكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه فإذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ عنقه ثم يقول له سرقت شعير هذه البارحة . قال فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال لآتين شريكى الكافر فلأعملن في أرضه فليطعمني هذه الكسرة يوماً بيوم ويكسوني هذين الثوبين إذا بليا ، قال فانطلق يريد فأتته إلى بابه وهو محس فإذا قصر مشيد في السماء وإذا حوله البوابون فقال لهم استأذنوا لي على صاحب هذا القصر فانكم إذا فعلتم سره ذلك ، فقالوا له انطلق إن كنت صادقاً فقم في ناحية فإذا أصبحت فتعرض له . قال فانطلق المؤمن فألقى نصف كسائه تحتَه ونصفه فوقه ثم نام فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له فخرج شريكه الكافر وهو راكب فلما رآه عرفه فوقف عليه وسلم عليه وصافحه ثم قال له ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت ؟ قال بلى قال وهذه حالي وهذه حالك ؟ قال بلى قال أخبرني ما صنعت في مالك ؟ قال لا تسألني

عنه ، قال فما جاء بك ؟ قال جئت لأعمل في أرضك هذه فتطعمني هذه الكسرة يوما ويوم وتكسوني هذين الثوبين إذا بليسا ، قال لا ولكن أصنع بك ما هو خير من هذا ولكن لا ترى مني خيرا حتى تخبرني ما صنعت في مالك قال أقرضته قال من ؟ قال الولي الوفي قال من ؟ قال الله ربى قال وهو مصافحه فانتزع يده من يده ثم قال (أئتلك لمن الصديقين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) قال السدى محاسبون قال فانطلق الكافر وتركه ، قال فلما رآه المؤمن وليس يلوى عليه رجع وتركه يعيش ، المؤمن في شدة من الزمان ويعيش الكافر في رخاء من الزمان قال فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله تعالى المؤمنين الجنة يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار فيقول لمن هذا ؟ فيقال هذا لك فيقول ياسبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أتاب بمثل هذا ؟ قال ثم يمر فإذا هو برقيق لا تخصى عدتهم فيقول لمن هذا ؟ فيقال هؤلاء لك ، فيقول ياسبحان الله أو بلغ من فضل عملي أن أتاب بمثل هذا قال ثم يمر فإذا هو بقبة من يا قوتة حمراء محوفة فيها حوراء عيناء فيقول لمن هذه فيقال هذه لك فيقول ياسبحان الله أو بلغ من فضلى عملي أن أتاب بمثل هذا ، قال ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر فيقول (إني كان لى قرين * يقول أئتلك لمن الصديقين * أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) قال فالجنة عالية والنار هابوية قال فيريه الله تعالى شريكه في وسط الجحيم من بين أهل النار فإذا رآه المؤمن عرفه فيقول (تالله إن كدت لتردين * ولو لا نعمة ربى لسكنت من المحضرين * أفما نحن بميتين إلا مو تننا الأولى وما نحن بمعدين * إن هذا هو الفوز العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون) بمثل ما قدم من عليه . قال فيتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة فلا يذكر ما مر عليه في الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت

﴿ أذلِكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَأَكُلُونِ مِنْهَا الْبَطُونَ * ثُمَّ إِنَّا لَنُهَمُّ عَلَيْهِمْ شَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّا مَرَجَعْنَاهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ * إِنَّهُمْ أَلْقَوْا أَبَاهُمْ ضَالِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾

يقول الله تعالى لهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشرب ومناكح وغير ذلك من اللذات خير ضيافة وعطاء (أم شجرة الزقوم) أى التى فى جهنم وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة كما قال بعضهم إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار فى الجنة إلا وفيها منها غصن ، وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم كقوله تعالى (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للأكليين) يعنى الزيتون ويؤيد ذلك قوله تعالى (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لا تكون من شجر من زقوم) وقوله عز وجل (إنا جعلناها فتنه للظالمين) قال قتادة ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة وقالوا صاحبكم ينبسكم أن فى النار شجرة والنار تأكل الشجر فأنزل الله تعالى (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) غذيت من النار ومنها خلقت . وقال مجاهد (إنا جعلناها فتنه للظالمين) قال أبو جهل لعنه الله إنما الزقوم التمر والزبد أنزله قلت ومعنى الآية إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختبارا نخبر به الناس من يصدق منهم ممن يكذب كقوله تبارك وتعالى (وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك إلا فتنه للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) . وقوله تعالى (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم) أى أصل منبتها فى قرار النار (طلعها كأنه رؤوس الشياطين تبشيع لها وتكره له كرها . قال وهب بن منبه شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برؤوس الشياطين) وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر ، وقيل المراد بذلك ضرب من الحيات رؤوسها بشعة ، وقيل جنس من النبات طلعها فى غاية الفحاشة وفى هذين الاحتمالين نظر ، وقد ذكرهما ابن جرير والأول أقوى وأولى والله أعلم . وقوله تعالى (فإنهم لا تكون منها فمائلون منها البطون) ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التى لا أبشع منها ولا أقبح من منظرها مع ما هى عليه من سوء الطعم والريح

والطبع فانهم ليضطرون إلى الأكل منها لأنهم لا يجدون إلا إياها وما هو في معناها كما قال تعالى (ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغني من جوع) وقال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا أبي حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال « اتقوا الله حق تقاته فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف بمن يكون طعامه ؟ » ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة وقال الترمذي حسن صحيح وقوله تعالى (ثم إن لهم عليها شوباً من حميم) قال ابن عباس رضي الله عنهما يعني شرب الحميم على الزقوم ، وقال في رواية عنه شوباً من حميم ، مزجاً من حميم ، وقال غيره يعني يمزج لهم الحميم بصديد وغساق مما يسيل من فروجهم وعيونهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا حيوة بن شريح الحضرمي حدثنا بقة بن الوليد عن صفوان بن عمرو أخبرني عبيد بن بشير عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول « يقرب - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فيه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن رافع حدثنا يعقوب ابن عبد الله عن جعفر وهارون بن عنتر عن سعيد بن جبير قال إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيثأون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حiale يدعون بالثبور وقوله عز وجل (ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم) أي ثم إن مردم بعد هذا الفصل لآلى نار تتأجج وجحيم تتوقد وسعير تتوهج فتارة في هذا وتارة في هذا كما قال تعالى (يطوفون بينها وبين حميم آن) هكذا تلاتة هذه الآية عند هذه الآية وهو تفسير حسن قوي ، وقال السدي في قراءة عبد الله رضي الله عنه (ثم إن مقيلمهم لإلى الجحيم) وكان عبداً رضي الله عنه يقول والذي نفسى بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ، ثم قرأ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) وروى الثوري عن ميسرة عن النبال بن عمرو عن أبي عبيدة عن عبادة رضي الله عنه قال : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقل هؤلاء ويقيل هؤلاء قال سفيان أراه ثم قرأ (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً) ثم إن مقيلمهم لإلى الجحيم قلت على هذا التفسير تكون ثم عاطفة لحبر على خبر وقوله تعالى (إنهم ألفوا آباهم ضالين) أي إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال (فهم على آثارهم يهرعون) قال مجاهد شبيهة بالهرولة ، وقال سعيد بن جبير يسفهنون

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ * فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يعملون مع الله آلهة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرون بأس الله ويحذرونهم سطوته وقمته بمن كفر به وعبد غيره وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم فأهلك للكافرين ودمرهم ونجى المؤمنين ونصرهم ولهذا قال تعالى (فانظر كيف كان عاقبة النذرين لإعباد الله المخلصين)

﴿ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحَ فَلْيَنْصَحْ الْمُجْرِبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَمَلِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع بين ذلك مفصلاً فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل مع طول المدة لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فلما طال عليه ذلك واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم ، ولهذا قال عز وجل (ولقد نادانا نوح فلنعم المحييون) أى فلنعم المحييون له (ونجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو التكذيب والأذى (وجعلنا ذرية هم الباقين) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما يقول : لم يبق إلا ذرية نوح عليه السلام وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تبارك وتعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) قال الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام ، وقد روى الترمذى وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سعيد بن بشر عن قتادة عن الحسن عن ممرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى (وجعلنا ذرية هم الباقين) قال سام وحام ويافث وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن ممرة رضى الله عنه أن نبي الله ﷺ قال « سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم » ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدي عن يزيد بن زريع عن سعيد وهو ابن أبي عروبة عن قتادة به ، قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر ، وقد روى عن عمران بن حصين رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله ، والمراد بالروم ههنا هم الروم الأول وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن ليطي بن يونس بن يافث بن نوح عليه السلام ثم روى من حديث إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن السبب قال : ولد نوح عليه السلام ثلاثة : سام ويافث وحام ، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة فولد سام العرب وفارس والروم ، وولد يافث الترك والصقالية وأجوج ومأجوج ، وولد حام القبط والسودان والبربر وروى عن وهب بن منبه نحو هذا والله أعلم . وقوله تبارك وتعالى (وتركناه عليه في الآخرين) قال ابن عباس رضى الله عنهما يذكر بهير ، وقال مجاهد يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم ، وقال قتادة والسدي أبقي الله عليه الثناء الحسن في الآخرين . قال الضحاك السلام والثناء الحسن ، وقوله تعالى (سلام على نوح في العالمين) مفسر لما أبقي عليه من الذكر الجليل والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم (إنا كذلك نجزي المحسنين) أى هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك ثم قال تعالى (إنه من عبادنا المؤمنين) أى المصدقين للوحدين الموقنين (ثم أغرقنا الآخرين) أى أهلكتناهم فلم يبق منهم عين تطرف ولا ذكر ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْعَتِهِ لِإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِلَّهِ رَبِّهِمْ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَتُنْفَكُوا * إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (وإن من شيعته لإبراهيم) يقول من أهل دينه ، وقال مجاهد طي مهاج وسنته (إذ جاء ربه بقلب سليم) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى شهادة أن لا إله إلا الله . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن عوف قلت لحمد بن سيرين ما القلب السليم ؟ قال يعلم أن الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ، وقال الحسن : سليم من الشرك وقال عروة لا يكون لمانا وقوله تعالى (إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون) أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال عز وجل أنفك آلهم دون الله تريدون * لما ظنكم رب العالمين) قال قتادة يعنى ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لاقيتموه وقد عبدتم معه غيره

﴿ فَتَنَّا نُتَرَكُ فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَأَى إِلَى إِلَهِهِمْ فَقَالَ لَا تَأْكُلُونَ ﴾

مَا لَكُمْ لَا تَنْتَقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ * قَالَ أَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٠﴾

إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم فانه كان قد أزف خروجهم إلى عيدهم فأحب أن يختلي بآلهم ليكسرهما فقال لهم كلاما هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه (فتولوا عنه مدبرين) قال قتادة والعرب تقول لمن تفكر نظرت في النجوم، يعني قتادة أنه نظر إلى السماء متفكرا فيما يليهم به فقال (إني سقيم) أي ضعيف، فأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا حدثنا أبو كريب حدثنا أبو أسامة حدثني هشام عن محمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ليكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله تعالى، وقوله (إني سقيم) وقوله (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله في سارة هي أختي» فهو حديث مخرج في الصحيح والسنان من طرق ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله حاشا وكلاهما، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث «إن في المعارض لمدوحة عن الكذب» وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن علي بن زيد بن جسدان عن أبي نضرة عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم عليه الصلاة والسلام الثلاث التي قال ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله تعالى (فقال إني سقيم) وقال (بل فعله كبيرهم هذا) وقال للملك حين أراد امرأته هي أختي. قال سفيان في قوله (إني سقيم) يعني طعين وكانوا يفرون من المطعون فأراد أن يخلو بآلهم، وكذا قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم) فقالوا له وهو في بيت آلهتهم: أخرج فقال إني مطعون فتركوه مخافة الطاعون. وقال قتادة عن سعيد بن المسيب رأى نجما طلوع فقال (إني سقيم) كابدني الله عن دينه (فقال إني سقيم). وقال آخرون (فقال إني سقيم) بالنسبة إلى ما يستقبل يعني مرض الموت، وقيل أراد (إني سقيم) أي مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله تعالى، وقال الحسن البصري: خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال (إني سقيم) وجعل ينظر في السماء فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها، رواه ابن أبي حاتم، ولهذا قال تعالى (فتولوا عنه مدبرين) أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء (فقال ألا تأكلون؟) وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبرك لهم فيه. قال السدي: دخل إبراهيم عليه السلام إلى بيت الآلهة فإذا هم في بهو عظيم وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو وإذا هم قد جعلوا طعاما ووضعوه بين أيدي الآلهة وقالوا إذا كان حين نرجع وقد بركت الآلهة في طعامنا أكلناه، فلما نظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى ما بين أيديهم من الطعام قال (ألا تأكلون؟) مالم لا تنتقون) وقوله تعالى (فراغ عليهم ضربا باليمين) قال الفراء معناه مال عليهم ضربا باليمين. وقال قتادة والجوهري فأقبل عليهم ضربا باليمين. وإنما ضربهم باليمين لأنها أشد وأنكى ولهذا تركهم جذازا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تفسير ذلك وقوله تعالى ههنا (فأقبلوا إليه يزفون) قال مجاهد وغير واحد أي يسرعون، وهذه القصة ههنا مختصرة وفي سورة الأنبياء مبسطة فانهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستملوا فعرفوا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي فعل ذلك، فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبتهم فقال (أعبدون ما تنحتون) أي أعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتعملونها بأيديكم (والله خلقكم وما تعملون) يحتمل أن تكون ما مصدرية فيكون تقدير الكلام خلقكم وعملكم، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي تقديره والله خلقكم والذي تعملونه وكلا القولين متلازم، والأول أظهر لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد عن علي بن الدين عن مروان بن معاوية عن أبي مالك عن ربي بن حراش عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعا قال «إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعه»

وقرأ بعضهم (والله خلقكم وما تعملون) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقدم فقالوا (ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم) وكان من أمرهم ما تقدم بيانه في سورة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ونجاه الله من النار وأظهره عليهم وأعلى حجته ونصرها ولهذا قال تعالى (وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين)

(وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي أَرَىٰ فِي النَّامِ أَنْزِلُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَاقَبْتُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ مُسْتَجِدُّنِي * إِنَّ شَاءَ اللَّهِ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَتَمَّ وَلَهُ لَجَبِينَ * وَنَذَيْنَاهُ أَنْ يَأْبِرَ إِبْرَاهِيمَ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ النَّبِيُّ * وَقَدْ يَنْبَغُ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ)

يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنه بعد ما نصره الله تعالى على قومه وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم وقال (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ) يعني أولادا مطيعين يكونون عوضا من قومه وعشيرته الذين فارقهم ، قال الله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين وأهل الكتاب بل في نص كتابهم أن إسماعيل عليه السلام ولد لإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيد وفي نسخة أخرى بكره فأثحموا ههنا كذبا وبهتاننا إسحاق ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم وإنما أثحموا إسحاق لأنه أبوم وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك بمعنى الذي ليس عندك غيره فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة وهو تأويل وتحريف باطل فإنه لا يقال وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضا فإن أول ولد له معزة مالم يس لمن بعده من الأولاد فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار . وقد ذهب جماعة من أهل العلم إلى أن الديسح هو إسحاق وحكى ذلك عن طائف من السلف حتى نقل عن بعض الصحابة رضى الله عنهم أيضا وليس ذلك في كتاب ولا سنة وما أظن ذلك تلقى إلا عن أحبار أهل الكتاب وأخذ ذلك مسلما من غير حجة وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل فإنه ذكر البشارة بغلام حليم وذكر أنه الديسح ثم قال بعد ذلك (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) ولما بشرت لللائكة إبراهيم بإسحاق قالوا (إنا نبشرك بغلام عليم) . وقال تعالى (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) أى يولده في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير لأن الله تعالى قد وعدنا بأنه سيعقب ويكون له نسل فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا وإسماعيل وصف ههنا بالحليم لأنه مناسب لهذا المقام . وقوله تعالى (فلما بلغ معه السعى) أى كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه وقد كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده بلاد فاران وينظر في أمرهما وقد ذكر أنه كان يركب على البراق سريعا إلى هناك والله أعلم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراساني وزيد بن أسلم وغيرهم (فلما بلغ معه السعى) بمعنى شب وارتحل وأطلق ما يفعله أبوه من السعى والعمل (فلما بلغ معه السعى) قال يابن إلى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى (قال عبيد بن حمير رؤيا الأنبياء وحى ثم تلا هذه الآية (قال يابن إلى أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) . وقد

قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا أبو عبد الملك الكرندى حدثنا سفيان بن عيينة عن إسرائيل بن يونس عن سمالك عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رؤيا الأنبياء في المنام وحى » ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه وإنما أعلم ابنه بذلك ليكون أهون عليه وليختبر صبره وجلده وعزمه في صغره على طاعة الله تعالى وطاعة أبيه (قال يا أبت أفعلم ما تؤمر) أى امض لما أمرك الله من ذبحى (ستجدنى إن شاء الله من الصابرين) أى سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد . ولهذا قال الله تعالى (واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) . قال تعالى (فلما أسلما وتلاه للجبين) أى فلما شهدا وذكر الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت وقيل أسلمائى استسما واتقادا ، إبراهيم أمثل أمر الله تعالى وإسماعيل طاعة لله ولأبيه قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن إسحاق وغيرهم ، ومعنى تلاه للجبين أى صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة (وتلاه للجبين) أى كبه على وجهه . وقال الإمام أحمد حدثنا شريح ويونس قالا حدثنا حماد بن سلمة عن أبي عاصم الثنوى عن أبي الطفيل عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال لما أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعى فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ثم تلاه للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض فقال له يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفنى فيه غيره فاخلعه حتى تكفنى فيه فاخله ليخله فنودى من خلفه (أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) فالتفت إبراهيم فإذا بكشى أبيض أقرن أعين قال ابن عباس لقد رأيتنا أن نتبع ذلك الضرب من الكباش ، وذكر هشام الحديث فى المناسك بطوله . ثم رواه أحمد بطوله عن يونس عن حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فذكره إلا أنه قال إسحاق فعن ابن عباس رضى الله عنهما فى تسمية الذبيح روايتان والأظهر عنه إسماعيل لما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار عن قتادة عن جعفر بن إياس عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تبارك وتعالى (وفديناه بذبح عظيم) قال خرج عليه كبش من الجنة قدرعى قبل ذلك أربعين خريفاً فأرسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ابنه واتبع الكبش فأخرجه إلى الجمرة الأولى فرماه بسبع حصيات ثم أفلته عندها فجاء إلى الجمرة الوسطى فأخرجه عندها فرماه بسبع حصيات ثم أفلته فأدركه عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات فأخرجه عندها ثم أخذه فأتى به للنحر من مئذنة فذبحه فوالذى نفس ابن عباس بيده لقد كان أول الإسلام وإن رأس الكبش لمعلق بقرنيه فى ميزاب الكعبة حتى وحش يعنى يبس . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري أخبرنا القاسم قال اجتمع أبو هريرة وكعب فجعل أبو هريرة رضى الله عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم وحمل كعب يحدث عن الكتب فقال أبو هريرة رضى الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن لكل نبي دعوة مستجابة وإنى قد خبات دعوتى شفاعاً لأمتى يوم القيامة » فقال له كعب أنت مممت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم قال فذاك أبى وأمى - أوفداه أبى وأمى - أفلا أخبرك عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ؟ إنما أرى ذبح ابنه إسحاق قال الشيطان إن لم أقتن هؤلاء عند هذه لم أقتنهم أبداً فخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام بابنه ليذبحه فذهب الشيطان فدخل على سارة فقال أين ذهب إبراهيم بابنك ؟ قالت غدا به لبعض حاجته قال فإنه لم يقد به حاجة إنما ذهب به ليذبحه قالت ولم يذبحه ؟ قال زعم أن ربه أمره بذلك قالت فقد أحسن أن يطيع ربه فذهب الشيطان فى أثرهما فقال للغلام أين يذهب بك أبوك ، قال لبعض حاجته قال فإنه لا يذهب بك الحاجة ولكنه يذهب بك ليذبحك قال ولم يذبحنى ؟ قال يزعم أن ربه أمره بذلك قال فوالله لئن كان الله تعالى أمره بذلك ليفعلن قال فيئس منه فتركه ولحق إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال أين غدوت بابنك ، قال لحاجة قال فانك لم تغد به حاجة وإنما غدوت به لتذبحه قال

ولم أذبحه ؟ قال تزعم أن ربك أمرك بذلك قال فوالله لئن كان الله تعالى أمرني بذلك لأفعلن قال فتركه ويش أن يطاع
وقد رواه ابن جرير عن بونس عن ابن وهب عن بونس بن يزيد عن ابن شهاب قال إن عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن
جارية الثقفي أخبره أن كعباً قال لأبي هريرة فذكره بطوله وقال في آخره وأوحى الله تعالى إلى إسحاق أني أعطيتك
دعوة أستجيب لك فيها قال إسحاق اللهم إني أدعوك أن تستجيب لي أيما عبد لقيك من الأولين والآخرين لا يشرك
بك شيئاً فأدخله الجنة . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا
عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم « إن الله تبارك وتعالى خيرني بين أن يغفر لنصف أمي وبين أن يجيب شفاعتي فاخترت شفاعتي ورجوت أن تسفر
ألجم لأمتي ولولا الذي سبقني إليه العبد الصالح لتعجلت فيها دهوتي إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق كرب الذبيح
قيل له يا إسحاق سل تعط فقال أما والذي نفسي بيده لأتعجلنها قبل نزغات الشيطان اللهم من مات لا يشرك بك شيئاً
فاغفر له وأدخله الجنة » هذا حديث غريب منكر وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف الحديث وأخشى أن يكون
في الحديث زيادة مدرجة وهي قوله إن الله تعالى لما فرج عن إسحاق إلى آخره والله أعلم فهذا إن كان محفوظاً
فالأشبه أن السياق إنما هو عن إسماعيل وإنما حرقوه بإسحاق حسداً منهم كما تقدم وإلا فالمناسك والذبايح إنما
عملها بمنى من أرض مكة حيث كان إسماعيل لا إسحاق فإنه إنما كان يبلد كنعان من أرض الشام . وقوله تعالى
(وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح وذكر السدي
وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً بل حال بينها وبينه صفحة من نحاس ونودي إبراهيم عليه الصلاة والسلام
عند ذلك (قد صدقت الرؤيا) . وقوله تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين) أي هكذا نعترف عمن أطاعنا المكاره
والشدائد ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً كما قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث
لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) وقد استدلل بهذه الآية
والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافاً لطائفة من المعتزلة والدلالة من هذه
ظاهرة لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ذبح ولده ثم نسخ عنه وصرفه إلى الفداء وإنما كان
المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ولهذا قال تعالى (إن هذا هو البلاء
البين) أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى متقاداً لطاعته
ولهذا قال تعالى (وإبراهيم الذي وفى) . وقوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي
عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه (وفديناه بذبح عظيم) قال بكبش أيضاً أعين أقرن قدربط بسمرة قال أبو الطفيل
وجدوه مربوطاً بسمرة في ثبير ، وقال الثوري أيضاً عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس
رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفاً . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب
الصفار حدثنا داود الطمار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل
ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثناء فذبحه وهو الكبش الذي قرب
ابن آدم فتقبل منه فكان مخزوناً حتى فدى به إسحاق ، وروى أيضاً عن سعيد بن جبيرة أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة
حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر ، وعن الحسن البصري أنه كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير
وقال ابن جرير قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام ، وقال مجاهد ذبحه بمنى عند النحر . وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن
ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل . ثم قال بعد ذلك لو كنت
أنتيته بكبش لأجزأه أن يذبح كبشاً فإن الله تعالى قال في كتابه (وفديناه بذبح عظيم) والصحيح الذي عليه الأكثر
أنه يفدى بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى (وفديناه بذبح عظيم) قال وعمل وقال محمد بن إسحاق
عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدى إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الامام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله ﷺ « إني كنت رأيت قرني الكعبش حين دخلت البيت فنسيت أن أمرك أن تغمرهما فغمرهما فانه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الصلي » قال سفيان لم يزل قرنا الكعبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فان قرشا توارثوا قرني الكعبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم والله أعلم

(فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن المسيح من هو

ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام) قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغيب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب بنى الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله ، وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يارب يقولون بآله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال « إن إبراهيم لم يعدل في شيء قط إلا اختارني عليه ، وإن إسحاق جاد لي بالذبيح وهو خير ذلك أجود ، وإن يعقوب كلما زدت به بلاء زادني حسن ظن » . وقال شعبه عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال اقتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام ، فقال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله . وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه ، وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق ، وعن أبيه العباس وعلى ابن أبي طالب مثل ذلك ، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبيرة ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبيد الله بن شقيق والزهرى والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حنيفة والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير ، وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق ، وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهرى عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فانه لما أسلم في الدولة العميرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فرجما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده وتقولوا ما عنده عنه غشا وسميتها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بانه إسحاق عن عمر وعلى وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبيرة وقتادة وسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهرى والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت قلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده . قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأنخف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث ذكره قال هو إسحاق ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكرو الحديث . وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ، ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأنخف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم

(ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به) قد تقدمت

الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبيرة وطامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال القديس إسماعيل

عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود ، وقال إسرائيل عن ثولا عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال
 الديبع إسمايل وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد هو إسمايل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسمايل
 عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكيش في الكعبة . وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمر بن عبيد عن
 الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسمايل عليه السلام قال ابن إسحاق وصمت
 محمد بن كعب القرظي وهو يقول ان الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسمايل وانا لنجد ذلك في كتاب الله
 تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى (وبشرناه بإسحاق
 نبيا من الصالحين) ويقول الله تعالى (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) يقول ابن وابن فلم يكن
 ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه الا إسمايل قال ابن إسحاق سمعت يقول ذلك
 كثيرا ، وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسدي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن
 عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة اذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا شيء ما كنت أنظر فيه واني لأراه كما
 قلت ثم أرسل الى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن اسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن
 عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند محمد بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه
 فقال إسمايل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على ان يكون أباكم الذي كان
 من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يحدون ذلك ويؤمنون أنه إسحاق لأن إسحاق
 أبوم والله أعلم أيها كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل رحمه الله
 سألت أبي عن الديبع هل هو إسمايل أو إسحاق فقال إسمايل ذكره في كتاب الزهد . وقال ابن أبي حاتم وصمت أبي
 يقول الصحيح أن الديبع إسمايل عليه الصلاة والسلام قال وروى عن علي وابن عمرو وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد
 ابن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح
 رضي الله عنهم أنهم قالوا الديبع إسمايل . وقال البغوي في تفسيره واليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب
 والسدي والحسن البصري ومجاهد والريعي بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والسكبي وهو رواية عن ابن عباس
 وحكام أيضا عن أبي عمرو بن العلاء . وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار
 الرازي حدثنا إسمايل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتيبي من
 ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الديبع
 إسمايل أو إسحاق فقال علي الحخير سقطتم كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي
 بما أفاء الله عليك يا ابن الديبعين فضحك رسول الله ﷺ فقل له يا أمير المؤمنين وما الذي يحان ؟ فقال إن
 عبد المطلب لما أمر بجفر زمزم نذرته إن سهل الله له أمرها عليه ليدبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنه
 أخواله وقالوا اقد ابنك بمائة من الابل ففداه بمائة من الابل والثاني إسمايل . وهذا حديث غريب جدا وقد رواه
 الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسمايل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرظي
 حدثنا عبيد الله بن محمد العتيبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية
 رضي الله عنه فتذاكر القوم إسمايل أو إسحاق وذكره ، كذا كتبت من نسخة مغلوطة وإنما عول ابن جرير في اختياره
 أن الديبع إسحاق على قوله تعالى (فبشرناه بإسحاق) فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى (وبشره
 بإسحاق) وأجاب عن البشارة يعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ، ومن الممكن أنه قد كان ولده أولاد
 مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنها قلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم أن
 من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك ، هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد
 جدا والذي استدلل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسمايل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم وقوله تعالى (وبشرناه

بإسحق نبياً من الصالحين) لما تقدمت البشارة بالديع وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر، وقوله تعالى (نبيا) حال مقدرة أى سيصير منه نبيا صالح . وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن عليه عن داود عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما الديع إسحق قال وقوله تعالى (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) قال بشر بنبوتة قال وقوله تعالى (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) قال كان هارون أكبر من موسى ولكن أرادوه بلبثه نبوته . وحدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا العثم بن سليمان قال سمعت داود يحدث عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما في هذه الآية (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) قال إنما بشر به نبياً من الصالحين قال إنما بشر به نبياً حين فداء الله عز وجل من الذبح ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان الثوري عن داود عن عكرمة عن ابن عباس (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) قال بشر به حين ولد وحين نبي . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى (وبشرناه بإسحق نبياً من الصالحين) قال بعد ما كان من أمره لما جاد الله تعالى بنفسه وقال الله عز وجل (وباركنا عليه وعلينا إسحاق) وقوله تعالى (وباركنا عليه وعلينا إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) كقوله تعالى (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

﴿ وَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * وَنَجَّيْنَاهُمَا مِنْ الْكُرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه وما كان يعتمد في حقهم من الاساءة العظيمة من قتل الأبناء واستحياء النساء واستعمالهم في أخس الأشياء ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقر أعينهم منهم فقلوبهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جموعه طول حياتهم ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين وهو التوراة كما قال تعالى (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء) وقال عز وجل ههنا (وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم) أى في الأقوال والأفعال (وتركنا عليهما في الآخرين) أى أبقينا لهما من بعدهما ذكرا جميلا وثناء حسنا ثم فسره بقوله تعالى (سلام على موسى وهارون) كذا نجزى المحسنين إنيهما من عبادنا المؤمنين

﴿ وَإِنَّا لَنَاسِ لِمَنِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ * اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُخْضَرُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال قتادة ومحمد بن إسحق يقال الياس هو إدريس ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عبيدة بن ربيعة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : الياس هو إدريس ، وكذا قال الضحاك وقال وهب بن منبه هو الياس بن نسي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران بعثه الله تعالى في بني إسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام وكانوا قد عبدوا صنما يقال له بعل فدعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة ما سواه ، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم أحد فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين ثم سألوهم أن يكشف ذلك عنهم ووعده الإيمان به إن هم أصابهم الطمر ، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث فاستمروا

على أخت ما كانوا عليه من الكفر فسأل الله أن يقبضه إليه ، وكان قد نشأ على يديه اليسع بن أخطوب عليهما الصلاة والسلام فأمر الياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا فلهما جاءه فليركبه ولا يهبه فجاءته فرس من نار فركب وألبسه الله تعالى النور وكساه الريش ، وكان يطير مع الملائكة ملكا إنسيا سماويا أرضيا هكذا حكاه وهب بن منبه عن أهل الكتاب والله أعلم بصحته (إذا قال لقومه ألا تتقون) أى ألا تخافون الله عز وجل في عبادتكم غيره (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين) قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وقتادة والسدى بعلا يعنى ربا . قال عكرمة وقتادة وهى لغة أهل اليمن ، وفى رواية عن قتادة قال : وهى لغة أزد شنوءة . وقال ابن إسحق أخبرنى بعض أهل العلم أنهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعلا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه هو اسم صنم كان يعبدوه أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق ، وقال الضحاك هو صنم كانوا يعبدونه . وقوله تعالى (أتدعون بعلا ؟) أى تعبدون صنما (وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين) أى هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال الله تعالى (فكذبوه فانهم لمحضرون) أى للعباد يوم الحساب (إلا عباد الله المحضين) أى الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع من مثبت . وقوله تعالى (وتركنا عليه فى الآخرين) أى ثناء جميلا (سلام على إلياسين) كما يقال فى إسماعيل وإسماعيلين وهى لغة بنى أسد ، وأنشد بعض بنى تميم فى ضب صاده

يقول رب السوق لما جينا * هذا ورب البيت اسرائينا

ويقال ميكال وميكائيل وميكائيل وإبراهيم وإبراهيم وإسرائيل وإسرائيل وطور سيناء وطور سينين وهو موضع واحد وكل هذا سائق وقرأ آخرون (سلام على إدراسين) وهى قراءة ابن مسعود رضى الله عنه ، وآخرون (سلام على آل ياسين) يعنى آل محمد ﷺ ، وقوله تعالى (إنا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين) قد تقدم تفسيره والله أعلم

﴿ وَإِنْ لَوْطَا لَيْنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * لَا عَجُوزًا فِي الْغَيْرِينَ * ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّا لَمَكْرُومٌ عَلَيْهِمْ مُصْطَبِحِينَ * وَبِالْأَيْلِ أَفْلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فانها هلكت مع من هلك من قومها فان الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات وجعل محلهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح وجعلها بسيل مقيم يمر بها المسافرين ليلا ونهارا ولهذا قال تعالى (وإنكم لتكرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون) أى أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها .

﴿ وَإِنْ يُونُسَ لَيْنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْفُكُّ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَتَأَمَّنُوا قَمِطَتْنَهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾

قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام فى سورة الأنبياء ، وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه وفى رواية إلى أبيه . وقوله تعالى (إذ أبق إلى الفلك المشحون) قال ابن عباس رضى الله عنهما هو الموقر أى المملوء بالأمعة (فساهم) أى قارع (فكان من المدحضين) أى المقلولين ، وذلك أن السفينة تلعب بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الفرق فساهموا على من تفع عليه القرعة يلقى فى البحر لتخف بهم السفينة فوقت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاث

مرات وهم يظنون به أن يلقي من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام فلا يشتم له لهما ولا يكسر له عظما فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حي ققام فصلى في بطن الحوت وكان من جملة دعائه يارب اتخذت لك مسجدا في موضع لم يبلغه أحد من الناس ، واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل ثلاثة أيام قاله قتادة ، وقيل سبعة قاله جعفر الصادق رضي الله عنه ، وقيل أربعين يوما قاله أبو مالك ، وقال مجاهد عن الشعبي : التقمه ضحى ولفظه عشية ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك ، وفي شعر أمية بن أبي الصلت

وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد بات في أضفاف حوت لياليا

وقوله تعالى (فلو لا أنه كان من المسبحين * لبث في بطنه إلى يوم يبعثون) قيل لولا ما تقدم له من العمل في الرخاء قاله الضحاك بن قيس وأبو العالية ووهب بن منبه وقاتدة وغير واحد ، واختاره ابن جرير ، وقد ورد في الحديث الذي سنورده إن شاء الله تعالى ما يدل على ذلك إن صح الخبر ، وفي حديث عن ابن عباس « تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » . وقال ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبيرة والضحاك وعطاء بن السائب والسدي والحسن وقاتدة (فلو لا أنه كان من المسبحين) يعني المصلين ، وصرح بعضهم بأنه كان من المصلين قبل ذلك ، وقال بعضهم كان من المسبحين في جوف أبيه ، وقيل المراد (فلو لا أنه كان من المسبحين) هو قوله عز وجل (فننادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك تنجي المؤمنين) قاله سعيد بن جبيرة وغيره . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبيد الله بن أخي بن وهب حدثنا عمي حدثنا أبو صخر أن يزيد الرقاشي حدثه أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه - ولا أعلم أنسا إلا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ « ان يونس النبي عليه الصلاة والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش ، قالت الملائكة يارب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة فقال الله تعالى أمه تعرفون ذلك ؟ قالوا يارب ومن هو ؟ قال عز وجل عبدي يونس قالوا عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ، قالوا يارب أولا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه في البلاء ، قال بلى فأمر الحوت فطرحه بالعراء » ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به ، زاد ابن أبي حاتم قال أبو صخر حميد بن زياد فأخبرني ابن قسيط وأنا أحدثه هذا الحديث أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : طرح بالعراء وأثبت الله عز وجل عليه اليقطينة قلنا يا أبا هريرة وما اليقطينة ، قال شجرة الدباء . قال أبو هريرة رضي الله عنه : وهيا الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض - أو قال هشاش الأرض - قال فتفشع عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت وقال أمية بن أبي الصلت في ذلك بيتا من شعره وهو :

فأنبت يقطيناً عليه برحمة من الله لولا الله ألقى ضاحيا

وقد تقدم حديث أبي هريرة رضي الله عنه مسندا مرفوعا في تفسير سورة الأنبياء ، ولهذا قال تعالى (فنبدناه) أي ألقيناه (بالعراء) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره وهي الأرض التي ليس بها نبت ولا بناء قيل على جانب دجلة وقيل بأرض اليمن فأنزل الله (وهو سقيم) أي ضعيف البدن ، قال ابن مسعود رضي الله عنه كهية القرع ليس عليه ريش ، وقال السدي كهية الصبي حين يولد وهو النفوس وقاله ابن عباس رضي الله عنهما وابن زيد أيضا (وأنبتنا عليه شجرة من يقطين) قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة ووهب بن منبه وهلال بن يساف وعبد الله بن طاوس والسدي وقاتدة والضحاك وعطاء الخراساني وغير واحد قالوا كلهم اليقطين هو القرع . وقال هشيم عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبيرة وكل شجرة لاساق لها فهي من اليقطين وفي رواية عنه كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين ، وذكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته وتقليل ورقه لكبره

ونعمته وأنه لا يقرها الدباب وجودة تغذية ثمرة ، وأنه يؤكل نيثا ومطبوخا بلبه وقشره أيضا وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحب الدباء ويتبعه من حواشي الصفحة . وقوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) روى شهر بن حوشب عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال إنما كانت رسالة يونس عليه الصلاة والسلام بعد ما نبذته الحوت ، رواه ابن جرير حدثني الحارث حدثنا أبو هلال عن شهر به ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد أرسل اليهم قبل أن يلتقمه الحوت (قلت) ولا مانع أن يكون الدين أرسل اليهم أولا أمر بالعود اليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به ، وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون وقوله تعالى (أو يزيدون) قال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية عنه : بل يزيدون وكانوا مائة وثلاثين ألفا وعنه مائة ألف وبضعة وثلاثين ألفا وعنه مائة ألف وبضعة وأربعين ألفا والله أعلم وقال سعيد بن جبير يزيدون سبعين ألفا وقال مكحول كانوا مائة ألف وعشرة آلاف رواه ابن أبي حاتم وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الرحيم البرقي حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال سمعت زهيريا يحدث عمن مع أبا العالية يقول حدثني أبي بن كعب رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) قال يزيدون عشرين ألفا ورواه الترمذي عن علي بن حجر عن الوليد بن مسلم عن زهير عن رجل عن أبي العالية عن أبي بن كعب به وقال غريب . ورواه ابن أبي حاتم من حديث زهير به . قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية من أهل البصرة يقول في ذلك معناه إلى المائة الألف أو كانوا يزيدون عندهم يقول كذلك كانوا عندهم ، ولهذا سلك ابن جرير ههنا ماسلكه عند قوله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) وقوله تعالى (إذا فريق منهم يمشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) وقوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) للراد ليس أقص من ذلك بل أزيد وقوله تعالى (فآمنوا) أى فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل اليهم يونس عليه السلام جميعهم (فمتنعاهم إلى حين) أى إلى وقت آجالهم كقوله جلّت عظمتهم (فلولا كانت قرية آمنت فنقمها لآيمانها لإقوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا ومتنعاهم إلى حين)

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهَرِهِمْ لَقِيلُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ * فَآتُوا بِكُتُبِكُمْ * إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ)

يقول تعالى منكر على هؤلاء الشركيين في جعلهم لله تعالى البنات سبحانه ولهم ما يشتهون أى من الذكور أى يودون لأنفسهم الجيد (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم) أى يسوؤه ذلك ولا يختار لنفسه إلا البنين ، يقول عز وجل فكيف نسبوا إلى الله تعالى القسم الذى لا يختارونه لأنفسهم ولهذا قال تعالى (فاستفتهم) أى سلهم على سبيل الإنكار عليهم (ألبك البنات ولهم البنون) كقوله عز وجل (ألكم الذكر وله الأنثى ، * تلك إذا قسمة ضيرى) . وقوله تبارك وتعالى (أم خلقنا للملائكة إناثا وهم شاهدون) أى كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم كقوله جل وعلا (وجعلوا للملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون) أى يسألون عن ذلك يوم القيامة . وقوله جلّت عظمتهم (ألا إنهم من إفكهم) أى من كذبهم (ليقولون ولله) أى صدر منه الولد (وإنهم لكاذبون) فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب ، فأولا جعلهم بنات الله فجعلوا لله ولدا تعالى وتقدس ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ثم عبدوا من دون الله تعالى وتقدس وكل منها كاف

في التخليد في نار جهنم . ثم قال تعالى منكرا عليهم (أصطفى البنات على البنين) أى أى شيء يحمله عن أن يختار البنات دون البنين كقوله عز وجل (أفأمنواكم ربكم بالبنين واتخذ من اللائكة إناثا ؟ إنكم لتقولون قولا عظما) ولهذا قال تبارك وتعالى (مالكم كيف تحكمون) أى مالكم عقول تدبرون بها ما تقولون (أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين) أى حجة على ما تقولونه ، (فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين) أى هاتوا برهانا على ذلك يكون مستندا إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل بل لا يجوز العقل بالكلية . وقوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) قال مجاهد : قال المشركون لللائكة بنات الله تعالى فقال أبو بكر رضى الله عنه فمن أمهاتهن ، قالوا بنات سروات الجن وكذا قال قتادة وابن زيد ولهذا قال تبارك وتعالى (ولقد علمت الجنة) أى الدين نسبوا إليهم ذلك (إنهم لمحضرون) أى إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك واقتراهم وقولهم الباطل بلا علم ، وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا) قال زعم أعداء الله أنه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، حكاه ابن جرير وقوله جلّت عظمته (سبحانه الله عما يصفون) أى تعالى وتقدس وتزه عن أن يكون له ولد وعما يصفه به الظالمون الملحدون علوا كبيرا . وقوله تعالى (إلا عباد الله المخلصين) استثناء منقطع وهو من مثبت إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى (عما يصفون) عائد إلى الناس جميعهم ثم استثنى منهم المخلصين وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل ، وجعل ابن جرير هذا الاستثناء من قوله تعالى (إنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين) وفي هذا الذى قاله نظر والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ * وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ * وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * فَكْفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا للمشركين (فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم) أى إنما يتقاد لمقاتلكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرى النار (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها . ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) فهذا الضرب من الناس هو الذى يتقاد لدين الشرك والكفر والضلالة كما قال تبارك وتعالى (إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك) أى إنما يضل به من هو مأفوك ومبطل ، ثم قال تبارك وتعالى منزها لللائكة عما نسبوا إليهم من الكفر بهم والكذب عليهم أنهم بنات الله (وما منا إلا له مقام معلوم) أى له موضع مخصوص في السموات ومقامات العبادات لا يتجاوزها ولا يتعداه وقال ابن عساكر في ترجمته لمحمد بن خالد بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه وكان ممن بايع يوم الفتح أن رسول الله ﷺ قال يوما جلسائه « أطلت السماء وحق لها أن تثط ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكم أو ساجد » ثم قرأ ﷺ (وما منا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافون * وإنا لنحن المسبحون) وقال الضحاك في تفسيره (وما منا إلا له مقام معلوم) قال كان مسروق يروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم » فذلك قوله تعالى (وما منا إلا له مقام معلوم) .

وقال الأعمش عن أنى إسحق عن مسروق عن ابن عباس رضى الله عنه قال : إن في السموات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك أو قدماء ثم قرأ عبد الله رضى الله عنه (وما منا إلا له مقام معلوم) وكذا قال سعيد بن جبير وقال قتادة كانوا يصلون الرجال والنساء جميعا حتى نزلت (وما منا إلا له مقام معلوم) فتقدم الرجال وتأخر النساء

(وإننا لنحن الصافون) أى تقف صفوفاً فى الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى (والصافات صفاً) قال ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال كانوا لا يصفون فى الصلاة حتى نزلت (وإننا لنحن الصافون) فصفوا وقال أبو نضرة كان عمر رضى الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قالوا أقيموا صفوفكم استووا قياماً يريد الله تعالى بكم هدى لللائكة ثم يقول (وإننا لنحن الصافون) تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم يتقدم فيكبر . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وفى صحيح مسلم عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا على الناس ثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف اللائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربنا طهوراً » الحديث (وإننا لنحن السبحون) أى نصطف فنسبح الرب ونمجده وتقده وتزهه عن النقائص فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه . وقال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد (وما منا إلا له مقام معلوم) لللائكة (وإننا لنحن الصافون) لللائكة (وإننا لنحن السبحون) لللائكة نسبح الله عز وجل . وقال قتادة (وإننا لنحن السبحون) يعنى الصافون يثبتون بمكانهم من العبادة كما قال تبارك وتعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون) لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم فى آله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين) . وقوله جل وعلا (وان كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكننا عباد الله المخلصين) أى قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكركهم بأمر الله وما كان من أمر القرون الأولى ويأتهم بكتاب الله كما قال جل جلاله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا) وقال تعالى (أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون) ولهذا قال تعالى هاهنا (فكفروا به فسوف يعلمون) وعيد أكيد وتهديد شديد على كفرهم بربهم عز وجل وتكذيبهم رسول الله ﷺ

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين) أى تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسول وأتباعهم فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) وقال عز وجل (إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ولهذا قال جل جلاله (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون) أى فى الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم من كذبيهم وخالفهم كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين (وإن جندنا لهم الغالبون) أى تكون لهم العاقبة . وقوله جل وعلا (فتول عنهم حتى حين) أى اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر ، ولهذا قال بعضهم غيا ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضاً فى معناها ، وقوله جلت عظمتها (وأبصرهم فسوف يبصرون) أى انظرهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد (فسوف يبصرون) ثم قال عز وجل (أفبعذابنا يستعجلون) أى هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويجعل لهم العقوبة ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة . قال الله تبارك وتعالى (فإذا نزل بساحتهم فسَاء صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ) أى فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم

باهلاكهم ودمارهم ، وقال السدي (فإذا نزل بساحتهم) يعني بدارهم (فساء صباح النذرين) أى قبس ما يصحون أى بش الصباح صباحهم . ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث إسماعيل بن علية عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس رضى الله عنه قال : صبح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيم وراوا الجيش رجعوا وهم يقولون عهد والله عهد والحجيس فقال النبي صلى الله عليه وسلم « الله أكبر خربت خير إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح النذرين » ورواه البخارى من حديث مالك عن حميد عن أنس رضى الله عنه . وقال الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك عن أبي طلحة رضى الله عنه قال : لما صبح رسول الله ﷺ خيراً وقد أخذوا مساحيم وغدوا إلى حروثهم وأرضهم ، فلما رأوا النبي ﷺ نكسوا مدبرين فقال نبي الله ﷺ « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح النذرين » لم يخرجوه من هذه الوجه وهو صحيح على شرط الشيخين . وقوله تعالى (وتول عنهم حتى حين * وأبصر فسوف يبيرون) تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبُّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدها ويرمها عما يقول الظالمون للكاذبون للعتدون تعالى وتنزهه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً ولهذا قال تبارك وتعالى (سبحان ربك رب العزة) أى ذى العزة التى لا ترام (عما يصفون) أى عن قول هؤلاء المعتدين الفترين (وسلام على المرسلين) أى سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه فى ربهم وصحته وحقيقته (والحمد لله رب العالمين) أى له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما فى هذا للوضع وفى مواضع كثيرة من القرآن ولهذا قال تبارك وتعالى (سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) ، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا سلمتم على المرسلين فإنا أنا رسول من المرسلين هكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سعيد عنه كذلك ، وقد أسنده ابن أبي حاتم رحمه الله فقال حدثنا على بن الحسين بن الجعيد حدثنا أبو بكر الأعين ومحمد بن عبد الرحيم صاعقة قال حدثنا حسين بن محمد حدثنا شيان عن قتادة قال حدثنا أنس بن مالك عن أبي طلحة رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا سلمتم على المرسلين » وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا محمد بن أبي بكر حدثنا نوح^(١) حدثنا أبو هارون عن أبي سعيد رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أراد أن يسلم قال « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين » ثم يسلم إسناده ضعيف . وقال ابن أبي حاتم حدثنا غمار بن خالد الواسطي حدثنا شعبة عن يونس ابن أبي إسحاق عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم (سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين) » وروى من وجه آخر متصل موقوف على طى رضى الله عنه قال أبو محمد البغوى فى تفسيره أخبرنا أبو سعيد أحمد بن إبراهيم . الشريحي أخبرنا أبو إسحاق الثعلبي أخبرنى ابن فنجدى حدثنا أحمد بن جعفر بن حمدان حدثنا إبراهيم بن سهلويه حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا وكيع عن ثابت بن أبي صفية عن الأصبغ بن نباتة عن طى رضى الله عنه قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه فى مجلسه سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين . وروى الطبرانى من طريق عبد الله ابن صخر بن أنس عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من قال دبر كل صلاة سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين ثلاث مرات فقد اكتال

(١) فى النسخة المكية : فرج

بالجرب الأوفى من الأجر » وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . وقد أقردت لها جزءا على حدة فلتكتب هاهنا إن شاء الله تعالى . آخر تفسير سورة الصفات والله أعلم

(تفسير سورة ص وهي مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَا تَحِثْ مَنَاصٍ)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ههنا . وقوله تعالى (والقرآن ذى الذكر) أى والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم فى المعاش والمعاد قال الضحاك فى قوله تعالى (ذى الذكر) كقوله تعالى (لقد أنزلنا إليك كتابا فيه ذكر كم) أى تذكيركم وكذا قال قتادة واختاره ابن جرير . وقال ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير وإسماعيل بن أبى خالد وابن عيينة وأبو حصين وأبو صالح والسدى (ذى الذكر) ذى الشرف أى ذى الشأن والمكانة ، ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والاعذار والالذار واختلفوا فى جواب هذا القسم فقال بعضهم هو قوله تعالى (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) وقيل قوله تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) حكاهما ابن جرير وهذا الثانى فيه بعد كبير وضعفه ابن جرير ، وقال قتادة جوابه بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) واختاره ابن جرير ثم حكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه قال جوابه (ص) بمعنى صدق حق (والقرآن ذى الذكر) وقيل جوابه ما تضمنه سياق السورة بكاملها والله أعلم ، وقوله تبارك وتعالى (بل الذين كفروا فى عزة وشقاق) أى إن فى هذا القرآن لذكرى لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم (فى عزة) أى استكبار عنه وحمية (وشقاق) أى ومخالفة له ومماندة ومفارقة ، ثم خوفهم ما أهلك به الأمم المكذبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل وتكذيبهم الكتب المنزلة من السماء ، فقال تعالى (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) أى من أمة مكذبة (فنادوا) أى حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئا كما قال عز وجل (فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون) أى يهربون (لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترقم فىه ومساكنكم لعلكم تسألون) قال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة عن أبى إسحاق عن التميمى قال ؟ سألت ابن عباس رضى الله عنهما عن قول الله تبارك وتعالى (فنادوا ولا تَحِثْ مَنَاصٍ) قال ليس بحين نداء ولا نزول ولا فرار : وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما ليس بحين نداء وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس نادوا النداء حين لا ينفعهم وأنشد * تذكر لى لات حين تذكر * وقال محمد بن كعب فى قوله تعالى (فنادوا ولا تَحِثْ مَنَاصٍ) يقول نادوا بالتوحيد حين تولت الدنيا عنهم ، واستنصوا للتوبة حين تولت الدنيا عنهم ، وقال قتادة لما رأوا العذاب أرادوا التوبة فى غير حين النداء ، وقال مجاهد (فنادوا ولا تَحِثْ مَنَاصٍ) ليس بحين فرار ولا إجابة وقد روى نحو هذا عن عكرمة وسعيد بن جبير وأبى مالك والضحاك وزيد بن أسلم والحسن وقتادة ، وعن مالك عن زيد بن أسلم (ولا تَحِثْ مَنَاصٍ) ولا نداء فى غير حين النداء ، وهذه الكلمة وهى لات هى لا التى للنفي زيدت معها التاء كما تزداد فى ثم فيقولون تمت ورب فيقولون ربت وهى مفصولة والوقف عليها ، ومنهم من حكى عن المصحف الإمام فيأذكره ابن جرير أنها متصلة بحين ولا تحين مناص والمشهور الأول ثم قرأ الجمهور بنصب حين تقديره وليس الحين حين مناص ومنهم من جوز النصب بها وأنشد

تذكر حب لى لات حينا * وأضحى الشيب قد قطع القرينا

ومنهم من جوز الجربها وأنشد

طلبوا صلحا ولا تَوان * فأجبنا أن ليس حين بقاء

وأنشد بعضهم أيضاً
 بخفض الساعة وأهل اللغة يقولون النوص التأخر والبوص التقدم ، ولهذا قال تبارك وتعالى (ولات حين مناص)
 أى ليس الحين حين فرار ولا ذهاب والله سبحانه وتعالى للوقت للصواب

﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ آلَ اللَّهِ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ وَأَنْطَلَقَ الْإِسْلَامُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَى آلِهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِ اللَّهِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴾ أم نزل عليه الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ * أَمْ عَنْدهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ * أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ * جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿

يقول تعالى عبداً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيراً ونذيراً كما قال عز وجل (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) وقال جل وعلا ههنا (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى بشر مثلهم وقال الكافرون (هذا ساحر كذاب * أجعل آل الله إلهاً واحداً) أى أزعج أن للعبود واحد لا إله إلا هو ! أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى وتعجبوا من ترك الشرك بالله فانهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم فلما دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا (أجعل آل الله إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجب * وانطلق اللأ منهم) وهم ساداتهم وقادتهم ورؤسائهم وكبرائهم قائلين (امشوا) أى استمروا على دينكم (واصبروا على آلهتكم) ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد ، وقوله تعالى (إن هذا لشيء يراد) قال ابن جرير إن هذا الذى يدعونا إليه محمد صلى الله عليه وسلم من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه . (ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات) قال السدى إن نابسا من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه فلي نصفنا منه فلي كف عن شتم آل همتنا وندعه وإلهه الذى يعبد فانا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيرنا به العرب يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه فبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب فاستأذن لهم على أبي طالب فقال هؤلاء مشيخة قومك وسراهم يستأذنون عليك قال أدخلهم فلما دخلوا عليه قالوا يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأ نصفنا من ابن أخيك فمره فلي كف عن شتم آل همتنا وندعه وإلهه ، قال فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ابن أخى هؤلاء مشيخة قومك وسراهم وقد سألوكم أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك قال صلى الله عليه وسلم « أدعهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل لعنه الله من بين القوم ما هي وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها قال صلى الله عليه وسلم « تقولون لا إله إلا الله » فنفروا وقالوا سلنا غيرها قال صلى الله عليه وسلم « لوجشمنوني بالشمس حتى تضعوها في يدي ماسألتكم غيرها » فقاموا من عنده غضاباً وقالوا والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك بهذا (وانطلق اللأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد) ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد فلما خرجوا دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم همه إلى قول لا إله إلا الله فأبى وقال بل على دين الأشياخ ونزلت (إنك لا تهدي من أحببت) . وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا أبو كريب وابن وكيع قال حدثنا أبو أسامة

حدثنا الأعمش حدثنا عباد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ويفعل ويفعل ويقول ويقول فلو بعثت إليه فتهبته فبعثت إليه فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل قال فخشى أبو جهل لعنه الله إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرق له عليه فوثب فجلس في ذلك المجلس ولم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً قرب عمه فجلس عند الباب فقال له أبو طالب أي ابن أخى ما بال قومك يشكونك ويزعمون أنك تشتم آلهتهم وتقول وتقول ؟ قال وأكثروا عليه من القول وتكلم رسول الله ﷺ فقال « يا عم إنى أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدى إليهم بها العجم الجزية » ففزعوا لكلمته ولقوله فقال القوم كلمة واحدة نعم وأبيك عشراً فقالوا وماهى ، وقال أبو طالب وأى كلمة هى يا ابن أخى ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله » فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون (أجعل الآلهة إلهاً واحداً ! إن هذا لشيء عجاب) قال ونزلت من هذا الوضع إلى قوله (بل لا يذوقوا عذاب) لفظ أبي كريب وهكذا رواه الإمام أحمد والنسائي من حديث محمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن أبي أسامة عن الأعمش عن عباد غير منسوب به نحوه ، ورواه الترمذى والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً كلهم في تفاسيرهم من حديث سفيان الثوري عن الأعمش عن يحيى بن عمار الكوفي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكر نحوه . وقال الترمذى حسن وقولهم (ماصعبنا بهذا في الملة الآخرة) أى ماصعبنا بهذا الذى يدعوننا إليه محمد من التوحيد في الملة الآخرة . قال مجاهد وقتادة وأبو زيد يعنون دين قريش وقال غيرهم يعنون النصرانية قاله محمد بن كعب والسدى وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما ماصعبنا بهذا في الملة الآخرة يعنى النصرانية قالوا لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى (إن هذا إلا اختلاق) قال مجاهد وقتادة كذب وقال ابن عباس تخرص وقولهم (أنزل عليه الذكر من بيننا) يعنى أنهم يستبعدون تخصيصه بانزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قال في الآية الأخرى (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) قال الله تعالى (أم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات) ولهذا لما قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم في استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم . قال الله تعالى (بل لا يذوقوا عذاب) أى إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى وشقته سيعلمون غيب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . ثم قال تعالى مبيناً أنه لا يتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذى يعطى من يشاء ما يشاء ويمز من يشاء وينزل من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ويعتق على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير . ولهذا قال تعالى منكراً عليهم (أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب) أى العزيز الذى لا يرام جنبه الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد ، وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى (أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً * فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً) وقوله تعالى (قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً) وذلك بعد الحكاية عن الكفار أنهم أنكروا بعثة الرسول البشرى صلى الله عليه وسلم وكما أخبر عز وجل عن قوم صالح عليه السلام حين قالوا (ألقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشمر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشمر) وقوله تعالى (أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرشقوا في الأسباب) أى إن كان لهم ذلك فليصدقوا في الأسباب . قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم يعنى طرق السماء ، وقال الضحاك رحمه الله تعالى فليصدقوا إلى السماء السابعة ثم قال عز وجل (جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب) أى هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكتبون كما كتبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين وهذه الآية كقوله جلّت عظمتهم (أم يقولون

نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر) كان ذلك يوم بدر (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْلِكَ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ * وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْلَاهُمْ مِنْ فَوَاقٍ * وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ * أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنفات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقد تقدمت قصصهم مبسوطه في أماكن متعددة وقوله تعالى (أولئك الأحزاب) أى كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ولهذا قال عز وجل (إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب) فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر . وقوله تعالى (وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فوق) قال مالك عن زيد بن أسلم أى ليس لها مثوية أى ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها أى فقد اقتربت ودنت وأزفت وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله تعالى إسرائيل أن يطولها فلا يبق أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عز وجل . وقوله جل جلاله (قالوا ربنا عجل لنا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) هذا إنكار من الله تعالى على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب فإن القِط هو الكتاب وقيل هو الحظ والنصيب قال ابن عباس رضى الله عنها ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد سألوا تعجيل العذاب ، زاد قتادة كما قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقيل سألوا تعجيل نصيبهم من الجنة إن كانت موجودة ليلقوا ذاك فى الدنيا وإنما خرج هذا منهم مخرج الاستبعاد والتكذيب . وقال ابن جرير سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا وهذا الذى قاله جيد وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبى خالد والله أعلم ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد . قال الله تعالى لرسوله ﷺ أمرا له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر

﴿ وَادَّكُرَ عَبْدُنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ﴾

يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيدى والأيدى القوة فى العلم والعمل . قال ابن عباس رضى الله عنهما والسدى وابن زيد الأيدى القوة ، وقرأ ابن زيد (والسماء بغيرها بأيدى المومنين) وقال مجاهد الأيدى القوة فى الطاعة . وقال قتادة أعطى داود عليه الصلاة والسلام قوة فى العبادة وبقها فى الإسلام ، وقد ذكر لنا أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم ثلث الليل ويصوم نصف الدهر ، وهذا ثابت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً وإذا لاقى وانه كان أواباً » وهو الرجاء إلى الله عز وجل فى جميع أموره وشؤونه . وقوله تعالى (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق) أى أنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار كما قال عز وجل (يا جبال أوبي معي والطير) وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه وترجع بترجيئه إذا مر به الطير وهو سابع فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيى الجبال الشاخات ترجع معه وتسبح تبعاً له . قال ابن

جرير حدثنا أبو كريب حدثنا محمد بن بشر عن مسعر عن عبد الكريم عن موسى بن أبي كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بلغه أن أم هانئ رضي الله عنها ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمان ركعات فقال ابن عباس رضي الله عنهما قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة يقول الله عز وجل (يسبحن بالعشى والإشراق) ثم رواه من حديث سعيد بن أبي عروبة عن أبي التوكل عن أيوب بن صفوان عن مولاة عبد الله بن الحارث ابن نوفل أن ابن عباس رضي الله عنهما كان لا يصل الضحى قال فأدخلته على أم هانئ رضي الله عنها فقلت أخبري هذا ما أخبرتني فقالت : دخل على رسول الله ﷺ يوم الفتح في يتي ثم أمر بماء صب في قصعة ثم أمر بثوب فأخذ يني وبينه فاغتسل ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجالوسهن سواء قريب بعضهن من بعض فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن (يسبحن بالعشى والإشراق) وكنت أقول أين صلاة الإشراق وكان بعد يقول صلاة الإشراق ولهذا قال عز وجل (والطير محشورة) أي محبوسة في الهواء (كل له أواب) أي مطيع يسبح تبعاً له ، قال سعيد بن جبير وقتادة ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد (كل له أواب) أي مطيع ، وقوله تعالى (وشددنا ملكه) أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك ، قال ابن أبي نجيع عن مجاهد كان أشد أهل الدنيا سلطاناً ، وقال السدي كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف ، وقال بعض السلف بلغني أنه كان يحرسه في كل ليلة ثلاثة وثلاثون ألفاً لا تدور عليهم النوبة إلى مثلها من العام القابل ، وقال غيره أربعون ألفاً مشتملون بالسلاح وقد ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم من رواية علباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نفرين من بني إسرائيل استعدى أحدهما على الآخر إلى داود عليه الصلاة والسلام أنه اغتصبه بقرأ فأنكر الآخر ولم يكن للدعي بينة فأرجأ أمرهما فلما كان الليل أمر داود عليه الصلاة والسلام في المنام بقتل المدعي ، فلما كان النهار طلبهما وأمر بقتل المدعي فقال ياني الله علام تقتلني وقد اغتصبني هذا بقري ؟ فقال له إن الله تعالى أمرني بقتلك فأنا قاتلك لأعالة ، فقال والله ياني الله إن الله لم يأمر بك بقتلي لأجل هذا الذي ادعيت عليه وإني لصادق فيما ادعيت ولكني كنت قد اغتلت أباه وقتلته ولم يشعر بذلك أحد فأمر به داود عليه السلام فقتل ، قال ابن عباس رضي الله عنهما فاشتدت هيته في بني إسرائيل وهو الذي يقول الله عز وجل (وشددنا ملكه)

وقوله جل وعلا (وآتيناه الحكمة) قال مجاهد يعني الفهم والعقل والفطنة ، وقال مرة : الحكمة والعدل ، وقال مرة : الصواب ، وقال قتادة كتاب الله واتباع ما فيه ، وقال السدي (الحكمة) النبوة وقوله جل جلاله (وفصل الخطاب) قال شريح القاضي والشعبي : فصل الخطاب الشهود والأيمان وقال قتادة شاهدان على المدعي أو يمين للدعي عليه هو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل أو قال المؤمنون والصالحون وهو قضاء هذا الأمة إلى يوم القيامة ، وكذا قال أبو عبد الرحمن السلمي وقال مجاهد والسدي هو إصابة القضاء وفهم ذلك ، وقال مجاهد أيضاً هو الفصل في الكلام وفي الحكم وهذا يشمل هذا كله وهو المراد واختاره ابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمر بن شبة النخعي حدثنا إبراهيم بن النضر حدثني عبد العزيز بن أبي ثابت عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه عن بلال بن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى رضي الله عنه قال : أول من قال أما بعد : داود عليه السلام وهو فصل الخطاب ، وكذا قال الشعبي فصل الخطاب : أما بعد

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَقِيَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ قَالُوا كُفْلَيْنَاهَا وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى

نِعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۖ فَفَتَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّكَابٍ ﴿١٠٠﴾

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضى الله عنه ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد عليها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضا وقوله تعالى (فنزع منهم) إنما كان ذلك لأنه كان في محرابه وهو أشرف مكان في داره وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أى احتاطا به يسألانه عن هاتهما وقوله عز وجل (وعزى في الخطاب) أى غلبنى يقال عزى إذا قهر وغلب وقوله تعالى (وظن داود أنما فتناه) قال على ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أى اختبرناه . وقوله تعالى (وخر راكعا) أى ساجدا (وأناب) ويحتمل أنه ركع أولا ثم سجد بعد ذلك ، وقد ذكر أنه استمر ساجدا أربعين صباحا (ففترنا له ذلك) أى ما كان منه مما يقال فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين

وقد اختلف الأئمة في سجدة من هل هي من عزائم السجود ؟ على قولين الجديد من مذهب الشافعى رضى الله عنه أنها ليست من عزائم السجود بل هي سجدة شكر ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا إسماعيل هو ابن هلية عن أيوب عن مكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال السجدة في من ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد فيها . ورواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى في تفسيره من حديث أيوب به وقال الترمذى حسن صحيح . وقال النسائى أيضا عند تفسير هذه الآية أخبرنى إبراهيم ابن الحسن هو القاسمى حدثنا حجاج بن محمد عن حماد بن عمار عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ، إن النبى صلى الله عليه وسلم سجد فى من وقال « سجدتها داود عليه الصلاة والسلام توبة ولسجدتها شكرا » فترد بروايته النسائى ورجال إسناده كلهم ثقات . وقد أخبرنى شيخنا الحافظ أبو الحجاج للزى قراة عليه وأنا أجمع ، أخبرنا أبو إسحاق الدرجى أخبرنا زاهر بن أبى طاهر الثقفى حدثنا زاهر بن أبى طاهر الشحامى أخبرنا أبو سعد الكنجدر وذى أخبرنا الحاكم أبو أحمد محمد بن محمد الحافظ أخبرنا أبو العباس السراج حدثنا هارون بن عبد الله حدثنا محمد بن يزيد ابن خنيس عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبى يزيد قال : قال لى ابن جريج بإحسن حدثنى جديك عبيد الله بن أبى يزيد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني رأيت فيها يرى النائم كأنى أسلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وضع بها عني وزرا ، وأقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس رضى الله عنهما فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعتها تقول وهو ساجد كما حكى الرجل عن كلام الشجرة ، رواه الترمذى عن قتبية وابن ماجه عن أبى بكر بن خلاد كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه ، وقال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال البخارى عند تفسيرها أيضا حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا محمد بن عبيد الطنافسى عن العوام قال سألت مجاهدا عن سجدة من فقال : سألت ابن عباس رضى الله عنهما من أين سجدت فقال أو ما تقرأ (ومن ذريته داود وسليمان) (أولئك الذين هدى الله فبهم أقمتهم) فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به فسجدها داود عليه الصلاة والسلام فمدحها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا يزيد بن زريع حدثنا حميد حدثنا بكر هو ابن عبد الله للزى أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه رأى رؤيا أنه يكتب من فلان بلغ إلى الآية التى يسجد

بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجدا قال فقصرها على النبي صلى الله عليه وسلم فلم يزل يسجد بها بعد ، تفرد به أحمد ، وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عياض بن عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود فقال ﷺ « إنما هي توبة نبي ولكني رأيتم تشزنتم » فزول وسجد تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح وقوله تعالى (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله عز وجل بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية فى الجنة لنوبته وعدله التام فى ملكه كما جاء فى الصحيح « القسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهلهم وما ولوا » وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا فضيل عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسا إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر » ورواه الترمذى من حديث فضيل وهو ابن مرزوق الأغبر عن عطية به ، وقال لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه وقال ابن حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر بن سليمان سمعت مالك بن دينار فى قوله تعالى (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) قال يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش ثم يقول يا داود مجدى اليوم بذلك الصوت الحسن الرحيم الذى كنت تمجدينى به فى الدنيا فيقول وكيف وقد سلبتنى ؟ فيقول الله عز وجل إني أردت عليك اليوم قال فيرفع داود عليه الصلاة والسلام بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان

﴿ يَدَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ تُنْزَلُ الْحِسَابِ ﴾

هذه وصية من الله عز وجل لولاء الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق للنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد حدثنا مروان بن جناح حدثني ابراهيم أبو زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له أبحاسب الخليفة فانك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقته فقلت يا أمير المؤمنين أقول : قال قل فى أمان الله ، قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعد فى كتابه فقال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) الآية وقال عكرمة (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا ، وقال السدى لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب وهذا القول أمشى على ظاهر الآية والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

يغير تعالى أنه ما خلق الخلق عبثا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحده ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ولهذا قال تبارك وتعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما بطلا ذلك ظن الذين كفروا) أى الذين لا يرون بشا ولا معادا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط (فويل للذين كفروا من النار) أى ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار

المعدة لهم ، ثم بين تعالى أنه عز وجل من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وهملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض * أم نجعل للمتقين كالفجار) أى لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا الطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر وهذا الارشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء فانا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ونرى الطيع المظلوم يموت بكلمة فلا بد في حكمة الحكيم العليم العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتمين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواصلة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) أى ذوو العقول وهى الألباب جمع لب وهو العقل ، قال الحسن البصرى والله ما تدبره بحفظ حروفه وإشاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل . روى ابن أبي حاتم

(وَزَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ إِنَّمَا أَلْمَدُّ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ)

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان أى نبيا كما قال عز وجل (وورث سليمان داود) أى في النبوة وإلا فقد كان له بنون غيره فانه قد كان عنده مائة امرأة حرائر وقوله تعالى (نعم العبد إنه أواب) ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والالابة إلى الله عز وجل . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن خالد حدثنا الوليد بن جابر حدثنا مكحول قال لما وهب الله تعالى لداود سليمان قال له يا بنى ما أحسن قال سكينة الله والإيمان قال لما أقبح قال كفر بعد إيمان قال لما أحلى قال روح الله بين عباده قال لما أبرد قال عفو الله عن الناس وعفو الناس بعضهم عن بعض قال داود عليه السلام فأنت نبى . وقوله تعالى (إذ عرض عليه بالمشى الصافنات الجياد) أى إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات قال مجاهد وهى التى تقف على ثلاث وطرף حافر الرابطة والجياد السراع وكذا قال غير واحد من السلف ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان بن أبيه سعيد بن مسروق عن إبراهيم التيمي في قوله عز وجل (إذ عرض عليه بالمشى الصافنات الجياد) قال كانت عشرين فرسا ذات أجنحة كذا روى ابن جرير . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا ابن أبي زائدة أخبرني إسرائيل عن سعيد بن مسروق عن إبراهيم التيمي قال كانت الخيل التى شملت سليمان عليه الصلاة والسلام عشرين ألف فرس فعقرها وهذا أشبه والله أعلم وقال أبو داود حدثنا محمد بن عوف حدثنا سعيد بن أبي مريم أخبرنا يحيى بن أيوب حدثني حمارة بن غزوية أن محمد بن إبراهيم حدثه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضى الله عنها قالت قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أو خيبر ولى سهوتها ستر فهببت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لمائشة رضى الله عنها لعب فقال صلى الله عليه وسلم « ما هذا يا عائشة ؟ » قالت رضى الله عنها بناتى ورأى بينهن فرسا له جناحان من رقاع فقال ﷺ « ما هذا الذى أرى وسطمن ؟ » قالت رضى الله عنها فرس ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما هذا الذى عليه ؟ » قالت رضى الله عنها جناحان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فرس له جناحان ؟ » قالت رضى الله عنها أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة قالت رضى الله عنها فضحك صلى الله عليه وسلم حتى رأيت نواجذه . وقوله تبارك وتعالى (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب) ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر والذى يتقطع به أنه لم يتركها همداً بل نسياناً كما شغل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه من ذلك عن حار رضى الله عنه قال جاء عمر رضى الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس فجعل يسب كفار قريش ويقول

يا رسول الله والله ما كدت أصلى العصر حتى كادت الشمس تغرب فقال رسول الله ﷺ « والله ما صليتها » فقال قمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة وتوضأنا لها فصلى العصر بعد ما غربت الشمس ثم صلى بعدها المغرب . ويحتمل أنه كان سائفا في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والحيل تتراد للقتال وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعا فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسافة والمضايقة حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما والأول أقرب لأنه قال بعده (ردها على فطرق مسح بالسوق والأعناق) قال الحسن البصري لا قال : والله لا تشغلني عن عبادة ربي آخر ما عليك ، ثم أمر بها فقمرت وكذا قال قتادة ، وقال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما جعل يمسح أعراف الحيل وعراقيبها حبلا وهذا القول اختاره ابن جرير قال لأنه لم يكن ليعذب حيوانا بالعرقبة ويهلك مالا من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ولا ذنب لها وهذا الذي رجح به ابن جرير فيه نظرا لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ولا سيما إذا كان غضبا لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب غدوها شهر ورواحها شهر فهذا أسرع وخير من الحيل ، قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال عن أبي قتادة وأبي الدهماء وكنا نكثر أن السفر نحو البيت قال أئتنا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي أخذ يدي رسول الله ﷺ فجعل يلمسني بما علمه الله عز وجل وقال « إنك لا تنزع شيئا اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله عز وجل خيرا منه »

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَنِي إِدْنَى إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينُ كُلَّ بَنَاءٍ وَفَوَاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴾

يقول تعالى (ولقد فتنا سليمان) أي اختبرناه بأن سلطنا الملك (وألقينا على كرسيه جسدا) قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم يعني شيطانا (ثم أناب) أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته قال ابن جرير وكان اسم ذلك الشيطان صخرا قاله ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة وقيل آصف قاله مجاهد وقيل أصروا قاله مجاهد أيضا وقيل حبيب قاله السدي وقد ذكروا هذه القصة مبسطة ومختصرة ، وقد قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال أمر سليمان عليه الصلاة والسلام ببناء بيت للقدس فقبل له ابنه ولا يسمع فيه صوت حديد ، قال فطلب ذلك فلم يقدر عليه فقبل له إن شيطانا في البحر يقال له صخر شبه المارد قال فطلبه وكانت في البحر عين يرددها في كل سبعة أيام مرة فتزح مائها وجعل فيها خمرا فجاء يوم وردده فإذا هو بالحجر فقال إنك لشراب طيب إلا أنك تصيبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلا ، قال ثم رجع حتى عطش عطشا شديدا ثم أتاها فقال إنك لشراب طيب إلا أنك تصيبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلا ، قال ثم شربها حتى غلبت على عقله قال فأرى الحاتم أو ختم به بين كتفيه فذل ، قال وكان ملكه في خاتمه فأتى به سليمان عليه الصلاة والسلام فقال إنا قد أمرنا ببناء هذا البيت وقيل لنا لا يسمعن فيه صوت حديد قال فأتى بيض المهدد فجعل عليه زجاجة فجاء المهدد فدار حولها فجعل يرى بيضه ولا يقدر عليه فذهب فجاء بالماس فوضعه عليه فقطعهما به حتى أنفضى إلى بيضة فأخذ الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة وكان سليمان عليه الصلاة والسلام إذا أراد أن يدخل الحلاء أو الحمام لم يدخل بالحاتم فأنطلق يوما إلى الحمام ، وذلك الشيطان صخر معه وذلك

عند مقارفة قارف فيها بعض نساءه قال فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه في البحر فالتصته سمكة ونزع ملك سليمان منه وألقى على الشيطان شبه سليمان قال فجاء فقعد على كرسيه وسريره وسلط على ملك سليمان كله غير نساءه قال فجعل يقضى بينهم وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا لقد فتن نبي الله وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب رضى الله عنه في القوة فقال والله لأجربنه قال: فقال يابني الله وهو لا يرى إلا أنه نبي الله أحدنا تصيبه الجنابة في الليلة الباردة فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس أترى عليه بأسا قال: لا فينا هو كذلك أربعين ليلة إذ وجد نبي الله خاتمه في بطن سمكة فأقبل فجعل لا يستقبله حتى ولا طير إلا سجد له حتى انتهى إليهم (وألقينا على كرسيه جسدا) قال هو الشيطان صخر وقال السدي (ولقد فتنا سليمان) أي ابتلينا سليمان (وألقينا على كرسيه جسدا) قال شيطانا جلس على كرسيه أربعين يوما قال كان لسليمان عليه الصلاة والسلام مائة امرأة وكانت امرأة منهم يقال لها جرادة وهي آثر نساءه وآمنهن عنده وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأمن عليه أحدا من الناس غيرها فأعطاهها يوما خاتمه ودخل الحلاء ، فخرج الشيطان في صورته فقال هاتي الخاتم فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان عليه الصلاة والسلام وخرج سليمان بعد ذلك فسألها أن تعطيه خاتمه فقالت ألم تأخذه قبل ؟ قال لا وخرج كأنه تائه ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوما قال فأنكر الناس أحكامه فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلمائهم فجاءوا حتى دخلوا على نساءه فقالوا لمن إنا قد أنكرنا هذا فان كان سليمان فقد ذهب عقله وأنكرنا أحكامه قال فبكى النساء عند ذلك قال فأقبلوا يمشون حتى أتوه فأحدقوا به ثم نشروا يقرءون التوراة قال فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت من حيتان البحر قال وأقبل سليمان عليه الصلاة والسلام في حاله التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع وقد اشتد جوعه فسألهم من صيدهم وقال إني أنا سليمان فقام إليه بعضهم فضربه بعض فشجه فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ البحر فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه فقالوا بش ما صنعت حيث ضربته قال إنه زعم أنه سليمان ، قال فأعطوه سمكتين بمقدم عندكم ولم يشغله ما كان به من الضرب حتى قام إلى شاطئ البحر فشق بطونهما فجعل يغسل فوجد خاتمه في بطن إحدى إحداهما فأخذه فلبسه فرداه عليه بهاءه وملكه فجاءت الطير حتى حامت عليه فعرف القوم أنه سليمان عليه الصلاة والسلام فقام القوم يعتذرون مما صنعوا فقال ما أحمدكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم كان هذا الأمر لا بد منه قال فجاء حتى أتى ملكه وأرسل إلى الشيطان فجيء به فأمر به فجعل في صندوق من حديد ثم أطبق عليه وقفل وختم عليه بخاتمه ثم أمر به فألقى في البحر فهو فيه حتى تقوم الساعة وكان اسمه حقيق قال وسخره الريح ولم تكن سخرته له قبل ذلك وهو قوله (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب)

وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد في قوله تبارك وتعالى (وألقينا على كرسيه جسدا) قال شيطانا يقال له آصف فقال له سليمان عليه السلام كيف تفتنون الناس ؟ قال أرني خاتمك أخبرك فلما أعطاه إياه نبذه آصف في البحر فساح سليمان عليه السلام وذهب ملكه وقعد آصف على كرسيه ومنعه الله تبارك وتعالى من نساء سليمان فلم يقربهن ولم يقربنه وأنكرنه قال فكان سليمان عليه الصلاة والسلام يستطعم فيقول أتعرفوني ؟ أطعموني أنا سليمان فيكذبونه حتى أعطته امرأة يوما حوتا ففتح بطنه فوجد خاتمه في بطنه فرجع إليه ملكه وفر آصف فدخل البحر . وهذه كلها من الإسرائيليات ، ومن أنكرها ما قاله ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء وعثمان بن أبي شيبة وعلي بن محمد قالوا حدثنا أبو معاوية أخبرنا الأعمش عن الزهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) قال أراد سليمان عليه الصلاة والسلام أن يدخل الحلاء فأعطى الجرادة خاتمه وكانت الجرادة امرأته وكانت أحب نساءه إليه فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال لها هاتي خاتمي فأعطته إياه فلما لبسه دانت له الإنس والجن والشياطين فلما خرج سليمان عليه السلام من الحلاء قال لها هاتي خاتمي قالت قد أعطيتك سليمان قال أنا سليمان قالت كذبت ما أنت بسليمان فجعل لا يأتي أحدا يقول له أنا سليمان إلا كذبه حتى جعل الصبيان يرمونه بالحجارة فلما

رأى ذلك سليمان عرف أنه من أمر الله عز وجل قال وقام الشيطان يحكم بين الناس فلما أراد الله تبارك وتعالى أن يرد على سليمان سلطانه ألقى في قلوب الناس إنكار ذلك الشيطان قال فأرسلوا إلى نساء سليمان فقالوا لهم: أتتكرن من سليمان شيئا ، قلن نعم إنه يأتينا ونحن حيض وما كان يأتينا قبل ذلك فلما رأى الشيطان أنه قد فطن له ظن أن أمره قد انقطع فكتبوا كتباً فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسى سليمان ثم أثاروها وقرأوها على الناس وقالوا بهذا كان يظهر سليمان على الناس ويغلبهم فأكفر الناس سليمان عليه الصلاة والسلام فلم يزالوا يكفرونه وبعث ذلك الشيطان بالحاتم فطرحه في البحر فتلخته سمكة فأخذته ، وكان سليمان عليه السلام يحمل على شط البحر بالأجر فجاء رجل فاشترى سمكا فيه تلك السمكة التي في بطنها الحاتم فدعا سليمان عليه الصلاة والسلام فقال تحمل لي هذا السمك ؟ فقال نعم قال بك ؟ قال بسمكة من هذا السمك قال فحمل سليمان عليه الصلاة والسلام السمك ثم انطلق به إلى منزله فلما انتهى الرجل إلى بابه أعطاه تلك السمكة التي في بطنها الحاتم فأخذها سليمان عليه الصلاة والسلام فشق بطنها فإذا الحاتم في جوفها فأمره قلبه ، قال فلما لبسه دانت له الجن والإنس والشياطين وعاد إلى حاله وهرب الشيطان حتى لحق بحزيرة من جزائر البحر فأرسل سليمان عليه السلام في طلبه وكان شيطانا مريدا فجعلوا يطلبونه ولا يقدرون عليه حتى وجدوه يوما نائما فجاءوا فبنوا عليه بنيانا من رصاص فاستيقظ فوثب فجعل لا يثب في مكان من البيت إلا انماط معه من الرصاص ، قال فأخذوه فأوثقوه وجاءوا به إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فأمر به فنقله تحت من رخام ثم أدخل في جوفه ثم سد بالنحاس ثم أمر به فطرح في البحر فذلك قوله تبارك وتعالى (ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب) يعني الشيطان الذي كان سلط عليه ، إسناده إلى ابن عباس رضى الله عنهما قوى ، ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس رضى الله عنهما إن صح عنه من أهل الكتاب وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه الصلاة والسلام فالظاهر أنهم يكذبون عليه ، ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجنى لم يسلط على نساء سليمان بل عصمهن الله عز وجل منه تشريفا وتكريما لنبية عليه السلام . وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضى الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . وقال يحيى بن أبي عروبة الشيباني : وجد سليمان خاتمه بعسقلان فحشى في حرقه إلى بيت المقدس تواضعا لله عز وجل ، رواه ابن أبي حاتم . وقد روى ابن أبي حاتم عن كعب الأحمري في صفة كرسى سليمان عليه الصلاة والسلام خبرا عجيبا فقال حدثنا أبي رحمه الله حدثنا أبو صالح كاتب الليث أخبرني أبو إسحاق المصري عن كعب الأحمري أنه لما فرغ من حديث إرم ذات العماد قال له معاوية يا أبا إسحاق أخبرني عن كرسى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وما كان عليه ومن أى شيء هو ، فقال كان كرسى سليمان من أنياب الفيلة مرصعا بالدر والياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، وقد جعل له درجة منها مفصصا بالدر والياقوت والزبرجد ثم أمر بالكرسى فحف من جانيبه بالنخل ونخل من ذهب شباريخها من ياقوت وزبرجد ولؤلؤ ، وجعل على رؤوس النخل التي عن يمين الكرسى طواويس من ذهب ثم جعل على رؤوس النخل التي على يسار الكرسى نسورا من ذهب مقابلة الطواويس ، وجعل على يمين الدرجة الأولى شجرتى صنوبر من ذهب وعن يسارها أسدان من ذهب وعلى رؤوس الأسدين عمودان من زبرجد ، وجعل من جانبي الكرسى شجرتى كرم من ذهب قد أظلتا الكرسى وجعل عنائدهما درا وياقوتا أحمر ، ثم جعل فوق درج الكرسى أسدان عظيمان من ذهب عجوفان محشوان مسكا وعنبرا ، فإذا أراد سليمان عليه السلام أن يصعد على كرسيه استدار الأسدان ساعة ثم يقعان فينضجان مافي أجوافهما من المسك والعنبر حول كرسى سليمان عليه الصلاة والسلام ثم يوضع منبران من ذهب واحد خلفه والآخر لرئيس أجبائ بني إسرائيل ذلك الزمان ، ثم يوضع أمام كرسيه سبعون منبرا من ذهب يقعد عليها سبعون قاضيا من بني إسرائيل وعلمائهم وأهل الشرف منهم والطول ، ومن خلف تلك المنابر كلها خمسة وثلاثون منبرا من ذهب ليس عليها أحدا فإذا أراد أن يصعد على كرسيه وضع قدميه على الدرجة السفلى فاستدار الكرسى كله بما فيه وما عليه وييسط الأسد يده اليمنى وينشر النسر جناحه

الأسير ثم يصعد سليمان عليه الصلاة والسلام على الدرجة الثالثة فيبسط الأسديده اليسرى وينشر النسر جناحه الأيمن فإذا استوى سليمان عليه الصلاة والسلام على الدرجة الثالثة وقعد على الكرسي أخذ نسر من تلك النصور عظيم تاج سليمان عليه الصلاة والسلام فوضعه على رأسه فإذا وضعه على رأسه استدار الكرسي بما فيه كما تدور الرحى السرعة ، فقال معاوية رضي الله عنه وما الذي يديره يا أبا إسحق ؟ قال تنين من ذهب ذلك الكرسي عليه وهو عظيم بمسا عمله صخر الجنى فإذا أحست به يرانه دارت تلك الأسود والنسور والطواويس التي في أسفل الكرسي دون التي أعلاه فإذا وقف وقعن كلهن منكسات رومهن على رأس سليمان عليه الصلاة والسلام وهو جالس ثم ينضجن جميعا مافي أجوافهن من المسك والعنبر على رأس سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام . ثم تناول حمامة من ذهب واقفة على عمود من جوهر التوراة فتجعلها في يده فيقرؤها سليمان عليه الصلاة والسلام على الناس . وذكر تمام الخبر وهو غريب جدا (قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب) قال بعضهم معناه لا ينبغي لأحد من بعدي أي لا يصلح لأحد أن يسأله بعدي كما كان من قضية الجسد الذي ألقى على كرسيه لا أنه يحجر على من بعده من الناس والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكا لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله وهذا هو ظاهر السياق من الآية وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ

قال البخاري عند تفسير هذه الآية حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا روح ومحمد بن جعفر عن شعبة عن محمد بن زياد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة - أو كلمة نحوها - لقطع على الصلاة فأهكنني الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تضيحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام (رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) » قال ربح فردة خاسئا وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به وقال مسلم في صحيحه حدثنا محمد بن سلمة المراءى حدثنا عبد الله بن وهب عن معاوية بن صالح حدثني ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول « أعوذ بالله منك - ثم قال - ألعنك يا لعنة الله » ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله ممعنك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال ﷺ « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحمله في وجهي فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك يا لعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أن آخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة » وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد ثنا مسيرة بن معبد حدثنا أبو عبيد حاجب سليمان قال رأيت عطاء بن يزيد الليثي قائما يصلي فذهبت أمر بين يديه فرددني ثم قال حدثني أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول صلى الله عليه وسلم قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فاتحته عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال « لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي لما زلت أخته حتى وجدت برد لعا به بين أصبعي هاتين - الإبهام والى تليها - ولولا دعوت أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » وقد روى أبو داود منه « من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » عن أحمد بن أبي سريح عن أبي أحمد الزبيري به . وقال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا إبراهيم بن محمد الفزاري حدثنا الأوزاعي حدثني ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمي قال دخلت على عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط له بالطائف يقال له الوهط وهو مختصر فني من قريش يزني ويشرب الخمر فقلت بلغني عنك حديث أنه « من شرب شربة من الخمر لم يقبل الله عز وجل له توبة أربعين صباحا » وإن الشقي من شقي في بطن أمه ، وأنه من أتى بيت المقدس لا تنزهه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه » فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما إني لا أحل لأحد أن يقول على ما لم أقول ، سمعت رسول الله ﷺ يقول « من شرب من الخمر شربة لا تقبل له صلاة أربعين صباحا » قال تاب الله عليه فان عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحا فان تاب

تاب الله عليه - قال فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال - فان عاد كان حقا على الله تعالى أن يسقيه من طينة الحبال يوم القيامة » قال وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله عز وجل » وسمعت رسول الله ﷺ يقول « إن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى ثلاثا فأعطاه اثنتين ونحن نرجوا أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكما يصادف حكمه فأعطاه إياه وسأله ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطانا إياه » وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه من طرق عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلا لا ثلاثا » وذكره وقد روى من حديث رافع بن عمر رضي الله عنه بإسناد وسياق غريبين . فقال الطبراني حدثنا محمد بن الحسن بن قتيبة العسقلاني حدثنا محمد بن أيوب بن سويد حدثني أبي حدثنا إبراهيم بن أبي عبلة عن أبي الزاهرية عن رافع بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابن لي بيتا في الأرض فبنى داود بيتا لنفسه قبل البيت الذي أمر به فأوحى الله إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتي قال يا رب هكذا قضيت من ملك استأثر ثم أخذ في بناء المسجد فلما تم السور سقط ثلاثا فشكا ذلك إلى الله عز وجل فقال يا داود إنك لا تصلح أن تبني لي بيتا قال ولم يا رب ؟ قال لما جرى على يديك من الدماء ، قال يا رب أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك ؟ قال بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم فشق ذلك عليه فأوحى الله إليه لا تحزن فاني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان فلما مات داود أخذ سليمان في بناءه ولماتم قرب القرابين وذبح الذبائح وجمع بني إسرائيل فأوحى الله إليه قد أرى سرورك بيني فسألني أعطتك قال أسألك ثلاث خصال حكما يصادف حكمك وملكالا ينبغي لأحد من بعدي ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه - قال رسول الله ﷺ - أما الثنتان فقد أعطيتهما وأنا أرجو أن يكون قد أعطى الثالثة » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن راشد التميمي حدثنا إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه رضي الله عنه قال ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلا استفتحته « سبحان الله ربّي العلى الأعلى الوهاب » وقد قال أبو عبيد حدثنا علي بن ثابت عن جعفر بن برقان عن صالح بن مسبار قال لما مات نبي الله داود عليه السلام أوحى الله تبارك وتعالى إلى ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام أن سلني حاجتك قال أسألك أن تجعل لي قلبا يخشاك كما كان قلب أبي وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي فقال الله عز وجل : أرسلت إلى عبدی وسألته حاجته فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني وأن أجعل قلبه يحبني ، لأهين له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده . قال الله جلّت عظمتة (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) والتي بعدها قال فأعطاهما أعطاه وفي الآخرة لا حساب عليه هكذا أورده أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه الصلاة والسلام في تاريخه ، وروى عن بعض السلف أنه قال بلغني عن داود عليه الصلاة والسلام أنه قال إلمى كن لسليمان كما كنت لي فأوحى الله عز وجل إليه : أن قل لسليمان أن يكون لي كما كنت لي أكن له كما كنت لك . وقوله تبارك وتعالى (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب) قال الحسن البصري رحمه الله لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الحيل غضبا لله عز وجل عوضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع الريح التي غدوها شهر ورواحها شهر . وقوله جل وعلا (حيث أصاب) أي حيث أراد من البلاد وقوله جل جلاله (والشياطين كل بناء وغواص) أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية المائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلئ والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها) وآخرين مقرنين في الأصفاد أي موقوفون في الأغلال والأنكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى . وقوله عز وجل

(هذا عطائونا فامتن أو أمسك بغير حساب) أى هذا الذى أعطيناك من الملك التام والسلطان الكامل كما سألتنا فأعطى من عثت واحرم من عثت لا حساب عليك أى مهما فعلت فهو جائز لك احكم بما شئت فهو صواب وقد ثبتت في الصحيحين أن رسول صلى الله عليه وسلم لما خير بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذى يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح : اختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له تواضع فاختر المنزلة الأولى لأنها أرفع قدراً عند الله عز وجل وأعلى منزلة في المعاد وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى (وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب) أى في الدار الآخرة

﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * أَرْكَضْنَاهُ بِرَجُلَيْنِ هَذَا مُتَنَسِّلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعَمَ أَلْمِذُّ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب عليه الصلاة والسلام وما كان ابتلاء تعالى به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مفرز لإبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه خير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتقدمه نحوها من ثمانى عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك حتى آل به الحال إلى أن ألقى على مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكاملها ورفضه القريب والبعيد سوى زوجته رضى الله عنها فانها كانت لا تفارقه صباحاً ومساءً إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريباً ، فلما طال للمطال ، واشتد الحال ؛ وانهى القدر ، وتم الأجل للقدر تضرع إلى رب العالمين وإله المرسلين فقال (إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وفي هذه الآية السكريمة قال (وأذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب) قيل بنصب في بدن وعذاب في ماله وولده فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله ففعل فأنبع الله تعالى حيناً وأمره أن يتنسل منها فأذهبت جميع ما كان فيه بدنه من الأذى ، ثم أمره بضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له حيناً أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء وتكاملت المافية ظاهراً وباطناً ، ولهذا قال تبارك وتعالى (أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) قال ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني نافع بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال « إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به كانا يسدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين قال له صاحبه وما ذاك ؟ قال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى فيكشف ما به فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام لا أدرى ما تقول خير أن الله عز وجل يسلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله تعالى إلا في حق ، قال وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته يده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن (أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان فلما رآته قالت أى بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك

إذ كان صحيحاً قال فاني أنا هو قال وكان له أندران أندر للقمح وأندر للشعير فبعث الله تعالى سحابتين فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض هذا لفظ ابن جرير رحمه الله وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بيننا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه فداداه ربه عز وجل يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى قال عليه الصلاة والسلام بلى يارب ولكن لا غنى بي عن بركتك » انفرد بإخراجه البخاري من حديث عبد الرزاق به ، ولهذا قال تبارك وتعالى (ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب) قال الحسن وقتادة أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم ، وقوله عز وجل (رحمة منا) أي به على صرته ونيابته وإنابته وتواضعه واستكانته (وذكرى لأولى الألباب) أي لدوى العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والخرج والراحة . وقوله جلت عظمتي (وخذ بيدك ضغتنا فاضرب به ولا تحنت) وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ووجد عليها في أمر فعلته قيل باعت ضغيرتها بخبز فأطعمته إياه فلما على ذلك وحلف إن شفاء الله تعالى ليضربها مائة جلدة ، وقيل لغير ذلك من الأسباب فلما شفاء الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفاته الله عز وجل أن يأخذ ضغناً وهو الشمر أخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برت يمينه وخرج من حشته ووفى بندره ، وهذا من الفرج والخرج لمن اتقى الله تعالى وأتاب إليه ولهذا قال جل وعلا (إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب) أثني الله تعالى عليه ومدحه بأنه (نعم العبد إنه أواب) أي رجاع منيب ؛ ولهذا قال جل جلاله (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً) واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية الكريمة على مسائل في الأيمان وغيرها . وقد أخذوها بمقتضاها والله أعلم بالصواب

(وَإِذْ كَرَّمْنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَإِذْ كَرَّمْنَا إِسْمَاعِيلَ وَإِلْيَاسَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرُكَ)

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين (واذ كرمنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار) يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما (أولى الأيدي) يقول أولى القوة (والأبصار) يقول الفقه في الدين . وقال مجاهد (أولى الأيدي) يعني القوة في طاعة الله تعالى والأبصار يعني البصر في الحق وقال قتادة والسدي أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين . وقوله تبارك وتعالى (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار) قال مجاهد أي جعلناهم يعملون للآخرة ليس لهم هم غيرها وكذا قال السدي ذكرهم للآخرة وعملهم لها . وقال مالك بن دينار نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها ، وكذا قال عطاء الخراساني . وقال سعيد بن جبير يعني بالدار الجنة يقول أخلصناها لهم بذكرهم لها ، وقال في رواية أخرى ذكرى الدار عقي الدار ، وقال قتادة كانوا يذكرون الناس الدار الآخرة والعمل لها ؛ وقال ابن زيد جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة ، وقوله تعالى (وإنهم عندنا لمن الصّافين الأخيار) أي لمن المختارين المحبتين الأخيار فهم أخيار مختارون . وقوله تعالى (واذ كرمنا إسماعيل وإلياس) قد تقدم الكلام على قصصهم وأخبارهم مستقصاة في سورة الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام بما أغنى عن إعادته هنا وقوله عز وجل (هذا ذكر) أى هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر ، وقال السدى
يعنى القرآن العظيم .

﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَنَآبٍ * جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ لَهُمْ الْأَبْوَابُ * مُتَكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَكْهَةٍ
كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا
مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴾

نخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب وهو الرجوع والنقلب ثم فسره بقوله
تعالى (جنات عدن) أى جنات إقامة مفتحة لهم الأبواب والألف واللام هنا بمعنى الإضافة كأنه يقول مفتحة لهم
أبوابها أى إذا جاءوها فتحت لهم أبوابها ، قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن ثواب الهارمى حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا
عبد الله بن مسلم عن ابن هرم عن ابن سابط عن عبد الله بن عمرو رضى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ
« إن في الجنة قصرا يقال له عدن حوله البروج والروج له خمسة آلاف باب عند كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله
سأ ولا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل » وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه
عديدة . وقوله عز وجل (متكئين فيها) قيل متربعين على سرر تحت الحجال (يدعون فيها بفكهة كثيرة) أى مهمما
طلبوا وجدوا وأحضروا كما أرادوا (وشراب) أى من أى أنواعه شاءوا أنهم به الحدام (بأكواب وأباريق وكأس
من معين) (وعندهم قاصرات الطرف) أى عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن (أتراب) أى متساويات في السن
والعمر هذا معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير وعبد بن كعب والسدى (هذا ما توعدون
ليوم الحساب) أى هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هى التى وعدوا عباده المتقين التى يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم
من قبورهم وسلامتهم من النار . ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء
فقال تعالى (إن هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ) كقوله عز وجل (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) وكقوله جل وعلا (عطاء
غير مجدود) وكقوله تعالى (لهم أجر غير ممنون) أى غير مقطوع وكقوله عز وجل (أكلها دائم وظلها تلك عقبى
الدين اتقوا وعقبى الكافرين النار) والآيات في هذا كثيرة جدا .

﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَنَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبئْسَ الْمِهَادُ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخِرُ
مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ لَهُمْ صَالُوا النَّارِ * قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَمَرْحَبًا بِكُمْ
أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَبئْسَ الْفَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِذَّةً عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ * قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى
رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ * أَخَذَتْهُمْ سَخِرِيَاءُ أُمِّ زَأْنَتٍ عَنْهُمْ الْأَبْصُرُ * إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاسُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء نرى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل
(هذا وإن للطاغين) وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل المخالفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم (لشر مآب) أى لسوء
منقلب ومرجع . ثم فسره بقوله جل وعلا (جهنم يصلونها) أى يدخلونها فتعمرهم من جميع جوانبهم (فبئس المهاد) هذا
فليذوقوه حميم وغساق) أما الحميم فهو الحار الذى قد انتهى حره ، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذى لا يستطيع
من شدة برده اللؤلؤ ولهذا قال عز وجل (وآخر من شكله أزواج) أى وأشياء من هذا القبيل : الثنى وضده يعاقبون
بها قال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضى الله عنه عن

رسول الله ﷺ أنه قال « لو أن دلوًا من غساق يهراق في الدنيا لأتت أهل الدنيا » ورواه الترمذي عن سويد ابن نصر عن ابن المبارك عن رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج به ثم قال لا نعرفه إلا من حديث رشدين كذا قال وقد تقدم من غير حديثه ، ورواه ابن جرير عن يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث به وقال كعب الأحبار : غساق عين في جهنم يسيل إليها حمة كل ذات حمة من حية وعقرب وغير ذلك فيستنقع فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام ويتعلق جلده ولحمه في كعبيه وعقبه ويجر لحمه كله كما يجر الرجل ثوبه ، رواه ابن أبي حاتم . وقال الحسن البصري في قوله تعالى (وآخر من شكله أزواج) أولان من العذاب ، وقال غيره كالمزهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوى إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادة والجميع مما يعذبون به ، ويهانون بسببه وقوله عز وجل (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحب بهم إنهم صالوا النار) هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض كما قال تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) يعني بدل السلام يتلعنون ويتكذبون ويكفر بعضهم ببعض فتقول الطائفة التي تدخل قبل الأخرى إذا أقبلت التي بعدها مع الحزنة من الزبانية (هذا فوج مقتحم) أي داخل (معكم لا مرحب بهم إنهم صالوا النار) أي لأنهم من أهل جهنم (قالوا بل أنتم لا مرحب بكم) أي فيقول لهم الداخلون (بل أنتم لا مرحب بكم أنتم قدمتموه لنا) أي أنتم دعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير (فبئس القرار) أي فبئس المنزل والمستقر والمصير (قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار) كما قال عز وجل (قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار * قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) أي لكل منكم عذاب بحسبه (وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار * اتخذناهم سخريا أم زاجت عنهم الأبصار ؟) هذا إخبار عن الكفار في النار أنهم يعتقدون رجالا كانوا يعتقدون أنهم على الضلالة وهم المؤمنون في زعمهم قالوا ما لنا لا نراهم معنا في النار ؟ قال مجاهد هذا قول أبي جهل يقول مالي لأرى بلالا وعمارا وصهيبا وفلانا وفلانا وهذا ضرب مثل وإلا فكل الكفار هذا حالهم يعتقدون أن المؤمنين يدخلون النار ، فلما دخل الكفار النار افتقدوهم فلم يجدوهم فقالوا (ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار * اتخذناهم سخريا) أي في الدار الدنيا (أم زاجت عنهم الأبصار ؟) يسألون أنفسهم بالحال يقولون أولعلمهم معنا في جهنم ولكن لم يقع بهرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات وهو قوله عز وجل (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين — إلى قوله — ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) وقوله تعالى (إن ذلك لحق تخاصم أهل النار) أي إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لبعض لحق لا مرية فيه ولا شك

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَظِيمُ * الْغَفُورُ * قُلْ هُوَ نَبِيُّ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى أمرا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله إنما أنا منذر لست كما تزعمون (وما من إله إلا الله الواحد القهار) أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه (رب السموات والأرض وما بينهما) أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه (العزيز الغفار) أي غفار مع عظمتهم وعزته (قل هو نبي عظيم) أي خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إليهم (أنتم عنه معرضون) أي غافلون ، قال مجاهد وشريح القاضي والسدي في قوله عز وجل (قل هو نبي عظيم) يعني القرآن . وقوله تعالى (ما كان لي من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون) أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملاء الأعلى ؟ يعني في شأن آدم عليه الصلاة والسلام وامتناع إبليس

من السجود له ومحاجته ربه في تفضيله عليه . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا أبو سعيد مولى بن هاشم حدثنا جهم بن الجهم عن يحيى بن أبي كثير عن زيد بن أبي سلام عن أبي سلام عن عبد الرحمن بن عائش عن مالك بن يخامر عن معاذ رضى الله عنه قال احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا تراءى قرن الشمس فخرج ﷺ سريعا فتوب بالصلاة فصلى وتجاوز في صلاته فلما سلم قال ﷺ « كما أنتم » ثم أقبل إلينا فقال « إني قتت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة فقال يا محمد أتدري فيم يختصم الملائكة الأمل ، قلت لا أدري يا رب — أعادها ثلاثا — فرأيت وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدرى فتجلى لى كل شيء وعرفت فقال يا محمد فيم يختصم الملائكة الأمل : قلت في الكفارات . قال وما الكفارات ، قلت تقل الأقدام إلى الجماعات والجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال وما الدرجات ؟ قلت إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة والناس نيام ، قال سل ، قلت اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب السالكين وأن تغفر لى وترحمى ، وإذا أردت فتنة قوم فتوفى غير مفتون ، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربنى إلى حبك — وقال رسول الله ﷺ — إنها حق فادرسوها وتعلموها » فهو حديث النام المشهور ، ومن جعله نقطة فقد غلط وهو في السنن من طرق ، وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذى من حديث جهم بن عبد الله الجهمى به ، وقال الحسن صحيح وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن فان هذا قد فسر ، وأما الاختصاص الذى في القرآن فقد فسر بعد هذا وهو قوله تعالى

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ ۖ فَاِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِىْ فَقَعُوْا لَهٗ سٰجِدِيْنَ ۚ فَسَجَدَ الْمَلٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ اٰجَعُوْنَ ۚ اِلَّا اِبٰلِیْسَ اَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ۚ قَالَ يٰۤاِبٰلِیْسُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِیَدِیْ اَسْتَكْبَرْتَ اَمْ كُنْتَ مِنَ الْمٰلِیْنَ ۚ قَالَ اَاُخۡبِرُ مِنْۢ مُّۡنَ خَلَقْتَنِیْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِیْنٍ ۚ قَالَ فَاٰخُرُجْ مِنْهَا فَاِنَّكَ رَجِيْمٌ ۚ وَاِنْ عَلٰیكَ لَعْنَتِیْ اِلٰی یَوْمِ الدِّیْنِ ۚ قَالَ رَبِّ فَاَنْظِرْنِیْ اِلٰی یَوْمٍ یُّبْعَثُوْنَ ۚ قَالَ فَاِنَّكَ مِنَ الْمُنۡظَرِيْنَ ۚ اِلٰی یَوْمِ الْوَقۡتِ الْمَعۡلُوْمِ ۚ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا اُغْوِیَنَّهُمْ اَجَمِیْنَ ۚ اِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُغۡلَوِیْنَ ۚ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ اَقُوْلُ ۚ لَاۤ اَمْلَاَنَّ جَهَنَّمَ مِیۡدَكَ وَیَمِّنَ تَبِعَكَ مِنْهُمْ اَجَمِیْنَ ۙ﴾

هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة وفي أول سورة الأعراف وفي سورة الحجر وسبحان والكهف وههنا وهى أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما وامثالاً لأمر الله عز وجل فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ولم يكن منهم جنساً . كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج ما كان إليه فاستكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل فيه وادعى أنه خير من آدم فانه مخلوق من نار وآدم خلق من طين والنار خير من الطين في زحمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل وأرغم أنه وطرده عن باب رحمته ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وصماه إبليس إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذى لا يجعل طى من عصاه . فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطمى وقال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين * لإعبادك منهم المخلصين) كما قال عز وجل (أرايتك هذا الذى كرمت طى * لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلا) وهؤلاء هم المستثنون

في الآية الأخرى وهي قوله تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا) وقوله تبارك وتعالى (قال فالحق والحق أقول * لأملئن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين) قرأ ذلك جماعة منهم مجاهد برفع الحق الأول وفسره مجاهد بأن معناه أنا الحق والحق أقول وفي رواية عنه . الحق مني وأقول الحق ، وقرأ آخرون بنصبهما قال السدي هو قسم أقسم الله به (قلت) وهذه الآية كقوله تعالى (ولكن حق القول مني لأملان جهنم من الجنة والناس أجمعين) وكقوله عز وجل (قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا)

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ)
يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونه من عرض الحياة الدنيا (وما أنا من المتكلفين) أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ولا أبتغي زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لأزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، قال سفيان الثوري عن الأعمش ومنصور عن أبي الضحى عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال يا أيها الناس من علم شيئا فليقل به ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فان من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم الله أعلم فان الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين) أخرجاه من حديث الأعمش به ، وقوله تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين) يعني القرآن ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وروى ابن أبي حاتم عن أبيه عن أبي غسان مالك بن إسماعيل حدثنا قيس عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (للعالمين) قال الجن والإنس ، وهذه الآية كقوله تعالى (لأنذركم به ومن بلغ) وكقوله عز وجل (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) وقوله تعالى (ولتعلمن نبأه) أي خبره وصدقه (بعد حين) أي عن قريب قال قتادة بعد الموت وقال عكرمة يعني يوم القيامة ، ولا منافاة بين القولين فان مات فقد دخل في حكم القيامة ، وقال قتادة في قوله تعالى (ولتعلمن نبأه بعد حين) قال الحسن يا ابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين آخر تفسير سورة ص والله الحمد والمنة والله سبحانه وتعالى أعلم

(تفسير سورة الزمر وهي مكية)

قال النسائي حدثنا محمد بن النضر بن مساور حدثنا حماد عن مروان بن أبي لبابة عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ يصوم حتى يقول ما يريد أن يفطر ويفطر حتى يقول ما يريد أن يصوم ، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بنى إسرائيل والزمر .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ * لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)

يفخر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى فهو الحق الذي لا مزية فيه ولا شك كما قال عز وجل (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) وقال تبارك وتعالى (وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقال جل وعلا هاهنا (تنزيل الكتاب من الله العزيز) أي النسخ الجنب (الحكيم) أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره

(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فأعبد الله مخلصاً له الدين) أى فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه ليس له شريك ولا عدل ولا نديد ولهذا قال تعالى (ألا الله الدين الخالص) أى لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له .

وقال قتادة في قوله تبارك وتعالى (ألا الله الدين الخالص) شهادة أن لا إله إلا الله ثم أخبر عز وجل عن عباد الأصنام من المشركين أنهم يقولون (ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) أى إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمور الدنيا فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به قال قتادة والسدى ومالك عن زيد بن أسلم وابن زيد إلا ليقربونا إلى الله زلفى أى ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في تلييتهم إذا حجوا في جاهليتهم لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه وجاءتهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين بردها والنهي عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ولا رضى به بل أبغضه ونهى عنه (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وأخبر أن الملائكة التي في السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنه فيما أحبه الملوك وأبوه (فلا تضربوا لله الأمثال) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقوله عز وجل (إن الله يحكم بينهم) أى يوم القيامة (فيما هم فيه يختلفون) أى سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزى كل عامل بعمله (ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) وقوله عز وجل (إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار) أى لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله تعالى وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه ، ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه المشركين في الملائكة والمعادنون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى فقال تبارك وتعالى (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصبح له ما يشاء) أى لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عز وجل (لو أردنا أن نتخذ لهم ولاءً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين) (قل إن كان للرحمن ولد فأول العابدين) كل هذا من باب الشرط ويجوز تعليق الشرط على الاستحالة لمقصد المتكلم وقوله تعالى (سبحانه هو الله الواحد القهار) أى تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً

(خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْثَمِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء وبأنه مالك الملك التصرف فيه يقرب إليه ونهاره (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) أى سخرهما يحريان متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً كقوله تبارك وتعالى (ينشى الليل النهار يطلبه حثيثاً) هذا معنى ما روى عن ابن عباس رضى الله

عنهما ومجاهد وقتادة والسدى وغيرهم . وقوله عز وجل (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) أى إلى مدة معلومة عند الله تعالى ثم ينقضى يوم القيامة (ألا هو العزيز الغفار) أى مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأتاب إليه وقوله جلّت عظمته (خلقكم من نفس واحدة) أى خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة وهو آدم عليه الصلاة والسلام (ثم جعل منها زوجها) وهى حواء عليها السلام كقوله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وقوله تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أى وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهى المذكورة فى سورة الأنعام، ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين وقوله عز وجل (يخلقكم فى بطون أمهاتكم) أى قدركم فى بطون أمهاتكم (خلقا من بعد خلق) يكون أحدم أولا نقطة ثم يكون علقة ثم يكون مضغة ثم يخلق فيكون لحما وعظما وعصبا وعروقا وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر (فبارك الله أحسن الخالقين) . وقوله جل وعلا (فى ظلمات ثلاث) يعنى فى ظلمة الرحم وظلمة المشيمة التى هى كالنشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن . كذا قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وأبو مالك والضحاك وقتادة والسدى وابن زيد . وقوله جل جلاله (ذلكم الله ربكم) أى هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم هو الرب له الملك والتصرف فى جميع ذلك (لا إله إلا هو) أى الذى لا تنبى العبادة إلا له وحده لا شريك له (فأتى تصرفون) أى فكيف تعبدون معه غيره ؟ أين يذهب بقولكم ؟

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٥ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبرا عن نفسه تبارك وتعالى أنه العنى عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام (إن تكفروا أتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لئنى حميد) وفى صحيح مسلم « يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا » . وقوله تعالى (ولا يرضى لعباده الكفر) أى لا يحبه ولا يأمر به (وإن تشكروا يرضه لكم) أى يحبه لكم ويزدكم من فضله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تحمل نفس عن نفس شيئا بل كل مطالب بأمر نفسه (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور) أى فلا تخفى عليه خافية . وقوله عز وجل (وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه منيبا إليه) أى عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له كما قال تعالى (وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا) ولهذا قال تبارك وتعالى (ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل) أى فى حال الرفاهية ينسى ذلك الداء والتضرع كما قال جل جلاله (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره) وقوله تعالى (وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله) أى فى حال العافية يشرك بالله ويجعل له أندادا (قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) أى قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه تمتع بكفرك قليلا وهو تهديد شديد ووعيد أكيد كقوله تعالى (قل تمتموا فإن مصيركم إلى النار) وقوله تعالى (نعمتهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ)

﴿ أَمِنْ هُوَ قَتِيتُ نَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

يقول عز وجل آمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ، لا يستوون عند الله كما قال تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) وقال تبارك وتعالى ههنا (آمن هو قات آناء الليل ساجدا وقائما) أى فى حال سجوده وفى حال قيامه ولهذا استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة ليس هو القيام وحده كما ذهب إليه آخرون . قال الثورى عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : القانت المطيع لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم وقال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن والسدى وابن زيد آناء الليل جوف الليل . وقال الثورى عن منصور بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء ، وقال الحسن وقتادة آناء الليل أوله وأوسطه وآخره وقوله تعالى (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) أى فى حال عبادته خائف راج ولا بد فى العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال تعالى (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه كما قال الامام عبد بن حميد فى مسنده حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا ثابت عن أنس رضى الله عنه قال دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو فى الموت فقال له « كيف تجدك ؟ » فقال أرجو وأخاف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يجتمعان فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذى يرجو وأمنه الذى يخافه » . ورواه الترمذى والنسائى فى اليوم والليلة وابن ماجه من حديث سيار بن حاتم عن جعفر بن سليمان به وقال الترمذى غريب ، وقدرناه بعضهم عن ثابت عن أنس عن النبي ﷺ مرسل

وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمر بن أبي شبة عن عبيدة النخعي حدثنا أبو خلف بن عبد الله بن عيسى الخزاز حدثنا يحيى البكاء أنه سمع ابن عمر رضى الله عنهما يقرأ (آمن هو قات آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) قال ابن عمر ذلك عثمان بن عفان رضى الله عنه وإنما قال ابن عمر رضى الله عنهما ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بالليل وقراءته حتى إنهما قرأ القرآن فى ركعة كما روى ذلك أبو عبيدة عنه رضى الله تعالى عنه ، وقال الشاعر ،

ضحوا بأفمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

وقال الامام أحمد كتب إلى الربيع بن نافع حدثنا الهيثم بن حميد عن زيد بن واقد عن سليمان بن موسى عن كثير ابن مرة عن تميم الدارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ بمائة آية فى ليلة كتب له قنوت ليلة » وكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب عن عبد الله بن يوسف والربيع بن نافع كلاهما عن الهيثم بن حميد به . وقوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) أى هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله (إنما يتذكر أولو الأبواب) أى إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل والله أعلم .

﴿ قُلْ يَمَيِّدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * قُلْ إِنِّ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه (قل يا عباد الدين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخراهم ، وقوله (وأرض الله واسعة) قال مجاهد

فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان ، وقال شريك عن منصور عن عطاء في قوله تبارك وتعالى (وأرض الله واسعة) قال إذا دعيتم إلى معصيته فاهربوا ثم قرأ (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) وقوله وتعالى (وإنا يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) قال الأوزاعي ليس يوزن لهم ولا يكال لهم إنما يعرف لهم غرقا ، وقال ابن جريج بلغني أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط ، ولكن زادون على ذلك ، وقال السدي (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) يعني في الجنة . وقوله (قل إني أمرت أن أعبد الله خلصا له الدين) أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له (وأمرت لأن أكون أول المسلمين) قال السدي يعني من أمته ﷺ

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُوا لَهُ دِينِيَ * فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ * لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَلْعَادُونَ فَاتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد وأنت رسول الله (إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) وهو يوم القيامة وهذا شرط ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأخرى (قل الله أعبد خلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه) وهذا أيضا تهديد وتبر منهم (قل إن الخاسرين) أي إنما الخاسرون كل الخسران (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) أي تفرقوا فلا التقاء لهم أبدا وسواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد ذهبواهم إلى النار أو أن الجميع أسكنوا النار ولكن لاجتماعهم ولم يلاسرور (ألا ذلك هو الخسران البين) أي هذا هو الخسران البين الظاهر الواضح ثم وصف حالهم في النار فقال (لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل) كما قال عز وجل (لهم من جهنم مهاد . ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين)

وقال تعالى (يوم يشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) وقوله جل جلاله (ذلك يخوف الله به عباده) أي إنما يقص خبر هذا السكائن لإحالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحرم والمأثم . وقوله تعالى (يا عباد فاتقون) أي اخشوا بأسي وسطوتى وعذابى وتقمق

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها) نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل وأبي ذر وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهم والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب . إلى عبادة الرحمن فهو لاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم قال عز وجل (فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) أي يفهمونه ويعملون بما فيه كقوله تبارك وتعالى لموسى عليه الصلاة والسلام حين آتاه التوراة (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) (أولئك الذين هداهم الله) أي للتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة (وأولئك هم أولوا الأبواب) أي ذوو العقول الصحيحة والقطر المستقيمة

﴿ أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقَهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ ﴾

يقول تعالى أفمن كتب الله أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والحلاك ؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله لأنه

من يضل الله فلا هادى له ومن يهده فلا مضل له . ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة وهي القصور أى الشاهقة (من فوقها غرف مبنية) طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات . قال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثنا عباد بن يعقوب الأسدي ثنا محمد بن فضيل عن عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة لفرفا يرى بطونها من ظهورها وظهورها من بطونها » فقال أعرابي لمن هي يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام » ورواه الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق وقال حسن غريب . وقد تكلم بعض أهل العلم فيه من قبل حفظه وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ثنا معمر بن يحيى بن أبي كثير عن ابن معانق أو أبي معانق عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن في الجنة لفرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعداها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام وتاب الصيام وصلى والناس نيام » تفرد به أحمد من حديث عبد الله بن معانق الأشعري عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه به وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد ثنا يعقوب بن عبد الرحمن عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أهل الجنة ليتراءون العرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في أفق السماء » قال فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش فقال سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول « كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الشرقى أو الغربى » أخرجاه في الصحيحين من حديث أبي حازم وأخرجاه أيضا في الصحيحين من حديث مالك عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الإمام أحمد حدثنا فزارة أخبرني فليح عن هلال بن علي عن عطاء ابن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل العرف كما تراءون الكوكب الذي في الأفق الطالع في فاضل أهل الدرجات - فقالوا يا رسول الله أولئك النبيون ؟ فقال ﷺ - « بلى والذي نفسي بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل » ورواه الترمذي عن سويد عن ابن المبارك عن فليح به وقال حسن صحيح . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر وأبو عامر قالا ثنا زهير ثنا سعد الطائي ثنا أبو الدله مولى أم المؤمنين رضي الله عنها أنها مع أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قلنا يا رسول الله إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة فإذا فارقتنا أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد قال ﷺ « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذبوا لجاء الله عز وجل بقوم يذنبون كي يغفر لهم » قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها قال ﷺ « لبننة ذهب ولبننة فضة وملأها السك الأذفر وحسبائها اللؤلؤ والياقوت وتراجها الزعفران من يدخلها ينعم ولا يبأس ويغفل ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم تحمل على الصمام وتفتح لها أبواب السموات ويقول الرب تبارك وتعالى وعزى لأنصرك ولو بعد حين » وروى الترمذي وابن ماجه بعضه من حديث سعد بن أبي مجاهد الطائي وكان ثقة عن أبي الدله وكان ثقة به وقوله تعالى (تجري من تحتها الأنهار) أى تسلك الأنهار بين خلل ذلك كما يشاءوا وأبى أرادوا (وعد الله) أى هذا الذى ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين (إن الله لا يخلف الميعاد)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبُيْعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُخَضْرَعًا ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطًّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ * أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال عز وجل (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) فإذا أنزل الماء من

السما كمن في الأرض ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء وينبئه عيونا ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها ولهذا قال تبارك وتعالى (فسلكه ينابيع في الأرض) قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين ثنا عمرو بن علي ثنا أبو قتيبة عتبة بن يقظان عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض) قال ليس في الأرض ماء إلا نزل من السماء ولكن عروق في الأرض تغيره فذلك قوله تعالى (فسلكه ينابيع في الأرض) فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصعده ، وكذا قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي أن كل ماء في الأرض فأصله من السماء ، وقال سعيد بن جبير أصله من الثلج يعنى أن الثلج يتراكم على الجبال فيسكن في قرارها فتنبع العيون من أسافلها وقوله تعالى (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) أى ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه أى أشكاله وطعمومه وروائجه ومنافعه (ثم يهيج) أى بعد نضارته وشبابه بكنهل قتره مصفراً قد خالطه اليبس (ثم يجعله حطاباً) أى ثم يعود يابساً يتحطم (إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب) أى الذين يتذكرون بهذا فيمتدرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء والشاب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك كله الموت ، فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيراً ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء وينبت به زروعاً وثماراً ثم يكون بعد ذلك حطاباً كما قال تعالى (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً) وقوله تبارك وتعالى أفمن أشرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه) أى هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق كقوله عز وجل (أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) ولهذا قال تعالى (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله) أى فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تمى ولا تفهم (أولئك في ضلال مبين)

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم . قال الله تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني) قال مجاهد يعنى القرآن كله متشابه مثاني ، وقال قتادة : الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف وقال الضحاك : مثاني ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى وقال عكرمة والحسن ثم الله فيه القضاء زاد الحسن تكون السورة فيها آية وفي السورة الأخرى آية تشبهها ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : مثاني مردد ردد موسى في القرآن وصالح وهود والأنبياء عليهم الصلاة والسلام في أمكنة كثيرة . وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما مثاني قال القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه على بعض ، وقال بعض العلماء وروى عن سفيان ابن عيينة معنى قوله تعالى (متشابهاً مثاني) إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من التشابه وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكشفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه هذا فهذان من المثاني كقوله تعالى (إن الأبرار لفي نعيم) وإن الفجار لفي جحيم) وكقوله عز وجل (كلا إن كتاب الفجار لفي سجين) - إلى أن قال - كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين) (هذا ذكر وإن للمعتقين لحسن مآب) - إلى أن قال - هذا وإن للطاغين لشر مآب) ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني أى في معنيين اثنين وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً فهو للتشابه وليس هذان للتشابه المذكور في قوله تعالى (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) ذاك معنى آخر وقوله تعالى (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى هذه صفة الأبرار ، عند سماع كلام الجبار ، الهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد تقشعر منه جلودهم

من الخشية والخوف (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه (أحدها) أن صماع هؤلاء هو تلاوة الآيات وسماع أولئك نعمات الآيات من أصوات القينات (الثاني) أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تبارك وتعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) وقال تعالى (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) أى لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لا حين عنها بل مصغيين إليها فاهمين بصيرين بمرانيها فلهمذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم (الثالث) أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة رضى الله عنهم عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله . لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلمون ما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية مالا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة . قال عبد الرزاق حدثنا معمر قال تلا قتادة رحمه الله (تشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) قال هذا نعت أولياء الله ، نعمتهم الله عز وجل بأن تشعر جلودهم وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعمهم بندهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان ، وقال السدى (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى إلى وعد الله ، وقوله (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده) أى هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله (ومن يضل الله فما له فمن هاد)

(أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ * كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * فَاذْقَهُمْ اللَّهُ الْحَزْنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَ الْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

يقول تعالى (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة) ويقرّع فيقال له ولأمثاله من الظالمين (ذوقوا ما كنتم تكسبون) كمن يأتى آمنا يوم القيامة كما قال عز وجل (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ؟) وقال جل وعلا (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر) وقال تبارك وتعالى (أفمن يلقى في النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة) واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر . كقول الشاعر :

فما أدرى إذا يمت أرضا * أريد الخير أيها يلينى

يعنى الخير أو الشر . وقوله جلت عظمتها (كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) يعنى القرون الماضية المكذبة للرسول أهلكتهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، وقوله جل وعلا (فاذقهم الله الحزنى في الحياة الدنيا) أى بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشقى المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك فأنهم قد كذبوا أشرف الرسل وخاتم الأنبياء ﷺ والذى أعد الله جل جلاله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ولهذا قال عز وجل (وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا هَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لُحْمُ ذُو نَبْتٍ أَمْ لَمِثْلِهِ مَثَلٌ * إِنَّكَ مِمَّنْ ذُرِّيَّتُهُ مُطِيعُونَ * ثُمَّ لَمَّا كُنْتُمْ فِي الْغَيْمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ)

يقول تعالى (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) أى بينا للناس فيه بضرب الأمثال (لعلهم يتذكرون) فان المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم) أى تعلمونه من أنفسكم ، وقال عز وجل (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وقوله جل وعلا (قرأنا عرييا غير ذى عوج) أى هو قرآن بلسان عربي مبين لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله تعالى كذلك ، وأنزله بذلك (لعلهم يتقون) أى يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد . ثم قال (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) أى يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم (ورجلا سلفا) أى سالما (لرجل) أى خالسا لا يملكه أحد غيره (هل يستويان مثلا ؟) أى لا يستوي هذا وهذا . كذلك لا يستوي الشرك الذى يعبد آلهة مع الله والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له ؟ فأين هذا من هذا ؟ قال ابن عباس رضى الله عنهما وعجابه وغير واحد : هذه الآية ضربت مثلا للشرك والمخلص ، ولما كان هذا المثل ظاهرا بينا جليا قال (الحمد لله) أى على إقامة الحجة عليهم (بل أكثرهم لا يعلمون) أى فلماذا يشركون بالله وقوله تبارك وتعالى (إنك ميت وإنهم ميتون) هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق رضى الله عنه عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته مع قوله عز وجل (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين) ومعنى هذه الآية أنكم ستقلعون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله تعالى في الدار الآخرة وتختصمون فيما أتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل فيفصل بينكم ويفتح بالحق وهو الفتح العليم ، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين الكذابين . ثم إن هذه الآية وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا فانه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة

قال ابن أبي حاتم رحمه الله حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ثنا سفيان عن محمد بن عمرو عن أنس حاطب - يعنى يحيى بن عبد الرحمن - عن ابن الزبير رضى الله عنه قال لما نزلت (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال الزبير رضى الله عنه يا رسول الله : أتكرر علينا الخصومة ، قال ﷺ « نعم » قال رضى الله عنه : إن الأمر إذا لشديد . وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان وعنده زيادة : ولما نزلت (ثم لتستلن يومئذ عن النعيم) قال الزبير رضى الله عنه : أى رسول الله أى نعيم نستل عنه وإنما نعيمنا الأسودان . التمر والنساء ؟ قال ﷺ « أما إن ذلك سيكون » وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه من حديث سفيان به وقال الترمذى حسن وقال أحمد أيضا حدثنا ابن نمير ثنا محمد - يعنى ابن عمرو - عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب عن عبد الله بن الزبير عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ (إنك ميت وإنهم ميتون) ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال الزبير رضى الله عنه . أى رسول الله أياكم علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص القنوب ؟ قال ﷺ « نعم ليكررن عليكم حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه » قال الزبير رضى الله عنه : والله إن الأمر لشديد ، رواه الترمذى من حديث محمد بن عمرو به وقال حسن صحيح وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة بن سعيد ثنا ابن لهيعة عن أبي عياش عن عتبة بن عامر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أول الخصمين يوم القيامة جاران » تفرد به أحمد وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا حسن بن موسى ثنا ابن لهيعة ثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده إنه ليختصم حتى الشاتون فيها انتطحتا » تفرد به أحمد رحمه الله . وفى للسند عن أنس رضى الله عنه أنه قال رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاتين ينتطحان فقال « أتدرى فيم ينتطحان يا أبا ذر ، » قلت لا قال ﷺ « لكن الله يدري وسيحكم بينهما » وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا سهل بن محمد ثنا حيان بن أغلب ثنا أبي ثنا ثابت عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بالإمام الجائر الحائن يوم القيامة فتخاصمه الرعية فيفلحون

عليه فيقال له سد ركننا من أركان جهنم ثم قال الأغلب بن تميم ليس بالحافظ وقال طي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) يقول يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدي الضال ، والضعيف المستكبر ، وقد روى ابن منده في كتاب الروح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : يختصم الناس يوم القيامة حتى تختصم الروح مع الجسد فتقول الروح للجسد أنت فعلت ويقول الجسد للروح أنت أمرت وأنت سولت فيبعث الله تعالى ملكا يفصل بينهما فيقول لهما إن مثلكما كمثل رجل مقعد بصير والآخر ضرير دخلا بستانا فقال المقعد للضرير إني أرى ههنا ثماراً ولكن لا أصل إليها فقال له الضرير اركبني فتناولها فركبه فتناولها فأيهما المعتدى ؟ فيقولان كلاهما فيقول لهما الملك فانكما قد حكمتما على أنفسكما ، يعني أن الجسد للروح كالمطية وهو راكبه وقال ابن أبي حاتم حدثنا جعفر بن أحمد بن عوسجة حدثنا ضار حدثنا أبو سلمة الخزازي حدثنا منصور بن سلمة حدثنا القمي - يعني يعقوب ابن عبد الله - عن جعفر بن المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : نزلت هذه الآية وما نعلم في أي شيء نزلت (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال قلنا من نخاصم ؟ ليس بيننا وبين أهل الكتاب خصومة فمن نخاصم ؟ حتى وقعت الفتنة فقال ابن عمر رضي الله عنهما : هذا الذي وعدنا ربنا عز وجل نختصم فيه ، ورواه النسائي عن محمد بن عامر عن منصور بن سلمة به ، وقال أبو العالقة في قوله تبارك وتعالى (ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون) قال يعني أهل القبلة ؛ وقال ابن زيد : يعني أهل الإسلام وأهل الكفر ، وقد قدمنا أن الصحيح العموم والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۚ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۚ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ۚ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول عز وجل مخاطباً للمشركين الذين ائتمروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى وادعوا ان لللائكة بنات الله وجعلوا لله ولداً تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنتهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ولهذا قال عز وجل (فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه) أي لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرفي الباطل كذب على الله وكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا الباطل وردوا الحق ولهذا قال جلّت عظمته متوعداً لهم (أليس في جهنم مثوى للكافرين ؟) وهم الجاحدون الكاذبون . ثم قال جل وعلا (والذي جاء بالصدق وصدق به) قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد : الذي جاء بالصدق هو الرسول صلى الله عليه وسلم وقال السدي : هو جبريل عليه السلام (وصدق به) يعني محمداً صلى الله عليه وسلم وقال طي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما (والذي جاء بالصدق) قال من جاء بلا إله إلا الله (وصدق به) يعني رسول الله ﷺ وقرأ الربيع بن أنس (والذي جاء بالصدق) يعني الأنبياء (وصدقوا به) يعني الأتباع . وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد (والذي جاء بالصدق وصدق به) قال أصحاب القرآن للمؤمنين يجيئون يوم القيامة فيقولون هذا ما أعطيتونا فعملنا فيه بما أمرتمونا . وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين فإن المؤمنين يقولون الحق ويعملون به والرسول صلى الله عليه وسلم أولى الناس بالدخول في هذه الآية على هذا التفسير فانه جاء بالصدق وصدق للرسولين وآمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (والذي جاء بالصدق) هو رسول الله صلى الله عليه وسلم (وصدق به) قال للمسلمون (أولئك هم المتقون) قال ابن عباس رضي الله عنهما : اتقوا الشرك (لهم ما يشاءون عند ربهم) يعني في الجنة مهما طلبوا وجدوا (ذلك جزاء المحسنين) ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزهم أجراً بأحسن الذي كانوا يعملون كما قال عز وجل في الآية الأخرى

أى دائم مستمر لا يحيدله عنه وذلك يوم القيامة ، أعادنا الله منها .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم (إنا أنزلنا عليك الكتاب) يعنى القرآن (للناس بالحق) أى لجميع الخلق من الإنس والجن لتتدبرهم به (فمن اهتدى فلنفسه) أى فانما يعود نفع ذلك إلى نفسه (ومن ضل فانما يضل عليها) أى إنما يرجع وبال ذلك على نفسه (وما أنت عليهم بوكيل) أى بموكل أن يهتدوا (إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل) (إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) . ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف فى الوجود بما يشاء وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يقبضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام كما قال تبارك وتعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون) فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى وفى هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى ولهذا قال تبارك وتعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) فيه دلالة على أنها تجتمع فى الملائكة الأعلى كما ورد بذلك الحديث المرفوع الذى رواه ابن منده وغيره . وفى صحيح البخارى ومسلم من حديث عبيد الله بن عمر عن سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخله إزاره فانه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه إن أمسكت نفسى فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » . وقال بعض السلف يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا وأرواح الأحياء إذا ناموا فتتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف (فيمسك التى قضى عليها الموت) التى قد ماتت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى . قال السدى إلى بقية أجلها ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما يمسك أنفس الأموات ويرسل أنفس الأحياء ولا يغلط (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

﴿ أَمْ أُتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ أَنْتُمْ قَالُوا لَا بَلَاءُ لَكَ بِهِمْ قُلْ اللَّهُ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَأَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِّرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَاهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

يقول تعالى ذاماً للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنناد التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حداثهم على ذلك وهى لا تملك شيئا من الأمر بل وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به بل هى جادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير ، ثم قال قل أى يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فرجعها كلها إليه (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) (له ملك السموات والأرض) أى هو المتصرف فى جميع ذلك (ثم إليه ترجعون) أى يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله وبجزى كلا بعمله ، ثم قال تعالى ذاماً للمشركين أيضا (وإذا ذكر الله وحده) أى إذا قيل لا إله إلا الله وحده (اشتأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) قال مجاهد اشتأزت انقبضت وقال السدى نفرت وقال قتادة

كثرت واستكبرت وقال مالك عن زيد بن أسلم استكبرت كما قال تعالى (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) أي عن المتابعة والاتباع لا تقبل الحير ومن لم يقبل الحير يقبل الشر ولذلك قال تبارك وتعالى (وإذا ذكر الدين من دونه) أي من الأصنام والأنداد قاله مجاهد (إذا هم يستبشرون) أي يفرحون ويسرون .

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ • وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْدَسِبُونَ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ •)

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر من اللذمة لهم في حجبهم الشرك وفترتهم عن التوحيد (قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة) أي ادع أنت الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطرها أي جعلها على غير مثال سبق (عالم الغيب والشهادة) أي السر والعلانية (أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) أي في دينهم منفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم . قال مسلم في صحيحه : حدثنا عبد بن حميد حدثنا عمر بن يونس ثنا عكرمة بن عمار ثنا يحيى بن أبي كثير حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة رضي الله عنها بأي شيء كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته إذا قام من الليل ، قالت رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل افتتح صلاته « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » . وقال الإمام أحمد حدثنا عفان ثنا حماد بن سلمة أن أناسيل عن أبي صالح وعبد الله بن عثمان بن خثيم عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال « من قال اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد اليك في هذه الدنيا أنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك فأنك إن تكلمت إلى نفسي تقرى من الشر وتباعدي من الخير ، وإنى لأتق إلا برحمتك فأجعل لي عندك عهداً يوم توفيني يوم القيامة أنك لا تغفل عبادي ، إلا قال الله عز وجل للملائكة يوم القيامة إن عهدي قد عهد إلى عباد فأوفوه إياه فيدخله الله الجنة » قال سهل فأخبرت القاسم بن عبد الرحمن أن عونا أخبر بكذا وكذا فقال ما بينا جارية إلا وهى تقول هذا في خدرها اشرد به الإمام أحمد . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن ثنا ابن لمبة حدثني يحيى بن عبد الله أن أبا عبد الرحمن حدثه قال أخرج لنا عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قرطاساً وقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلمنا قول : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شيء وإله كل شيء أشهد أن لا إله إلا أنت وحده لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك وللملائكة يشهدون ، أعوذ بك من الشيطان وشره ، وأعوذ بك أن أقترف على نفسي إثمًا أو أجرحه إلى مسلم . قال أبو عبد الرحمن رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ يلمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن يقول ذلك حين يريد أن ينام ، فخر به أحمد أيضاً .

وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا خلف بن الوليد حدثنا ابن عياش عن محمد بن زياد الألهاني عن أبي راشد الجبراني قال : أتيت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما فقلت له حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فألقى بين يدي صحيفة فقال هذا ما كتب لي رسول الله ﷺ فنظرت فيها فإذا فيها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله علمني ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشره أو أقترف على نفسي سوءاً أو أجرحه إلى مسلم » ورواه الترمذي عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن عياش به وقال حسن

غريب من هذا الوجه وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم حدثنا سيار عن ليث عن مجاهد قال : قال أبو بكر الصديق أمرني رسول الله ﷺ أن أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي من الليل : اللهم فاطر السموات والأرض الخ . وقوله عز وجل (ولو أن للذين ظلموا) وهم المشركون (مافي الأرض ومثله معه) أى ولو أن جميع مافي الأرض وضعفه معه (لافتدوا به من سوء العذاب) أى الذى أوجبه الله تعالى لهم يوم القيامة ومع هذا لا يقبل منهم الغداء ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال فى الآية الأخرى (وبدلهم من الله ما لم يكونوا يحسبون) أى وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم (وبدلهم سيئات ما كسبوا) أى وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم (وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِن أَنكَرْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ * قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أُولَٰئِكَ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه فى حال الضراء يتضرع إلى الله عز وجل وينيب إليه ويدعوه وإذا خوله نعمة منه بنى وطنى وقال (إنما أوتيته على علم) أى لما يعلم الله تعالى من استحقاق له ولولا أنى عند الله خصيص لما خولنى هذا قال قتادة على علم عندى على خبر عندى قال الله عز وجل (بل هى فتنة) أى ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى مع علمنا بالتقدم بذلك فى فتنة أى اختبار (ولكن أكثرهم لا يعلمون) فلهمذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون (قد قالها الذين من قبلهم) أى قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير من سلف من الأمم (فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما صح قولهم ولا نعمهم جمعهم وما كانوا يكسبون (فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء) أى من المخاطبين (سيصيبهم سيئات ما كسبوا) أى كما أصاب أولئك (وما هم بمُعْجِزِينَ) كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه (لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون) وقال تعالى (وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمُعْجِزِينَ) وقوله تبارك وتعالى (أو لم يعلموا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى يوسع على قوم ويضيقه على آخرين (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى لعبرا وحججا

﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلِ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يٰٓأَحْسَرَتْنِي قُلُوبُ مَآفَرَطٌ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنت لَمِنَ السَّخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ

حِينَ تَرَى الْمَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ ءَايَاتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والالابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه . قال البخارى حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم قال يعلى بن سويد عن جبير أخبره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثرُوا ، وزنوا فأكثرُوا ، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لا عملنا كفارة فنزل (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) ونزل (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج عن يعلى بن مسلم المكي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى عنهما به . والمراد من الآية الأولى قوله تعالى (إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) الآية . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن ثنا ابن لميعة ثنا أبو قبيل قال : سمعت أبا عبد الرحمن المزني يقول سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما أحب أن لى الدنيا وما فيها بهذه الآية (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم) » إلى آخر الآية فقال رجل يا رسول الله فمن أشرك ؟ فسكت النبي ﷺ ثم قال « ألا ومن أشرك » ثلاث مرات تفرد به الإمام أحمد . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا شريح بن النعمان ثنا نوح بن قيس عن أشعث بن جابر الحداني عن مكحول عن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم شيخ كبير يدعم على عصاه فقال : يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات فهل يغفر لى ؟ فقال ﷺ « أأنت تشهد أن لا إله إلا الله ؟ » قال بلى وأشهد أنك رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم « قد غفر لك غدراتك وفجراتك » تفرد به أحمد . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون ثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ (إنه عمل غير صالح) وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ولا يبلى) إلى الففور الرحيم) ورواه أبو داود والترمذى من حديث ثابت به . فهذه الأحاديث كلها دالة على أن المراد أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة ولا يقنطن عبد من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه وكثرت فإن باب الرحمة والتوبة واسع قال الله تعالى (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وقال عز وجل (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) وقال جل وعلا فى حق للناقين (إن الناقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * إلا الذين تابوا وأصلحوا) وقال جل جلاله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم) ثم قال جل جلالته (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) وقال تبارك وتعالى (إن الذين قتلوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا) قال الحسن البصرى رحمة الله عليه انظروا إلى هذا الكرم والجود قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والغفرة والآيات فى هذا كثيرة جدا . وفى الصحيحين عن أبي سعيد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذى قتل سميا وتسعين نفسا ثم ندم وسأل تابدا من عباد بنى إسرائيل هل له من توبة ، فقال لا فقتله وأكل به مائة ثم سأل طالما من علمائهم هل له من توبة فقال ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدتها فأثناء اللوت فى أثناء الطريق فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأمر الله عز وجل أن

يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها فوجدوه أقرب إلى الأرض التي هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة ، وذكر أنه نأى بصدرة عند الموت وأن الله تبارك وتعالى أمر البلدة الحيرة أن تهترب وأمر تلك البلدة أن تتباعد ، هذا معنى الحديث وقد كتبناه في موضع آخر بلفظه . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) إلى آخر الآية قال قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ومن زعم أن عزيزا ابن الله ومن زعم أن الله فقير ومن زعم أن يد الله مغسولة ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى لهؤلاء (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولا من هؤلاء ، من قال أنا ربكم الأعلى وقال (ما علمت لكم من إله غيري) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه وروى الطبراني من طريق الشعبي عن سفيان ابن شريك أنه قال سمعت ابن مسعود يقول إن أعظم آية في كتاب الله (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وإن أجمع آية في القرآن بخير بشر (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) وإن أكثر آية في القرآن فرحا في سورة العنكبوت (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) وإن أشد آية في كتاب الله تفويضا (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فقال له مسروق صدقت . وقال الأعمش عن أبي سعيد عن أبي الكنود قال مر عبد الله يعني ابن مسعود رضي الله عنه على قاص وهو يذكر الناس فقال يا مذكر لم تقنط الناس من رحمة الله ؟ ثم قرأ (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) رواه ابن أبي حاتم رحمه الله

﴿ ذكر أحاديث فيها نفى القنوط ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا شريح بن النعمان ثنا أبو عبيدة عبد المؤمن بن عبيد الله السدي حدثني حسن السدوسي قال دخلت على أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « والذي نفسي بيده لو أخطأتم حتى تملأوا خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم ، والذي نفس محمد صلى الله عليه وسلم - بيده لو لم تخطئوا لجاؤا الله عز وجل يقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » تفرد به أحمد . وقال الإمام أحمد حدثنا إسحاق بن عيسى حدثني الليث حدثني محمد بن قيس قاص عمر بن عبد العزيز عن أبي صرمة عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أنه قال حين حضرته الوفاة قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول « لو لا أنكم تذنبن لخلق الله عز وجل قوما يذنبون فيغفر لهم » هكذا رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه والترمذي جميعا عن قتبية عن الليث بن سعد به ، ورواه مسلم من وجه آخر به عن محمد بن كعب القرظي عن أبي صرمة وهو الأنصاري صحابي عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنهما به . وقال الإمام أحمد حدثنا أحمد بن عبد الملك الحراني ثنا يحيى بن عمرو بن مالك البكري قال سمعت أبي يحدث عن أبي الجوزاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « كفارة الذنب الندامة » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو لم تذنبا لجاؤا الله تعالى يقوم يذنبن فيغفر لهم » تفرد به أحمد . وقال عبد الله ابن الإمام أحمد حدثني عبد الأعلى بن حماد القرشي ثنا داود ابن عبد الرحمن ثنا أبو عبد الله مسلمة بن عبد الله الرازي عن أبي عمرو والبجلي عن عبد الملك بن سفيان الثقفي عن أبي جعفر محمد بن علي عن محمد بن الحنفية عن أبيه علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى يحب العبد المقلن التواب » ولم يخرجوه من هذا الوجه

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا موسى بن إسماعيل ثنا حماد ثنا ثابت وحفيد عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : إن إبليس لعنه الله تعالى قال يا رب إنك أخرجتني من الجنة من أجل آدم واني لا أستطيعه إلا بسلطانك قال فأنت مسلط ، قال يا رب زدني ، قال لا يولد له ولد إلا ولدك مثله ، قال يا رب زدني قال أجعل صدورهم مساكن لكم وتجرون منهم مجرى الدم قال يا رب زدني قال أجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان

إلا غرورا ، فقال آدم عليه الصلاة والسلام يارب قد سلطته على وإنى لا أمتنع إلا بك قال تبارك وتعالى لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من قرناء السوء ، قال يارب زدنى ، قال الحسنه عشر أو أزيد والسيئة واحدة أو أعوها قال يارب زدنى قال باب التوبة مفتوح ما كان الروح في الجسد قال يارب زدنى قال (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) وقال محمد بن إسحاق قال نافع عن عبد الله ابن عمر عن عمر رضى الله عنهما فى حديثه قال وكنا نقول ما الله بقابل عن افتتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم قال وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم قال فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنزل الله تعالى فيهم وفى قولنا وقولهم لأنفسهم (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم * وأنيسوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتكم العذاب ثم لا مروءة واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) قال عمر رضى الله عنه فكتبته يدي فى صحيفة وبعث بها إلى هشام بن العاص رضى الله عنه قال : فقال هشام لما أتتني جعلت أقرأها بدي طوى أصعد بها فيه وأصوت ولا أفهمها حتى قلت اللهم أفهمنيها قال فألقى الله عز وجل فى قلبى أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول فى أنفسنا ويقال فينا فرجعت إلى بعيرى ، فجلست عليه فلحقت برسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ثم استحثت تبارك وتعالى عباداه إلى السارعة إلى التوبة فقال (وأنيسوا إلى ربكم وأسلموا له) الخ : أى ارجعوا إلى الله واستسلموا له (من قبل أن يأتكم العذاب ثم لا مروءة) أى بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول العقوبة (واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم) وهو القرآن العظيم (من قبل أن يأتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) أى من حيث لا تعلمون ولا تشعرون ثم قال عز وجل (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله) أى يوم القيامة يتحسر المجرم للفرط فى التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين للطيعين لله عز وجل ، وقوله تبارك وتعالى (وإن كنت لمن الساخرين) أى إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موثق مصدق (أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كره فأكون من المحسنين) أى تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أخبر الله سبحانه وتعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه وعملهم قبل أن يعملوه . وقال تعالى (ولا ينبئك مثل خبير) (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كره فأكون من المحسنين) فأخبر الله عز وجل أن لو ردوا لما قدروا على الهدى فقال (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقد قال الإمام أحمد حدثنا أسود ثنا أبو بكر عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول لو أن الله هدانى فتكون عليه حسرة ، قال وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول لولا أن الله هدانى قال فيكون له الشكر » ورواه النسائي من حديث أبى بكر بن عياش به ، ولما تمى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسوله قال الله سبحانه وتعالى (بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) أى قد جاءتك آياتها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا وقامت حججى عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها .

(وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ * وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَازِيهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ الشُّوْهُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه ويميض فيه وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض

وجوه أهل السنة والجماعة قال تعالى ههنا (ويوم ترى الدين كذبوا على الله) أى فى دعواهم له شريكا وولدا (وجوههم مسودة) أى بكذبهم واقتراثهم وقوله تعالى (أليس فى جهنم مثوى للتكبرين ؟) أى أليست جهنم كافية لها سجنا وموتلا لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبهم وإبائهم عن الانقياد للحق . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب ثنا عمى ثنا عيسى بن أبي عيسى الحياط عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن للتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الدر فى صور الناس يعلمهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس من نار الأنيار ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الحبال » ، وقوله تبارك وتعالى (وينجى الله الذين اتقوا بمنازتهم) أى بما سبق لهم من السعادة والقوز عند الله (لا يمسمهم السود) أى يوم القيامة (ولا هم يحزنون) أى ولا يحزنهم الفزع الأكبر بل هم آمنون من كل فزع مزحزون عن كل شر نائلون كل خير

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَنَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِى أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكمها والتصرف فيها وكل تحت تديره وقهره وكلاءه وقوله عز وجل (له مقاليد السموات والأرض) قال مجاهد : المقاليد هى المفاتيح بالفارسية ، وكذا قال قتادة وابن زيد وسفيان بن عيينة ، وقال السدى (له مقاليد السموات والأرض) أى خزائن السموات والأرض ، والمعنى على كلا القولين أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ولهذا قال جل وعلا (والذين كفروا بآيات الله) أى حججه وبراهينه (أولئك هم الخاسرون) وقدرى ابن أبي حاتم ههنا حديثا غريبا جداً وفى صحته نظر ولكن نحن نذكره كما ذكره فانه قال حدثنا يزيد بن سنان البصرى بمصر ثنا يحيى بن حماد ثنا الأغلب بن تميم عن عجلد ابن هذيل العبدى عن عبد الرحمن اللدى عن عبد الله بن عمر عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى (له مقاليد السموات والأرض) فقال « ما سألتى عنها أحد قبلك يا عثمان » قال صلى الله عليه وسلم « تفسيرها لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله وبحمده ، أستغفر الله ولا قوة إلا بالله ، الأول والآخر والظاهر والباطن ، بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير . من قالها يا عثمان إذا أصبح عشر مرار أعطى خصالا ستا : أما أولاهن فيحرس من إبليس وجنوده وأما الثانية فيعطى قنطارا من الأجر ، وأما الثالثة فترفع له درجة فى الجنة ، وأما الرابعة فيتزوج من الحور العين ، وأما الخامسة فيحضره اثنا عشر ملكا ، وأما السادسة فيعطى من الأجر كمن قرأ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور ، وله مع هذا يا عثمان من الأجر ، كمن حج وقبعت حجته واعتمر فتقبلت عمرته فان مات من يومه طبع عليه بطابع الشهداء » ورواه أبو يعلى اللوصلى من حديث يحيى بن حماد به مثله وهو غريب وفيه نكارة شديدة والله أعلم . وقوله تبارك وتعالى (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟) ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدوا معه إله فزلت (قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟) ولقد أوحى إليك وإلى الدين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) وهذه كقوله تعالى (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) . وقوله عز وجل (بل الله فاعبد وكن من الشَّاكِرِينَ) أى أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يقول تبارك وتعالى (وما قدروا الله حق قدره) أى ما قدر المشركون الله حق قهره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذى لا أعظم منه القادر على كل شيء المالك لكل شيء وكل شيء تحت قدره وقدرته ، قال مجاهد نزلت فى قريش ، وقال السدى ما عظموه حق تعظيمه ، وقال محمد بن كعب لو قدروه حق قدره ما كذبوا . وقال طى بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (وما قدروا الله حق قدره) هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدره الله عليهم . فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكليف ولا تحريف . قال البخارى قوله تعالى (وما قدروا الله حق قدره) حدثنا آدم ثنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على اصبع والأرضين على اصبع ، والشجر على اصبع ، والماء والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع فيقول أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصدقا لقول الجبر ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية ورواه البخارى أيضا فى غير هذا الوضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى فى التفسير من سننهما كلهم من حديث سلمان بن مهران الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود رضى الله عنه بنحوه وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية ثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب فقال يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يحمل الخلائق على اصبع والسموات على اصبع والأرضين على اصبع والشجر على اصبع والماء والثرى على اصبع ، قال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه قال وأنزل الله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) إلى آخر الآية ، وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى من طرق عن الأعمش به وقال الإمام أحمد حدثنا حسين بن حسن الأشقر ثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال مر يهودى برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فقال : كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله سبحانه وتعالى السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه والجبال على ذه وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بأصابعه - قال فأنزله الله عز وجل (وما قدروا الله حق قدره) الآية وكذا رواه الترمذى فى التفسير عن عبيد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن محمد بن الصلت عن أبي جعفر عن أبي كدينة يحيى بن المهلب عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به وقال الحسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . ثم قال البخارى حدثنا سعيد بن عفيرة ثنا الليث ثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء يمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض » تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر . وقال البخارى فى موضع آخر حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمى القاسم بن يحيى عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على اصبع وتكون السموات يمينه ثم يقول أنا الملك » تفرد به أيضا من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر ، وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول فقال حدثنا عفان ثنا حماد بن سلمة أنا إسحق ابن عبد الله بن أبي طلحة عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات

ييمينه سبحانه وتعالى عما يشركون) ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر « يعجد الرب نفسه أنا الجبار أنا المتكبر أنا الملك أنا العزيز أنا الكريم » فرجف برسول صلى الله عليه وسلم النبر حتى قلنا ليخرن به وقد رواه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث عبد العزيز بن أبي حازم زاد مسلم ويعقوب بن عبد الرحمن كلاهما عن أبي حازم عن عبيد الله بن مقسم عن ابن عمر رضى الله عنهما به نحوه ، ولفظ مسلم عن عبيد الله بن مقسم في هذا الحديث أنه نظر إلى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كيف يحكى النبي ﷺ قال يأخذ الله تبارك وتعالى ممواته وأرضيه بيده ويقول أنا الملك ويقبض أصابعه وييسطها أنا الملك حتى نظرت إلى النبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى إنى لأقول أساقطه برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال البزار حدثنا سليمان بن سيف ثنا أبو طلى الحنفي ثنا عباد المقرئ حدثني محمد بن النكدر قال ثنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية على النبر (وما قدروا الله حتى قدره - حتى بلغ - سبحانه وتعالى عما يشركون) فقال النبر هكذا فجاء وذهب ثلاث مرات والله أعلم ، ورواه الإمام الحافظ أبو القاسم الطبراني من حديث عبيد بن عمير عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما وقال صحيح . وقال الطبراني في المعجم الكبير حدثنا عبد الرحمن بن معاوية العتيبي ثنا حسان بن نافع عن صخر بن جويرية ثنا سعيد بن سالم القداح عن معمر بن الحسن عن بكر بن خنيس عن أبي شيبة عن عبد الملك بن عمير عن جرير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من أصحابه رضى الله عنهم « إني قارئ عليكم آيات من آخر سورة الزمر فمن بكى منكم وجبت له الجنة » فقرأها صلى الله عليه وسلم من عند (وما قدروا الله حتى قدره) إلى آخر السورة فمنا من بكى ومنا من لم يبك فقال الذين لم يبكوا يا رسول الله لقد جهدنا أن نبكى فلم نبك فقال صلى الله عليه وسلم « إني سأقرؤها عليكم فمن لم يبك فليتباك » هذا حديث غريب جداً وأغرب منه ما رواه في المعجم الكبير أيضا حدثنا هاشم بن زيد حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زوعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يقول ثلاث خلال غيبتن عن عبادى لو رآهن رجل ما عمل بسوء أبدا : لو كشفت غطائى فرآنى حتى استيقن ويعلم كيف أفعل بخلقى إذا أتيتهم وقبضت السموات بيدي ثم قبضت الأرضين ثم قلت أنا الملك من ذا الذى له الملك دونى فأرهبهم الجنة وما أعددت لهم فيها من كل خير فيستيقنوها وأرهبهم النار وما أعددت لهم فيها من كل شرف فيستيقنوها ولكن عمدا غيبت ذلك عنهم لأعلم كيف يعملون وقد بينته لهم » وهذا إسناد متقارب وهى نسخة تروى بها أحاديث جملة والله أعلم

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي قِيَامٍ يَنْظُرُونَ * وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بَنُورٍ رَبَّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبرا عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقوله تعالى (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) هذه النفخة هى الثانية وهى نفخة الصعق وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا فى حديث الصور المشهور ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك اللوت وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقي آخر بالديمومة والبقاء ويقول (لمن الملك اليوم) ثلاث مرات ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول (لله الواحد القهار) أنا الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شيء وحكمت بالقضاء على كل شيء ، ثم يجي أول من يجي إسرائيل ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى وهى النفخة الثالثة نفخة البعث قال الله عز وجل (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) أى أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة كما قال تعالى (فأعاهى زجرة واحدة

فإذا هم بالساهرة) . وقال عز وجل (يوم يدعوك فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وقال جل وعلا (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن النعمان بن سالم قال سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما إنك تقول الساعة تقوم إلى كذا وكذا قال لقد هممت أن لا أحدثكم شيئا إنما قلت سترون بعد قليل أمرا عظيما ثم قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرج الدجال في أمي فيمكث فيهم أربعين أو أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما أو أربعين ليلة فيبعث الله تعالى عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفي فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى ان لو كان أحدهم كان في كبد جبل لمخلت عليه » قال سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم « ويبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا قال فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تسجيون فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدها وهم في ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أضى لينا ورفع لينا وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ثم لا يبقى أحد إلا صعق ، ثم يرسل الله تعالى أو ينزل الله عز وجل مطرا كأنه الطل - أو الظل شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال أيها الناس هلموا إلى ربكم (وقومهم إنهم مسؤولون) - قال - ثم يقال أخرجوا بئس النار فيقال كم ؟ فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين فيومئذ تبعث الولدان شيئا ويومئذ يكشف عن ساق » انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه

حدثنا أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت أبا هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما بين النفختين أربعون » قالوا يا أبا هريرة أربعون يوما قال رضي الله تعالى عنه أيبت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال أيبت ، قالوا أربعون شهرا ؟ قال أيبت ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه فيه يركب الخلق

وقال أبو يعلى حدثنا يحيى بن معين حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمر بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « سألت جبريل عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية (ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله) من الذين لم يشأ الله تعالى أن يصعقهم ؟ قال هم الشهداء يتقلدون أسيافهم حول عرشه تتلقاهم ملائكة يوم القيامة إلى المحشر بنجائب من يا قوت نمارها ألين من الحرير مد خطاها مد أبصار الرجال يسرون في الجنة يقولون عند طول النزهة انطلقوا بنا إلى ربنا لننظر كيف يقضى بين خلقه يضحك إليهم إلهي وإذا ضحك إلى عبد في موطن فلاحساب عليه » رجاله كلهم ثقات إلا الشيخ إسماعيل بن عياش فإنه غير معروف والله سبحانه وتعالى أعلم . وقوله تبارك وتعالى (وأشرق الأرض بنور ربها) أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلق لفصل القضاء (ووضع الكتاب) قال قتادة كتاب الأعمال (وجيء بالنبيين) قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يشهدون على الأمم بأنهم بلغوا رسالات الله إليهم (والشهداء) أي الشهداء من للملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر (وقضى بينهم بالحق) أي بالعدل (وهم لا يظلمون) قال الله تعالى (ونضع للوازنين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) وقال جل وعلا (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة بضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما) ولهذا قال عز وجل (ووفيت كل نفس ما عملت) أي من خير أو شر (وهو أعلم بما يفعلون)

« وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ هَٰذَا جَاءَهُمْ وَأُتُوا بِهَا ۖ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ ۖ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٠٠﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار وإنما يساقون سوقا عنيفا بجزر وتهديد ووعيد كما قال عز وجل (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا) أى يدفعون إليها دفعا ، وهذا وهم عطاش ظماء كما قال جل وعلا في الآية الآخر (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) وهم في تلك الحال صم وبكم وعمى منهم من يمشى على وجهه (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكيا وصبا مأواهم جهنم كلما خبت زنادهم سعيرا) وقوله تبارك وتعالى (حتى إذا جاءوها ففتحت أبوابها) أى بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا لتعجل لهم العقوبة ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الدين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التفرغ والتوبيخ والتنكيل (ألم يأتكم رسل منكم ؟) أى من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم (يتلون عليكم آيات ربكم) أى يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة مادعوكم إليه (وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أى ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم (بلى) أى قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين (ولكن حقت كلمات العذاب على الكافرين) أى ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل كما قال عز وجل عبنا عنهم في الآية الأخرى (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) أى رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة (فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير) أى بعدا لهم وخسارا

وقوله تبارك وتعالى ههنا (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أى كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ولهذا قال جل وعلا (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها) أى ما كثرت فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها (فبئس مثوى المتكبرين) أى فبئس المصير وبئس المقيال لكم بسبب تكبركم في الدنيا وإيائكم عن اتباع الحق فهو الذي صيركم إلى ما أنتم فيه فبئس الحال وبئس المآل

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٠١﴾﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة زمرا أى جماعة بعد جماعة : المقربون ثم الأبرار ثم الدين يلوهم ثم الدين يلوهم كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم وكل صنف مع صنف كل زمرة تناسب بعضها بعضا (حتى إذا جاءوها) أى وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فاقصص لهم مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا وتقوا أذن لهم في دخول الجنة وقد ورد في حديث الصور أن المؤمنين إذا اتبوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم في الدخول فيقصدون آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمدا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين كما فعلوا في العرصات عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتي لفصل القضاء ليظهر شرف محمد صلى الله عليه وسلم على سائر البشر في المواطن كلها وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول شفيع في الجنة » وفي لفظ لمسلم « وأنا أول من يقرع باب الجنة » وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم حدثنا سليمان عن ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول شفيع في الجنة »

عليه وسلم « آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد - قال - فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » ورواه مسلم عن عمرو بن محمد الناقد وزهير بن حرب كلاهما عن أبي النضر هاشم بن القاسم عن سليمان وهوابن المغيرة القيسي عن ثابت عن أنس رضى الله عنه به . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ثنا معمر بن همام بن منبه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها ، آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجارهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مع ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله تعالى بكرة وعشيا » ورواه البخارى عن محمد بن مقاتل عن ابن المبارك . ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق كلاهما عن معمر بإسناده نحوه وكذا رواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا أبو خيثمة حدثنا جرير عن عمارة بن القعقاع عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجارهم الألوة وأزواجهم الخور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء » وأخرجاه أيضا من حديث جرير وقال الزهرى عن سعيد عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « يدخل الجنة من أمى زمرة هم سبعون ألفا تضى وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » فقام عكاشة بن محصن فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال « اللهم أجعله منهم » ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم فقال ﷺ « سبقك بها عكاشة » أخرجاه وقد روى هذا الحديث - في السبعين ألفا يدخلون الجنة بغير حساب - البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين وابن مسعود ورفاعة بن عرابة الجهنى وأم قيس بنت محصن رضى الله عنهم ولهما عن أبي حازم عن سهل بن سعد رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يدخل الجنة من أمى سبعون ألفا أو سبعائة ألف آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة وجوههم على صورة القمر ليلة البدر » . وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا إسماعيل بن عياش عن محمد بن زياد قال سمعت أبا أمامة الباهلى رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « وعدنى ربى عز وجل أن يدخل الجنة من أمى سبعين ألفا مع كل ألف سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب وثلاث حثيات من حثيات ربى عز وجل » وكذا رواه الوليد بن مسلم عن صفوان بن عمرو عن حكيم بن حاكم عن أنس بن مالك عن عبد الله بن يحيى عن أبي أمامة ورواه الطبرانى عن عيينة^(١) بن عبد السلى « ثم مع كل ألف سبعين ألفا » ويروى مثله عن ثوبان وأبى سعيد الأنصارى وله شواهد من وجوه كثيرة وقوله تعالى (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره حتى إذا جاءوها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراما وتعظيما وتلقفهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالثريب والتأنيب فتقديره إذا كان هذا سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ذهب الدهن كل مذهب فى الرجاء والأمل ، ومن زعم أن الواو فى قوله تبارك وتعالى (وفتحت أبوابها) واو الثمانية واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزاع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة . قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أتق زوجين من ماله فى سبيل الله تعالى دعى من أبواب الجنة وللجنة أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان » فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه يا رسول الله

(١) فى نسخة عن عتبة . وقوله ثم مع كل ألف الخ . فى نسخة ثم يفتح كل ألف فى سبعين ألفا .

ما على أحد من ضرورة دعى من أيها دعى فهل يدعى منها كلها أحد يارسل الله ؟ قال ﷺ « نعم وأرجو أن تكون منهم » رواه البخارى ومسلم من حديث الزهرى بنحوه وفيهما من حديث أنى حازم سلمة بن دينار عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن فى الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » . وفى صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » وقال الحسن بن عرفة حدثنا إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن معاذ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مفتاح الجنة لا إله إلا الله »

﴿ ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله من فضله العظيم أن يجعلنا من أهلها ﴾

فى الصحيحين من حديث أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث الشفاعة الطويل « فىقول الله تعالى يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن وهم شركاء الناس فى الأبواب الأخر والذى نفس محمد بيده إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة أو هجر - وهجر ومكة - وفى رواية - مكة وبصرى » . وفى صحيح مسلم عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها ولقد ذكر لنا أن ما بين مصرعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام ، وفى المسند عن حكيم بن معاوية عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مثله ، وقال عبد بن حميد ثنا الحسن بن موسى ثنا ابن لهيعة ثنا دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إن ما بين مصرعين فى الجنة مسيرة أربعين سنة » . وقوله تبارك وتعالى (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبتم) أى طابت أعمالكم وأقوالكم وطابت سعيكم وطابت جزاؤكم كما أمر رسول الله ﷺ أن ينادى بين المسلمين فى بعض الغزوات « إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة - وفى رواية - مؤمنة » وقوله (فادخلوها خالدين) أى ما كثر فيها أبدا لا يغيث عنها حولا (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده) أى يقول المؤمنون إذا عاينوا فى الجنة ذلك الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والمملك الكبير يقولون عند ذلك (الحمد لله الذى صدقنا وعده) أى الذى كان وعدنا على السنة رسوله الكرام كادعوا فى الدنيا (ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف اليعاد) (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا ما كنا لنهتدى لولا أن الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) (وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار للقائمة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) وقولهم (وأورثنا الأرض نتبأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) . قال أبو العالية وأبو صالح وقتادة والسدى وابن زيد أى أرض الجنة فهذه الآية كقوله تعالى (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ولهذا قالوا (نتبأ من الجنة حيث نشاء) أى أين شئنا حللنا فنعم الأجر أجرنا على عملنا وفى الصحيحين من حديث الزهرى عن أنس رضى الله عنه فى قصة المعراج قال النبى صلى الله عليه وسلم « أدخلت الجنة فإذا جنا نبال اللؤلؤ وإذا ترابها المسك » . وقال عبد بن حميد حدثنا روح بن عبادة ثنا حماد بن سلمة عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ابن صائد عن تربة الجنة فقال درمكة بضاء مسك خالص فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صدق » وكذا رواه مسلم من حديث أبى سلمة عن أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه به ورواه مسلم أيضا عن أبى بكر بن أبى شيبة عن أبى أسامة عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه قال إن ابن صائد سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال « درمكة بضاء مسك خالص » . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى ثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل ثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قوله تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا) قال سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان فعمدوا

إلى إحداها فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تغير أبشارهم بعدها أبدا ولم تشعث أشعارهم أبدا بعدها كأنما دهنوا بالدهان ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها فشربوها منها فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى أو قذى وتلقتهن الملائكة على أبواب الجنة (سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين) وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالجميع جاء من الغيبة أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا، قال وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقول هذا فلان باسمه في الدنيا فيقلن أنت رأيت فيقول نعم فيستخفن الفرج حتى تخرج إلى أسكفة الباب قال فيجىء فإذا هو بنارق مصفوفة وأكواب موضوعة وزرابى مبنوثة قال ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ومن كل لون ثم يرفع طرفه إلى سقفه فلو أن الله تعالى قدره له لألم أن يذهب بصره إنه مثل البرق ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ثم يتكى على أريكة من أرائكه ثم يقول (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله)

ثم قال حدثنا أبى ثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدي ثنا مسعدة بن جعفر البجلي قال : سمعت أبا معاذ البصري يقول إن عليا رضى الله عنه كان ذات يوم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم «والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون - أو يؤتون - بنوق لها أجنحة وعليها رجال الذهب شراك نالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مد البصر فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان فيشربون من إحداها فتغسل ما في بطونهم من دفس ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبدا وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون - أو فيأتون - باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفيحة فيسمع لها طنين ياطي فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل فتبعت قيمها فيفتح له فإذا رآه خر له - قال مسعدة أراه قال ساجداً - فيقول ارفع رأسك فانما أنا قيمك وكلت بأمرك فيتبعه ويقفوا أثره فتستخف الحوراء العجلة فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتقه ثم تقول أنت حبي وأنا حباك وأنا الخالدة التى لا أموت وأنا الناعمة التى لا أبأس وأنا الراضية التى لا أسخط ، وأنا المقيمة التى لا أظعن فيدخل بيتاً من أسه إلى أسقفه مائة ألف ذراع بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق أصفر وأخضر وأحمر ليس منها طريقة تشا كل صاحبها في البيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون حشية على كل حشية سبعون زوجة على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ ساقها من باطن الحلل يقضى جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه ، الأنهار من تحتهم تترد أنهار من ماء غير آسن - قال صاف لا كدر فيه - وأنهار من لبن لم يتغير طعمه - قال لم يخرج من ضرع الماشية - وأنهار من خمر لذة للشاربين - قال لم تعصرها الرجال بأقدامهم - وأنهار من عسل مصفى - قال لم يخرج من بطون النحل ، يستجنى الثمار فإن شاء قائما وإن شاء قاعدا وإن شاء متكئا - ثم تلا (ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا) - فيشهى الطعام فيأتيه طير أبيض - قال وربما قال أخضر قال - فترفع أجنحتها فيا كل من جنوبها أى الألوان شاء ثم يطير فيذهب فيدخل الملك فيقول : سلام عليكم تلسم الجنة أو رثتموها بما كنتم تعملون . ولو أن شعرة من شعر الحوراء وقعت في الأرض لأضاءت الشمس معها سوادا في نور » هذا حديث غريب وكأنه مرسل والله أعلم

﴿ وَرَبِّ الْمَلَكَةِ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار وأنه نزل كلا في المحل الذى يليق به ويصلح له وهو العادل في ذلك الذى لا يحور ، أخبر عن ملائكته أنهم محددون من حول العرش المجيد يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والجور وقد فصل القضية وقضى الأمر وحكم بالعدل ولهذا قال عز وجل (وقضى

بينهم) أى بين الخلاق (بالحق) . ثم قال (وقيل الحمد لله رب العالمين) أى نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد قال قتاده افتتح الخلق بالحمد فى قوله (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) واختتم بالحمد فى قوله تبارك وتعالى (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) .

(تفسير سورة المؤمن وهى مكية)

قد كره بعض السلف منهم محمد بن سيرين أن يقال الحواميم وإنما يقال آل حم قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه آل حم ديباج القرآن وقال ابن عباس رضى الله عنهما إن لكل شئ لباباً وللباب القرآن آل حم أو قال الحواميم وقال مسعر بن كدام كان يقال لمن العرائس روى ذلك كله الإمام العالم أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله تعالى فى كتاب فضائل القرآن . وقال حميد بن زنجويه حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله رضى الله عنه قال : إن مثل القرآن كمثل رجل انطلق يرتاد لأهله منزلاً فمر بأثر غيث فبينما هو يسير فيه ويتعجب منه إذ هبط على روضات دمنات فقال عجت من الغيث الأول فهذا أعجب وأعجب قليل له إن مثل الغيث الأول مثل عظم القرآن ، وإن مثل هؤلاء الروضات الدمنات مثل آل حم فى القرآن أورده البغوى . وقال ابن لمبة عن يزيد بن أبي حبيب أن الجراح بن أبي الجراح حدثه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لكل شئ لباب وللباب القرآن الحواميم ، وقال ابن مسعود رضى الله عنه إذا وقعت فى آل حم فقد وقعت فى روضات أتانق فيهن . وقال أبو عبيد ثنا الأشجعى حدثنا مسعر هو ابن كدام عمن حدثه أن رجلاً رأى أبا الدرداء رضى الله عنه يبنى مسجداً فقال له ما هذا ؟ فقال أبنيه من أجل آل حم وقد يكون هذا المسجد الذى بناه أبو الدرداء رضى الله عنه هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق ، وقد يكون صياتها وحفظها ببركة ما وضع له فإن هذا الكلام يدل على النصر على الأعداء كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه فى بعض الغزوات « إن يتم الليلة فقولوا حم لا ينصرون - وفى رواية - لا تنصرون » وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد بن الحكم بن ظبيان بن خلف المازنى ومحمد بن الليث الحمدانى قال حدثنا موسى بن مسعود حدثنا عبد الرحمن بن أبي بكر المليكى عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ آية الكرسي وأول حم المؤمن عصم ذلك اليوم من كل سوء » ثم قال لا نعلمه يروى إلا بهذا الاسناد ورواه الترمذى من حديث المليكى وقال تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلُولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا وقد قيل إن (حم) اسم من أسماء الله عز وجل وأنشدوا فى ذلك بيتاً

يذكرنى حم والرمح شاجر فهلا تلا حم قبل التقدمة

وقد ورد فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى من حديث الثورى عن أبي إسحاق عن المهلب بن أبي صفرة قال : حدثنى من ميم رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن يتم الليلة فقولوا حم لا ينصرون » وهذا إسناد صحيح ، واختار أبو عبيد أن يروى فقولوا حم لا ينصروا أى إن قلتم ذلك لا ينصروا جعله جزاء لقوله فقولوا وقوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) أى تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذى العزة والعلم فلا يرام جنبه ولا يخفى عليه الدن وإن تكاثف حجاباه . وقوله عز وجل (غافر الذنب وقابل التوب) أى يغفر ما سلف

من الذنب ويقبل التوبة في المستقبل لمن تاب إليه وخضع لديه وقوله جل وعلا (شديد العقاب) أى لمن تمرد وطمى
وآثر الحياة الدنيا وعنا عن أوامر الله تعالى وبغى وهذه كقوله (نبى عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى
هو العذاب الأليم) يقرن هذين الوصفين كثيراً في مواضع متعددة من القرآن ليقى العبد بين الرجاء والخوف ، وقوله
تعالى (ذى الطول) قال ابن عباس رضى الله عنهما يعنى السعة والغنى ، وهكذا قال مجاهد وقتادة ، وقال يزيد بن الأصم
ذى الطول يعنى الخير الكثير . وقال عكرمة (ذى الطول) ذى المن ، وقال قتادة ذى النعم والفواضل ، والمعنى أنه
المتفضل على عباده المتطول عليهم بما هم فيه من اللز والالعام التى لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها (وإن تعدوا
نعمة الله لا تحصوها) الآية . وقوله جلت عظمتة (لا إله إلا هو) أى لا نظير له فى جميع صفاته فلا إله غيره ولا رب
سواه (إليه المصير) أى المرجع والمآب فيجازى كل عامل بعمله (وهو سريع الحساب) وقال أبو بكر بن عياش
سمعت أبا إسحاق السبيعى يقول : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يا أمير المؤمنين إني قتلت فهل لى
من توبة فقرأ عمر رضى الله عنه (حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد
العقاب) وقال اعمل ولا تيأس . رواه ابن أبي حاتم واللفظ له وابن جرير . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو ثناء موسى
ابن مروان الرقى ثنا عمر بنى ابن أيوب أنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم قال : كان رجل من أهل الشام ذوبأس
وكان ينفذ إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ففقد عمر فقال ما فعل فلان بن فلان ، فقالوا يا أمير المؤمنين تتابع فى هذا
الشراب . قال فدعا عمر كاتبه فقال اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليك فاني أحمد اليك الله الذى
لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير . ثم قال لأصحابه ادعوا الله
لأخيك أن يقبل بقلبه وتوب الله عليه ، فلما بلغ الرجل كتاب عمر رضى الله عنه جعل يقرؤه ويردده ويقول : غافر الذنب
وقابل التوب شديد العقاب ، قد حذرتى عقوبته ووعدتى أن يغفر لى . ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن
برقان وزاد فلم يزل يردد على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن التزع ، فلما بلغ عمر خبره قال هكذا فاصنعوا إذا
رأيتم أخا لكم زل زلة فسدوده ووقفوه وادعوا الله له أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه . وقال ابن أبي
حاتم حدثنا عمر بن شبة ثنا حماد بن واقد ثنا أبو عمر الصمار ثنا ثابت البناني قال كنت مع مصعب بن الزبير رضى الله
عنه فى سواد الكوفة فدخلت حائطا أصلى ركعتين فافتحت حم المؤمن حتى بلغت لا إله إلا هو إليه المصير فإذا
رجل خلفى على بئلة شبيهة عليه مقطعات يمنية فقال إذا قلت غافر الذنب فقل يا غافر الذنب اغفر لى ذنبى ، وإذا قلت
وقابل التوب فقل يا قابل التوب اقبل توبى ، وإذا قلت شديد العقاب فقل يا شديد العقاب لا تعاقبنى ، قال فالتفت فلم أر
أحدًا فخرجت إلى الباب فقلت مريبكم رجل عليه مقطعات يمنية ، قالوا ما رأينا أحدًا فكانوا يرون أنه إلياس ، ثم
رواه من طريق أخرى عن ثابت بنحوه وليس فيه ذكر إلياس والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ مَا يَجِدُلِي فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَنْزِرُكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ
فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾

يقول تعالى ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان (إلا الذين كفروا) أى الجاحدون لآيات الله
وحججه وبراهينه (فلا ينزرك تقلابهم فى البلاد) أى فى أموالها ونعيمها وزهرتها كما قال جل وعلا (لا ينزرك تقلب
الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) وقال عز وجل (نمتهم قليلا ثم نضطرهم إلى
عذاب غليظ) ثم قال تعالى مسلماً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فى تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة من
سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنه قد كذبهم أمهم وخالفهم وما آمن بهم منهم إلا قليل فقال (كذب

قبلهم قوم نوح) وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان (والأحزاب من بعدهم) أى من كل أمة (وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه) أى حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) أى ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلى

وقد قال أبو القاسم الطبرانى ثنا على بن عبد العزيز ثنا عارم أبو النعمان ثنا معتمر بن سليمان قال سمعت أبي يحدث عن حنشل عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من أعان باطلا ليدحض به حقا فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم » وقوله جلّت عظمتهم (فأخذتهم) أى أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام (فكيف كان عقاب) أى فكيف بلغك عذابى لهم ونكالى بهم قد كان شديدا موجعا مؤلما . قال قتادة كان شديدا والله . وقوله جل جلاله (وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) أى كما حقّت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقّت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك والله أعلم .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة الكرويين بأنهم يسبحون بحمد ربهم أى يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضى لإثبات صفات المدح (ويؤمنون به) أى خاشعون له أدلاء بين يديه وأنهم (يستغفرون للذين آمنوا) أى من أهل الأرض بمن آمن بالغيب قفيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهور الغيب ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهور الغيب كما ثبت فى صحيح مسلم « إذا دعا المسلم لأخيه بظهور الغيب قال الملك آمين ولك بمثله » . وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن محمد هو ابن أبى شيبة ثنا عبيدة بن سليمان عن محمد بن إسحاق عن يعقوب بن عتبة عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال رسول الله ﷺ « صدق أمية بن أبى الصلت فى شيء من شعره » فقال

زحل وثور تحت رجل يمينه والنسر للأخرى وليث مرصد

فقال رسول الله ﷺ « صدق » فقال

والشمس تطلع كل آخر ليلة حمراء يصبح لونها يتورد

تأبى فما تطلع لنا فى رسلها إلا معذبة وإلا تجله

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صدق » وهذا إسناد جيد وهو يقتضى أن حملة العرش اليوم أربعة فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى (ويعمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) وهنا سؤال وهو أن يقال ما الجمع بين المفهوم من هذه الآية ودلالة هذا الحديث ؟ وبين الحديث الذى رواه أبو داود ثنا محمد بن الصباح البزار ثنا الوليد ابن أبى نورة عن سفيان عن عبد الله بن عميرة عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال : كنت بالبطحاء فى عصابة فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرت بهم سحابة فنظر إليها فقال « ما تسمون هذه ؟ » قالوا

القيامة ، وهكذا قال الحسن البصري ومجاهد والسدي وذرين عبيد الله الحمداني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وابن جرير الطبري رحمته الله عليهم أجمعين . وقوله (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) قال الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية كقوله تعالى (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية . وقال السدي أُميتوا في الدنيا ثم أُحيوا في قبورهم فخطبوا ، ثم أُميتوا ثم أُحيوا يوم القيامة ، وقال ابن زيد : أُحيوا حين أخذ عليهم الميثاق من صلب آدم عليه السلام ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أُحيوا يوم القيامة ، وهذان القولان من السدي وابن زيد ضعيفان لأنه يلزمهما على ما قلنا ثلاث إحياءات وإماتات ، والصحيح قول ابن مسعود وابن عباس ومن تابعهما ، وللقصود من هذا كله أن الكفار يسألون الرجعة وهم وقوف بين يدي الله عز وجل في عرصات القيامة كما قال عز وجل (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون) فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعانوها ووقفوا عليها ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة فلا يجابون قال الله تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسبها ومقامعها وأغلغلتها كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم (وهم يسطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فظالمين من نصير) (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسأ فيها ولا تكلمون) وفي هذه الآية الكريمة تطلبوا في السؤال وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهي قولهم (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) أي قدرتك عظيمة فانك أحييتنا بعد ما كنا أمواتا ثم أمتنا ثم أحييتنا فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا وإننا كنا ظالمين لأنفسنا في الدار الدنيا (فهل إلى خروج من سبيل) أي فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا فانك قادر على ذلك لنعمل غير الذي كنا نعمل فإن عدنا إلى ما كنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضية بل تمجه وتنفيه ، ولهذا قال تعالى (ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا) أي أتم هكذا تكونون وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عز وجل (ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقوله جل وعلا (فالحكم لله العلي الكبير) أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي لا يجوز فيهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا إله إلا هو ، وقوله جل جلاله (هو الذي يريك آياته) أي يظهر قدرته خلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها (وينزل لكم من السماء رزقا) وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه وطعومه وروائح وأشكاله وألوانه وهو ماء واحد فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء (وما يتذكر) أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ويستدل بها على عظمة خالقها (إلا من ينيب) أي من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى وقوله عز وجل (فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون) أي فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء وخالفوا المشركين في مسلكهم ومنههم . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن نمير حدثنا هشام يعني بن عروة بن الزبير عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن مدرس المكي قال : كان عبد الله بن الزبير يقول في دبر كل صلاة حين يسلم لا إله إلا الله وحده شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهل بهن دبر كل صلاة . ورواه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن أبي عثمان وموسى بن عقبة ثلاثهم عن أبي الزبير عن عبد الله بن الزبير قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دبر كل صلاة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له »

وذكر تمامه . وقد ثبت في الصحيح عن ابن الزبير رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . وقال ابن أبي حاتم حدثنا الربيع حدثنا الحبيب بن ناصح حدثنا صالح يعني المرى عن هشام بن حسان عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « ادعوا الله تبارك وتعالى وأتمموا موقنون بالإجابة واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه »

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَئِذٍ يُرْزَوْنَ لَا يُخْفِيهِمْ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ * الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها كما قال تعالى (من الله ذى المارج تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان أن هذه مسافة ما بين العرش إلى الأرض السابعة في قول جماعة من السلف والخلف وهو الأرجح إن شاء الله وقد ذكر غير واحد أن العرش من ياقوتة حمراء اتساع ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة . وارتفاعه عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة وقد تقدم في حديث الأوعال ما يدل على ارتفاعه عن السموات السبع بشيء عظيم . وقوله تعالى (يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده) كقوله جلّت عظمته (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) وكقوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين) ولهذا قال عز وجل (لينذر يوم التلاق) قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة حذرا لله منه عباده ، وقال ابن جريج قال ابن عباس رضى الله عنهما يلتقى فيه آدم وآخر ولده وقال ابن زيد يلتقى فيه العباد . وقال قتادة والسدى وبلال بن سعد وسفيان بن عيينة يلتقى فيه أهل السماء وأهل الأرض والخالق والخلق ، وقال ميمون بن مهران يلتقى الظالم والظلم ، وقد يقال إن يوم التلاق يشمل هذا كله ويشمل أن كل عامل سيلقى ماعمله من خير وشر كما قاله آخرون

وقوله جل جلاله (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء) أى ظاهرون بادون كلهم لاشيء يكنهم ولا يظلمهم ولا يسترهم ولهذا قال (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء) أى الجميع في علمه على السواء . وقوله تبارك وتعالى (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار) قد تقدم في حديث ابن عمر رضى الله عنهما أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده ثم يقول أنا الملك أنا الجبار أنا التكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين التكبرون ؟ وفي حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه قائلا (لله الواحد القهار) أى الذى هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه . وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن غالب الدقاق حدثنا عبيد بن عبيدة حدثنا معتمر عن أبيه حدثنا أبو نضرة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ينادى مناد بين يدي الساعة يا أيها الناس أستمع الساعة فيسمعها الأحياء والأموات قال وينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا ويقول (لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار) . وقوله جلّت عظمته (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب) يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها وبالسيئة واحدة ولهذا قال تبارك وتعالى (لا ظلم اليوم) كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يحكى عن ربه عز وجل أنه قال « يا عبادى إني حرمت الظلم

على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظلموا - إلى أن قال - يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله تبارك وتعالى ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » وقوله عز وجل (إن الله سريع الحساب) أى يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة كما قال جل وعلا (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال جل جلاله (وما أمرونا إلا واحدة كلج بالبصر)

﴿وَأَنْذَرُكُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمٍ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ * وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة ومميت بذلك لا قربها كما قال تعالى (أزفت الآزفة * ليس لها من دون الله كاشفة) وقال عز وجل (اقتربت الساعة وانشق القمر) وقال جل وعلا (اقرب للناس حسابهم) وقال (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) وقال جل جلاله (فلما رأوه زلزلة سيئت وجوه الذين كفروا) الآية . وقوله تبارك وتعالى (إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين) قال قتادة وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف فلا تخرج ولا تعود إلى آماكنها ، وكذا قال عكرمة والسدى وغير واحد ، ومعنى كاظمين أى ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) وقال ابن جريج (كاظمين) أى باكين . وقوله سبحانه وتعالى (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ولا شفيع يشفع فيهم بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . وقوله تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) يخبر عز وجل عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ليحذر الناس علمه فيهم فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه فإنه عز وجل يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء فإذا غفلوا لحظ إليها فإذا فطنوا غص بصره عنها فإذا غفلوا لحظ فإذا فطنوا غص ، وقد اطلع الله تعالى من قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها . رواه ابن أبى حاتم ، وقال الضحاك (خائنة الأعين) هو الغمز وقول الرجل رأيت ولم ير . أو لم أر وقد رأى . وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما يعلم الله تعالى من العين فى نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ وكذا قال مجاهد وقتادة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (وما تخفى الصدور) يعلم إذا أنت قدرت عليها هل تزنى بها أم لا ؟ وقال السدى (وما تخفى الصدور) أى من الوسوسة

وقوله عز وجل (والله يقضى بالحق) أن يحكم بالعدل ، قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (والله يقضى بالحق) قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة وبالسيئة السيئة (إن الله هو السميع البصير) وهذا الذى فسر به ابن عباس رضى الله عنهما هذه الآية كقوله تبارك وتعالى (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى) وقوله جل وعلا (والذين يدعون من دونه) أى من الأصنام والأوثان والأنداد (لا يقضون بشيء) أى لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشيء (إن الله هو السميع البصير) أى مسمع لأقوال خلقه بصير بهم فيهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا

فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى (أو لم يسيروا) هؤلاء الكذوبون برسالتك يا محمد (في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الدين كانوا من قبلهم) أي من الأمم الكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل بهم من العذاب والنكال مع أنهم كانوا أشد من هؤلاء قوة (وأناروا في الأرض) أي أثروا في الأرض من البنيات والعالم والديارات مالا يقدر هؤلاء عليه كما قال عز وجل (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) وقال تعالى (وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها) أي مع هذه القوة العظيمة والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم وهي كفرهم برسلمهم (وما كان لهم من الله من واق) أي ومادفع عنهم عذاب الله أحد ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق ، ثم ذكر علة أخذه إياهم وذنوبهم التي ارتكبوها واجترموها فقال تعالى (ذلك بأنهم كانت تأتيتهم رسلهم بالبينات) أي بالدلائل الواضحات والبراهين القاطعات (فكفروا) أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا (فأخذهم الله) تعالى أي أهلكهم ودمر عليهم وللكافرين أمثالها (إنه قوي شديد العقاب) أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد (وهو شديد العقاب) أي عقابه أليم شديد وجيع ، أعاذنا الله تبارك وتعالى منه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُونَ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات . والدلائل الواضحات ولهذا قال تعالى (بآياتنا وسلطان مبين) والسلطان هو الحجة والبرهان (إلى فرعون) وهو ملك القبط بالديار المصرية (وهامان) وهو وزيره في مملكته (وقارون) وكان أكثر الناس في زمانه مالا وتجارة (فقالوا ساحر كذاب) أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً بموها كذاباً في أن الله أرسله وهذه كقولته تعالى (كذلك ما أتى الدين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) * أتوا صوابه؟ بل هم قوم طاغون (فلما جاءهم بالحق من عندنا) أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم (قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم) وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل . أما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ولاهاته هذا الشعب ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ولهذا قالوا (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون (قال قتادة هذا أمر بعد أمر ، قال الله عز وجل) (وما كيد الكافرين إلا في ضلال) أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا ينصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه) وهذا عزم من فرعون لئله الله تعالى على قتل موسى عليه الصلاة والسلام أي قال لقومه دعوني حتى أقتل لكم هذا (وليدع ربه) أي لا أبالي منه ، وهذا في غاية الجحد والتجهرم والعناد ، وقوله قبحه الله (إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) يعني موسى ، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم

وعاداتهم ، وهذا كما يقال في المثل : صار فرعون مذكراً ، يعنى واعظا يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقرأ الأكترون (أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض الفساد) وقرأ الآخرون (أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) وقرأ بعضهم (يظهر في الأرض الفساد) بالضم (وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) أى لما بلعه قول فرعون (ذروني أقتل موسى) قال موسى عليه السلام استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ولهذا قال (إني عذت بربي وربكم) أيها المخاطبون (من كل متكبر) أى عن الحق مجرم لا يؤمن بيوم الحساب) ولهذا جاء في الحديث عن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم ونردأ بك في نحورهم »

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ * يَقَوْمَ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطيا من آل فرعون ، قال السدي : كان ابن عم فرعون ويقال إنه الذي نجا مع موسى عليه الصلاة والسلام ، واختاره ابن جرير ورد قول من ذهب إلى أنه كان إسرائيلياً لأن فرعون انقلع لكلامه واستمعه وكف عن قتل موسى عليه السلام ، ولو كان إسرائيلياً لأوشك أن يعاجل بالعقوبة لأنه منهم وقال ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل وامرأة فرعون والذي قال (ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) رواه ابن أبي حاتم وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون (ذروني أقتل موسى) فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل . وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائركا ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهى قوله (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) اللهم إلامارواه البخارى في صحيحه حيث قال حدثنا على بن عبد الله حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثير حدثني محمد بن إبراهيم التيمي حدثني عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنهما قال قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر رضى الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟) انفرد به البخارى من حديث الأوزاعي قال وتابعه محمد بن إسحاق عن إبراهيم بن عروة عن أبيه به : وقال ابن أبي حاتم حدثنا هارون بن إسحاق الحمداى حدثنا عبدة عن هشام يعنى ابن عروة عن أبيه عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سئل ما أشد ما رأيت قريشاً بلغوا من رسول الله ﷺ ؟ قال مر ﷺ بهم ذات يوم فقالوا له أنت تهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا ؟ فقال « أنا ذاك » فقاموا إليه فأخذوا بمجامع ثيابه فرأيت أبا بكر رضى الله عنه محتضنه من ورائه وهو يصيح بأعلى صوته وإن عينيه ليسيلان وهو يقول يا قوم (أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله) وقد جاءكم بالبينات من ربكم) حتى فرغ من الآية كلها وهكذا رواه النسائى من حديث عبدة فجعله من مسند عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وقوله تعالى (وقد جاءكم بالبينات من ربكم) أى كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول ربي الله وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟ ثم نزل معهم في المخاطبة فقال (وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يسبكم بعض الذى يعدكم) يعنى إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل

والرأى التام والحزم أن تركوه ونفسه فلا تؤذوه فإن يك كاذبا فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة وإن يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذي يعدكم فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة فمن الجائز عندهم أن يكون صادقا فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه المواجهة في قوله (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين * وأن لا تعالوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين * وإنى عدت بربى وربكم أن ترجون * وإن لم تؤمنوا إلى قاعزلون) وهكذا قال رسول الله ﷺ لقريش أن يتركوه يدعوا إلى الله تعالى عباد الله ولا يمسه بسوء ويصاوا ما بينه وبينهم من القرابة في ترك أذيته قال الله عز وجل (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) أى أن لا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القرابة فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس ، وعلى هذا وقت الهدنة يوم الحديبية وكان فتحاً مبيناً ، وقوله جل وعلا (إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب) أى لو كان هذا الذى يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بينا يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله فكانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ، ثم قال المؤمن محذراً قوم زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) أى قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاء العريض فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ﷺ واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله (فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) أى لا تنفى عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء (قال فرعون) لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون (ما أرىكم إلا ما أرى) أى ما أقوال لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة (قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) وقال الله تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) فقلوه (ما أرىكم إلا ما أرى) كذب فيه واقترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ورعيته فغشهم وما نصحبهم وكذا قوله (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد) أى وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً فى ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى (فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد) وقال جلّت عظمتة (وأضل فرعون قومه وما هدى) وفى الحديث « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » والله سبحانه وتعالى اللوفى للصواب .

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ بِرِيدُ ظَلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ اللَّهُ مَنِ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْمَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى فى الدنيا

والآخرة فقال (يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب) أى الدين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المسكذبة كيف حل بهم بأس الله ومارده عنهم راد ولا صده عنهم صاد (وما الله يريد ظلما للعباد) أى إنما أهلكتهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسوله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره ثم قال (يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد) يعنى يوم القيامة وسمى بذلك قال بعضهم لما جاء فى حديث الصور إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وماجت وارتمت فنظر الناس إلى ذلك ذهبوا هاريين ينادى بعضهم بعضا وقال آخرون منهم الضحاك بل ذلك إذا جرى بجهنم ذهب الناس هرابا منهم فتلقاهم الملائكة فتردهم إلى مقام المحشر وهو قوله تعالى (والملك على أرجائها) وقوله (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه والحسن والضحاك أنهم قرأوا يوم التناد بتشديد الدال من ند البعير إذا تردى وذهب وقيل لأن الميزان عنده ملك إذا وزن عمل العبد فرجح نادى بأعلى صوته ألا قد سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وإن خف عمله نادى ألا قد شقى فلان بن فلان وقال قتادة ينادى كل قوم بأعمالهم ، ينادى أهل الجنة أهل الجنة وأهل النار أهل النار ، وقيل مسمى بذلك لمناداة أهل الجنة أهل النار (أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم) ومناداة أهل النار أهل الجنة (أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين) ومناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار كما هو مذكور فى سورة الأعراف ، واختار البغوى وغيره أنه مسمى بذلك لمجموع ذلك وهو قول حسن جيد والله أعلم . وقوله تعالى (يوم تولون مدبرين) أى ذاهبين هاريين (كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر) ولهذا قال عز وجل (ما لكم من الله من عاصم) أى لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه (ومن يضل الله فما له من هاد) أى من أضله الله فلا هادى له غيره . وقوله تبارك وتعالى (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) يعنى أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى عليه الصلاة والسلام وهو يوسف عليه الصلاة والسلام كان عزيز أهل مصر وكان رسولا يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسطا أطاعوه تلك الطاعة إلا بمجرد الوزارة والجاه النبوى ولهذا قال تعالى (فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولا) أى يئستم فقلتم طامعين (لن يبعث الله من بعده رسولا) وذلك لكفرهم وتكذيبهم (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب) أى كحالكم هذا يكون حال من يضل الله لاسرافه فى أفعاله وارتياب قلبه ، ثم قال عز وجل (الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أثامهم) أى الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجة بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى فإن الله عز وجل يمت على ذلك أشد المقت ولهذا قال تعالى (كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) أى والمؤمنون أيضا يبخسون من تكون هذه صفته فان من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه فلا يعرف بعد ذلك معروفا ولا ينكر منكرا ولهذا قال تبارك وتعالى (كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر) أى على اتباع الحق (جبار) وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة وحكى عن الشعبي أنهما قال لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين وقال أبو عمران الجوني وفتادة : آية الجبارة القتل بغير حق والله تعالى أعلم

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنُ ابْنِي لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ • أَسَبَّ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنه كذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تبات ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وعتوه وتمرده واقترائه فى تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبنى له صرحا وهو القصر العالى اللئيف الشاهق وكان اغناؤه من الأجر للضروب من الطين للشوى كما قال تعالى (فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى - ح) ولهذا قال إبراهيم النخعي كانوا يكرهون البناء بالأجر وأن يجعلوه فى

قبورهم رواه ابن أبي حاتم ، وقوله (لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات) الخ قال سعيد بن جبير وأبو صالح أبواب السموات وقيل طرق السموات (فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً) وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عز وجل أرسله إليه قال الله تعالى (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل) أى بصنعه هذا الذى أراد أن يؤم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ولهذا قال تعالى (وما كيد فرعون إلا فى تباب) قال ابن عباس ومجاهد يعنى إلا فى خسار

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّهُ الْآخِرَةُ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطفى وآثر الحياة الدنيا ونسى الجبار الأعلى فقال لهم (يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد) لا كما كذب فرعون فى قوله (وما أهدىكم إلا سبيل الرشاد) ثم زهدم فى الدنيا التى قد آثروها على الآخرة وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال (يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع) أى قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتضمحل (وإن الآخرة هى دار القرار) أى الدار التى لا زوال لها ولا انتقال منها ولا ظعن عنها إلى غيرها بل إما نعيم وإما جحيم ولهذا قال جلّت عظمتها (من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها) أى واحدة مثلها (ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب) أى لا يتقدر بجزاء بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نقاد والله تعالى الموفق للصواب

﴿ وَيَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُصُّ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَخَاقٍ بُثْلٍ فِرْعَوْنَ سُوْءَ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾

يقول لهم المؤمن ما بالى أَدْعُوكم إلى النجاة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم الذى بعثه (وتدعوننى إلى النار) تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم (أى على جهل بلا دليل) وأنا أَدْعُوكم إلى العزيز الغفار (أى هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه) لا جرم أنما تدعوننى إليه (يقول حقاً قال السدى وابن جرير معنى قوله (لا جرم) حقاً وقال الضحاك (لا جرم) لا كذب وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (لا جرم) يقول بلى إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد (ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة) قال مجاهد : الوثن ليس له شيء ، وقال قتادة يعنى الوثن لا ينفع ولا يضر ، وقال السدى : لا يجيب داعيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهذا كقوله تبارك وتعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ؟) وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) (إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا استجابوا لكم) وقوله (وأن مردنا إلى الله) أى فى الدار الآخرة فيجازى كلا بعمله ولهذا قال (وأن السرفين هم أصحاب النار) أى

خالدين فيها باسرافهم وهو شركهم بالله عز وجل (فستذكرون ما أقول لكم) أى سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتمكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم وتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم (وأفوض أمري إلى الله) أى وأتوكل على الله وأستعينه وأقطعكم وأباعدكم (إن الله بصير بالعباد) أى هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدى من يستحق الهداية ويضل من يستحق الاضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ . وقوله تبارك وتعالى (فوقاه الله سيئات ما مكروا) أى فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام وأما فى الآخرة فبالجنة (وحاق بال فرعون سوء العذاب) وهو الفرق فى اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فان أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة فاذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار ولهذا قال (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) أى أشده ألما وأعظمه نكالا ، وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور وهى قوله تعالى (النار يعرضون عليها غدواً وعشيا)

ولكن هنا سؤال وهو أنه لاشك أن هذه الآية مكية وقد استدلوا بها على عذاب القبر فى البرزخ وقد قال الإمام أحمد ثنا هاثم هو ابن القاسم أبو النضر ثنا إسحاق بن سعيد هو ابن عمرو بن سعيد بن العاص ثنا سعيد بن سفيان عن عائشة رضى الله عنها أن يهودية كانت تخدمها فلاتصنع عائشة رضى الله عنها إليها شيئا من المعروف إلا قالت لها اليهودية وقال الله عذاب القبر قالت عائشة رضى الله عنها فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فقالت يا رسول الله هل للقبر عذاب قبل يوم القيامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لا ، من زعم ذلك ؟ » قالت هذه اليهودية لا أصنع اليها شيئا من المعروف إلا قالت وقال الله عذاب القبر قال ﷺ « كذبت يهود وهم على الله أكذب لا عذاب دون يوم القيامة » ثم مكث بعد ذلك ماشاء الله أن يمكث فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملا بثوبه عجرة عيناه وهو ينادى بأعلى صوته « القبر كقطع الليل للظلم ، أيها الناس لو تعلمون ما أعلم بكم كثيرا وضحكم قليلا ، أيها الناس استعيذوا بالله من عذاب القبر فان عذاب القبر حق » وهذا إسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه وروى أحمد ثنا يزيد ثنا سفيان عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت سألتها امرأة يهودية فأعطتها فقالت لها وقال الله من عذاب القبر فأنكرت عائشة رضى الله عنها ذلك فلما رأت النبي صلى الله عليه وسلم قالت له فقال ﷺ « لا » قالت عائشة رضى الله عنها ثم قال لنا رسول الله ﷺ بعد ذلك « وإنه أوحى إلى أنكم تفتنون فى قبوركم » وهذا أيضا على شرطهما . فيقال فما الجمع بين هذا وبين كون الآية مكية وفيها الدلالة على عذاب البرزخ ؟ والجواب أن الآية دلت على عرض الأرواح على النار غدواً وعشيا فى البرزخ وليس فيها دلالة على اتصال تألمها بأجسادها فى القبور إذ قد يكون ذلك مختصا بالروح فأما حصول ذلك للجسد فى البرزخ وتألمه بسببه فلم يدل عليه إلا السنة فى الأحاديث الرضية الآتى ذكرها . وقد يقال إن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار فى البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يعذب المؤمن فى قبره بذنوب . ومما يدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد ثنا عثمان بن عمر ثنا يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها امرأة من اليهود وهى تقول أشعرت أنكم تفتنون فى قبوركم ؟ فارتاع رسول الله ﷺ وقال « إنما يفتن يهود » قالت عائشة رضى الله عنها فلبثنا ليلالى ثم قال رسول الله ﷺ « ألا إنكم تفتنون فى القبور » وقالت عائشة رضى الله عنها فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد يستعين من عذاب القبر ، وهكذا رواه مسلم عن هارون بن سعيد وحرمة كلاهما عن ابن وهب عن يونس بن يزيد الإيلي عن الزهرى به

وقد يقال إن هذه الآية دلت على عذاب الأرواح فى البرزخ ولا يلزم من ذلك أن يتصل فى الأجساد فى قبورها فلما أوحى إلى النبي ﷺ فى ذلك بخصوصه استعاذ منه والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد روى البخارى من حديث شعبة عن أشعث عن ابن أبي الشعثاء عن أبيه عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت نعوذ بالله من عذاب القبر فسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر

فقال صلى عليه وسلم « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضى الله عنها : لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر . فهذا يدل على أنه بادر صلى الله عليه وسلم إلى تصديق اليهودية في هذا الخبر وقرر عليه ، وفي الأخبار المتقدمة أنه أنكر ذلك حتى جاءه الوحي فلعلمها قضيتان والله سبحانه أعلم وأحاديث عذاب القبر كثيرة جدا وقال قتادة في قوله تعالى (غدوا وعشيا) صباحا ومساء ما بقيت الدنيا يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم تؤيخا وتعمه وصغارا لهم ، وقال ابن زيد هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن أبي حاتم ثنا أبو سعيد ثنا المحاربي ثنا ليث عن عبد الرحمن بن ثروان عن هذيل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : إن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر تسرح بهم في الجنة حيث شاءوا ، وإن أرواح ولدان المؤمنين في أجواف عصافير تسرح في الجنة حيث شاءت فتأوى إلى قناديل معلقة في العرش ، وإن أرواح آل فرعون في أجواف طيور سود تدو على جهنم وتروح عليها فذلك عرضها ، وقد رواه الثوري عن أبي قيس عن أبي الهذيل ابن شرحبيل من كلامه في أرواح آل فرعون وكذلك قال السدي . وفي حديث الإسراء عن رواية أبي هارون العبدى عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه « ثم انطلق بي إلى خلق كثير من خلق الله رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) وآل فرعون كالإبل المسومة يخطون الحجارة والشجر ولا يقولون » وقال ابن أبي حاتم ثنا علي بن الحسين ثنا زيد بن أكرم ثنا عامر بن مدرك الحارثي ثنا عتبة - يعني ابن يقظان - عن قيس بن مسلم عن طارق عن شهاب عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحسن محسن من مسلم أو كافر إلا أثابه الله تعالى » قال قلنا يا رسول الله ما إثابة الله الكافر؟ فقال « إن كان قد وصل رحماً أو تصدق بصدقة أو عمل حسنة أثابه الله تبارك وتعالى المال والولد والصحة وأشباه ذلك » قلنا فما إثابته في الآخرة؟ قال صلى الله عليه وسلم « عذابا دون العذاب » وقرأ (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) ورواه البزار في مسنده عن زيد بن أكرم ثم قال : لانعلم له إسنادا غير هذا . وقال ابن جرير ثنا عبد الكريم بن أبي عمير ثنا حماد بن محمد القزاري البلخي قال سمعت الأوزاعي وسأله رجل فقال رحمه الله رأينا طيوراً تخرج من البحر تأخذ ناحية الغرب يضا فوجاً فوجاً لا يعلم عددها إلا الله عز وجل فاذا كان العشي رجع مثلها سودا قال وفطنتم إلى ذلك ؟ قال نعم ، قال إن ذلك الطير في حواصلها أرواح آل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا تخرج إلى وكورها وقد احترقت أرياشها وصارت سودا فينبت عليها من الليل ريش أبيض ويتناثر الأسود ثم تدو على النار غدوا وعشيا ثم تخرج إلى وكورها ، فذلك دأبهم في الدنيا فاذا كان يوم القيامة قال الله تعالى (أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) قال وكانوا يقولون إنهم ستمائة ألف مقاتل ، وقال الإمام أحمد ثنا إسحاق ثنا مالك عن عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالعداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » أخرجه في الصحيحين من حديث مالك به

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ * وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَلَمْ تَأْتِيَكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا عَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

يخبر تعالى عن تهاج أهل النار في النار وتخاصمهم وفرعون وقومه من جملتهم فيقول الضعفاء وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء (إنا كنا لكم تبعا) أى أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال (فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار) أى قسطا تتحملونه عنا (قال الذين استكبروا إنا كل فيها) أى لا تتحمل عنكم شيئا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال (إن الله قد حكم بين العباد) أى قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا كما قال تعالى (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) وقال الذين في النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يسمع لدعائهم بل قد قال (احشوا فيها ولا تكلمون) سألوا الحزنة وهم كالجنانين لأهل النار أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوما واحدا من العذاب فقالت لهم الحزنة رادين عليهم (أولئك تأتكم رسلكم بالبينات؟) أى أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على السنة الرسل (قالوا بلى قالوا فادعوا) أى أنتم لأنفسكم فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم ولا نود خلاصكم ونحن منكم برآء ثم فبركم أنسواء دعوتهم أولم تدعوا لاستجاب لكم ولا يخفف عنكم ولهذا قالوا (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أى إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهُدُ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ ﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولَى ٱلْأَلْبَٰبِ * فَاصْبِرْ إِنَّا وَعَدَ ٱللَّهُ حَقًّا وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشَىٰ وَٱلْإِبْكَرِ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يَجْدِلُونَ فِي ءَايَةِ ٱللَّهِ بِفَيْرِ سُلْطٰنِ ٱتَّهُمُ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّاهُمْ يَبْلُغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿

قد أورد أبو جعفر ابن جرير رحمه الله تعالى عند قوله تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا) سؤالاً فقال قد علم أن بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قتله قومه بالسكية كيحيى وزكريا وشعيا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجرا كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة في الدنيا ثم أجاب عن ذلك بجوابين (أحدهما) أن يكون الخبر خرج عاما والمراد به البعض قال وهذا سائق في اللغة (الثاني) أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم من آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم وقد ذكر أن الفروخ أخذ الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود فسلط الله تعالى عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام إماما عادلا وحكما مقسطا فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الاسلام وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم ففي صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يقول الله تبارك وتعالى من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب » وفي الحديث الآخر « إني لأتأثر لأوليائى كما يثار اللبث الحرب » ولهذا أهلك الله عز وجل قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط وأهل مدين وأشباهم وأضرابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق . وأنجى الله تعالى من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحدا وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحدا ، قال السدى لم يبعث الله عز وجل رسولا قط إلى قوم فيقتلونه أو قوما من المؤمنين يدعون

إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا قال فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها . وهكذا نصر الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هي العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهراني قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منعه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم فاستاقهم مقرنين في الأصفاد ، ثم من عليهم بأخذه الغداء منهم ثم بعد مدة قرية فتح عليه مكة ففرت عينه بيلده وهو البلد المحرم الحرام الشرف العظيم فأخذ الله تعالى به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ودانت له جزيرة العرب بكاملها ودخل الناس في دين الله أفواجا . ثم قبضه الله تعالى إليه لما له عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله تبارك وتعالى أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله عز وجل ودعوا عباد الله تعالى إلى الله جل وعلا ، وفتحوا البلاد والرسايق والأقاليم والدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها . ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى قيام الساعة ولهذا قال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) أي يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل ، قال مجاهد : الأشهاد الملائكة . وقوله تعالى (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) بدل من قوله (ويوم يقوم الأشهاد) وقرأ آخرون يوم بالرفع كأنه فسر به (يوم يقوم الأشهاد يوم لا ينفع الظالمين) وهم المشركون (معذرتهم) أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية (ولهم اللعنة) أي الأبعاد والطرده من الرحمة (ولهم سوء الدار) وهي النار قاله السدي بشئ المنزل والمقبل ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما (ولهم سوء الدار) أي سوء العاقبة وقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الهدى) وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والنور (وأورثنا بني إسرائيل الكتاب) أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى واتباع رسوله موسى عليه الصلاة والسلام وفي الكتاب الذي أورثوه وهو التوراة (هدى وذكري لأولى الألباب) وهي العقول الصحيحة السليمة . وقوله عز وجل (فاصبر) أي يا محمد (إن وعد الله حق) أي وعدناك أنا سنعلى كلمتك ونجعل العاقبة لك ولمن اتبعك والله لا يخلف اليعاد وهذا الذي أخبرناك به حق لا مرية فيه ولا شك وقوله تبارك وتعالى (واستغفر لذنبك) هذا تيسير للامة على الاستغفار (وسبح بحمد ربك بالعمى) أي في أواخر النهار وأوائل الليل (والابكار) وهي أوائل النهار وأواخر الليل . وقوله تعالى (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثام) أي يدفعون الحق بالباطل ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله (إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) أي مافي صدورهم إلا كبر على اتباع الحق واحتقار لمن جاءهم به وليس ما يرومونه من إخماد الحق وإعلاء الباطل بحاصل لهم بل الحق هو الرفوع وقولهم وقصدهم هو الموضوع (فاستعذ بالله) أي من حال مثل هؤلاء (إنه هو السميع البصير) أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان هذا تفسير ابن جرير وقال كعب وأبو العالية نزلت هذه الآية في اليهود (إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثامهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) قال أبو العالية وذلك أنهم ادعوا أن الدجال منهم وأنهم يملكون به الأرض فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أمرا له أن يستعذ من فتنة الدجال ولهذا قال عز وجل (فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير) وهذا قول غريب وفيه تعسف بعيد وإن كان قد رواه ابن أبي حاتم في كتابه والله سبحانه وتعالى أعلم

(لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * إِنَّ السَّاعَةَ لَأَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

يقول تعالى منها على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض وخلقهما أكبر من خلق الناس بدءاً وإعادة فمن قدر على ذلك فهو قادر على مادونه بطريق الأولى والأخرى كما قال تعالى (أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن قادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شئ قدير) وقال ههنا (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعنادة وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا ثم قال تعالى (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا السوء قليلاً مائتدكرون) أى كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار (قليلاً مائتدكرون) أى ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ثم قال تعالى (إن الساعة آتية) أى لكائنة وواقعة (لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها . قال ابن أبي حاتم ثنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ثنا أشهب حدثنا مالك عن شيخ قديم من أهل اليمن قدم من ثم قال سمعت أن الساعة إذا دنت اشتد البلاء على الناس واشتد حر الشمس والله أعلم ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول يامن أحب عباده اليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويامن أبغض عباده اليه من لم يسأله وليس أحد كذلك غيرك يارب . رواه ابن أبي حاتم وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

وقال قتادة : قال كعب الأحبار أعطيت هذه الأمة ثلاثاً لم تعظمن أمة قبلها لا نبي : كان إذا أرسل الله نبياً قال له أنت شاهد على أمتك وجعلكم شهداء على الناس ، وكان يقال له ليس عليك في الدين من حرج وقال لهذه الأمة (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وكان يقال له ادعنى أستجب لك وقال لهذه الأمة (ادعوني أستجب لكم) رواه ابن أبي حاتم . وقال الإمام الحافظ أبو يعلى أحمد بن حنبل بن المثنى الموصلى في مسنده حدثنا أبو إبراهيم الترمذى حدثنا صالح المدنى قال سمعت الحسن يحدث عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل قال « أربع خصال واحدة منهن لى وواحدة لك وواحدة فيما بينى وبينك ووحدة فيما بينك وبين عبادى ، فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئاً وأما التى لك على فما عملت من خير جزيتك به وأما التى بينى وبينك فمك الدعاء وطى الاجابة وأما التى بينك وبين عبادى فارض لهم ما ترضى لنفسك » . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن زر عن يسيع الكندى عن النعمان بن بشير رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ (ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) وهكذا رواه أصحاب السنن الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير كلهم من حديث الأعمش به وقال الترمذى حسن صحيح ورواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير أيضاً من حديث شعبة عن منصور والأعمش كلاهما عن زر به وكذا رواه ابن يونس عن أسيد بن عاصم بن مهران حدثنا النعمان بن عبد السلام ثنا سفيان الثوري عن منصور عن ذر به ، ورواه ابن حبان والحاكم فى صحيحيهما وقال الحاكم صحيح الاسناد وقال الأمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا أبو صالح المدنى شيخ من أهل المدينة سمعه عن أبي صالح وقال مرة سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يدع الله عز وجل غضب عليه » تفرد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به وقال الإمام أحمد أيضاً حدثنا مروان الفزارى حدثنا صبيح أبو المليح سمعت أبا صالح يحدث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لا يسأله يغضب عليه » قال ابن معين أبو المليح هذا اسمه صبيح كذا قيده بالضم

عبد الفنى بن سعيد وأما أبو صالح هذا فهو الخوزى سكن شعب الخوز ، قاله البزار فى مسنده ، وكذا وقع فى روايته أبو المليح الفارسى عن أبي صالح الخوزى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يسأل الله يغضب عليه » . وقال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمى حدثنا همام حدثنا إبراهيم ابن الحسن حدثنا نائل بن نجيح حدثنى عائذ بن حبيب عن محمد بن سعيد قال لما مات محمد بن مسلمة الأنصارى وجدنا فى ذؤابة سيفه كتابا بسم الله الرحمن الرحيم ممعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن لربكم فى بقية أيام دهركم تفحات فتعرضوا له لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبدا » وقوله عز وجل (إن الذين يستكبرون عن عبادتى) أى عن دعائى وتوحيدي سيدخلون جهنم داخرين أى صاغرين حقيرين كما قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن عجلان حدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجننا فى جهنم يقال له بولس تعلم نار الأنبار يستقون من طينة الحبال عصارة أهل النار » . وقال ابن أبي حاتم حدثنا طي بن الحسين حدثنا أبو بكر بن محمد بن يزيد بن خنيس قال ممعت أبي يحدث عن وهيب بن الورد حدثنى رجل قال كنت أسير ذات يوم فى أرض الروم فسمعت هاتفا من فوق رأس جبل وهو يقول : يارب عجبت لمن عرفك كيف يرجو أحدا غيرك يارب عجبت لمن عرفك كيف يطلب حوائجه إلى أحد غيرك . قال ثم ذهبت ثم جاءت الطامة الكبرى قال ثم عاد الثانية فقال يارب عجبت لمن عرفك كيف يتعرض لشيء من سخطك يرضى غيرك قال وهيب وهذه الطامة الكبرى قال فناديته أجنى أنت أم إنسى ؟ قال بل إنسى اشغل نفسك بما يعينك عما لا يعينك

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ أَلِيلَ لِنَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَى تَوْفَكُونَ * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِثَابِتِ اللَّهِ يُجْحَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿

يقول تعالى ممثنا على خلقه بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى العايش بالنهار وجعل النهار مبصرا أى مضيئا ليتصرفوا فيه بالأشجار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات (إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يقومون بشكر نعم الله عليهم ثم قال عز وجل (ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو) أى الذى فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الأشياء الذى لا إله غيره ولا رب سواه (فآنى توفكون) أى فكيف تعبدون غيره من الأصنام التى لا تخلق شيئا بل هى مخلوقة منحوتة

وقوله عز وجل (كذلك يؤفك الذين كانوا بايات الله يحدون) أى كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان بل بمجرد الجهل والهوى . وجحدوا جميع الله وآياته ، وقوله تعالى (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا) أى جعلها لكم مستقرا بساطا مهادا تعيشون عليها وتنصرفون فيها وتمشون فى منابها وأرساها بالجبال ثلاثا تميد بكم (والسماء بناء) أى سقفا للعالم محفوظا (وصوركم فأحسن صوركم) أى فخلقكم فى أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم (ورزقكم من الطيبات) أى من الماء كل والشارب فى الدنيا فذكر أنه خلق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق كما قال تعالى فى سورة البقرة (يأيها الناس

اعبدوا ربكم الذى خلقكم والدين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) . وقال تعالى ههنا بعد خلق هذه الأشياء (ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) أى فتعالى وتقدس وتزه رب العالمين كلهم ثم قال تعالى (هو الحى لا إله إلا هو) أى هو الحى أزلا وأبدا لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن (لا إله إلا هو) أى لا نظير له ولا عدل له (فادعوه مخلصين له الدين) أى موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو الحمد لله رب العالمين . قال ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرهم من قال لا إله إلا الله أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين عملا بهذه الآية . ثم روى عن محمد بن على بن الحسين بن شقيق عن أبيه عن الحسين بن واقد عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس قال : من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين وذلك قوله تعالى (فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين) . وقال أبو أسامة وغيره عن إسماعيل بن أبي خاله عن سعيد بن جبير قال إذا قرأت (فادعوا الله مخلصين له الدين) فقل لا إله إلا الله وقل على أثرها الحمد لله رب العالمين ثم قرأ هذه الآية (فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين) . قال الإمام أحمد حدثنا ابن نمير حدثنا هشيم بن عروة بن الزبير عن أبي الزبير محمد بن مسلم بن بدر المسكى قال كان عبد الله بن الزبير يقول فى دبر كل صلاة حين يسلم لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون قال وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يهل بهن دبر كل صلاة ورواه مسلم وأبو داود والنسائى من طرق عن هشام بن عروة وحجاج بن أبى عثمان وموسى بن عقبة ثلاثهم عن أبى الزبير عن عبد الله بن الزبير قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى دبر كل صلاة « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » وذكر تمامه

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكُونُوا شِوْخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * هُوَ الَّذِي يُخَيِّبُ وَيُمَيِّتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه فى قوله جلّت عظمتة (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجه طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا) أى هو الذى يخلقكم فى هذه الأطوار كلها وحده لا شريك له وعن أمره تديره وتقديره يكون ذلك كله (ومنكم من يتوفى من قبل) أى من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم بل تسقطه أمه سقطا ومنهم من يتوفى صغيرا وشابا وكهلا قبل الشيخوخة كقوله تعالى (لنينى لكم وتوفى فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى) وقال عز وجل ههنا (ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون) قال ابن جرير تذكرون البعث ثم قال تعالى (هو الذى يحيى ويميت) أى هو المتفرد بذلك لا يقدر على ذلك أحد سواه (فإذا قضى أمرا فأنما يقول له كُنْ فَيَكُونُ) أى لا يخالف ولا يمانع بل ما شاء كان لا محالة

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُضَرُّونَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ الْأَغْلُلُ فِيَّ أَعْنَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ * ﴾

ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ * ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ * أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٠٠﴾

يقول تعالى ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله وبجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال (الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا) أى من الهدى والبيان (فسوف يعلمون) هذا تهديد شديد ، ووعد أكيد ، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى (ويل يومئذ للمكذبين) وقوله عز وجل (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل) أى متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ولهذا قال تعالى (يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون) كما قال تبارك وتعالى (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، يطوفون بينها وبين حميم آن) وقال تعالى بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم (ثم إن مرجعهم إلى الجحيم) وقال عز وجل (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في موم وموم * وظل من محموم * لا بارد ولا كريم - إلى أن قال - ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لا تكون من شجر من زقوم * فالثون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم. فشاربون شرب الحميم ، هذا نزلهم يوم الدين) وقال عز وجل (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كاللؤلؤ يغلى في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون) أى يقال لهم ذلك على وجه التهريج والتوبيخ والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء بهم قال ابن حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أحمد بن منيع حدثنا منصور بن عمار حدثنا بشير بن طلحة الخزاعي عن خالد بن دريك عن يعلى بن منبه رفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ينهى الله عز وجل سحابة لأهل النار سوداء مظلمة ويقال يا أهل النار أى شيء تطلبون ؟ فيذكرون بها سحاب الدنيا فيقول نسأل باردا الشراب فتمطرهم أغلالا تزيد في أغلالهم وسلاسل تزيد في سلاسلهم وجعرا يلهب النار عليهم » هذا حديث غريب وقوله تعالى (ثم قيل لهم أيما كنتم تشركون من دون الله؟) أى قيل لهم أيمن الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله هل ينصرونكم اليوم (قالوا ضلوا عنا) أى ذهبوا فلم ينفعونا (بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا) أى جحدوا عبادتهم كقوله جلّت عظمتة (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين) ولهذا قال عز وجل (كذلك يضل الله الكافرين) . وقوله (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) أى تقول لهم الملائكة هذا الذي أتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم (ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) أى فبئس المنزل والمقبل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه والله أعلم

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّيكَ بِعُضِّ الَّذِي نَعِدُّهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَجِئَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعده من النصر والظفر على قومك وجعل العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة (فإما نربيك بعض الذي نعدهم) أى في الدنيا وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم أيدوا في يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر

جزيرة العرب في حياته ﷺ وقوله عز وجل (أو تتوفينك فألينا يرجعون) أى فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة ، ثم قال تعالى مسليا له (ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك كما قال جل وعلا في سورة النساء سواء أى منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة) ومنهم من لم نقصص عليك) وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف كما تقدم التنبيه على ذلك في سورة النساء والله الحمد والمنة . وقوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) أى ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله في ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به (فإذا جاء أمر الله) وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين (قضى بالحق) فينجى المؤمنين ، ويهلك الكافرين ولهذا قال عز وجل (وخسر هنالك المبطلون)

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْسَامَ لَتَرَكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُدْكَرُونَ ﴾

يقول تعالى ممثنا على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الابل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالابل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها وتحرب عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها والجميع تجزأ أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة كما فصل وبين في أماكن تقدم ذكرها في سورة الأنعام وسورة النحل وغير ذلك ولذا قال عز وجل ههنا (لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون) وقوله جل وعلا (ويرىكم آياته) أى حججه وبراهينه في الآفاق وفى أنفسكم (فأى آيات الله تنكرون) أى لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِّرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الأمم الكاذبة بالرسول في قديم الدهر وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم وما أثروه في الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئا ولا رد عنهم فرة من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات . والبراهين الدامغات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل قال مجاهد قالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب وقال السدى فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به (وحاق بهم) أى أحاط بهم (ما كانوا به يستهزئون) أى يكذبون ويستبعدون وقوعه (فلما رأوا بأسنا) أى عاينوا وقوع العذاب بهم (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين) أى وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع العذرة وهذا كما قال فرعون حين أدركه العرق (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين) قال الله تبارك وتعالى (آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين) أى فلم يقبل الله منه لأنه قد استجاب لنبية موسى عليه الصلاة والسلام دعاءه عليه حين قال (واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم) وهكذا قال تعالى ههنا (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت في عباده) أى هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ولهذا جاء في الحديث

« إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يفرغ » أى فإذا فرغ وبلغت الروح الحنجرة وعابن الملك فلا توبة حينئذ ولهذا قال تعالى (وخسر هنالك الكافرون)

(تفسير سورة فصلت وهى مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كَتَبَ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُ غَيْرَ)

يقول تعالى (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) يعنى القرآن منزل من الرحمن الرحيم كقوله (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقوله (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين) وقوله تبارك وتعالى (كتاب فصلت آياته) أى بينت معانيه وأحكامه (قرآنا عربيا) أى فى حال كونه قرآنا عربيا بينا واضحا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشككة كقوله تعالى (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) أى هو معجز من حيث لفظه ومعناه (لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) وقوله تعالى (لقوم يعلمون) أى إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون (بشيرا أو نذيرا) أى تارة يبشر المؤمنين وتارة ينذر الكافرين (فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) أى أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئا مع بيانه ووضوحه (وقالوا قلوبنا فى أكِنَّةٍ) أى فى غلف مغطاة (مما تدعوننا إليه وفى آذاننا وقْر) أى صمم عما جئنا به (ومن بيننا وبينك حجاب) فلا يصل إلينا شيء مما تقول (فاعمل إنما عاملون) أى اعمل أنت على طريقتك ونحن على طريقتنا لا نتابعك ، قال الإمام العالم عبد بن حميد فى مسنده حدثني ابن أبي شيبة حدثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن الزيال ابن حرملة الأسدى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : اجتمعت قريش يوما فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى قد فرق جماعتنا وشقت أمرنا وعاب ديننا فليسلكه ولننظر ماذا يرد عليه فقالوا ما نعلم أحدا غير عتبة بن ربيعة ، فقالوا أنت يا أبا الوليد فأتاه عتبة فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أنت خير أم عبد المطلب ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشقت أمرنا ، وعبت ديننا وفضحتنا فى العرب ، حتى لقد طار فيهم أن فى قريش ساحرا وأن فى قريش كاهنا والله ما ننظر إلا مثل صيحة الجبل أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى ، أبها الرجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا واحداً ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فلزوجك عشراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فرغت » قال نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم * تنزيل من الرحمن الرحيم — حتى بلغ — فإن أعرضوا فقل أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا ، فقال رسول الله ﷺ « لا » فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك ، قال ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته ، قالوا فهل أجابك ، قال نعم لا واللهى نفسها بنية ما فهمت شيئا مما قاله غير أنه أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، قالوا ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدرى ما قال ، قال لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة . وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى اللوصلى فى مسنده عن أبي بكر بن أبي شيبة بإسناده مثله سواء ، وقد ساقه البغوى فى تفسيره بسنده عن محمد بن فضيل عن الأجلح وهو ابن عبد الله الكندى الكوفى وقد ضعف بعض

الشيء عن الزيال بن حرملة عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه فذكر الحديث إلى قوله (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل يامعشر قريش والله مانرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه فانطلقوا إليه فقال أبو جهل : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبأت إلى محمد وأعجبك طعامه فان كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يفيئك عن طعام محمد ، فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمدا أبدا وقال والله لقد علمت أنى من أكثر قريش مالا ولكنى أنيته وقصصت عليه القصة فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر وقرأ السورة إلى قوله تعالى (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) فأمسكت فيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمت أن محمدا إذا قال شيئا لم يكذب فخشيت أن ينزل بك العذاب ، وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبى يعلى والله تعالى أعلم ، وقد أورد هذه القصة الإمام محمد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة على خلاف هذا النمط فقال حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا قال يوما وهو جالس في نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكله وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضى الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكله ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخى إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقته به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آباءهم فامنع منى أعرض عليك أمورا ننظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال له رسول الله ﷺ « قل يا أبا الوليد أسمع » قال يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا فسودناك علينا حتى لا تقطع أمرادوناك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيتك ريثا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبدلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قاله ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال « أفرغت يا أبا الوليد ؟ » قال نعم . قال « فاستمع منى » قال افعل . قال (بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه . فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك » فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد قال ورأى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها لى خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فان نصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم . وهذا السياق أشبه من الذى قبله والله أعلم .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء الكذابين المشركين (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) لا كما

تعبده من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين إنما الله إله واحد (فاستقيموا إليه) أى أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل (واستغفروه) أى لسالف الذنوب (وويل للمشركين) أى دمار لهم وهلاك عليهم (الذين لا يؤتون الزكاة) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذا قال عكرمة وهذا كقوله تبارك وتعالى (قدأ فليح من زكاه ، وقد خاب من دساها) وكقوله جلت عظمتة (قد أفليح من تزكى وذ كر اسم ربه فلي) وقوله عز وجل (فقل هل لك إلى أن تزكى ؟) والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه وتوفيقا إلى استعماله فى الطاعات ، وقال السدى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) أى لا يؤدون الزكاة ، وقال معاوية بن قره ليس هم من أهل الزكاة وقال قتادة يمنعون زكاة أموالهم وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير وفيه نظر لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية اللهم إلا أن يقال لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة كقوله تبارك وتعالى (وآتوا حقه يوم حصاده) فأما الزكاة ذات النصب والقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعا بين القولين كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم الصلوات الخمس وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئا فشيئا والله أعلم . ثم قال جل جلاله بعد ذلك (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) قال مجاهد وغيره : غير مقطوع ولا محبوب كقوله تعالى (ما كثرين فيها أبدا) وكقوله عز وجل (عطاء غير مجذوذ) وقال السدى غير ممنون عليهم وقد رد عليه هذا التفسير بعض الأئمة فان المنة لله تعالى على أهل الجنة قال الله تبارك وتعالى (بل الله يمين عليكم أن هذا لكم للإيمان) وقال أهل الجنة فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، وقال رسول الله ﷺ « إلا أن يتعمدنى الله برحمته منه وفضل » .

﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيٍّ مِنْ قَوَاهِمْ وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ * ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَالْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَفَضَّهْنِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظٍ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره وهو الخالق لكل شيء القاهر لكل شيء المقتدر على كل شيء فقال (قل أنتم لكم كُفْرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا) أى نظراء وأمثالا تعبدها معه (ذلك رب العالمين) أى الخالق للأشياء هورب العالمين كلهم . وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى (خلق السموات والأرض فى ستة أيام) ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما يختص بالسما فذكر أنه خلق الأرض أولا لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده بالسقف كما قال عز وجل (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) الآية فأما قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعا لكم ولأنعامكم) فى هذه الآية أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء فالدحو هو مفسر بقوله (أخرج منها ماءها ومرعاها) وكان هذا بعد خلق السماء ، فأما خلق الأرض قبل خلق السماء بالنص وبهذا أجاب ابن عباس رضى الله عنه فيما ذكره البخارى عند تفسير هذه الآية من صحيحه فانه قال : وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس

رضى الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف على، قال (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (ولا يكتُمون الله حديثا) (والله ربنا ما كنا مشركين) فقد كنتموا في هذه الآية ، وقال تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها - إلى قوله - والأرض بعد ذلك دحاها) فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى (قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين - إلى قوله - طائعين) فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء قال (وكان الله غفورا رحيما) (عزير حكيم) (ميمياً بصيرا) فكانه كان ثم مضى فقال ابن عباس رضى الله عنهما (فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) في النفخة الأولى (ثم ينفخ في الصور) فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله (فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون بينهم في النفخة الأخرى) وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (وأما قوله (والله ربنا ما كنا مشركين) (ولا يكتُمون الله حديثا) فان الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول الشركون تعالوا نقول لم نكن مشركين فيختم على أفواههم فتنتطق أيديهم فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتُم حديثا ، وعنده (يود الدين كفروا) الآية ، وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض ودحها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى دحاها وقوله (خلق الأرض في يومين) فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السموات في يومين (وكان الله غفورا رحيما) مسمى نفسه بذلك وذلك قوله أى لم يزل كذلك فان الله تعالى لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد فلا يختلفن عليك القرآن فان كلا من عند الله عز وجل . قال البخارى حدثني يوسف بن عدى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن زيد بن أنيسة عن المنهال هو ابن عمرو الحديث . وقوله (خلق الأرض في يومين) يعنى يوم الاحد ويوم الاثنين (وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها) أى جعلها مباركة قابلة للخير والبر والنعيم والنعاس وقدر فيها أقواتها وهو ما يحتاج أهلها إليه من الارزاق والامكان التى تزرع وتغرس يعنى يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع اليومين السابقين أربعة ولهذا قال (فى أربعة أيام سواء للسائلين) أى لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه وقال عكرمة ومجاهد فى قوله عز وجل (وقدر فيها أقواتها) جعل فى كل أرض ما لا يصلح فى غيرها ومنه العصب باليمن والسابورى بسابور والطيايسة بالرى وقال ابن عباس وقتادة والسدى فى قوله تعالى (سواء للسائلين) أى لمن أراد السؤال عن ذلك وقال ابن زيد معناه وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين أى على وفق مراده من له حاجة إلى رزق فان الله تعالى قدر له ما هو محتاج إليه وهذا القول يشبه ما ذكره فى قوله تعالى (وآتاكم من كل ما سألتموه) والله أعلم وقوله تبارك وتعالى (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الارض (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها) أى استجيبا لأمرى وافعلنا لفعلى طائعتين أو مكرهتين قال الثورى عن ابن جريج عن سليمان بن موسى عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها) قال : قال الله تبارك وتعالى للسموات أطلعى شمسى وقمرى ونجومى وقال للارض شقى أنهارك وأخرجى ثمارك (قالنا أئينا طائعين) واختاره ابن جرير رحمه الله قالنا أئينا طائعين أى بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والانس جميعاً مطيعين لك ، حكاه ابن جرير عن بعض أهل العربية قال وقيل تنزيلا لمن معاملة من يعقل بكلامهما وقيل إن التكلم من الارض بذلك هو مكان الكعبة ومن السماء ما يسامته منها والله أعلم وقال الحسن البصرى لو أيا عليه أمره لعذبهما عذابا يجدان ألمه رواه ابن أبي حاتم (فقضاهن سبع سموات فى يومين) أى ففرغ من تسويتهم سبع سموات فى يومين أى آخرين وهما يوم الخميس ويوم الجمعة (وأوحى فى كل مماء أمرها) أى ورتب مقرر فى كل مماء ما تحتاج اليه من الملائكة وما فيها من الاشياء التى لا يعلمها إلا هو (وزينا السماء الدنيا بمصابيح) وهى الكواكب النيرة المشرقة على أهل الارض (وحفظا) أى حرصا من الشياطين أن تستمع إلى الملائكة الأتلى (ذلك تقدير العزيز العليم) أى العزيز الذى قد عز كل شيء فقلبه وقهره العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم قال ابن جرير حدثنا هناد بن السرى حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال هناد:

قرأت سائر الحديث أن اليهود أمت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات الأرض فقال صلى الله عليه وسلم « خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد ويوم الاثنين وخلق الجبال يوم الثلاثاء وما فيه من منافع وخلق يوم الأربعاء الشجر والساء والدائن والعمران والحراب فهذه أربعة (قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداد ذلك رب العالمين » وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين) لمن سألته قال وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه وفي الثانية ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس وفي الثالثة آدم وأسكنه الجنة وأمر إبليس بالسجود له وأخرجه منها في آخر ساعة » ثم قالت اليهود ثم ماذا يا محمد قال « ثم استوى على العرش » قالوا قد أصبت لو آمنت : قالوا ثم استراح ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فزل (ولقد خلقنا السموت والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب » فاصبر على ما يقولون) هذا الحديث فيه غرابة فأما حديث ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق فيها الجبال يوم الأحد وخلق الشجر يوم الاثنين وخلق الكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة فيها بين العصر إلى الليل » فقد رواه مسلم والنسائي في كتابيهما من حديث ابن جريج به وهو من غرائب الصحيح وقد علله البخاري في التاريخ فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحمار وهو الأصح

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا قُلْ أُنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَأَنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لَنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَتَجَنَّبْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين الكذابين بما جتهد به من الحق إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإنني أنذركم حلول قمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضية من الكذابين بالمرسلين (صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) أي ومن شاكلها ممن فعل كفعالها (إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم) كقوله تعالى (واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه) أي في القرى المجاورة لبلادهم بئس الله إليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين ، أو ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أوليائه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) أي لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده (فأنما بما أرسلتم به) أي أيها البشر (كافرون) أي لا تتبعكم وأنتم بشر مثلنا قال الله تعالى (فأما عاد فاستكبروا في الأرض) أي بغوا وعتوا وعصوا (وقالوا من أشد منا قوة ؟) أي منوا بشدة تركيهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله (أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة) أي ألفا يتفكرون فيمن يارزون بالعداوة فانه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها وأن بطشه

شديد كما قال عز وجل (والسما بنيناها بأيد وإنا لموسعون) فبارزوا الجبار بالعداوة وجدوا بآياته وعصوا رسله
لهذا قال (فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً) قال بعضهم وهي شديدة المهبوب ، وقيل الباردة . وقيل هي التي لها صوت
والحق أنها متصفة بجميع ذلك فانها كانت ريحا شديدة قوية لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم وكانت
باردة شديدة البرد جدا كقوله تعالى (برح صرصر عاتية) أى باردة شديدة وكانت ذات صوت مزعج ، ومنه
مى النهر المشهور ببلاد المشرق صرصرأ لقوة صوت جريه . وقوله تعالى (فى أيام نحسات) أى متتابعات (سبع ليال
وثمانية أيام حسوما) وكقوله (فى يوم نحس مستعر) أى ابتدئوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا
النحس (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة ولهذا قال
(لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أخزى) أشد خزيا لهم (وهم لا ينصرون) أى فى الآخرة
كما لم ينصروا فى الدنيا وما كان لهم من الله من واق يقيم العذاب ويدراً عنهم النكال . وقوله عز وجل (وأما ثمود
فهدينهم) قال ابن عباس رضى الله عنهما وأبو العالية وسعيد بن جبير وقتادة والسدى وابن زيد : بيناهم ، وقال
الثورى دعوناهم (فاستحبوا العمى على الهدى) أى بصرناهم وبيناهم ووضعناهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه
الصلاة والسلام فخالقوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم (فأخذتهم صاعقة
العذاب الهون) أى بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلا وهوانا وعذابا ونكالا (بما كانوا يكسبون) أى من
التكذيب والجحود (ونجينا الذين آمنوا) أى من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر بل نجاهم الله تعالى
مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم بتقواهم لله عز وجل

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ
وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوْتُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا
جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾

يقول تعالى (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) أى اذكر لهؤلاء الشركين يوم يحشرون إلى النار
يوزعون أى تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال تبارك وتعالى (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا) أى عطاشا .
وقوله عز وجل (حتى إذا ما جاءوها) أى وقفوا عليها (شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون)
أى بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا) أى لاموا أعضائهم وجلودهم
حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء (قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة) أى فهو
لا يخالف ولا يمتنع وإليه ترجعون . قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن عبد الرحيم حدثنا طي بن قادم حدثنا
شريك عن عبيد المكتب عن الشعبي عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم
وتبسم فقال صلى الله عليه وسلم « ألا تسألونى عن أى شيء ضحكت ، » قالوا يا رسول الله من أى شيء ضحكت ،
قال ﷺ « عجبت من عبادة العبد ربه يوم القيامة يقول أى ربى أليس وعدتنى أن لا تظلمنى ، قال بلى فيقول فأنى لا أقبل
على شاهدا إلا من نفسى فيقول الله تبارك وتعالى أوليس كفى بى شهيدا وبالملائكة الكرام السكاكين - قال - فيردد
هذا الكلام مرارا - قال - فيختم على فيه وتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول بعدا لكن وسحقا ، عنكن كنت

أجادل « ثم رواه هو وابن أبي حاتم من حديث أبي عامر الأسدي عن الثوري عن عبيد المكتب عن فضيل بن عمرو عن الشعبي ثم قال لا نعلم رواه عن أنس رضي الله عنه غير الشعبي وقد أخرجه مسلم والنسائي جميعا عن أبي بكر ابن أبي النضر عن أبي النضر عن عبيد الله بن عبد الرحمن الأشجعي عن الثوري به، ثم قال النسائي لا أعلم أحدا رواه عن الثوري غير الأشجعي وليس كما قال كما رأيت والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا إسماعيل بن علي عن يونس بن عبيد عن حميد بن هلال قال : قال أبو بردة قال أبو موسى : ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه عز وجل عمله فيجحد ويقول أي رب وعزتك لقد كتب على هذا الملك ما لم أعمل فيقول له الملك أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول لا وعزتك أي رب ما عملته قال فإذا فعل ذلك ختم على فيه، قال الأشعري رضي الله عنه فاني لأحسب أول ما ينطق منه فخذيه اليمنى . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا هير حدثنا حسن عن ابن أبي لهيعة قال دراج عن أبي الليث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فجحد وخاصم فيقول هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقول أهلك عشرين فيقول كذبوا فيقول احلفوا فيحلفون ثم يصمتهم الله تعالى وتشهد عليهم ألسنتهم ويدخلهم النار » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث قال سمعت أبي يقول حدثنا علي بن زيد عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لابن الأزرق إن يوم القيامة يأتي على الناس منه حين لا ينطقون ولا يتذكرون ولا يتكلمون حتى يؤذن لهم ثم يؤذن لهم فيختصمون فيجحد الجاحد بشركة بالله تعالى فيحلفون له كما يحلفون لكم فيبعث الله تعالى عليهم حين يجحدون شهداء من أنفسهم جلودهم وأبصارهم وأيديهم وأرجلهم ويختم على أفواههم ثم يفتح لهم الأنواء فتخاصم الجوارح فتقول (أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون) فتقر الألسنة بعد الجحود . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدة بن سليمان حدثنا ابن المبارك حدثنا صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن بن جبير الحضرمي . عن رافع أبي الحسن قال وصف رجلا جحد قال فيشير الله تعالى إلى لسانه فيرثي فيه حتى يملاؤه فلا يستطيع أن ينطق بكلمة ثم يقول لآراه كلها تكلموا واشهدوا عليه فيشهد عليه سمعه وبصره وجلده وفرجه ويده وأرجلاه صنعنا عملنا فعلنا . وقد تقدم أحاديث كثيرة وآثار عند قوله تعالى في سورة يس (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) بما أغنى عن إعادته ههنا . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا يحيى بن سليم الطائفي عن أبي خيثم عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال لما رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجرة البحر قال « ألا تحدثون بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟ » فقال فتية منهم بلى يا رسول الله بينا نحن جالوس إذ مرت علينا عجوز من عجائز رهايينم تحمل على رأسها قلة من ماء فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يدي بين كتفها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فأنكسرت قلتها فلما ارتفعت التفتت إليه فقالت سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم كيف أمرى وأمرك عنده غدا ؟ قال يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « صدقت صدقت كيف يقدس الله قوما لا يؤخذ لضعفهم من شديدهم » هذا حديث غريب من هذا الوجه ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأحوال حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن سليم به وقوله تعالى (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ولا تبالون منه في زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ولهذا قال تعالى (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون) وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم) أي هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون هو الذي ألتفكم وأرداكم عند ربكم (فأصبحتم من الخاسرين) أي في مواقف القيامة خسرت أنفسكم وأهلكم . قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمار عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله رضي الله عنه قال كنت مستترا بأستار الكعبة

فجاء ثلاثة نفر قرشي وختناه ثقيان — أو ثقي وختناه قرشيان — كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم فتكلموا بكلام لم أسمعهم ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ، فقال الآخر إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه فقال الآخر إن مع من شئت سمعه كله — قال — فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم معكم ولا أبصاركم ولا جلودكم — إلى قوله — من الخاسرين) وهكذا رواه الترمذي عن هناد عن أبي معاوية بإسناده نحوه ، وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي أيضا من حديث سفيان الثوري عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن وهب بن ربيعة عن عبد الله بن مسعود بنحوه ، ورواه البخاري ومسلم أيضا من حديث السفيانيين كلاهما عن منصور عن مجاهد عن أبي معمر عبد الله بن سبرة عن ابن مسعود رضى الله عنه به وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (أن يشهد عليكم معكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) قال « إنكم تدعون يوم القيامة مفدما على أفواهكم بالفدام فأول شيء يبين عن أحدكم فخذوه وكفه » قال معمر : وتلا الحسن (وذلك ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم) ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى أنا مع عبدي عند ظنه بي وأنا معه إذا دعاني » ثم أقر الحسن ينظر في هذا فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنونهم بربهم فأما المؤمن فأحسن الظن بربه فأحسن العمل ، وأما الكافر والنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل ثم قال : قال الله تبارك وتعالى (وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم معكم ولا أبصاركم — إلى قوله — وذلك ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم) الآية . وقال الإمام أحمد حدثنا النضر بن إسماعيل القاص وهو أبو المغيرة حدثنا ابن أبي ليلى عن ابن الزبير عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن فان قوما قد أرداهم سوء ظنهم بالله فقال الله تعالى (وذلك ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) وقوله تعالى (فان يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعقبوا فما هم من العقبين) أى سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا يحيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعقبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات . قال ابن جرير : ومعنى قوله تعالى (وإن يستعقبوا) أى يسألوا الرجعة إلى الدنيا فلا جواب لهم قال وهذا كقوله تعالى إخبارا عنهم (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون * قال اخسثوا فيها ولا تكلمون)

﴿ وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ عِبَادِهِ اللَّهُ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَسْأَلُونَنَا بِحَبْرٍ وَهْوَلٍ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمْ تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْاسْفَلِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذى أضل الشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم فى أفعاله بما قيس لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن (فزينو لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى حسنوا لهم أعمالهم فى الماضى والنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإتهم ليصدونهم عن السبيل ومحسوبون أنهم مهتدون) . وقوله تعالى (وحقق عليهم القول) أى كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين أى استووا هم وإياهم فى الخسار والدمار . وقوله تعالى

(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن) أى تواصلوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ولا يتقادوا لأوامره (والنوا فيه) أى إذا تلى لا تسمعوا له كما قال مجاهد والنوا فيه يعنى بالمسكاه والصفير والتخليط فى المنطق على رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن قريش تفعله ، وقال الضحاك عن ابن عباس (والنوا فيه) عيوه ، وقال قتادة اجدوا به وأنكروه وعادوه (لعلكم تطلبون) هذا حال هؤلاء الجبهة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند مماع القرآن وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال تعالى (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) ثم قال عز وجل منتصرا للقرآن ومنتقما ممن عاداه من أهل الكفران (فنديقن الذين كفروا عذابا شديدا) أى فى مقابلة ما اعتمدوه فى القرآن وعند مماعه (ولنجزيهم أسوأ الذى كانوا يعملون) أى بشر أعمالهم وسوء أفعالهم (ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يمحذون) وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين) قال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن مالك بن الحصين الفزاري عن أبيه عن علي بن رضى الله عنه فى قوله تعالى (الذين أضلنا) قال إبليس وابن آدم الذى قتل أخاه . وهكذا روى العوفي عن علي بن رضى الله عنه مثل ذلك . وقال السدي عن علي بن رضى الله عنه فإبليس يدعو به كل صاحب شرك وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة فإبليس الداعي إلى كل شر من شرك فإدونه وابن آدم الأول كائنت فى الحديث « ما قتلت نفس ظلما إلا كان علي بن آدم الأول كفلا من دمها لأنه أول من سن القتل » . وقولهم (نجعلهما تحت أقدامنا) أى أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا ولهذا قالوا (لىكونا من الأسفلين) أى فى الدرك الأسفل من النار كما تقدم فى الأعراف فى سؤال الأتباع من الله تعالى أن يعذب قادتهم أضعاف عذابهم (قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) أى أنه تعالى قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده كما قال تعالى (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون)

(إِن الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

يقول تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أى أخلصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم قال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا الجراح حدثنا مسلم بن قتيبة أبو قتيبة الشيعرى ثنا سهيل بن أبي حازم حدثنا ثابت عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قرأ علينا رسول الله ﷺ هذه الآية (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فذللها ناس ثم كفروا أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها ، وكذا رواه النسائي فى تفسيره والبخاري وابن جرير عن عمرو بن علي الفلاس عن مسلم بن قتيبة به . وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن الفلاس به . ثم قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن أبي إسحق عن عامر بن سعيد عن سعيد بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق رضى الله عنه هذه الآية (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) قال هم الذين لم يشركوا بالله شيئا ثم روى من حديث الأسود بن هلال قال : قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ما تقولون فى هذه الآية (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) قال فقال لقد حملتموه على غير الحمل قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلم يلتفتوا إلى إله غيره . وكذا قال مجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله الظهري أخبرنا حفص بن عمر العقدي عن الحكم بن أبان عن عكرمة قال سئل ابن عباس رضى الله عنهما أى آية فى كتاب الله تبارك وتعالى أرخص ؟ قال قوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) على شهادة أن لا إله إلا الله . وقال الزهري : تلاهم رضى الله عنه هذه الآية على النبي ثم قال استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعالب

وقال طي بن أبي طحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (قالوا ربنا الله ثم استقاموا) على أداء فرائضه ، وكذا قال قتادة قال وكان الحسن يقول اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة ، وقال أبو العالية (ثم استقاموا) أخلصوا له الدين والعمل

وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم حدثنا يعلى بن عطاء عن عبد الله بن سفيان الثقفي عن أبيه أن رجلا قال يا رسول الله مرني بأمر في الاسلام لأسأل عنه أحدا بعدك قال صلى الله عليه وسلم « قل آمنت بالله ثم استقم » قلت فما أتقى ؟ أوما إلى لسانه . ورواه النسائي من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء به . ثم قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا إبراهيم بن سعد حدثني ابن شهاب عن عبد الرحمن بن ماعز الغامدي عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به قال صلى الله عليه وسلم « قل ربى الله ثم استقم » قلت يا رسول الله ما أكثر ما تخاف طي ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرف لسان نفسه ثم قال « هذا » وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه من حديث الزهري به وقال الترمذي حسن صحيح . وقد أخرجه مسلم في صحيحه والنسائي من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال ﷺ « قل آمنت بالله ثم استقم » وذكر تمام الحديث . وقوله تعالى (تنزل عليهم الملائكة) قال مجاهد والسدي وزيد بن أسلم وابنه يعنى عند الموت قائلين (أن لا تخافوا) قال مجاهد وعكرمة وزيد بن أسلم أى عما تقدمون عليه من أمر الآخرة (ولا تحزنوا) على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال وأودين فانا نخلفكم فيه (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) فيبشرونهم بنهاب الشر وحصول الخير : وهذا كما جاء في حديث البراء رضى الله عنه قال « إن الملائكة تقول لروح المؤمن أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب كنت تعمريه كنت تخرجني إلى روح وريحان ورب غير غضبان » وقيل إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدي . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد السلام بن مطهر حدثنا جعفر بن سليمان قال سمعت ثابتاً قرأ سورة حم السجدة حتى بلغ (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة) فوقف فقال بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يلتقى الملائكة الذين كانوا معه في الدنيا فيقولان له لا تخف ولا تحزن (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) قال فيؤمن بالله تعالى وخوفه ويقر عينه فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هي للمؤمن قرة عين لما هده الله تبارك وتعالى ولما كان يعمل في الدنيا وقال زيد بن أسلم يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث . رواه ابن أبي حاتم ، وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جدا وهو الواقع . وقوله تبارك وتعالى (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أى تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياءكم أى قرناءكم في الحياة الدنيا نسدكم ونوقمكم ونحفظكم بأمر الله وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس منكم الوحشة في القبور وعند النفخة في الصور ونؤمنكم يوم البعث والنشور ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونوصلكم إلى جنات النعيم (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) أى في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون (ولكم فيها ما تدعون) أى مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم (نزلاً من غفور رحيم) أى ضيافة وعطاء وإعلاء من غفور لدنوبكم رحيم بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف . وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديث سوق الجنة عند قوله تعالى (ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم) ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم) فقال حدثنا أبي ثنا هشام بن عمار ثنا عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين أبي سعيد حدثنا الأوزاعي حدثني حسان بن عطية عن سعيد ابن المسيب أنه لقي أبا هريرة رضى الله عنه فقال أبو هريرة رضى الله عنه أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة فقال سعيد أوفيهما سوق ؟ فقال نعم أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها نزلوا بفضل أعمالهم فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله عز وجل ويبرز لهم عرشه ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ويوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من ياقوت ومنابر من زبرجد ومنابر من ذهب ومنابر من فضة ويجلس أديانهم ومافيهم دناء على كئبان المسك والكافور ما يرون أن أصحاب الكراسي

بأفضل منهم مجلسا . قال أبو هريرة رضى الله عنه قلت يارسول الله وهل نرى ربنا ، قال صلى الله عليه وسلم « نعم ، هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ، » قلنا لا ؛ قال صلى الله عليه وسلم « فكذلك لا تمارون في رؤية ربكم تعالى ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة حتى إنه ليقول للرجل منهم يا فلان بن فلان أتذكر يوم عملت كذا وكذا يذكره ببعض غدراته في الدنيا - فيقول أى رب أفلم تغفرلى ، فيقول بلى ، فبسة مغفرتى بلغت منزلتك هذه - قال - فينبأهم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحهم شيئا قط - قال - ثم يقول ربنا عز وجل قوموا إلى ما أعددت لكم من الكرامة وخذوا ما اشتيتهم ، قال فتأتى سوقا قد حفت به الملائكة ، فيها ما لم تنظر العيون إلى مثله ولم تسمع الآذان ولم يخطر على القلوب قال فيحمل لنا ما اشتيتهم ليس يباع فيه شيء ولا يشتري وفي ذلك السوق يلتقى أهل الجنة بعضهم بعضا . قال فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هودونه وما فيهم دنى فيروعه ما يرى عليه من اللباس فما ينقض آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه وذلك لأنه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها ثم تنصرف إلى منازلنا فيتلقانا أزواجنا فيقبلن مرحبا وأهلا بحبيبن لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أنفضل بما فارقتنا عليه فيقول إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار تبارك وتعالى وبحقنا أن نقلب بمثل ما اتقلبنا به ، وقد رواه الترمذى في صفة الجنة من جامعه عن محمد بن إسماعيل عن هشام بن عمار ورواه ابن ماجه عن هشام بن عمار به نحوه ثم قال الترمذى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وقال الإمام أحمد حدثنا ابن أبي عدى عن حميد عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ومن كره لقاء الله كره لقاء الله » قلنا يارسول الله : كلنا نكره الموت قال ﷺ « ليس ذلك كراهية الموت ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله تعالى بما هو صائر إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قدلقى الله تعالى فأحب لقاءه - قال - وإن الفاجر - أو الكافر - إذا حضر جاءه بما هو صائر إليه من الشر أو ما يلقى من الشر فكره لقاء الله فكره لقاء الله » وهذا حديث صحيح وقد ورد في الصحيح من غير هذا الوجه

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

يقول عز وجل (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين) وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين (وهو في نفسه مهتد بما يقوله فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه وينهون عن المنكر ويأتونه بل يأتمر بالخير ويترك الشر ويدعو الخلق إلى الخالق تبارك وتعالى وهذه عامة في كل من دعا إلى خير وهو في نفسه مهتد ورسول الله صلى الله عليه وسلم أولى الناس بذلك كما قال محمد بن سيرين والسدي وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقيل المراد بها المؤمنون الصالحاء كما ثبت في صحيح مسلم « المؤمنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » وفي السنن مرفوعاً « الإمام ضامن والمؤمن مؤتمن فأرشد الله الأمة وغفر للمؤمنين » وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن عروة الهروي حدثنا غسان قاضي هراة وقال أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مطر عن الحسن بن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه أنه قال « سهام للمؤمنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين وهويين الأذان والإقامة كالتمشط في سبيل الله تعالى في دمه » قال : وقال ابن مسعود رضى الله عنه لو كنت مؤذناً ما باليت أن لأحج ولا أعتزل ولا أجاهد قال : وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لو كنت مؤذناً لكمل أمرى وما باليت أن لا أتعصب لقيام الليل ولا لصيام النهار سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم اغفر للمؤمنين ثلاثاً ، قال : قلت يارسول الله تركتكم ونحن نجتلد على الأذان بالسيف قال صلى الله عليه وسلم « كلا يا عمر إنه سيأتى على

الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم وتلك لحوم حرمها الله عز وجل على النار لحوم المؤذنين » قال وقالت عائشة رضى الله تعالى عنها ولهم هذه الآية (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) قالت فهو المؤذن إذا قال حى على الصلاة فقد دعا إلى الله وهكذا قال ابن عمر رضى الله عنهما وعكرمة لأنها نزلت في المؤذنين وقد ذكر البغوى عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه أنه قال في قوله عز وجل وعمل صالحاً يعنى صلاة ركعتين بين الأذان والاقامة . ثم أورد البغوى حديث عبد الله بن الغفل رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بين كل أذانين صلاة - ثم قال في الثالثة - لمن شاء » وقد أخرجه الجماعة في كتبهم من حديث عبد الله بن بريدة عنه وحديث الثورى عن زيد العمى عن أبى إياس معاوية بن قرة عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال الثورى لا أراه إلا قد رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم « الدعاء لا يرد بين الأذان والاقامة » ورواه أبو داود والترمذى والنسائى في اليوم واللييلة كلهم من حديث الثورى به وقال الترمذى هذا حديث حسن ، ورواه النسائى أيضاً من حديث سليمان التيمى عن قتادة عن أنس به ، والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم فأما حال نزول هذه الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبد الله بن عبد ربه الأنصارى رضى الله عنه في منامه فقصة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره أن يلقه على بلال رضى الله عنه فإنه أئدى صوتاً كما هو مقرر في موضعه فالصحيح إذا أنها عامة كما قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية (ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) فقال هذا حبيب الله هذا ولى الله هذا صفوة الله هذا خيرة الله هذا أحب أهل الأرض إلى الله أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته وقال إننى من المسلمين هذا خليفة الله ، وقوله تعالى (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة) أى فرق عظيم بين هذه وهذه (ادفع بالتي هي أحسن) أى من أساء إليك فادفعه عنك بالاحسان إليه كما قال عمر رضى الله عنه : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وقوله عز وجل (فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) وهو الصديق أى إذا أحسنت إلى من أساء إليك قاده تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم أى قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك ، ثم قال عز وجل (وما يلقاها إلا الذين صبروا) أى وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) أى ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم . وقوله تعالى (وإما يئزغناك من الشيطان نزع فاستعد بالله) أى أن شيطان الإنس ربما ينخدع بالاحسان إليه فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك فإذا استعنت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة يقول « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » وقد قدمنا أن هذا اللقاع لا نظير له في القرآن إلا في سورة الأعراف عند قوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) * وإما يئزغناك من الشيطان نزع فاستعد بالله فإنه مبيع عليم) وفي سورة المؤمنين عند قوله (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك أن يحضروا)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَوْنَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى

إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٢﴾

يقول تعالى منها خلقه على قدرته العظيمة وأنه الذي لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه وهما متعاقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها والقمر وضياءه وتقدير منازلها في فلكه واختلاف سيره في سمائه يعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام ، ويتبين بذلك حلول الحقوق وأوقات العبادات والعمالات . ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام للشاهدة في العالم العلوي والسفلي نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبادان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال (لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) أي ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره فإنه لا يغفر أن يشرك به ولهذا قال تعالى (فإن استكبروا) أي عن أفراد العبادة له وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره (فالذين عند ربك) يعني للملائكة (يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون) كقوله عز وجل (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا عفيان يعني ابن وكيع حدثنا أبي عن ابن أبي ليلى عن أبي الزبير عن جابر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح فانها ترسل رحمة لقوم وعذابا لقوم » . وقوله (ومن آياته) أي على قدرته على إعادة الموتى (أنك ترى الأرض خاشعة) أي هامة لانبات فيها بل هي ميتة (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت) أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار (إن الذي أحيأها لمحبي الموتى إنه على كل شيء قدير)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُولِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠٣﴾

قوله تبارك وتعالى (إن الذين يلحدون في آياتنا) قال ابن عباس : الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه . وقال قتادة وغيره هو الكفر والعناد ، وقوله عز وجل (لا يخفون علينا) فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أي أنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والנקال ولهذا قال تعالى (أفمن يلقي في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة ؟) أي أيستوى هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال عز وجل تهديدا للكفرة (اعملوا ما شئتم) قال مجاهد والضحاك وعطاء الخراساني (اعملوا ما شئتم) وعيد أي من خير أو شر إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ولهذا قال (إنه بما تعملون بصير) ثم قال جل جلاله (إن الذين كفروا بالذکر لما جاءهم) قال الضحاك والسدي وقاتدة وهو القرآن (وإنه لكتاب عزيز) أي منيع الجنب لا يرام أن يأتي أحد بمثله (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) أي ليس للباطل إلى سبيل لأنه منزل من رب العالمين ولهذا قال (تنزيل من حكيم حميد) أي حكيم في أقواله وأفعاله حميد بمعنى محمود أي في جميع ما أمر به وينهى عنه الجميع محمود عواقبه وغاياته . ثم قال عز وجل (ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك) قال قتادة والسدي وغيرهما ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك فكما كذبت كذبوا وكما صبروا على أذى قومهم لمص فاصبر أنت على أذى قومك لك . وهذا اختيار ابن جرير ولم يحك هو ولا ابن أبي حاتم غيره وقوله تعالى (إن ربك لذو مغفرة) أي لمن تاب إليه (وذو عقاب أليم) أي لمن استمر على كفره وطفيلانه وعناده وشقاقة ومخالفته ، قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن إسحاق حدثنا حماد عن علي بن زيد عن سعيد بن

للسبب قال نزلت هذه الآية (إن ربك لدو مغفرة) قال رسول الله ﷺ « لولا غفو الله وتجاوزة ما هنا أحدنا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد »

﴿ وَلَوْ جَمَعْتُمْ قُرْءَانًا أُعْجِمِيَا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِي وَعَرَبِي قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۖ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا مَرَّبَ بِهِ ۖ ﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون به طي أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال عز وجل (ولونزلناه على بعض الأعجمين ققرأ عليهم ما كانوا به مؤمنين) وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد (لولا فصلت آياته أعجمي وعربي) أي لقالوا هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ولأنكروا ذلك فقالوا أعجمي وعربي أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه وهكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي وغيرهم ؟ وقيل المراد بقولهم لولا فصلت آياته أعجمي وعربي أي هل أنزل بعضها بالأعجمي وبعضها بالعربي ؟ هذا قول الحسن البصري وكان يقرؤها كذلك بلا استفهام في قوله أعجمي وهو رواية عن سعيد بن جبير وهو في التعنت والعناد أبلغ ثم قال عز وجل (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) أي قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر) أي لا يفهمون ما فيه (وهو عليهم غمى) أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى (وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) (أولئك ينادون من مكان بعيد) قال مجاهد يعني بعيد من قلوبهم قال ابن جرير معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول ، قلت وهذا كقوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بهم غمى فهم لا يعلقون) وقال الضحاك ينادون يوم القيامة بأشنع أسمائهم . وقال السدي كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه جالسا عند رجل من المسلمين يقضى إذ قال : يا ليكاه فقال له عمر رضى الله عنه لم تلي ، هل رأيت أحدا أو دعاك أحد ؟ فقال دعاني داع من وراء البحر فقال عمر رضى الله عنه أولئك ينادون من مكان بعيد رواه ابن أبي حاتم . وقوله تبارك وتعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه) أي كذب وأوذى (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى) بتأخير الحساب إلى يوم العاد (لقضى بينهم) أي لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلا (وإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا مَرَّبَ بِهِ) أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين شيء كانوا فيه ، هكذا وجهه ابن جرير وهو محتمل والله أعلم

﴿ مَنْ حَمَلَ صُلْحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْبَعِيدِ ۖ إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَشْجَارٍهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُ هِيَ قَالُوا أَاذَنُكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ۖ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا لَمْ يُمْسِكْ مِنْ حَمِيمٍ ۖ ﴾

يقول تعالى (من حمل صلحا فلنفسه) أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه (ومن أساء فعليها) أي إنما يرجع وبال ذلك عليه (وما ربك بظلام للعبيد) أي لا يعاقب أحدا إلا بذنبه ولا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ثم قال جل وعلا (إليه يرد علم الساعة) أي لا يعلم ذلك أحد سواه كما قال محمد صلى الله عليه وسلم وهو سيد

البشر لجبريل عليه الصلاة والسلام وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة فقال « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » وكما قال عز وجل (إلى ربك منتهاها) وقال جل جلاله (لا يجلبها لوقتها إلا هو) وقوله تبارك وتعالى (وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وقد قال سبحانه وتعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) وقال جلت عظمتة (يعلم ما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرض وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار) وقال تعالى (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير) وقوله جل وعلا (ويوم يناديهم أين شركائى ؟) أى يوم القيامة ينادى الله الشركين على رؤوس الخلائق أين شركائى الذين عبدتموهم معى (قالوا آذناك) أى أعلناك (ما منا من شهيد) أى ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا (وضل عنهم ما كانوا يمدعون من قبل) أى ذهبوا فلم يفهمهم (وظنوا ما لهم من محيص) أى وظن الشركون يوم القيامة وهذا بمعنى اليقين (ما لهم من محيص) أى لا محيد لهم عن عذاب الله كقوله تعالى (وراى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا)

﴿ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّىْ إِنَّ لىَ عِندَهُ لَاحْسَنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾

يقول تعالى لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك وإن مسه الشر وهو البلاء أو الفقر (فيئوس قنوط) أى يقع فى ذهنه أنه لا يتبأ له بعد هذا خير (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذالى) أى إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان فى شدة ليقولن هذا لى إنى كنت أستحقه عند ربى (وما أظن الساعة قائمة) أى يكفر بقيام الساعة أى لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر كما قال تعالى (كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى) (ولئن رجعت إلى ربى إنى لى عنده للاحسنى) أى ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلى ربى كما أحسن إلى فى هذه الدار ، يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين قال الله تبارك وتعالى (فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال ثم قال تعالى (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) أى أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل كقوله جل جلاله (فتولى بركنه) (وإذا مسه الشر) أى الشدة (فذو دعاء عريض) أى يطيل المسئلة فى الشيء الواحد فالكلام العريض ما طال لفظه وقل معناه والوجيز عكسه وهو ما قل ودل وقد قال تعالى (وإذا مس الإنسان الضر دعا ناديا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره) الآية

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * سَتُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُمْ أَلَا تَأْتِي وَفَى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ أَلْخَقُوا أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَا لَهُمْ فِي مِزَانِهِمْ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد هؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن (أرايتم إن كان) هذا القرآن (من عند الله ثم كفرتم بـ ؟) أى كيف ترون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال عز وجل (من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ؟) أى فى كفر

وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى ثم قال جل جلاله (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم) أى سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم بدلائل خارجية (في الآفاق) من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان قال مجاهد والحسن والسدى ودلائل في أنفسهم قالوا: وقعة بدر وفتح مكة ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم نصر الله فيها محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه وخذل فيها الباطل وحزبه ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأختلاط والهيئات العجيبة كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى وكذلك ما هو عجول عليه من الأخلاق الثبانية من حسن وقبح وغير ذلك وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله وقوته وحيله وحذره أن يجوزها ولا يتعداها كما أنشده ابن أبي الدنيا في كتابه التفكير والاعتبار عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال وأحسن المقال

وإذا نظرت تريد معتبرا فانظر اليك ففبك معتبر أنت الذي تسمى وتصبح في الدنيا وكل أموره عبر أنت للصرف كان في صغر ثم استقل بشخصك الكبير أنت الذي تنعم خلقتك ينعم منه الشعر والبشر أنت الذي تعطى وتسلب لا ينجي من أن يسلب الحذر أنت الذي لا شيء منه له وأحق منه بماله القدر

وقوله تعالى (حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) أى كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق فيما أخبر به عنه كما قال (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنه بعلومه) الآية . وقوله تعالى (ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم) أى في شك من قيام الساعة ولهذا لا يتفكرون فيه ولا يعملون به ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعبأون به وهو كائن لا محالة وواقع لا ريب فيه قال ابن أبي الدنيا حدثنا أحمد بن إبراهيم حدثنا خلف بن تميم حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا سعيد الأنصاري قال : إن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه سعد النبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد أيها الناس فاني لم أجمعكم لأمر أحدثه فيكم ، ولكن فكرت في هذا الأمر الذي أتم اليه صائرون فعلت أن الصدق بهذا الأمر أحق والكذب به هالك ، ثم نزل . ومعنى قوله رضى الله عنه أن الصدق به أحق أى لأنه لا يعمل له عمل مثله ولا يحذر منه ولا يخاف من هوله وهو مع ذلك مصدق به موقن بوقوعه وهو مع ذلك يتأدى في لبعه وغفلته وشهواته وذنوبه فهو أحق بهذا الاعتبار والأحق في اللغة ضعيف العقل ، وقوله والكذب به هالك هذا واضح والله أعلم . ثم قال تعالى مقررأ أنه على كل شيء قدير وبكل شيء محيط وإقامة الساعة لديه يسير سهل عليه تبارك وتعالى (ألا إنه بكل شيء محيط) أى الخلوقات كلها تحت قهره وفي قبضته وتحت طي علمه وهو المتصرف فيها كلها بحكمه فإشاء كان وما لم يشأ لم يكن لا إله إلا هو . آخر تفسير سورة جم السجدة والله الحمد والمنة .

(تفسير سورة الشورى وهي مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(حم * عسق * كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم * له ما في السموات وما في الأرض وهو العلي العظيم * تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم * والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل)

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة . وقد روى ابن جرير ههنا أنراغريبا عجباً منكرأ فقال أخبرنا أحمد بن زهير حدثنا عبد الوهاب بن نجدة الحوطي حدثنا أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج عن أرطاة بن المنذر قال : جاء رجل

إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال له وعنده حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه أخبرني عن تفسير قول الله تعالى (حم عسق) قال فأطرق ثم أعرض عنه ثم كرر مقالته فأعرض عنه فلم يجبه بشيء وكره مقالته ، ثم كررها الثالثة فلم يجبر إليه شيئا فقال له حذيفة رضي الله عنه أنا أنبتك بها قد عرفت لم كرهها نزلت في رجل من أهل بيته يقال له عبد الله وعبد الله ينزل على نهر من أنهار المشرق تبني عليه مدينتان يشق النهر بينهما شقا فإذا أذن الله تبارك وتعالى في زوال ملكهم وانقطاع دولتهم ومدتهم بعث الله عز وجل على إحداها نارا ليلا فتصبح سوداء مظلمة وقد احترقت كأنها لم تكن مكانها وتصبح صاحبها متعجبة كيف أفلتت ؟ فما هو إلا يياض يومها ذلك حتى يجتمع فيها كل جبار عنيد منهم ثم يخسف الله بها وبهم جميعا فذلك قوله تعالى (حم عسق) يعني عزيمة من الله تعالى وفنة وقضاء حم عين يعني عدلا منه سين يعني سيكون ق يعني واقع بهاتين المدينتين وأغرب منه ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في الجزء الثاني من مسند ابن عباس رضي الله عنه عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ في ذلك ولكن إسناده ضعيف جدا ومنقطع فإنه قال حدثنا أبو طالب عبد البار بن عاصم حدثنا أبو عبد الله الحسن بن يحيى الحشني الدمشقي عن أبي معاوية قال : سعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه النبر فقال : أيها الناس هل معكم أحد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفسر (حم عسق) فوثب ابن عباس رضي الله عنه فقال أنا ، قال حم امم من أسماء الله تعالى ، قال فمين ؟ قال عاين المولون عذاب يوم بدر ، قال فسين ؟ قال سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، قال فقف ؟ فسكت فقام أبو ذر ففسر كما قال ابن عباس رضي الله عنهما وقال قاف قارعة من السماء تغطي الناس . وقوله عز وجل (كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك . وقوله تعالى (الله العزيز) أي في انتقامه (الحكيم) في أقواله وأفعاله

قال الإمام مالك رحمه الله عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحيانا يأتيني الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه صلى الله عليه وسلم ليتفصد عرقا . أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخاري . وقد رواه الطبراني عن عبد الله بن الإمام أحمد عن أبيه عن عامر بن صالح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها عن الحارث بن هشام أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف ينزل عليك الوحي ؟ فقال ﷺ « في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت ما قال - وقال - وهو أشده علي - قال - وأحيانا يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني فأعي ما يقول » . وقال الإمام أحمد حدثنا قتيبة حدثنا ابن لميعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أسمع صلاصلا ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض » تفرد به أحمد ، وقد ذكرنا كيفية إتيان الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول شرح البخاري بما أغنى عن إعادته ههنا والله الحمد والمنة . وقوله تبارك وتعالى (له ما في السموات وما في الأرض) أي الجميع عبيده وملكه تحت قهره وتصريفه (وهو العلي العظيم) كقوله تعالى (وهو الكبير المتعال) (وهو العلي الكبير) والآيات في هذا كثيرة . وقوله عز وجل (تكاد السموات يتفطرن من فوقهن) وقال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك وقتادة والسدي وكعب الأحمري أي فرقا من العظيمة (والملائكة يسبحون بحمدهم ويستغفرون لمن في الأرض) كقوله جل وعلا (الذين يحملون العرش ومن حوله يحولون يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما) وقوله جل جلاله (ألا إن الله هو الغفور الرحيم) إعلام بذلك وتوبيه به ، وقوله سبحانه وتعالى (والذين اتخذوا من دونه أولياء) يعني المشركين (الله حفيظ عليهم) أي شهيد على أعمالهم يحصيها ويعدّها عدا ، وسيجزئهم بها أوفر الجزاء (وما أنت عليهم

بوكيل (أى إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يقول تعالى وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك (أو حينا إليك قرآنا عربيا) أى واضحا جليبا ينال (لتندرام القرى) وهى مكة (ومن حولها) أى من سائر البلاد شرقا وغربا ، وصميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة مذكورة فى مواضعها ، ومن أوجز ذلك وأدله ما قال الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهري حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن قال : إن عبد الله بن عدى بن الحراء الزهرى أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة فى سوق مكة « والله إنك لحير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » هكذا رواية الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث الزهري به وقال الترمذى حسن صحيح . وقوله عز وجل (وتندري يوم الجمع) وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد وقوله تعالى (لا ريب فيه) أى لا شك فى وقوعه وأنه كائن لا محالة ، وقوله جل وعلا (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) كقوله تعالى (يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن) أى يغيب أهل الجنة أهل النار ، وكقوله عز وجل (إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما تؤخره الا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس الا بإذنه فمنهم شقي وسعيد) قال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا ليث حدثنى أبو قبيل اللعافى عن شفى الأصمعى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده كتابان فقال « أتدرون ما هذان الكتابان ؟ » قلنا لا إلا أن تخبرنا يارسول الله . قال صلى الله عليه وسلم للذى فى يمينه « هذا كتاب من رب العالمين باسماء أهل الجنة واسماء آبائهم وقبائلهم - ثم أجلس على آخرهم - لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا - ثم قال صلى الله عليه وسلم للذى فى يساره - هذا كتاب أهل النار باسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم ثم أجلس على آخرهم لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم أبدا » فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاى شيء نعمل أن كان هذا أمر قد فرغ منه قال رسول الله ﷺ « سادحوا وقاربوا فان صاحب الجنة يفتح له بعمل أهل الجنة وإن عمل أى عمل ، وإن صاحب النار يفتح له بعمل أهل النار وإن عمل أى عمل » ثم قال صلى الله عليه وسلم بيده قبضها ثم قال « فرغ ربكم عز وجل من العباد - ثم قال باليمين فنبذ بها فقال - فريق فى الجنة - ونبذ باليسرى وقال - فريق فى السعير » وهكذا رواه الترمذى والنسائى جميعا عن قتبية عن الليث بن سعد وبكر بن مضر كلاهما عن أبى قبيل عن شفى بن مانع الأصمعى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما به ، وقال الترمذى حسن صحيح غريب وساقه البغوى فى تفسيره من طريق بشر بن بكر عن سعيد بن عثمان عن أبى الزاهرية عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره بنحوه وعنده زيادات منها - ثم فريق فى الجنة وفريق فى السعير عدل من الله عز وجل - ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عن الليث به ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن أبى قبيل عن شفى عن رجل من الصحابة رضى الله عنهم فذكره

ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن عمرو بن الحارث وحيوة بن شريح عن يحيى بن أبى أسيد أن أبافراس حدثه أنه سمع عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما يقول : إن الله تعالى لما خلق آدم قضه قض للرد وأخرج منه كل ذريته فخرج أمثال النعف قبضهم قبضتين ثم قال شقى وسعيد ثم ألقاهما ثم قبضهما فقال فريق فى الجنة وفريق فى السعير

وهذا الموقف أشبه بالصواب والله سبحانه وتعالى أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد يعني ابن سلمة أخبرنا الجريري عن أبي نضرة قال: إن رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقال له أبو عبد الله دخل عليه أصحابه يعني يزورونه فوجدوه يسكن ، فقالوا له ما يبكيك ، ألم يقل لك رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ من شاربك ثم أفره حتى تلقاني ، قال بلى ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله تعالى قبض يمينه قبضة وأخرى باليد الأخرى قال هذه لهذه وهذه لهذه ولا أبالي » فلا أدري في أي القبضتين أنا وأحاديث القدر في الصحاح والسنان واللسانيد كثيرة جدا منها حديث علي وابن مسعود وعائشة وجماعة جعترضوا الله عنهم أجمعين . وقوله تبارك وتعالى (ولو شاء الله لجلهم أمة واحدة) أي إما على الهداية أو على الضلالة ولكنه تعالى فاوب بينهم فهدى من يشاء إلى الحق وأضل من يشاء عنه وله الحكمة والحجة البالغة ولهذا قال عز وجل (ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير) . وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا وهيب أخبرني الحارس عن عمرو بن أبي سويد أنه حدثه عن ابن حنبل أنه بلغه أن موسى عليه الصلاة والسلام قال : يارب خلقت الدين خلقتهم جعلت منهم فريقا في الجنة وفريقا في النار لوما أدخلتهم كلهم الجنة فقال يا موسى ارفع درعك فرفع قال قد رفعت قال ارفع فرفع فلم يترك شيئا قال يارب قدر فت قال ارفع قال قد رفعت إلا ما لا خير فيه قال كذلك أدخل خلقي كلهم الجنة إلا ما لا خير فيه .

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَالَ هُوَ الْأَوْلَىٰ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله وغبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده فانه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير . ثم قال عز وجل (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) أي مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عام في جميع الأشياء (فحكمه إلى الله) أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم كقوله جل وعلا (فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ذلكم الله ربي) أي الحاكم في كل شيء (عليه توكلت وإليه أنيب) أي أرجع في جميع الأمور ، وقوله جل جلاله (فاطر السموات والأرض) أي خالقهما وما بينهما (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) أي من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلا جعل من جنسكم ذكرا وأنثى (ومن الأنعام أزواجا) أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج . وقوله تبارك وتعالى (يذُرُّكُمْ فِيهِ) أي يخلقكم فيه أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذُرُّكم فيه ذكورا وإناثا خلقا من بعد خلق وجيلا بعد جيل ونسلا بعد نسل من الناس والأنعام وقال البغوي يذُرُّكم فيه أي في الرحم وقيل في البطن وقيل في هذا الوجه من الحلقة . قال مجاهد نسلا بعد نسل من الناس والأنعام ، وقيل في بمعنى الباء أي يذُرُّكم به (ليس كمثله شيء) أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له (وهو السميع البصير) : وقوله تعالى (له مقاليد السموات والأرض) تقدم تفسيره في سورة الزمور وحاصل ذلك أنه للتصرف الحاكم فيهما (ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء وله الحكمة والعدل التام (إنه بكل شيء عليم) .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ

يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِيَانَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١﴾

يقول تعالى لهذه الأمة (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك) فذكر أول الرسل بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام وآخرهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم . ثم ذكر من بين ذلك من أولى العزم وهو إبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وهذه الآية انتظمت ذكر الحجة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) الآية والذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال عز وجل (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) . وفي الحديث « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » أى القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم كقوله جل جلاله (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) ولهذا قال تعالى ههنا (أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) أى وصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالاتلاف والجماعة ونهاهم عن الاقتراق والاختلاف ، وقوله عز وجل (كبر على المشركين ما تدعوم إليه) أى شق عليهم وأنكروا ما تدعوم إليه يا محمد من التوحيد . ثم قال جل جلاله (الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب) أى هو الذى يقدر الهداية لمن يستحقها ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد ، ولهذا قال تبارك وتعالى (وما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم) أى إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغ اليهم وقيام الحجة عليهم ومآلهم على ذلك إلا البنى والناد والمشاقة ثم قال عز وجل (ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى) أى لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بانظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة فى الدنيا سريعا . وقوله جل جلالته (وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم) يعنى الجيل التآخر بعد القرن الأول للكذب للحق (لفي شك منه مرير) أى ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم وأنعام مقلدون لأبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا براهان وهم فى حيرة من أمرهم وشك مرير وشقاق بعيد

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة كل منها منفصلة عن التى قبلها حكم برأسها قالوا ولا نظير لها سوى آية الكرسي فانها أيضا عشرة فصول كهذه . وقوله (فلذلك فادع) أى فللذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم فادع الناس إليه . وقوله عز وجل (واستقم كما أمرت) أى واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله تعالى كما أمركم الله عز وجل وقوله تعالى (ولا تتبع أهواءهم) يعنى المشركين فيما اختلفوه فيه وكذبوه واقتروه من عبادة الأوثان . وقوله جل وعلا (وكل ءامنت بما أنزل الله من كتاب) أى صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم وقوله (وأمرت لأعدل بينكم) أى فى الحكم كما أمرنى الله وقوله جل جلالته (الله ربنا وربكم) أى هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختيارا وأتم وإن لم نفعله اختيارا فله يسجد من فى العالمين طوعا وإجبارا . وقوله تبارك وتعالى (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى نحن برآء منكم كما قال سبحانه وتعالى (وإن كذبوك قل لى عملى ولكم عملكم) أى برئونا عما عملنا وأما برئنا مما تعملون (وقوله تعالى) (لا حجة بيننا وبينكم) قال مجاهد أى لا خصومة قال السدى وذلك قبل نزول آية السيف وهذا متجه لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة . وقوله عز وجل (الله يجمع بيننا) أى يوم القيامة كقوله (قل يجمع بيننا ربنا ثم ففتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم) وقوله جل وعلا (وإليه المصير) أى الرجوع والى الحساب

﴿ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ * اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا آتِيَةٌ أَلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُبَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿

يقول تعالى متوعدا الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به (والذين يحاجون في الله من بعدما استجيب له) أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوم عما سلكوه من طريق الهدى (حجتهم داحضة عند ربهم) أي باطلة عند الله (وعليهم غضب) أي منه (ولهم عذاب شديد) أي يوم القيامة قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله ليصدوم عن الهدى وطعموا أن تعود الجاهلية ، وقال قتادة هم اليهود والنصارى قالوا لهم ديننا خير من دينكم ونبينا قبل نبيكم ونحن خير منكم وأولى بالله منكم وقد كذبوا في ذلك . ثم قال تعالى (الله الذي أنزل الكتاب بالحق) يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه (والميزان) وهو العدل والانصاف قاله مجاهد وقاتدة وهذه كقوله تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقوله (والسما رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) . وقوله تبارك وتعالى (وما يدريك لعل الساعة قريب) فيه ترغيب فيها وترهيب منها وتزهيد في الدنيا وقوله عز وجل (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) أي يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين وإنما يقولون ذلك تكذبا واستبعادا وكفرا وعنادا (والذين آمنوا مشفقون منها) أي خائفون وجلون من وقوعها (ويعلمون أنها الحق) أي كائنة لا محالة فهم مستعدون لها عاملون من أجلها . وقد روى من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحيح والحسان والسنن والمسند وفي بعض ألفاظه أن رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم بصوت جهورى وهو في بعض أسفاره فناداه فقال يا محمد فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم نحا من صوته « هاؤم » فقال له متى الساعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنت مع من أحببت » فقوله في الحديث « للرمع مع من أحب » هذا متواتر لا محالة والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة بل أمره بالاستعداد لها . وقوله تعالى (ألا إن الذين يمارون في الساعة) أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها (لفي ضلال بعيد) أي في جهل بين لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى كما قال تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه)

﴿ اللَّهُ طَئِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ * مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ قَرِّدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُتِنَ بِهِمْ وَلِنْ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَةٍ أَلْبَنَّتْ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿

يقول تعالى مخبرا عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحدا منهم سواء في رزقة البر والفاقر كقوله عز وجل (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين) ولها نظائر كثيرة وقوله جل وعلا (يرزق

بما بيني وبينكم من القرابة . قال البخاري حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت طلوسا يحدث عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله تعالى إلا اللودة في القرى فقال سعيد بن جبير قرى آل محمد فقال ابن عباس عجلت^(١) إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة فقال إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة ، انفرد به البخاري ، ورواه الإمام أحمد عن يحيى القطان عن شعبة به ، وهكذا روى عامر الشعبي والضحاك وطى بن أنى طلحة والعمري ويوسف بن مهران وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وأبو مالك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا هاشم بن القاسم بن زيد الطبراني وجعفر القلاني قال حدثنا آدم بن أبي إياس حدثنا شريك عن خفيف عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا أسألكم عليه أجرا إلا أن تودوني في نفسي لقرايتكم منكم وتحفظوا القرابة بيني وبينكم » وروى الإمام أحمد عن حسن بن موسى حدثنا قزعة يعني ابن سويد وابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن قزعة ابن سويد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجرا إلا أن توادوا الله تعالى وأن تقرّبوا إليه بطاعته » وهكذا روى قتادة عن الحسن البصري مثله وهذا كأنه تفسير بقول ثان كأنه يقول إلا اللودة في القرى أى إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقرّبكم عند الله زلفى . وقول ثالث وهو ما حكاه البخاري وغيره رواية عن سعيد بن جبير مامعناه أنه قال معنى ذلك أن تودوني في قرايتكم أى تحسنوا إليهم وتبرؤم . وقال السدي عن أبي الدلم قال : لما جاء بعلى بن الحسين رضي الله عنه أسيرا فأقيم على درج دمشق قام رجل من أهل الشام فقال الحمد لله الذي قتلكم واستأصلكم وقطع قرن الفتنة فقال له على بن الحسين رضي الله عنه أقرأت القرآن ؟ قال نعم : قال أقرأت آل حم ؟ قال قرأت القرآن ولم أقرأ آل حم قال ما قرأت (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا اللودة في القرى) ؟ قال وإنكم لأنتم هم ؟ قال نعم وقال أبو إسحاق السبيعي سألت عمرو بن شعيب عن قوله تبارك وتعالى (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا اللودة في القرى) فقال قرى النبي ﷺ رواها ابن جرير . ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا مالك بن إسماعيل حدثنا عبد السلام حدثني زيد بن أبي زياد عن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت الأنصار فعلنا وفعلنا وكأنهم فخرؤا فقال ابن عباس وألعباس رضي الله عنهما - شك عبد السلام - لنا الفضل عليكم فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم في مجالسهم فقال « يا معشر الأنصار ألم تكونوا أذلة فاعزكم الله في ؟ » قالوا بلى يا رسول الله قال ﷺ « ألم تكونوا ضلّالا فهداكم الله في ؟ » قالوا بلى يا رسول الله قال « أفلا تحيوني » قالوا ما تقول يا رسول الله قال « ألا تقولون ألم يخرجكم قومك فآويناكم أولم يكذبوك فصدقناكم أولم يخذلوك فنصرناكم » قال فما زال صلى الله عليه وسلم يقول حتى جثوا على الركب ، وقالوا أموالنا في أيدينا لله ولرسوله قال فنزلت (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا اللودة في القرى) وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن على بن الحسين عن عبد المؤمن بن على عن عبد السلام عن زيد بن أبي زياد وهو ضعيف بإسناده مثله أو قريبا منه . وفي الصحيحين في قسم غنائم حنين قريب من هذا السياق ولكن ليس فيه ذكر نزول هذه الآية ، وذكر نزولها في المدينة فيه نظر لأن السورة مكية وليس يظهر بين هذه الآية وهذا السياق مناسبة والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا رجل سمى حدثنا حسين الأشقر عن قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا اللودة في القرى) قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال « فاطمة وولدها رضي الله عنهما » وهذا إسناده ضعيف فيه مهم لا يعرف عن شيخ شيعي محترق وهو حسين الأشقر ولا يقبل خبره في هذا المثل ، وذكر نزول الآية في المدينة بعيد فأنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولاد بالكيفية فإنها لم تزوج بعلى رضي الله عنه إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة والحق تفسير هذه الآية بما فسر بها به جبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري

ولا نذكر الوصاة بأهل البيت والأمر بالاحسان إليهم واحترامهم وإكرامهم فانهم من ذرية طاهرة من أشرف بيت وجد على وجه الأرض فخرا وحسبا ونسبا ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنه وطي وأهل بيته وذريته رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي وإني لمت يفرقا حتى يردا على الحوض » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون أنا إسماعيل بن أبي خالد عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث عن العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه قال: قلت يا رسول الله إن قريشا إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها ، قال فغضب النبي ﷺ غضبا شديدا وقال « والذى نفسى بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله » ثم قال أحمد حدثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد عن عبد الله بن الحارث عن عبد المطلب بن ربيعة قال دخل العباس رضى الله عنه على رسول الله ﷺ فقال إنا لنخرج فترى قريشا تحدث فإذا رأونا سكتوا فغضب رسول الله ﷺ ودر عرق بين عينيه ثم قال ﷺ « والله لا يدخل قلب امرئ مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقراي » وقال البخارى حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب حدثنا خالد حدثنا شعبة عن واقد قال سمعت أبي يحدث عن ابن عمر رضى الله عنهما عن أبي بكر — هو الصديق — رضى الله عنه قال ارقبوا محمدا ﷺ في أهل بيته . وفي الصحيح أن الصديق رضى الله عنه قال لعلى رضى الله عنه : والله لقراية رسول الله ﷺ أحب إلى أن أصل من قرايى وقال عمر بن الخطاب للعباس رضى الله عنهما والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب . فقال الشيخين رضى الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين رضى الله عنهما وعن سائر الصحابة أجمعين وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أبي حيان التميمي حدثني يزيد بن حيان قال انطلقت أنا وحصين بن ميسرة وعمر بن مسلم إلى زيد بن أرقم رضى الله عنه فلما جلسنا إليه قال حصين لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا : رأيت رسول الله ﷺ وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت معه ، لقد رأيت يا زيد خيرا كثيرا حدثنا يازيد ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخى لقد كبر سنى وقدم عهدي ونسيت بعض الذى كنت أعمى من رسول الله ﷺ فما حدثكم فاقبلوه ومالا فلا تكلفونه ، ثم قال رضى الله عنه : قام رسول الله ﷺ يوما خطيبا فبنا بقاء يدعى حما بين مكة والمدينة فحمد الله تعالى وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال ﷺ « أما بعد أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وإني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغب فيه وقال ﷺ « وأهل بيتى أذكركم الله في أهل الله في أهل بيتى » فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساء من أهل بيته ؟ قال إن نساء لسن من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم عليه الصدقة بعده قال ومن هم ؟ قال هم آل طى وآل عقیل وآل جعفر وآل العباس رضى الله عنهم ، قال كل هؤلاء حرم عليه الصدقة ؟ قال نعم ، وهكذا رواه مسلم والنسائي من طرق يزيد بن حبان به وقال أبو عيسى الترمذى حدثنا على بن النضر الكوفي حدثنا محمد بن فضيل حدثنا الأعمش عن عطية عن أبي سعيد والأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي . أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخرة عترتى أهل بيتى ولن يفرقا حتى يردا على الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما » تفرد بروايته ثم قال هذا حديث حسن غريب وقال الترمذى أيضا حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفي حدثنا زيد بن الحسن عن جعفر بن محمد بن الحسن عن أبيه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال . رأيت رسول الله ﷺ في حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب فسمعتة يقول « يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتى أهل بيتى » تفرد به الترمذى أيضا وقال حسن غريب .

وفي الباب عن أبي ذر وأبي سعيد وزيد بن أرقم وحذيفة بن أسيد رضى الله عنهم . ثم قال الترمذى أيضاً أبو داود سليمان الأشعث حدثنا يحيى بن معين حدثنا هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان النوفلى عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده عبد الله بن عباس رضى الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أحبوا الله تعالى لما يغذوكم من نعمه ، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيى » ثم قال حسن غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد أوردنا أحاديث أخر عند قوله تعالى (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) بما أغنى عن إعادتها ههنا والله الحمد والمنة . وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا سويد بن سعيد حدثنا مفضل بن عبد الله عن أبي إسحاق عن حنش قال سمعت أبا ذر رضى الله عنه وهو آخذ بحلقة الباب يقول : يا أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ، ومن أنكرنى فأنا أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنما مثل أهل بيى فيكم كمثل سفينة نوح عليه الصلاة والسلام من دخلها نجا ، ومن تخلف عنها هلك » هذا بهذا الإسناد ضعيف . وقوله عز وجل (ومن يقرف حسنة نردله فيها حسناً) أى ومن يعمل حسنة نرد له فيها حسناً أى أجراً وثواباً كقوله تعالى (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) وقال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها . ومن جزاء السيئة السيئة بعدها . وقوله تعالى (إن الله غفور شكور) أى يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر وقوله جل وعلا (أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله نختم على قلبك) أى لو افترى عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون (نختم على قلبك) أى يطبع على قلبك وسلبك ما كان آتاك من القرآن كقوله جل جلاله (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين) أى لا تنعمنا منه أشد الانتقام وما قدر أحد من الناس أن يحجز عنه . وقوله جل جلالته (ويمح الله الباطل) ليس معطوفاً على قوله (نختم) فيكون مجزوماً بل هو مرفوع على الابتداء . قاله ابن جرير قال وحذفت من كتابته الواو في رسم مصحف الإمام كما حذفت في قوله (سندع الزبانية) وقوله تعالى (ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير) . وقوله عز وجل (ويحق الحق بكلماته) معطوف على (ويمح الله الباطل ويحق الحق) أى يحققه ويثبتته ويبينه ويوضحه بكلماته أى بحججه وبراهينه (إنه علم بذات الصدور) أى بما تكنه الضمائر وتنطوى عليه السرائر

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ؕ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ * وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِّن بَعْدٍ مَّا قُنِطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

يقول تعالى ممثنا على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه انه من كرمه وحلمه انه يعفو ويصفح ويستر ويغفر كقوله عز وجل (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) وقد ثبت في صحيح مسلم رحمة الله عليه حيث قال حدثنا محمد بن الصباح وزهير بن حرب قالوا : حدثنا عمر بن يونس حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا إسحاق بن أبي طلحة حدثني أنس بن مالك وهو عمه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدى وأنا ربك - أخطأ من شدة الفرح . » وقد ثبت أيضاً في الصحيح من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه نحوه ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهري في قوله تعالى (وهو الذى يقبل التوبة عن

عباده) إن أبا هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « الله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته في المكان الذي يخاف أن يقتله فيه العطش » وقال همام بن الحارث سئل ابن مسعود رضى الله عنه عن الرجل يفجر بالمرأة ثم يزوجها ؟ قال لا بأس به وقرأ (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) الآية رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شريح القاضي عن إبراهيم بن مهاجر عن إبراهيم النخعي عن همام فذكره وقوله عز وجل (ويعفو عن السيئات) أى يقبل التوبة في المستقبل ويعفو عن السيئات في الماضي (ويسلم ماتفلون) أى هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقتلتم ومع هذا يتوب على من تاب إليه . وقوله تعالى (ويستجيب الدين آمنوا وعمالوا الصالحات) قال السدي يعنى يستجيب لهم وكذا قال ابن جرير معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم وحكاه عن بعض النحاة وأنه جعلها كقوله عز وجل (فاستجاب لهم ربهم) ثم روى هو وابن أبي حاتم من حديث الأعمش عن شقيق بن سلمة عن سلمة ابن سبرة قال خطبنا معاذ رضى الله عنه بالشام فقال أتم المؤمنون وأتم أهل الجنة والله إنى لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة وذلك بأن أحدكم إذا عمل له يعنى أحدهم عملا قال أحسنت رحمك الله أحسنت بارك الله فيك ثم قرأ (ويستجيب الدين آمنوا وعمالوا الصالحات) ويزيدهم من فضله

وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية أنه جعل قوله (الذين يستمعون القول) أى هم الذين يستجيبون للحق ويتبعونه كقوله تبارك وتعالى (إنما يستجيب الدين يسمعون ، والوثنى يبعثهم الله) والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى (ويزيدهم من فضله) أى يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك . ولهذا قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن المصنف حدثنا بقية حدثنا إسماعيل بن عبد الله الكندي حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (ويزيدهم من فضله) قال « الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع اليهم معروفا في الدنيا » وقال قتادة عن إبراهيم النخعي في قوله عز وجل (ويستجيب الدين آمنوا وعمالوا الصالحات) قال يشفعون في إخوانهم (ويزيدهم من فضله) قال يشفعون في إخوان إخوانهم . وقوله عز وجل (والكافرون لهم عذاب شديد) لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد للوجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم . وقوله تعالى (ولوبسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) أى لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغى والطغيان من بعضهم على بعض أشرا وبطرا وقال قتادة كان يقال خير العيش مالا يلهيك ولا يطعك وذكر قتادة حديث « إنما أخاف عليكم ما يخرج الله تعالى من زهرة الحياة الدنيا » وسؤال السائل أياي الخير بالشر ؟ الحديث وقوله عز وجل (ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير) أى ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره بموافقه صلاحهم وهو أعلم بذلك فيخفى من يستحق الغنى ويفقر من يستحق الفقر كجاء في الحديث الروى « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » . وقوله تعالى (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) أى من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه كقوله عز وجل (وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) وقوله جل جلاله (وينشر رحمه) أى يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية قال قتادة ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه يا أمير المؤمنين قحط المطر وقنط الناس فقال عمر رضى الله عنه مطرتم ثم قرأ (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمه وهو الولي الحميد) أى هو المتصرف لخلقهم بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم وهو الحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ * وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مَّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ * وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ

دُونَ اللَّهِ مِنْ وَلِيِّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يقول تعالى (ومن آياته) الدالة على عظمته وقدرته العظيمة وسلطانه القاهر (خلق السموات والأرض وما بث فيهما) أى ذرأ فيهما أى فى السموات والأرض (من دابة) وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم وقد فرقهم فى أرجاء أقطار السموات والأرض (وهو) مع هذا كله (على جمعهم إذا يشاء قدير) أى يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق . وقوله عز وجل (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) أى مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما هى عن سيئات تقدمت لكم (ويعفو عن كثير) أى من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة) وفى الحديث الصحيح «والذى نفسى بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطايا» حتى الشوكة يشاكها . وقال ابن جرير ثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا أيوب قال : قرأت فى كتاب أبى قلابة قال نزلت (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وأبو بكر رضى الله عنه يأكل فأمسك وقال : يارسول الله إني أرى ما عملت من خير وشر ، فقال «أرأيت ما رأيت مما تكره ، فهو من مثاقيل ذر الشر وتدخل مثاقيل الخير حتى تعطاء يوم القيامة» قال : قال أبو إدريس فإني أرى مصداقها فى كتاب الله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) ثم رواه من وجه آخر عن أبى قلابة عن أنس رضى الله عنه قال والأول أصح : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن عيسى بن الطباع حدثنا مروان بن معاوية الفزاري حدثنا الأزهر بن راشد الكاهلي عن الحضرمي بن القواس البجلي عن أبى سخيلة عن على رضى الله عنه قال ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله عز وجل وحدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال «ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ، وسأفسرها لك يا على : ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يثني عليه العقوبة فى الآخرة وما عفا الله عنه فى الدنيا فآله تعالى أكرم من أن يعود بعد عفو» وكذا رواه الإمام أحمد عن مروان بن معاوية وعبد بن عبيد عن أبى سخيلة قال : قال على رضى الله عنه فذكر نحوه مرفوعا ثم روى ابن أبى حاتم نحوه من وجه آخر موقوفا فقال : حدثنا أبى حدثنا منصور بن أبى مزاحم حدثنا أبو سعيد بن أبى الوضاح عن أبى الحسن عن أبى جحيفة قال دخلت على على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : ألا أحدثكم بحديث ينبئ لكل مؤمن أن يعيه ؟ قال فسلأناه فتلا هذه الآية (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) قال ما عاقب الله تعالى به فى الدنيا فآله تعالى أحلم من أن يثني عليه العقوبة يوم القيامة وما عفا الله عنه فى الدنيا فآله أكرم من أن يعود فى عفو» وقال الإمام أحمد حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا طلحة يعنى ابن يحيى عن أبى بردة عن معاوية هو ابن أبى سفيان رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من شيء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه إلا كفر الله تعالى عنه به من سيئاته» وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا حسن عن زائدة عن ليث عن مجاهد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحنن ليكفرها» . وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن عبد الله الأودى حدثنا أبو أسامة عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن هو البصري قال فى قوله تبارك وتعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) قال لما نزلت قال رسول الله ﷺ «والذى نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر» . وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا عمر بن على حدثنا هشيم عن منصور عن الحسن عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلى فى جسده فقال له بعضهم إنا لنبأس لك لما نرى فيك ، قال فلا تبتئس بما ترى فإن ما ترى بذنب وما يعفو الله عنه أكثر ثم تلا هذه الآية (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم

ويعفو عن كثير) وحدثنا أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني حدثنا جرير عن أبي البلاد قال: قلت للعلاء بن بدر (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقد ذهب بصري وأنا غلام؟ قال فبذنوب والديك. وحدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا وكيع عن عبد العزيز بن أبي داود عن الضحاك قال ما نعلم أحدا حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب ثم قرأ الضحاك (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) ثم يقول الضحاك وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَمَلْنِ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوقِنُ إِذَا يَأْتِي الْيَوْمَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مُّجِيبٍ﴾

يقول تعالى ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة وسلطانه تسخير البحر لتجرى فيه الفلك بأمره وهى الجوارى فى البحر كالأعلام أى كالجبال قاله مجاهد والحسن والسدى والضحاك أى هذه فى البحر كالجبال فى البر (إن يشأ يسكن الريح) أى التى تسير فى البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجيى ولا تذهب بل واقفة على ظهره أى على وجه الماء (إن فى ذلك لآيات لكل صبار) أى فى الشدائد (شكور) أى إن فى تسخير البحر وإجرائه فى الهوى بقدر ما يحتاجون إليه لسيرهم لدلالات على نعمه تعالى على خلقه لكل صبار أى فى الشدائد شكور فى الرخاء. وقوله عز وجل (أو يوقنن بما كسبوا) أى ولو شاء لأهلك السفن وغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها (ويعف عن كثير) أى من ذنوبهم ولو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر، وقال بعض علماء التفسير معنى قوله تعالى (أو يوقنن بما كسبوا) أى لو شاء لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم فصرقتها ذات اليمين أو ذات الشمال آتية لا تسير على طريق ولا إلى جهة مقصد، وهذا القول هو يتضمن هلاكها وهو مناسب للأول وهو أنه تعالى لو شاء لسكن الريح فوقفت أو لقواء فشردت وأبقت وهلكت، ولكن من لطفه ورحمته أنه يرسله بحسب الحاجة كما يرسل الطر بقدر الكفاية ولو أنزله كثيرا جدا لهدم البنيان أو قليلا لما أُنبت الزرع والثمار حتى إنه يرسل إلى مثل بلاد مصر سيجا من أرض أخرى غيرها لأنهم لا يحتاجون إلى مطر ولو أنزل عليهم لهدم بنيانهم وأسقط جذرائهم، وقوله تعالى (ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص) أى لا حيد لهم عن بأسنا وقمعتنا فانهم مقهورون بقدرتنا

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾

يقول تعالى محفرا لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعم الفانى بقوله تعالى (فما أوتيتم من شئ فمتنا) الحياة الدنيا) أى مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة (وما عند الله خير وأبقى) أى وثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدى فلا تقدموا الفانى على الباقي ولهذا قال تعالى (للذين آمنوا) أى للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا (وعلى ربهم يتوكلون) أى ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات ثم قال تعالى (والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) وقد قدمنا الكلام على الإثم

والفواحش في سورة الأعراف (وإذا ما غضبوا هم يغفرون) أى سجيّتهم تقتضى الصفح والعفو عن الناس ليس سجيّتهم الانتقام من الناس . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرّامات الله وفي حديث آخر كان يقول لأحدنا عند المغتبة « ماله تربت يمينه » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمر حدثنا سفيان عن زائدة عن منصور عن إبراهيم قال كان المؤمنون يكرهون أن يستذلوا وكانوا إذا قدروا عفوا . وقوله عز وجل (والذين استجابوا لربهم) أى اتبعوا رسله وأطاعوا أمره واجتنبوا زجره (وأقاموا الصلاة) وهى أعظم العبادات لله عز وجل (وأمرهم شورى بينهم) أى لا يبرمون أمرا حتى يتشاوروا فيه ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها كما قال تبارك وتعالى (وشاورهم في الأمر) الآية ولهذا كان ﷺ يشاورهم في الحروب ونحوها لطيب بذلك قلوبهم وهكذا لما حضرت عمر بن الخطاب رضى الله عنه الوفاة حين طعن جعل الأمر بعده شورى في ستة نفر وهم عثمان وطى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنهم فاجتمع رأى الصحابة كلهم رضى الله عنهم على تقديم عثمان عليهم رضى الله عنهم (ومما رزقناهم ينفقون) وذلك بالإحسان إلى خلق الله الأقرب إليهم منهم فالأقرب

وقوله عز وجل (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) أى فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغي عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لاختوته (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه وكما عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا من جبل التنعيم فلما قدر عليهم من عليهم مع قدرته على الانتقام وكذلك عفوه صلى الله عليه وسلم عن غورث بن الحارث الذى أراد الفتك به حين اخترط سيفه وهو نائم فاستيقظ ﷺ وهو فى يده مصلتا فأتته فوضعه من يده وأخذ رسول الله ﷺ السيف فى يده ودعا أصحابه ثم أعلمهم بما كان من أمره وأمر هذا الرجل وعفا عنه وكذلك عفا صلى الله عليه وسلم عن لبيد بن الأعصم الذى سحره عليه السلام ومع هذا لم يعرض له ولا عاتبه مع قدرته عليه وكذلك عفوه ﷺ عن المرأة اليهودية - وهى زينب أخت مرحب اليهودى الحيرى الذى قتله محمود بن سلمة - التى سمت الذراع يوم خيبر - فأخبره الذراع بذلك فدعاها فاعترفت فقال ﷺ « ما حملك على ذلك ؟ » قالت أردت إن كنت نبيا لم يضرك وإن لم تكن نبيا استرحنا منك فأطلقها عليه الصلاة والسلام ولكن لما مات منه بشر بن البراء رضى الله عنها قتلها به والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جدا والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ وَجَزَاؤُا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ * أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

قوله تبارك وتعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها) كقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وكقوله (وإن عاقبتم فاعقبوا بمثل ما عوقبتم به) الآية فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله جل وعلا (والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له) ولهذا قال ههنا (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) أى لا يضيع ذلك عند الله كما صرح ذلك فى الحديث « وما زاد الله تعالى عبدا بعفو إلا عزا » وقوله تعالى (إنه لا يحب الظالمين) أى المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة ثم قال جل وعلا (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) أى ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم قال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا معاذ بن معاذ حدثنا ابن عون قال كنت أسأل عن الانتصار فى قوله تعالى (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل) فحدثنى على بن زيد بن جعدان عن أم محمد امرأة أبيه قال

ابن عون : زعموا أنها كانت تدخل على أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قالت أم المؤمنين رضى الله عنها دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندنا زينب بنت جحش رضى الله عنها فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يصنع بيده شيئا فلم يظن لها قلت ييده حتى فطنته لها فأمسك وأقبلت زينب رضى الله عنها تفحم لعائشة رضى الله عنها فنهاها فأبى أن تنهى ، فقال لعائشة رضى الله عنها « سبها » فسبها فغلبتها وانطلقت زينب رضى الله عنها فأنت عليها رضى الله عنه فقالت إن عائشة تقع بكم وتفعل بكم فجاءت فاطمة رضى الله عنها فقال صلى الله عليه وسلم لها « إنها حبة أبيضك ورب الكعبة » فانصرفت وقالت لعل رضى الله عنه إني قلت له صلى الله عليه وسلم كذا وكذا فقال لى كذا وكذا قال وجاء على إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكلمه في ذلك هكذا أورد هذا السياق ، وطى بن زيد بن جعدان يأتى في رواياته بالمتكررات غالبا وهذا فيه نكارة ، والصحيح خلاف هذا السياق كما رواه النسائي وابن ماجه من حديث خالد بن سلمة الفأفاء عن عبد الله الهبي عن عروة قال : قالت عائشة رضى الله عنها ما علمت حتى دخلت على زينب بغير إذن وهى غضبي ثم قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : حسبك إذا قلبت لك ابنة أبي بكر درعها ثم أقبلت على فأعرضت عنها حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم « دونك فانتصرى » فأقبلت عليها حتى رأيت ريقها قد يبس في فمها ما ترد على شيئا فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتهم وجهه وهذا لفظ النسائي . وقال البرار حدثنا يوسف بن موسى حدثنا أبو غسان حدثنا أبو الأحوص عن أبي حمزة عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دعا على من ظلمه فقد انتصر » ورواه الترمذى من حديث أبي الأحوص عن أبي حمزة واسمه ميمون ثم قال لا نعرفه إلا من حديثه ، وقد تكلم فيه من قبل حفظه . وقوله عز وجل (إنما السبيل) أى إنما الحرج والعنت (على الذين يظلمون الناس ويبنفون فى الأرض بغير الحق) أى يبدون الناس بالظلم كما جاء فى الحديث الصحيح « السبيلان ما قال ، فعلى البادى ما لم يعتد المظلوم » (أولئك لهم عذاب أليم) أى شديد موجع . قال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا الحسن بن موسى حدثنا سعيد بن زيد أخو حماد بن زيد حدثنا عثمان الشحام حدثنا محمد بن واسع قال قدمت مكة فإذا على الخندق قطرة فأخذت فانطلق بى إلى مروان بن المهلب وهو أمير على البصرة فقال ما حاجتك يا أبا عبد الله ، قلت حاجتى ان استطعت أن تكون كما كان أخوبى عدى ، قال ومن أخوبى عدى ، قال العلماء بن زيد استعمل صديقا له مرة على عمل فكذب إليه أما بعد فإن استطعت أن لا تبنت إلا وظهرك خفيف وبطنك خميص وكفك تقي من دماء المسلمين وأموالهم فانك إذا فعلت ذلك لم يكن عليك سبيل (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبنفون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) فقال مروان صدق والله ونصح ثم قال ما حاجتك يا أبا عبد الله ، قلت حاجتى أن تلحقنى بأهلى قال نعم . رواه ابن أبي حاتم ، ثم إن الله تعالى لما ذم الظلم وأهله وشرع القصاص قال ناديا إلى العفو والصفح (ولن صبر على الأذى وستر السيئة) (إن ذلك لمن عزم الأمور) قال سعيد بن جبير يعنى لمن حق الأمور التى أمر الله تعالى بها أى لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمران بن موسى الطرسوسى حدثنا مصمدا بن يزيد خادم الفضيل بن عياض قال سمعت الفضيل بن عياض يقول إذا أتاك رجل يشكوا إليك رجلا قتل يا أخى اعف عنه فان العفو أقرب للتقوى فان قال لا يحتمل قلبى العفو ولكن أنتصر كما أمرنى الله عز وجل فقل له إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو فانه باب واسع فانه من عفا وأصلح فأجره على الله وصاحب العفو ينال على فراشه بالليل وصاحب الانتصار يقلب الأمور . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن ابن عجلان حدثنا سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال إن رجلا شتم أبا بكر رضى الله عنه والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعجب ويتبسم فلما أكره رد عليه بعض قوله فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقام فلقه أبو بكر رضى الله عنه فقال يا رسول الله إنه كارهى يشتمنى وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقت قال « إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان » ثم قال - يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضى عنها

لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صله إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة « وكذا رواه أبو داود عن عبد الأعلى بن حماد عن سفيان بن عيينة قال ورواه صفوان بن عيسى كلاهما عن محمد بن عجلان ورواه من طريق الليث عن سعيد المقبري عن بشير بن الحر عن سعيد بن المسيب مرسلًا وهذا الحديث في غاية الحسن في المعنى وهو مناسب للصديق رضى الله عنه

﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ * وَتَرَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾

يقول تعالى مخبرًا عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ولا راد له وما لم يشأ لم يكن فلاموجد له وأنه من هداه فلا مضل له ومن يضل الله فلا هادي له كما قال عز وجل (ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا) ثم قال عز وجل مخبرًا عن الظالمين وهم المشركون بالله (لما رأوا العذاب) أى يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا (يقولون هل إلى مراد من سبيل) كما قال جل وعلا (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) وقوله عز وجل (وتراهم يعرضون عليها) أى على النار (خاشعين من الدل) أى الذى قد اعتراهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى (ينظرون من طرف خفي) قال مجاهد يعنى ذليل أى ينظرون إليها مسارقة خوفا منها والذى يحذرون منه واقع بهم لا محالة وما هو أعظم مما فى نفوسهم أجازنا الله من ذلك (وقال الذين آمنوا) أى يقولون يوم القيامة (إن الخاسرين) أى الخسار الأكبر (الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة) أى ذهب بهم إلى النار فعدموا لذتهم فى دار الأبد وخسروا أنفسهم وفرق بينهم وبين أحبائهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم فخسروهم (ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم) أى دائم سرمدي أبدى لا خروج لهم منها ولا عييد لهم عنها وقوله تعالى (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله) أى يفتقدونهم بمقام فيه من العذاب والنكال (ومن يضل الله فما له من سبيل) أى ليس له خلاص

﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ * فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام المائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال (استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله) أى إذا أمر بكونه فانه كلمح البصر يكون وليس له دافع ولا مانع . وقوله عز وجل (ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير) أى ليس لكم حصن تحصنون فيه ولا مكان يستركم وتتكبرون فيه فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى بل هو محيط بكم بجمه وبصره وقدرته فلا ملجأ منه إلا إليه (يقول الانسان يومئذ أين المفر * كلا لاويزر * إلى ربك يومئذ المستقر) وقوله تعالى (فان أعرضوا) يعنى للشركيين (فما أرسلناك عليهم حفيظا) أى لست عليهم بمصيطر ، وقال عز وجل (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) وقال تعالى (فأما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقال جل وعلا ههنا (إن عليك إلا البلاغ) أى إنما

كلفناك أن تبلغهم رسالة الله إليهم ثم قال تبارك وتعالى (وإنا إذا أذقنا الإنسان منارحة فرح بها) أى إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بذلك (وإن تصبهم) يعنى الناس (سيئة) أى جذب وشدة وبلاء وشدة (فإن الإنسان كفور) أى يجحد ما تقدم من النعم ولا يعرف إلا الساعة الراهنة فإن أصابته نعمة أشتر وبطر وإن أصابته محنة يشتر وقط كما قال رسول الله ﷺ للنساء « يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة ولم يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « لأنكن تكفرن الشكاية وتكفرن العشير ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم تركت يوما قالت ما رأيت منك خيرا قط » وهذا حال أكثر النساء إلا من هداه الله تعالى وألهمه رشده وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات فالؤمن كما قال ﷺ « إن أصابته سرأ شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »

﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والتصرف فيهما وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع وأنه يخلق ما يشاء (يهب لمن يشاء إناثا) أى يرزقه البنات فقط قال البغوى ومنهم لوط عليه الصلاة والسلام (ويهب لمن يشاء الذكور) أى يرزقه البنين فقط قال البغوى كإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لم يولد له أنثى (أو يزوجهم ذكرا وإناثا) أى ويعطى لمن يشاء من الناس الزوجين الله كره والأثني أى من هذا وهذا ، قال البغوى كعيسى عليه السلام (ويجعل من يشاء عقيما) أى لا يولد له قال البغوى كجحي وعيسى عليهما الصلاة والسلام ، فجعل الناس أربعة أقسام منهم من يعطيه البنات ومنهم من يعطيه البنين ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد له (إنه عليم) أى بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام (قدير) أى على من يشاء من تفاوت الناس في ذلك ، وهذا المقام شبيه بقوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام (ولنجعل آية للناس) أى دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام فأدم عليه الصلاة والسلام مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء عليها السلام مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى عليه السلام من ذكر وأنثى ، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى (ولنجعل آية للناس) فهذا المقام فى الآباء والمقام الأول فى الأبناء وكل منهما أربعة أقسام فسبحان العليم القدير

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ * وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي صلى الله عليه وسلم شيئا لا يتارى فيه أنه من الله عز وجل كإلجاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن روح القدس نفث في روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » وقوله تعالى (أو من وراء حجاب) كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام فانه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجابر بن عبد الله رضى الله عنهما « ما كلم الله أحدا إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحا » كذا جاء في الحديث وكان قد قتل يوم أحد ولكن هذا في عالم البرزخ والآية إنما هي في الدار الدنيا وقوله عز وجل (أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء) كما ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (إنه على حكيم) فهو على علم خير حكيم وقوله عز وجل (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا) يعني القرآن (ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) أى على التفصيل الذى شرع لك فى القرآن (ولكن جعلناه) أى القرآن (نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) كقوله تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقروهم عليهم عصى) الآية وقوله تعالى (وإنك) أى يا محمد (تهدى إلى صراط مستقيم) وهو الخلق القويم ثم فسر بقوله تعالى (صراط الله) أى شرعه الذى أمر به الله (الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) أى ربهما ومالكهما والتصرف فيهما والحاكم الذى لا معقب لحكمه (ألا إلى الله تصير الأمور) أى ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً

﴿ تفسير سورة الزخرف وهى مكية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ حَمْ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ * أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ * وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فى الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَأَهْلِكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى (حم والكتاب المبين) أى البين الواضح الجلى المعانى والألفاظ لأنه نزل بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب بين الناس ولهذا قال تعالى (إنا جعلناه) أى أنزلناه (قرآنا عربيا) أى بلغة العرب فصيحاً واضحاً (لعلكم تعقلون) أى تفهمونه وتتدبرونه كما قال عز وجل (بلسان عربى مبين) وقوله تعالى (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) بين شرفه فى الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض فقال تعالى (وإنه) أى القرآن (فى أم الكتاب) أى اللوح المحفوظ قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد (لدينا) أى عندنا قاله قتادة وغيره (لعلى) أى ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل قاله قتادة (حكيم) أى محكم برى من اللبس والزيغ . وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله كما قال تبارك وتعالى (إنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين) وقال تعالى (كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * فى صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة) ولهذا استنبط العلماء رضى الله عنهم من هاتين الآيتين أن المحدث لا يمس المصحف كما ورد به الحديث إن صح لأن الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى ، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى ، لأنه نزل عليهم ، وخطابه متوجه إليهم ، فهم أحق أن يقابلوه بالأكرام والتعظيم ، والالتقاد له بالقبول والتسليم ، لقوله تعالى (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم) وقوله عز وجل (أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ؟) اختلف للفسرون فى معناها فقيل معناها أن نضرب عنكم فلا نكتبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به قاله ابن عباس رضى الله عنهما وأبو صالح ومجاهد والسدى واختاره ابن جرير ، وقال قتادة فى قوله تعالى (أفنضرب عنكم الذكر صفحا ؟) والله لو أن هذا القرآن رفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا ولكن الله تعالى عاد بعائده ورحمته فكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة أو ما شاء الله من ذلك وقول قتادة لطيف المعنى جدا وحاصله أنه يقول فى معناه أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاهم إلى الخير وإلى الذكر الحكيم وهو القرآن وإن كانوا مسرفين معرضين عنه بل أمر به ليهتدى به من قدر هدايته وتقوم الحجة على من كتب شقاوته ثم قال جل وعلا مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم فى

تكذيب من كذبه من قومه وأمره بالصبر عليهم (وكم أرسلنا من نبي في الأولين) أي في شيع الأولين (وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون) أي يكذبونه ويسخرون به . وقوله تبارك وتعالى (فأهلكنا أشد منهم بطشا) أي فأهلكنا المكذبين بالرسل وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يا محمد كقوله عز وجل (أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة) والآيات في ذلك كثيرة جدا . وقوله جل جلاله (ومضى مثل الأولين) قال مجاهد: ستمهم . وقال قتادة: عقوبتهم . وقال غيرهما: عبرتهم أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم كقوله تعالى في آخر هذه السورة (فجعلناهم سلفا ومثالا للآخرين) وكقوله جل جلالته (سنة الله التي قد خلت في عباده) وقال عز وجل (ولن تجد لسنة الله تبديلا)

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ * وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾

يقول تعالى ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره (من خلق السموات والأرض؟ ليقولن خلقهن العزيز العليم) أي ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنناد ثم قال تعالى (الذي جعل لكم الأرض مهذا) أي فراشا قرارا ثابتة تسرون عليها وتقومون وتنامون وتتصرفون مع أنها مخلوقة على تيار الماء لكنه أرساها بالجبال لئلا تמיד هكذا ولا هكذا (وجعل لكم فيها سبلا) أي طرقا بين الجبال والأودية (لعلكم تهتدون) أي في سيركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم (والذي نزل من السماء ماء بقدر) أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم . وقوله تبارك وتعالى (فأنشرننا به بلدة ميتا) أي أرضا ميتة فلما جاءها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ثم به تعالى بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها فقال (كذلك تخرجون) . ثم قال عز وجل (والذي خلق الأزواج كلها) أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك . ومن لحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها (وجعل لكم من الفلك) أي السفن (والأنعام ما تركبون) أي ذلها لكم وسخرها ليسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها ولهذا قال جل وعلا (لتستووا على ظهوره) أي لتستووا متمكنين مرتفقين (على ظهوره) أي على ظهور هذا الجنس (ثم تذكروا نعمة ربكم) أي فيا سخر لكم (إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) أي مقاومين ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه . قال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة والسدي وابن زيد: مقرنين أي أمطقين (وإنا إلى ربنا لمقلبون) أي لصاترون إليه بعد مماتنا وإليه سيرنا الأكبر وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سيرة الآخرة كما نبه بالزاد النبوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وباللباس النبوي على الأخروي في قوله تعالى (وريشا ولباس التقوى ذلك خير)

﴿ ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة ﴾

﴿ حديث أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه قال الإمام حدثنا يزيد حدثنا شريك بن عبد الله عن أبي إسحاق

عن علي بن ربيعة قال رأيت عليا رضي الله عنه أتى بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال باسم الله فلما استوى عليها قال الحمد لله (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون) ثم حمد الله تعالى ثلاثا وكبر ثلاثا ثم قال سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ثم ضحك فقلت له م ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ فقال رضي الله عنه رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك فقلت م ضحكت يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم « يعجب الرب تبارك وتعالى من عبده إذا قال رب اغفر لي ويقول علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري » وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث أبي الأحوص زاد النسائي ومنصور عن أبي إسحاق السبيعي عن علي بن ربيعة الأسدي الوالي به وقال الترمذي : حسن صحيح ، وقد قال عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة قلت لأبي إسحاق السبيعي ممن سمعت هذا الحديث ؟ قال : من يونس بن خباب فلقيت يونس بن خباب فقلت ممن سمعته ؟ فقال من رجل معي من علي بن ربيعة ورواه بعضهم عن يونس بن خباب عن شقيق بن عقبة الأسدي عن علي بن ربيعة الوالي به (حديث عبد الله بن عباس) رضي الله عنهما قال الإمام أحمد حدثنا أبو الغيرة حدثنا أبو بكر بن عبد الله عن علي بن أبي طلحة عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ أُرْدِفَ على دابته فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثا وحمد ثلاثا وسبح ثلاثا وهلل الله واحدة ثم استلقى عليه وضحك ثم أقبل عليه فقال « ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت إلا أقبل الله عز وجل عليه فضحك إليه كما ضحكت إليك » تفرد به أحمد (حديث عبد الله بن عمر) رضي الله عنهما قال الإمام أحمد حدثنا أبو كامل حدثنا حماد بن سلمة عن أبي الزبير عن علي بن عبد الله البارقي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال « سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون » — ثم يقول — اللهم إني أسألك في سفرى هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا السفر واطولنا البعيد ، اللهم أنت صاحب في السفر والخليفة في الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا واخلفنا في أهلنا » وكان صلى الله عليه وسلم إذا رجع إلى أهله قال « آيئون تائبون إن شاء الله عابدون لربنا حامدون » وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث ابن جريج والترمذي من حديث حماد بن سلمة كلاهما عن أبي الزبير به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أحمد بن عبيد حدثنا محمد بن إسحاق عن محمد بن إبراهيم عن عمرو بن الحكم بن ثوبان عن أبي لاس الخزاعي قال حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج فقلنا يا رسول الله ما نرى أن تحملنا هذه فقال صلى الله عليه وسلم « ما من بعير إلا في ذروته شيطان فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما أمركم ثم امتهنوها لأنفسكم فانما يحمل الله عز وجل » أبو لاس اسمه محمد بن الأسود بن خلف (حديث آخر) في معناه قال أحمد حدثنا عتاب أخبرنا عبد الله بن ح وطى بن إسحاق أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا أسامة بن زيد أخبرني محمد بن حمزة أنه سمع أباه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « على ظهر كل بعير شيطان فإذا ركبتموها فسموا الله عز وجل ثم لا تقصروا عن حاجاتكم »

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوْ مِنْ يُنْشَوْنَ فِي الْحُلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنْنَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الشركين فيما افتروه وكذبوه في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله تعالى كما ذكر

الله عز وجل عنهم في سورة الأنعام في قوله تبارك وتعالى (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) وكذلك جعلوا له من قسمي البنات والبنين أخسهما وأردأهما وهو البنات كما قال تعالى (ألكم الله كره ولهم الأثني * تلك إذا قسمة ضيزى) وقال جل وعلا ههنا (وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين) ثم قال جل وعلا (أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ؟) وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار . ثم ذكر تمام الإنكار فقال جل وعلا (وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم) أي إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به ويتوارى من القوم من خجله من ذلك يقول تبارك وتعالى فكيف تأنفون أتم من ذلك وتنسبونوه إلى الله عز وجل ، ثم قال سبحانه وتعالى (أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين) أي المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة وإذا خاصمت فلا عبارة لها بل هي عاجزة عيبة أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم ، فالأثني ناقصة الظاهر والباطن في الصورة والمعنى فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص كما قال بعض شعراء العرب

وما الحلي إلا زينة من نقیصة * يتمم من حسن إذا الحسن قصرا

وأما إذا كان الجمال موفرا * كحسنك لم يحتج إلى أن يزورا

وأما نقص معناها فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار لا عبارة لها ولا همة كما قال بعض العرب وقد بشر بينت ما هي بنعم الولد نصرها بكاء ، وبرها سرقة ، وقوله تبارك وتعالى (وجعلوا للملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) أي اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال (أشهدوا خلقهم) أي شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا (ستكتب شهادتهم) أي بذلك (ويستلون) عن ذلك يوم القيامة وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم) أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله فانه عالم بذلك وهو يقررنا عليه فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ (أحدها) جعلهم لله تعالى ولدا ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا (الثاني) دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا للملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا (الثالث) عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ولا إذن من الله عز وجل بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء والخطب في الجاهلية الجاهلاء (الرابع) احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدرا وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلا كبيرا فانه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار فانه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه قال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وقال عز وجل (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال جل وعلا في هذه الآية بعد أن ذكر حجبتهم هذه (ما لهم بذلك من علم) أي بصحة ما قالوه واحتجوا به (إن هم إلا يخرصون) أي يكذبون ويتقولون ، وقال مجاهد في قوله تعالى (ما لهم بذلك من علم ان هم إلا يخرصون) يعني ما يعلمون قدرة الله تبارك وتعالى على ذلك

﴿ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَمُتَّبِعِيهِمْ بِهِ مُتَّبِعِينَ * بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ * وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ * قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة (أم آتيناهم كتابا من قبله)
 أى من قبل شركهم (فهم به مستمسكون) أى فيما هم فيه أى ليس الأمر كذلك كقوله عز وجل (أم أنزلنا عليهم
 سلطانا نفهموا يتكلم بما كانوا به يشركون) أى لم يكن ذلك . ثم قال تعالى (بل قالوا وجدنا آبائنا على أمة وإنا على
 آثارهم مهتدون) أى ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة والمراد بها
 الدين ههنا وفى قوله تبارك وتعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة) وقولهم (وانا على آثارهم) أى وراءهم (مهتدون) دعوى
 منهم بلا دليل . ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسول
 تشابهت قلوبهم فقالوا مثل مقالته (كذلك ما أتى الدين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا
 به بل هم قوم طاغون) وهكذا قال ههنا (وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا
 آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) ثم قال عز وجل (قل) أى يا محمد لهؤلاء المشركين (أو لو جئكم بأهدى مما
 وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) أى ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتم به لما اتقادوا لذلك لسوء
 قصدكم ومكابرتهم للحق وأهله . قال الله تعالى (فانتقمنا منهم) أى من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب كافضه تبارك
 وتعالى في قصصهم (فانظر كيف كان عاقبة المكذبين) أى كيف بادوا وهلكوا وكيف نجى الله المؤمنين

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً
 بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمُ الْخُلُقُ وَرَسُولٌ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَهُمُ
 الْخُلُقُ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَىٰ عِظِيمٍ * أَهُمْ
 يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَعَمْنَا بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ
 لَّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا
 لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوقِنَ أَنَّ سُقُقًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِيُؤْتِيَهُمُ أَبُو بَكْرٍ وَسُرُرًا عَلَيْهَا
 يَتَّكُونَ * وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليفه إمام الخلفاء ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذى تنتسب إليه فريش
 في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال (إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرني فإنه سيهدين *)
 وجعلها كلمة باقية في عقبه (أى هذه الكلمة وهى عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهى لا إله إلا الله
 أى جعلها دائما في ذريته يقتدى به فيها من هداية الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام (لعلهم يرجعون) أى إليها
 قاله عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم في قوله عز وجل (وجعلها كلمة باقية في عقبه) يعنى لا إله إلا الله
 لا يزال في ذريته من يقولها . وروى نحوه عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال ابن زيد كلمة الإسلام وهو يرجع إلى
 ما قاله الجماعة ثم قال جل وعلا (بل ممتعت هؤلاء) يعنى المشركين (وآباءهم) أى فتناول عليهم العمر في ضلالهم (حتى
 جاءهم الحق ورسول مبين) أى بين الرسالة والنذارة (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون) أى كابرهم وعاندوه
 ودفعوا بالصدور والراح كفرا وحسدا وبغيا (وقالوا) أى كالمترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس (لولا نزل هذا
 القرآن على رجل من القريتين عظيم) أى هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون
 مكة والطائف قاله ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدى وابن زيد وقد ذكر

غيروا حد منهم أنهم أرادوا بذلك الوليد بن الغيرة وعروة بن مسعود الثقفي . وقال مالك عن زيد بن أسلم والضحاك والسدي يعنون الوليد بن الغيرة ومسعود بن عمرو الثقفي . وعن مجاهد يعنون عمير بن عمرو بن مسعود الثقفي وعنه أيضا أنهم يعنون عتبة بن ربيعة . وعن ابن عباس رضى الله عنهما جبارا من جبابرة قريش وعنه رضى الله عنهما أنهم يعنون الوليد بن الغيرة وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي وعن مجاهد يعنون عتبة بن ربيعة بمكة وابن عبدالمطلب والطائف وقال السدي عنوا بذلك الوليد بن الغيرة وكنانة بن عمرو بن عمير الثقفي والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان . قال الله تبارك وتعالى راداً عليهم فى هذا الاعتراض (أم يقسمون رحمة ربك ؟) أى ليس الأمر مردوداً إليهم بل إلى الله عز وجل والله أعلم حيث يجعل رسالته فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً ثم قال عز وجل مبيناً أنه قد قاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فقال (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا) الآية . وقوله جلّت عظمتهم ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً (قيل معناه ليسخر بعضهم بعضاً فى الأعمال لا حجاج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا قاله السدي وغيره وقال قتادة والضحاك ليلك بعضهم بعضاً وهو راجع إلى الأولى . ثم قال عز وجل (ورحمة بك خير مما يجمعون) أى رحمة الله بخلقهم خير لهم مما يبيدهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا ثم قال سبحانه وتعالى (ولو لا أن يكون الناس أمة واحدة) أى لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال . هذا معنى قول ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وغيرهم (لجمعنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج) أى سلام ودرجا من فضة . قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد وغيرهم (عليها يظهرون) أى يصعدون وليبوتهم أبواباً أى أغلاقاً على أبوابهم (وسرراً عليها يتكئون) أى جميع ذلك يكون فضة (وزخرفاً) أى وزهاً . قاله ابن عباس وقتادة والسدي وابن زيد . ثم قال تبارك وتعالى (وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا) أى إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحاقرة عند الله تعالى أى يجعل لهم بحسانهم التى يعملونها فى الدنيا ما كل ومشارب ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها كما ورد به الحديث الصحيح . وورد فى حديث آخر « لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء » أسنده البغوى من رواية زكريا بن منظور عن أبى حازم عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره ورواه الطبرانى من طريق زمعة بن صالح عن أبى حازم عن سهل بن سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم « لو عدلت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما أعطى كافراً منها شيئاً » ثم قال سبحانه وتعالى (والآخرة عند ربك للنتقين) أى هى لهم خاصة لا يشاركهم فيها أحد غيرهم ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين صعد إليه فى تلك المشربة لما آلى صلى الله عليه وسلم من نسائه فرآه على رمال حصير قد أثمر بجانبه فابتدرت عيناه بالبكاء وقال يا رسول الله هذا كسرى وقصر فيها هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فجلس وقال « أوفى شك أنت يا ابن الخطاب » ثم قال صلى الله عليه وسلم « أولئك قوم مجلت لهم طبيعتهم فى حياتهم الدنيا » وفى رواية « أما ترى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » . وفى الصحيحين أيضاً وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة » وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها كما روى الترمذى وابن ماجه من طريق أبى حازم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء أبداً » قال الترمذى حسن صحيح

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُفِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ۖ حَقُّ إِذَا جَاءَ نَاقِلٌ يَلَيْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۖ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ

ظَلَمْتُمْ أَنْكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ * أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّعْمَ أَوْ تَهْدِي الْعُمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ * فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ * وَنُثِّلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿

يقول تعالى (ومن يعش) أى يتعاضد ويتغافل ويعرض (عن ذكر الرحمن) والعشا فى العين ضعف بصرها والمراد ههنا عشا البصيرة (تفيض له شيطانافهو له قرين كقوله تعالى) (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى) الآية وكقوله (فلما زاعوا أزاغ الله قلوبهم) وكقوله جل جلاله (وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم) الآية ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا (وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا) أى هذا الذى تنافل عن الهدى تفيض له من الشياطين من يضلوه ويهديه إلى صراط الجحيم . فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذى وكل به (قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) وقرأ بعضهم (حتى إذا جاءنا) يعنى القرين والمقارن . قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن سعيد الجريرى قال : بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة شفع يده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرها الله تبارك وتعالى إلى النار فذلك حين يقول (ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) والمراد بالمشرقين هاهنا هو ما بين الشرق والغرب . وإنما استعمل هاهنا تغليبا كما يقال: القمران والعمران والأبوان . قاله ابن جرير وغيره . ثم قال تعالى (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) أى لا ينفى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراكم فى العذاب الأليم وقوله جلّت عظمتة (أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين .) أى ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل فى ذلك . ثم قال تعالى (فأما نذهب بك فأنا منتقمون) أى لا بد أن تنتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهب أنت (أونرينك الذى وعدناهم فأنا عليهم مقتدرون) أى نحن قادرون على هذا وعلى هذا ولم يقبض الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه فى نواصيرهم . وملكه ما تضمنته صياصيرهم هذا معنى قول السدى واختاره ابن جرير وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا أبو ثور عن معمر قال تلا قتادة (فأما نذهب بك فأنا منتقمون) فقال ذهب النبى ﷺ وبقيت النعمة ولن يرى الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم فى أمته شيئا يكرهه حتى مضى ولم يكن نبى قط إلا وقد رأى العقوبة فى أمته إلا نبيكم ﷺ . قال وذكر لنا أن رسول الله ﷺ أرى ما يصيب أمته من بعده فارمى ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله عز وجل وذكر من رواية سعيد بن أبى عروة عن قتادة نحوه ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضا وفى الحديث «النجوم أمانة للسماء فإذا ذهب النجوم آتى السماء ما توعده وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهب آتى أصحابي ما يوعدون» ثم قال عز وجل (فاستمسك بالذى أوحى إليك على صراط مستقيم) أى خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم للوصول إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم . ثم قال جل جلاله (وإنه لذكر لك ولقومك) قيل معناه لشرف لك ولقومك قاله ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ومجاهد وقتادة والسدى وابن زيد واختاره ابن جرير ولم يحك سواء وأورد الترمذى ههنا حديث الزهرى عن محمد بن جبير بن مطعم عن معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن هذا الأمر فى قرين لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين» رواه البخارى ومعناه أنه شرف لهم من حيث أنه أنزل بلغتهم فهم أنهم الناس له فينبى أن يكونوا أقوم الناس به وأكملهم بمقتضاه وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخالص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم وقيل معناه (وإنه

لله كرك لك ولقومك) أى لشذكرك لك ولقومك ، وتخصيصهم بالله كرك لا ينفى من سواهم كقوله تعالى (لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) وكقوله تبارك وتعالى (وأنذر عشيرتك الأقربين) (وسوف تسألون) أى عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له . وقوله سبحانه وتعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) أى جميع الرسل دعوا إلى مادعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد كقوله جلّت عظمتة (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) قال مجاهد فى قراءة عبد الله بن مسعود رضى الله عنه واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا . وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى عن ابن مسعود رضى الله عنه . وهذا كأنه تفسير لاتلاوة والله أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واسألهم ليلة الإسراء فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له ، واختار ابن جرير الأول والله أعلم

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَاهُمْ يَنْكُثُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملكه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبنى إسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهاهم عن عبادة ماسواه وأنه بعث معه آيات عظيمة كيد وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ومن قصص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والاعتقاد لها وكذبوها وسخروا منها وضحكوا بمن جاءهم بها (وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها) ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم ، وجهلهم وخباياهم . وكلما جاءهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ويتلطفون له فى العبارة بقولهم (يا أيها الساحر) أى العالم قاله ابن جرير وكان علماء زمانهم هم السحرة . ولم يكن السحر فى زمانهم مذموما عندهم فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لاتناسب ذلك وإنما هو تعظيم فى زعمهم ففى كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ويرسلوا معه بنى إسرائيل . وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه وهذا كقوله تبارك وتعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين * ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولترسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالعهود إذاهم ينكثون)

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُي وَلَا يُكَادِّبُنِي * فَلَوْلَا أَلْتَقَىٰ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُتَرَنِّينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا سَأَلْنَا أَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وعمرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها (أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟) قال قتادة قد كانت لهم جنات وأنهار . (أفلا تبصرون) أى أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك يعنى وموسى وأتباعه قراء ضعفاء وهذا كقوله تعالى (فحشر فنادى * فقال

أنا ركبم الأمل * فأخذ الله نكال الآخرة والأولى) وقوله (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) قال السدي يقول بل أنا خير من هذا الذي هو مهين وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن أم هانئ بمعنى بل ، ويؤيد هذا ما حكاه القراء عن بعض القراء أنه قرأها (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) قال ابن جرير ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واصحا ولكنها خلاف قراءة الأمصار فانهم قرأوا (أم أنا خير من هذا الذي هو مهين) على الاستفهام [قلت] وعلى كل تقدير فانما يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام وقد كذب في قوله هذا كذبا بينا واضحا فعليه لعائن الله المتتامة إلى يوم القيامة . ويعني بقوله مهين كما قال سفيان حقيير وقال قتادة والسدي يعني ضعيف وقال ابن جرير يعني لا ملك له ولا سلطان ولا مال (ولا يكاد يبين) يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عبي حصر قال السدي (لا يكاد يبين) أي لا يكاد يفهم وقال قتادة والسدي وابن جرير يعني عبي اللسان وقال سفيان يعني في لسانه شيء من الجثرة حين وضعها في فيه وهو صغير ، وهذا الذي قاله فرعون لعنه الله كذب واختلاق وإنما حمله على هذا الكفر والعناد وهو ما ينظر إلى موسى عليه الصلاة والسلام بعين كافرة شقية وقد كان موسى عليه السلام من الجلالة والعظمة والبهاء في صورة أبيصار ذوى الأبواب ، وقوله (مهين) كذب بل هو المهين الحقيير خلقه وخلقا ودينا ، وموسى هو الشريف الرئيس الصادق البار الراشد ، وقوله (ولا يكاد يبين) افتراء أيضا فإنه وإن كان قد أصاب لسانه في حال صغره شيء من حجة تلك الجثرة فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله وقد استحباب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله (قد أوتيت سؤلك يا موسى) وبتقدير أن يكون قد بقي شيء لم يسأل إزالته كما قاله الحسن البصري وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإيلاج والإفهام ، فالأشياء الخلقية التي ليست من فعل الصد لا يجاب بها ولا يذم عليها ، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا وإنما أراد الترويج على رعيته فانهم كانوا جهلة أغبياء وهكذا قوله (فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب) وهي ما يجعل في الأيدي من الخلق قاله ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة وغير واحد (أو جاء معه الملائكة مقترنين) أي يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه ، نظر إلى الشكل الظاهر ولم يفهم السر العنوي الذي هو أظهر مما نظر إليه لو كان يفهم ولهذا قال تعالى (فاستخف قومه فأطاعوه) أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له (إنهم كانوا قوما فاسقين) قال الله تعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما آسفونا أسخطونا ، وقال الضحاك عنه أغضبونا وهكذا قال ابن عباس أيضا ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعمر بن كعب القرظي وقتادة والسدي وغيرهم من المفسرين وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبيد الله بن أخي ابن وهب حدثنا عمي حدثنا ابن لهيعة عن عقبة بن مسلم التميمي عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطى العبد ما يشاء وهو مقيم على معاصيه فانما ذلك استدراج منه له » ثم تلا ﷺ (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) وحدثنا أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني حدثنا قيس بن الربيع عن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال كنت عند عبد الله رضى الله عنه فذكر عنده موت الفجأة فقال تخفيف على المؤمن وحسرة على الكافر ثم قرأ رضى الله عنه (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وجدت النعمة مع الغفلة يعني قوله تبارك وتعالى (فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين) وقوله سبحانه وتعالى (فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين) قال أبو عبيد سلفا لمثل من عمل بعملهم وقال هو ومجاهد ومثلا أي عبرة لمن بعدهم والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب واليه المرجع والمآب

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَأَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خِصْمُونَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مِثْلًا فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلْآسَافَةِ فَلَا تَمُوتُنَّ فِيهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَا يَصُدُّكُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ شَيْءٌ مِنْهُمَا وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ تَوْبَةٍ مِثْلُ نَبْتٍ مِنَ الْتَمِيمِ مَا تَابَتْ لَهُمْ أَسْوَاقُهُمْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾

الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ أَلِيمٍ ﴿١﴾

يقول تعالى عبثا عن تعنت قريش في كفرهم وتمعدهم البناد والجدل (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) قال غير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وعكرمة والسدي والضحاك يضحكون أى أعجبوا بذلك ، وقال قتادة : يمزعون ويضحكون . وقال إبراهيم النخعي يعرضون وكان السبب في ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة حيث قال : وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يلقى يومئذ الوليد بن الغيرة في المسجد فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم وفي المجلس غير واحد من رجال قريش فنكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرض له النضر ابن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنفحه ثم تلا عليه وعليهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) الآيات : ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبرى التيمي حتى جلس فقال الوليد بن الغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قد ، وقد زعم محمد أنا وما تعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم ، فقال عبد الله بن الزبرى أما والله لو وجدته لحصمته ، سلوا محمدا أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ، ففتح نعبد الملائكة واليهود تعبد عزيرا والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم . فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبرى ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده فانهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته » فأنزل الله عز وجل (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) أى عيسى وعزير ومن عبد معهما من الأحرار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله عز وجل فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله ونزل فيما يذكر من أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون) الآيات ونزل فيما يذكر من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام وأنه يعبد من دون الله وعجب الوليد ومن حضره من حجة وخصومته (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) أى يصدون عن أمرك بذلك من قوله . ثم ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام فقال (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل * ولونشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون * وإنه لعلم للساعة) أى ما وضع على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الاسقام فكفى به دليلا على علم الساعة يقول (فلا تعتن بها واتبعون هذا صراط مستقيم) وذكر ابن جرير من رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله (ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) قال يعنى قريشا لما قيل لهم (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) إلى آخر الآيات فقالت له قريش فما ابن مريم ؟ قال « ذلك عبد الله ورسوله » فقالوا والله ما يريد هذا إلا أن يتخذ ربا كما اتخذت النصارى عيسى بن مريم ربا فقال الله عز وجل (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون)

وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا شيبان عن عاصم بن أبي النجود عن أبي رزين عن أبي يحيى مولى ابن عقيل الأنصارى قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لقد علمت آية من القرآن مأسألتني عنها رجل قط ولا أدري أعلمها الناس فلم يسألوا عنها أم لم يفتنوا لها فيسألوا عنها . قال ثم طفق يحدثنا فلما قام تلاونا أن لا نكون سألناه عنها فقلت أنا لها إذا راح غدا فلما راح الغد قلت يا ابن عباس ذكرت أمسى أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط فلا تدري أعلمها الناس أم لم يفتنوا لها فقلت أخبرني عنها وعن الآيات قرأت قبلها ، قال رضي الله عنه نعم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقريش « يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير » وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام وما تقول في محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ألسنت تزعم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان

نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً فإن كنت صادقاً كان آلهتهم كما تقولون قال فأنزل الله عز وجل (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) قلت ما يصدون ؟ قال يضحكون (وإنه لعلم للساعة) قال هو خروج عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام قبل يوم القيامة وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقي حدثنا آدم حدثنا شيبان عن عاصم ابن أبي الجود عن أبي أحمد مولى الأنصار عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر قريش إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير » فقالوا له أألسنت تزعم أن عيسى كان نبياً وعبداً من عباد الله صالحاً فقد كان يعبد من دون الله ؟ فأنزل الله عز وجل (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) وقال مجاهد في قوله تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) قالت قريش إنما يريد محمد بن عبد الله نبيهم كما عبد قوم عيسى عليه السلام ، ونحو هذا قال قتادة . وقوله (وقالوا أألهتنا خير أم هو) قال قتادة يقولون آلهتنا خير منه ، وقال قتادة قرأ ابن مسعود رضى الله عنه وقالوا أألهتنا خير أم هذا يعنون محمداً ﷺ . وقوله تبارك وتعالى (ما ضربوه لك إلا جدلاً) أى مرأى وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية لأنها لما لا يعقل وهى قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) ثم هى خطاب لقريش وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه فتعين أن مقاتلتهم إنما كانت جدلاً منهم ليسوا يعتقدون صحتها ، وقد قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى حدثنا ابن نمير حدثنا حجاج بن دينار عن أبي غالب عن أبي أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) وقد رواه الترمذى وابن ماجه وابن جرير من حديث حجاج بن دينار به ، ثم قال الترمذى حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال . وقد روى من وجه آخر عن أبي أمامة رضى الله عنه بزيادة فقال ابن أبي حاتم حدثنا حميد بن عياش الرملى حدثنا مؤمل حدثنا حماد أخبرنا ابن مخزوم عن القاسم بن أبي عبد الرحمن السامى عن أبي أمامة رضى الله عنه قال حماد لا أدري رفعه أم لا ؟ قال : ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر ، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل ، ثم قرأ (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) وقال ابن جرير أيضاً حدثنا أبو كريب حدثنا أحمد بن عبد الرحمن عن عباد بن عباد عن جعفر عن القاسم عن أبي أمامة رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على الناس وهم يتنازعون فى القرآن فغضب غضباً شديداً حتى كأنما صب على وجهه الخل ثم قال صلى الله عليه وسلم « لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض فانه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل » ثم تلا صلى الله عليه وسلم (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون) . وقوله تعالى (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) يعنى عيسى عليه الصلاة والسلام ما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة (وجعلناه مثلاً لى إسرائيل) أى دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نشاء ، وقوله عز وجل (ولونشاء لجعلنا منكم) أى بدلهم (ملائكة فى الأرض يخلفون) قال السدى يخلفونكم فيها ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما وقاتدة خلف بعضهم بعضاً كما يخلف بعضهم بعضاً وهذا القول يستلزم الأول ، وقال مجاهد يعمرؤن الأرض بدلهم وقوله سبحانه وتعالى (وإنه لعلم للساعة) تقدم تفسير ابن إسحاق أن المراد من ذلك ما بعث به عيسى عليه الصلاة والسلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من الأسقام وفى هذا نظر . وأبعد منه ما حكاه قتادة عن الحسن البصرى وسعيد بن جبير أن الضمير فى وإنه عائد على القرآن بل الصحيح أنه عائد على عيسى عليه الصلاة والسلام فان السياق فى ذكره ، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة كما قال تبارك وتعالى (وإن من أهل الكتاب إلا ليومنن به قبل موته) أى قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام (ثم يوم القيامة يكون عليهم شهيداً) ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى (وإنه لعلم للساعة) أى أمانة ودليل على وقوع الساعة قال مجاهد (وإنه لعلم للساعة) أى آية للساعة خروج عيسى بن مريم عليه السلام قبل يوم القيامة وهكذا روى عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقاتدة والضحاك وغيرهم وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخبر بنزول عيسى

عليه السلام قبل يوم القيامة إماما عادلا وحكما مقسطا . وقوله تعالى (فلا تَمْتَرُنْ بِهَا) أى لا تشكوا فيها إنها واقعة وكائنة لا محالة (واتبعون) أى فيها أخبركم به (هذا صراط مستقيم * ولا يصدنكم الشيطان) أى عن اتباع الحق (إنه) لكم عدو مبين * ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة (أى بالنبوة) ولأين لكم بعض الذى تختلفون فيه) قال ابن جرير يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية وهذا الذى قاله حسن جيد ثم رد قول من زعم أن بعض ههنا يعنى كل واستشهد بقول لبيد الشاعر حيث قال :

تزال أمكنة إذا لم أرضها * أو يتعلق بعض النفوس حامها

وأولوه طى أنه أراد جميع النفوس . قال ابن جرير وإنما أراد نفسه فقط وعبر ببعض عنها وهذا الذى قاله حتمل وقوله عز وجل (فاتقوا الله) أى فيها أمركم به (وأطيعوا) فيها جئتكم به (إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم) أى أنا وأتم عبيد له فقراء إليه مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له (هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم وهو عبادة الرب جل وعلا وحده . وقوله سبحانه وتعالى (فاختلف الأحزاب من بينهم) أى اختلف الفرق وصاروا شيعا فيه ، منهم من يقر بأنه عد الله ورسوله وهو الحق ، ومنهم من يدعى أنه ولد الله ، ومنهم من يقول إنه الله . تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا . ولهذا قال تعالى (فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم)

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَعْبادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أُنْتُمْ تَعْزُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا بِمَا نُنَزِّلُ وَأَكَانُوا مُسْلِمِينَ * أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا اشْتَهَتْهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

يقول تعالى هل ينتظر هؤلاء المشركون الكذوبون للرسول (إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) أى فانها كائنة لا محالة وواقعة وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين . فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها فحينئذ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم . وقوله تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) أى كل صداقة وصحابة لغير الله فانها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل فانه دائم بدوامه وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين)

وقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق عن الحارث عن طى رضى الله عنه (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) قال خليلان مؤمنان وخليلان كافران فتوفى أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله فقال اللهم إن فلانا خليلى كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولاك ويأمرنى بالحير وينهى عن الشر وينبئنى أنى ملائكتك اللهم فلا تضله بعدى حتى تريبه مثل ما أرىتنى . وترضى عنه كما رضى عنى فيقال له : اذهب فلو تعلم ماله عندى لضحكت كثيرا وبكى قليلا . قال ثم يموت الآخر فتجتمع أرواحهما فيقال لئن أحدكما طى صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه نعم الأخ ونعم الصاحب ونعم الخليل . وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول اللهم إن خليلى فلانا كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولاك . ويأمرنى بالشر وينهى عن الخير ويخبرنى أنى غير ملائكتك اللهم فلا تهده بعدى حتى تريبه مثل ما أرىتنى وتسخط عليه كما سخطت طى قال فيموت الكافر الآخر فيجمع بين أرواحهما . فيقال لئن كل واحد

منكما على صاحبه فيقول كل واحد منهما لصاحبه بشئ الأخ وبشئ صاحب وبشئ الخليل رواه ابن أبي حاتم .
وقال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقتادة صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا للتيقن ، وروى الحافظ ابن عساکر
في ترجمة هشام بن أحمد عن هشام بن عبد الله بن كثير حدثنا أبو جعفر محمد بن الحضر بالرقعة عن معاذي حدثنا حكيم
ابن نافع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أن
رجلين تحابا في الله أحدهما بالشرق والآخر بالمغرب لجمع الله تعالى بينهما يوم القيامة يقول هذا الذى أحببته فى » وقوله
تبارك وتعالى (يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون) ثم بشرهم فقال (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين)
أى آمنت قلوبهم وبواطنهم وانقادوا لشرع الله جوارحهم وظواهرهم . قال المتمر بن سليمان عن أبيه إذا كان يوم
القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع فينادى مناد (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون)
فيرجوها الناس كلهم قال فيتبعها (الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) قال فيأس الناس منها غير المؤمنين (ادخلوا
الجنة) أى يقال لهم ادخلوا الجنة (أنتم وأزواجكم) أى نظرائكم (تحبسون) أى تتنعمون وتسعدون وقد تقدم تفسيرها
فى سورة الروم (يطاف عليهم بصحاف من ذهب) أى زيادى آتية الطعام (وأكواب) وهى آتية الشراب أى من
ذهب لا خراطيم لها ولا عرى (وفيها ما تشتهى الأنفس) وقرأ بعضهم تشتهى الأنفس (وتلذ الأعين) أى طيب الطعم
والريح وحسن المنظر ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرنى إسماعيل بن أبى سعيد قال : إن عكرمة مولى ابن عباس
رضى الله عنهما أخبره أن رسول الله ﷺ قال « إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل
الجنة بعده أحد يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام فى قصور من ذهب وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع
شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صفحة من ذهب ليس فيها صفحة إلا فيها لون ليس فى الأخرى مثله
شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها لونزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى لا ينقص ذلك مما أوتى شيئا »
وقال ابن أبي حاتم حدثنا طى بن الحسين بن الجنيد حدثنا عمرو بن سواد السرحى حدثنى عبد الله بن وهب عن ابن
لهيعة عن عقيل بن خالد عن الحسن بن أبى هريرة رضى الله عنه أن أبا أمامة رضى الله عنه حدث أن رسول الله ﷺ
حدثهم وذكر الجنة فقال « والذى نفس محمد بيده لياخذن أحدكم اللقمة فيجعلها فى فيه ثم يخطر على باله
طعام آخر فيتحول الطعام الذى فى فيه على الذى اشتبه » ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (وفيه ما تشتهيه
الأنفس وتلذ الأعين وأتم فيها خالدون) وقال الإمام أحمد حدثنا حسن هو ابن موسى حدثنا مسكين بن عبد العزيز
حدثنا أبو الأشعث الضرير عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« إن أدنى أهل الجنة منزلة من له لسبع درجات وهو على السادسة وفوقه السابعة وإن له ثلثمائة خادم ويغدى عليه ويراح
كل يوم بثلثمائة صفحة - ولأعلمه إلا قال من ذهب - فى كل صفحة لون ليس فى الأخرى وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره ، ومن
الأشربة ثلثمائة إناء فى كل إناء لون ليس فى الآخر وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره وإنه ليقول يا رب لو أذنت لى لأطعمت
أهل الجنة وسقيتهم لم ينقص مما عندى شيء وإن له من الخور العين لاثنتين وسبعين زوجة سوى أزواجه من الدنيا
وإن الواحدة منهن لتأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض » وقوله تعالى (وأتم فيها) أى فى الجنة (خالدون) أى لا تخرجون
منها ولا تبغون عنها حولا . ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان (وتلك الجنة التى أوردتموها بما كنتم تعملون) أى
أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم فإنه لا يدخل أحد عمله الجنة ولكن برحمة الله وفضله وإنما الدرجات
ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات قال ابن أبي حاتم حدثنا الفضل بن شاذان القري حدثنا يوسف بن يعقوب
يعنى الصفار حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله
ﷺ « كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة فيكون له يقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين) وكل أهل
الجنة يرى منزله من النار فيقول (وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) فيكون له شكرا » قال : وقال رسول الله
ﷺ « ما من أحد إلا وله منزل فى الجنة ومنزل فى النار فالكافر يرث المؤمن منزله من النار . والمؤمن يرث

الكافر منزله من الجنة وذلك قوله تعالى (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) وقوله تعالى (لكم فيها كفة كثيرة) أى من جميع الأنواع (منها تأكلون) أى مهما اخترتم وأردتم . ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكه لتتم النعمة والغبطة والله تعالى أعلم

﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّخْتَلِفٍ ۖ أَلَيْسَ فِيهِمْ مَّيْلٌ ۚ لَا يَفْقَهُوهُمْ ۖ وَهُمْ مُبَسِّوْنَ ۖ وَمَا ظَنَّهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۖ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ۖ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ۖ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرَمُونَ ۖ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۖ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۖ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم * وهم فيه مبسلون) أى آيسون من كل خير (وما ظنناهم ولكن كانوا هم الظالمين) أى بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم وارسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا فجوزوا بذلك جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد (ونادوا يا مالك) وهو خازن النار . قال البخارى حدثنا حجاج بن منهال حدثنا سفيان بن عيينة عن عمر بن عطاء عن صفوان ابن يحيى عن أبيه رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) أى يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه فانهم كما قال تعالى (لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) وقال عز وجل (ويتجنبها الأشقياء * الذى يصلى النار الكبرى * ثم لا يموت فيها ولا يحيى) فلما سألو أن يموتوا أحابهم مالك (قال إنكم ماكثون) قال ابن عباس : مكث ألف سنة ثم قال إنكم ماكثون رواه ابن أبي حاتم أى لا خروج لكم منها ولا عجد لكم عنها . ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال (لقد جئناكم بالحق) أى بيناه لكم ووضحناه وفسرناه (ولكن أكثركم للحق كارهون) أى ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه وإيمانكم قاصر للباطل وتعظمه وتصد عن الحق وتأباه وتبغض أهله فعودوا على أنفسكم باللاماة واندموا حيث لا تنفعكم الندامة ثم قال تبارك وتعالى (أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون) قال مجاهد أرادوا كيد شرفك دناهم وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) وذلك لأن الشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه فكادهم الله تعالى ورد وبال ذلك عليهم ولهذا قال (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم) أى سرهم وعلايتهم (بلى ورسلنا لديهم يكتبون) أى نحن نعلم ما هم عليه والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ۖ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۖ فَذَرْنُهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ۖ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ۖ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۖ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۖ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ۖ وَقِيلَ لَهُ رَبُّ إِنْ هُوَ إِلَّا قَوْمٌ لَا يَوْمِنُونَ ۖ فَاصْفَعْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۖ ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد (إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين) أى لو فرض هذا لعبده طى ذلك لأنى عبد من عبده مطيع لجميع ما أمرنى به ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته فلو فرض هذا لكان هذا ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا كما قال عز وجل (لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى (فانا أول العابدين) أى الآنفين ومنهم سفيان الثورى والبخارى حكاه فقال ويقال أول العابدين الجاحدين من عبد يعبد ، وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأطل عن ابن وهب حدثنى ابن أبى ذئب عن أبى قسيطن عن بعجة بن بدر الجهنى أن امرأة منهم دخلت طى زوجها وهو رجل منهم أيضا فولدت له فى ستة أشهر فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان رضى الله عنه فأمر بها أن ترحم فدخل عليه طى بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : إن الله تعالى يقول فى كتابه (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال عز وجل (وفصاله فى عامين) قال فوالله ما عبد عثمان رضى الله عنه أن يهتد بقول يونس قال ابن وهب : عبدة استكف ، وقال الشاعر .

مضى ما يشاء ذو الود يصرم خليله ويعبد عليه لا محالة ظالما

وهذا القول فيه نظر لأنه كيف يلتزم مع الشرط فيكون تقديره إن كان هذا فانا ممتنع منه ؟ هذا فيه نظر فليتأمل اللهم إلا أن يقال إن إن ليست شرطا وإيماءى نافية كما قال طى بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد) يقول لم يكن للرحمن ولد فانا أول الشاهدين وقال قتادة : هى كلمة من كلام العرب (إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين) أى إن ذلك لم يكن فلا ينبغي ، وقال أبو صخر (قل إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين) أى فانا أول من عبده بأن لا ولد له ، وأول من وحده ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال مجاهد (فانا أول العابدين) أى أول من عبده ووحده وكذبكم ، وقال البخارى (فانا أول العابدين) الآنفين وهما لفتان رجل عابد وعبد والأول أقرب طى أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع ، وقال السدى (قل إن كان للرحمن ولد فانا أول العابدين) يقول لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن له ولدا ولكن لا ولد له وهو اختيار ابن جرير ورد قول من زعم أن إن نافية . ولهذا قال تعالى (سبحانه رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون) أى تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد فانه فرد أحد صمد لا نظير له ولا كفء له فلا ولد له . وقوله تعالى (فذرهم يخوضوا) أى فى جهلهم وضلالهم (ويلعبوا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) وهو يوم القيامة أى فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم فى ذلك اليوم . وقوله تبارك وتعالى (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) أى هو إله من فى السماء وإله من فى الأرض يعبداه أهلها وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه (وهو الحكيم العليم) وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى (وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون أى هو للدعوى الله فى السموات والأرض (وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما) أى هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا مناعة فسبحانه وتعالى عن الولد وتبارك أى استقر له السلامة من العيوب والتقصا لأن الله الرب العلى العظيم المالك للأشياء الذى يده أزمة الأمور تفضا وإبراما (وعنده علم الساعة) أى لا يعلمها لوقتها إلا هو (وإليه ترجعون) أى فيجازى كلا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ثم قال تعالى (ولا يملك الذى يدعون من دونه) أى من الأصنام والأوثان (الشفاعة) أى لا يقدر على الشفاعة لهم (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) هذا استثناء منقطع أى لكن من شهد بالحق طى بصيرة وعلم فانه تنفع شفاعة عند ياذنه له . ثم قال عز وجل (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون) أى ولئن سألت هؤلاء الشركين بالله العابدين معه غيره (من خلقهم ليقولن الله) أى هم يعترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له فى ذلك ومع هذا يعبدون معه غيره بمن لا يملك شيئا ولا يقدر على شيء فهم فى ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل . ولهذا قال تعالى (فأنى يؤفكون) . وقوله جل وعلا (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) أى وقال محمد صلى الله عليه وسلم قيله أى شك إلى ربه شكوا من قومه الذين كذبوه فقال يا رب

إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى في الآية الأخرى (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا) وهذا الذي قلناه هو قول ابن مسعود رضى الله عنه ومجاهد وقتادة وعليه فسر ابن جرير، قال البخارى وقرأ عبد الله يعنى ابن مسعود رضى الله عنه (وقال الرسول يا رب) وقال مجاهد فى قوله (وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون) قال يؤثر الله عز وجل قول محمد ﷺ وقال قتادة : هو قول نبيكم صلى الله عليه وسلم يشكو قومه إلى ربه عز وجل . ثم حكى ابن جرير فى قوله تعالى (وقيله يا رب) قراءتين إحداهما النصب ولها توجيهان أحدهما أنه معطوف على قوله تبارك وتعالى (نسمع سرهم ونجواهم) والثانى أن يقدر فعل وقال قيله ، والثانية والخفض وقيله عطفا على قوله (وعنده علم الساعة) وتقديره وعلم قيله وقوله تعالى (فاصفح عنهم) أى المشركين (وقل سلام) أى لاتجأ بهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا (فسوف يعلمون) هذا تهديد من الله تعالى لهم ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد وأعطى دينه وكلمته وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا وانتشر الإسلام فى المشارق والمغرب والله أعلم. آخر تفسير سورة الزخرف

(تفسير سورة الدخان وهى مكية)

قال الترمذى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا زيد بن الحباب عن عمرو بن أبى خثعم عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وعمرو بن أبى خثعم يضعف قال البخارى : منكر الحديث ثم قال حدثنا نصر بن عبد الرحمن الكوفى حدثنا زيد بن الحباب عن هشام أبى القدام عن الحسن عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حم الدخان فى ليلة الجمعة غفر له » ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وهشام أبو القدام يضعف والحسن لم يسمع من أبى هريرة رضى الله عنه كذا قال أيوب ويونس بن عبيد وطى بن زيد رحمة الله عليهم أجمعين . وفى مسند البزار من رواية أبى الطفيل عامر بن واثلة عن زيد ابن حارثة أن رسول الله ﷺ قال لابن صياد « إني قد خبأت خباياها هو ؟ » وخبأه رسول الله ﷺ سورة الدخان فقال هو الدخ . فقال « أخسأ ما شاء الله » ثم انصرف

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿ حَمْ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مَنْ عِنْدَنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن القرآن العظيم أنه أنزله فى ليلة مباركة وهى ليلة القدر كما قال عز وجل (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وكان ذلك فى شهر رمضان كما قال تبارك وتعالى (وشهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وقد ذكرنا الأحاديث الواردة فى ذلك فى سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ، ومن قال : إنها ليلة النصف من شعبان كما روى عن عكرمة فقد أبعد النجعة فإن نص القرآن أنها فى رمضان ، والحديث الذى رواه عبد الله بن صالح عن الليث عن عقيل عن الزهري أخبرنى عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له وقد أخرج اسمه فى اللوى » فهو حديث مرسل ومثله لا يعارض به النصوص وقوله عز وجل (إنا كنا منذرين) أى معلين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرطا لتقوم جنة الله على عباده وقوله (فيها يفرق كل أمر حكيم) أى فى ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وما يكون فيها إلى آخرها . وهكذا روى عن ابن عمر ومجاهد وأبى مالك والضحاك وغير واحد

من السلف وقوله جل وعلا (حكيم) أى محكم لا يبدل ولا يغير ولهذا قال جل جلاله (أمرا من عندنا) أى جميع ما يكون ويقدره الله تعالى وما يوحى فبأمره وإذنه وعلمه (إنا كنا مرسلين) أى إلى الناس رسولا يتلو عليهم آيات الله مبینات فإن الحاجة كانت ماسة إليه ولهذا قال تعالى (رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السموات والأرض وما بينهما) أى الذى أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيها (إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم متحققين ثم قال تعالى (لا إله إلا هو يحيى ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين) وهذه الآية كقوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت) الآية

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَتَى لَهُمُ الْدُّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)

يقول تعالى بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون أى قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به ، ثم قال عز وجل متوعدا لهم ومهددا (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين) قال سليمان بن مهران الأعمش عن أبي الضحى : مسلم بن صبيح ، عن مسروق قال دخلنا المسجد يعنى مسجد الكوفة عند أبواب كندة فإذا رجل يقص على أصحابه (يوم تأتى السماء بدخان مبين) تدرون ما ذلك الدخان ؟ ذلك دخان يأتى يوم القيامة يأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ويأخذ المؤمنين منه شبه الزكام قال فأتينا ابن مسعود رضى الله عنه فذكرنا ذلك له وكان مضطجعا ففرع قعده وقال إن الله عز وجل قال لنبيكم ﷺ (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلمين) إن من العلم أن يقول الرجل لما يعلم الله أعلم سأحدثكم عن ذلك إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام واستعصت على رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والليثة وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهية الدخان من الجهد ، قال الله تعالى (فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) فأتى رسول الله ﷺ فقيل يا رسول الله استسق الله لمضر فانهما قد هلكت فاستسق صلى الله عليه وسلم لهم فسقوا فنزلت (إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون) قال ابن مسعود رضى الله عنه فيكشف عنهم العذاب يوم القيامة فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزله الله عز وجل (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) قال يعنى يوم بدر قال ابن مسعود رضى الله عنه فقد مضى خمسة : الدخان والروم والقمر والبطشة واللزام ، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين ورواه الإمام أحمد في مسنده وهو عند الترمذى والنسائى في تفسيريهما وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به وقد وافق ابن مسعود رضى الله عنه على تفسير الآية بهذا وأن الدخان مضى : جماعة من السلف كجاهد وأبي العالية وإبراهيم النخعي والضحاك وعطية العوفى وهو اختيار ابن جرير وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبى حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا يحيى بن حسان حدثنا ابن لهيعة حدثنا عبد الرحمن الأعرج في قوله عز وجل (يوم تأتى السماء بدخان مبين) قال كان يوم فتح مكة وهذا القول غريب جدا بل منكر . وقال آخرون لم يمض الدخان بعد بل هو من أمارات الساعة كما تقدم من حديث أبى سريحة : حذيفة بن أسيد الغفارى رضى الله عنه قال أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من عرفة ونحن نتذاكر الساعة فقال صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم والدجال وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس - أو تحشر الناس - تبیت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا » تفرد بإخراجه مسلم في صحيحه وفي الصحيحين أن

رسول الله ﷺ قل لا بن صياد « إني خبأت لك خبأ » قال هو الدخ فقال صلى الله عليه وسلم له « احسأ فلن تعدو قدرك » قال وخبأه رسول الله ﷺ (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) وهذا فيه إشعار بأنه من المنتظر المرتقب ، وابن صياد كاشف على طريقة الكهان بلسان الجان وهم يقرطون العبارة ولهذا قال هو الدخ يعنى الدخان فعندها عرف رسول الله ﷺ مادته وأنها شيطانية فقال صلى الله عليه وسلم « احسأ فلن تعدو قدرك » ثم قال ابن جرير وحدثني عصام بن رواد بن الجراح حدثنا أبي حدثنا سفيان بن أبي سعيد الثوري حدثنا منصور بن العتير عن ربيع بن حراش قال سمعت حذيفة بن اليمان رضى الله عنه يقول قال رسول الله ﷺ « إن أول الآيات الدجال ونزول عيسى بن مريم عليهما الصلاة والسلام ونار تخرج من قعر عدن أبيض تسوق الناس إلى الحشر تقيل معهم إذا قالوا ، والدخان — قال حذيفة رضى الله عنه يا رسول الله وما الدخان ؟ فتلا رسول الله ﷺ هذه الآية (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * ينشى الناس هذا عذاب اليم) — يملأ ما بين المشرق والمغرب يمشك أربعين يوما وليلة أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكمة ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخريه وأذنيه ودمره » قال ابن جرير لوصح هذا الحديث لكان فاصلا وإنما لم أشهد له بالصحة لأن محمد بن خلف السقلاني حدثني أنه سأل روادا عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان ؟ فقال له : لا ، قال فقلت أقرأته عليه ؟ قال لا قال فقلت له أقرأه عليه وأنت حاضر فأقره ؟ فقال لا فقلت له فمن أين جئت به فقال جاءني به قوم فعرضوه على وقالوا لي سمعه منا فقرءوه على ثم ذهبوا به فحدثوا به عني أو كما قال وقد أجاد ابن جرير في هذا الحديث ههنا فانه موضوع بهذا السند وقد أكثر ابن جرير من سياقه في أما كن من هذا التفسير وفيه منكرات كثيرة جدا ولا سيما في أول سورة بني إسرائيل في ذكر المسجد الأقصى والله أعلم وقال ابن جرير أيضا حدثني محمد بن عوف حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن ربكم أنذركم ثلاثا: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ، يأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه ، والثانية الدابة والثالثة الدجال » ورواه الطبراني عن هاشم بن يزيد عن محمد بن إسماعيل بن عياش به وهذا إسناد جيد وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا خليل عن الحسن عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يهبج الدخان بالناس فأما المؤمن فيأخذه كالزكمة وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه » ورواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه موقوفا ، وروى سعيد بن عوف عن الحسن مثله

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضى الله عنه قال لم تمض آية الدخان بعد يأخذ المؤمن كهيئة الزكام وتنفع الكافر حتى ينفذ وروى ابن جرير من حديث الوليد بن جميع عن عبد الملك بن النخعي عن عبد الرحمن بن السلمي عن ابن عمر رضى الله عنهما قال يخرج الدخان يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ويدخل مسامع الكافر والمنافق حتى يكن كالرأس الحنيد أى المشوى على الرضف ثم قال ابن جرير حدثني مقوب حدثنا ابن علي عن ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة قال غدت على ابن عباس رضى الله عنهما ذات يوم فقال ما نمت الليلة حتى أصبحت قلت لم قال قالوا طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فنامت حتى أصبحت وهكذا روى ابن أبي حاتم عن أبيه عن ابن عمر عن سفيان عن عبد الله بن أبي يزيد عن عبد الله بن أبي مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما فذكره ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنهما خبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها التي أوردوها مما فيه مقلع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن قال الله تبارك وتعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) أى بين واضح يراه كل أحد ، وطى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع والجهد وهكذا قوله تعالى (ينشى الناس) أى يتغشاهم ويغشاهم ، ولو كان

أمرأ خيالاً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه (يغشى الناس) وقوله تعالى (هذا عذاب أليم) أى يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً كقوله عز وجل (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون) أو يقول بعضهم لبعض ذلك وقوله سبحانه وتعالى (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أى يقول الكافرون إذا عابوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم كقوله جلّت عظمته (ولوترى إذا وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) وكذا قوله جل وعلا (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال) وهكذا قال جل وعلا ههنا (أى لهم الله كرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) يقول كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولا بين الرسالة والندارة ومع هذا تولوا عنه وماوا قفوه بل كذبوه وقالوا معلم مجنون وهذا كقوله جلّت عظمته (يوم يتذكر الإنسان وأنى له الله كرى) الآية كقوله عز وجل (ولو ترى إذا فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب * وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) إلى آخر السورة وقوله تعالى (إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون) يحتمل معنيين (أحدهما) أنه يقول تعالى ولو كشفنا عنكم لعذاب ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعذبتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب كقوله تعالى (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون) وكقوله جلّت عظمته (ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) (والثاني) أن يكون المراد إنا مؤخرو العذاب عنكم قليلاً بعد انقضاء أسبابه ووصوله إليكم وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى (إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) ولم يكن العذاب باشرهم واتصل بهم بل كان قد انقضى سببه عليهم ، ولا يلزم أيضاً أن يكونوا قد أقلعوا عن كفرهم ثم عادوا إليه قال الله تعالى إخباراً عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه حين قالوا (لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين * قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) وشعيب عليه السلام لم يكن قط على ملتهم وطريقهم وقال قتادة إنكم عائدون إلى عذاب الله وقوله عز وجل (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) فسر ذلك ابن مسعود رضى الله عنه بيوم بدر وهذا قول جماعة ممن وافق ابن مسعود رضى الله عنه على تفسيره الدخان بما تقدم وروى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما من رواية العوفي عنه وعن أبي بن كعب رضى الله عنه وهو محتمل والظاهر أن ذلك يوم القيامة وإن كان يوم بدر يوم بطشة أيضاً قال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن عليّ حدثنا خالد الحذاء عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما قال ابن مسعود رضى الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيامة وهذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة في أصح الروايتين عنه والله أعلم

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عَبْدِ اللَّهِ إِنَّهُ لَكُمُ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْ آتَاكُمْ بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِضُوا قَوْمَ رَبِّهِ أَنْ هُوَ لَأَقْرَبُ قَوْمَ ثَجْرِ مُؤْمِنٍ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ * وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَسَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ أَلَمِينَ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى ولقد اخترنا قبل هؤلاء الشركين قوم فرعون وهم قبط مصر (وجاءهم رسول كريم) يعنى موسى
كلية عليه الصلاة والسلام (أن أدوا إلى عباد الله) كقوله عز وجل (أن أرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد
جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى) وقوله جل وعلا (إني لكم رسول أمين) أى مأمون على
ما أبلغكموه . وقوله تعالى (وأن لاتعولوا على الله) أى لاتستكبروا عن اتباع آياته والالتقياد لحججه والإيمان يراهينه
كقوله عز وجل (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) (إني آتيكم بسلطان مبين) أى
بمحجة ظاهرة واضحة وهى ما أرسله الله تعالى به من الآيات البينات والأدلة القاطعات (وإني عدت بربى وربكم أن
ترجمون) قال ابن عباس رضى الله عنهما وأبو صالح هو الرجم باللسان وهو الشتم . وقال قتادة الرجم بالحجارة أى أعوذ
بالله الذى خلقنى وخلقكم من أن تصلوا إلى بسوء من قول أو فعل (وإن لم تؤمنوا لى فاعترلون) أى فلا تترضوا لى ودعوا
الأمر بينى وبينكم مسالمة إلى أن يقضى الله بيننا فلما طال مقامه ﷺ بين أظهرهم وأقام حجج الله تعالى عليهم كل ذلك
وما زادهم ذلك إلا كفرا وعنادا دعا ربه عليهم دعوة فذت فيهم كما قال تبارك وتعالى (وقال موسى ربنا إنك آتيت
فرعون وملائه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا
يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما) وهكذا قال ههنا (فدعا ربه أنزه هؤلاء قوم مجرمون)
فعند ذلك أمره الله تعالى أن يخرج بينى إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ولهذا
قال جل جلاله (فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون) كما قال تعالى (ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب
لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا نخشى) وقوله عز وجل ههنا (واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون)
وذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاوز هو وبو إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما
كان ليصير حائلا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكنا وبشره بأنهم جند
مغرقون فيه وأنه لا يخاف دركا ولا نخشى ، قال ابن عباس رضى الله عنهما (واترك البحر رهوا) كهيشته وامضه
وقال مجاهد رهوا طريقا يبسا كهيشته يقول لآتمره يرجع اتركه حتى يرجع آخرهم وكذا قال عكرمة والريبع
ابن أنس والضحاك وقتادة وابن زيد وكعب الأحبار وسماك بن حرب وغير واحد ثم قال تعالى (كم تركوا من جنات)
وهى البساتين (وعيون وزروع) والمراد بها الأنهار والآبار (ومقام كريم) وهى الساكن الأتقىة والأماكن
الحسنة . وقال مجاهد وسعيد بن جبير (ومقام كريم) للنابر ، وقال ابن لهيعة عن وهب بن عبد الله العافرى عن عبد الله
ابن عمرو رضى الله تعالى عنهما قال نيل مصر سيد الأنهار سخر الله تعالى له كل نهر بين الشرق والغرب وذلك له فإذا
أراد الله عز وجل أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده فأمدته الأنهار بمائها وفجر الله تبارك وتعالى له الأرض
عيونا فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله جل وعلا أوحى الله تعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره وقال فى قول الله
تعالى (فأخرجناهم من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين) قال كانت الجنان بحافى نهر
النيل من أوله إلى آخره فى الشقين جميعا ما بين أسوان إلى رشيد وكان له تسع خلج ^(١) خليج الاسكندرية وخليج
دمياط، وخليج سر دوس، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج المنتهى متصل لا ينقطع منها شىء عن شىء وزرع ما بين الجليلين
كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعا لما قدروا ودبروا من قناطرها
وجسورها وخليجها (ونعمة كانوا فيها فاكهين) أى عيشة كانوا يتفكحون فيها فيا كلون ماشاءوا ويلبسون ما أحبوا
الأموال والجواهر والحكم فى البلاد فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبش
المصير واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنوا إسرائيل كما قال تبارك وتعالى (كذلك
وأورثناها بنى إسرائيل) . وقال فى الآية الأخرى (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها

(١) الخليج . شرم من النهر ويطلق على النهر ، وعلى السفينة والجمع خلجان وخلق . وقوله : تسع خلج هكذا فى الأصول فليحذر .

التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا
يعرشون (وقال عز وجل ههنا (كذلك وأورثناها قوما آخرين) وهم بنو إسرائيل كما تقدم . وقوله سبحانه وتعالى
(فما بكت عليهم السماء والأرض) أى لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على ققدم ولا لهم
في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم فلماذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم
وعنادهم . قال الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده حدثنا أحمد بن إسحاق البصرى حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا
موسى ابن عبيدة حدثني يزيد الرقاشى حدثني أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
« ما من عبد إلا وله في السماء ما بان : باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقد جاءه وبكى عليه » وتلا
هذه الآية (فما بكت عليهم السماء والأرض) وذكر أنهم لم يكونوا يعملوا على الأرض عملا صالحا يبكي عليهم ولم
يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدتهم فتبكي عليهم ، ورواه ابن أبي حاتم
من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذى . وقال ابن جرير حدثني يحيى بن طلحة حدثني عيسى بن يونس عن صفوان
ابن عمرو عن شريح بن عبيد الحضرمي قال : قال رسول الله ﷺ « إن الاسلام بدا غريبا وسيعود غريبا
كما بدأ . ألا لا غربة على مؤمن ، مامات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بوا كيه الا بكت عليه السماء والأرض » ثم قرأ
رسول الله صلى الله عليه وسلم (فما بكت عليهم السماء والأرض) ثم قال « إنها لا يبكيان على الكافر » وقال
ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عاصم حدثنا أبو أحمد يعنى الزبيرى حدثنا العلاء بن صالح عن النهال بن عمرو عن عباد
ابن عبد الله قال سأل رجل علياً رضى الله عنه هل تبكى السماء والأرض على أحد فقال له لقد سألتني عن شيء ما سألتني
عنه أحد قبلك إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل
صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ثم قرأ على رضى الله عنه (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)
وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا طلق بن غنم عن زائدة عن منصور عن نهال عن سعيد بن جبير قال أتى ابن عباس
رضى الله عنهما رجل فقال يا أبا العباس أ رأيت قول الله تعالى (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)
فهل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ قال رضى الله عنه نعم إنه ليس أحد من الخلق إلا وله باب في السماء منه
ينزل رزقه وفيه يصعد عمله فاذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقدته
بكى عليه وإذا فقدته مصلاه من الأرض التي كان يصلى فيها ويذكر الله عز وجل فيها بكت عليه ، وإن قوم فرعون لم تكن
لهم في الأرض آثار صالحة ولم يكن يصعد إلى الله عز وجل منهم خير فلم تبك عليهم السماء والأرض وروى العوفي
عن ابن عباس رضى الله عنهما نحو هذا . وقال سفيان الثوري عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس
رضى الله عنهما قال : كان يقال تبكى الأرض على المؤمن أربعين صباحا ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد ،
وقال مجاهد أيضا مامات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحا قال فقلت له أتبكي الأرض ؟ فقال أتعجب
وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسييحه
فيها دوى كدوى النحل وقال قتادة كانوا أهون على الله عز وجل من أن تبكى عليهم السماء والأرض وقال ابن أبي
حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا عبد السلام بن عاصم حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا المستورد بن سابق عن عبيد الملك
عن إبراهيم قال ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين قلت لعبيد أليس السماء والأرض تبكى على المؤمن ؟ قال
ذاك مقامه حيث يصعد عمله قال وتدرى ما بكاء السماء ! قلت لا قال تمير وتصير وردة كالدخان ، إن يحيى بن زكريا عليه
الصلاة والسلام لما قتل احمرت السماء وقطرت دما . وإن الحسين بن علي رضى الله عنهما لما قتل احمرت السماء .
وحدثنا على بن الحسين حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو بن زبيح حدثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد قال لما قتل الحسين بن علي
رضى الله عنهما احمرت آفاق السماء أربعة أشهر قال يزيد واحمرارها بكأوها وهكذا قال السدى الكبير وقال عطاء
الحراساني بكأوها أن تمهر أطرافها . وذكروا أيضا في مقتل الحسين رضى الله عنه أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد

تحتة دم عييط وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق وسقطت حجارة وفي كل من ذلك نظر ، والظاهر أنه من سخف الشيعة وكذبهم ليحظموا الأمر ولا شك أنه عظيم ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين رضي الله عنه ولم يقع شيء مما ذكره . فانه قد قتل أبوه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو أفضل منه بالاجماع ولم يقع شيء من ذلك ، وعثمان بن عفان رضي الله عنه قتل محصورا مظلوما ولم يكن شيء من ذلك . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه قتل في المحراب في صلاة الصبح وكأن المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ولم يكن شيء من ذلك . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد البشر في الدنيا والآخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكره . ويوم مات إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم خسفت الشمس فقال الناس خسفت لموت إبراهيم صلى الله عليه وسلم . وقوله الله صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت لأحد ولا لحياة . وقوله تبارك وتعالى (ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليا من السرفين) يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أقدمهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم وتسخيره إياهم في الأعمال للهينة الشاقة وقوله تعالى (من فرعون إنه كان عاليا) أى مستكبرا جبارا عنيدا كقوله عز وجل (إن فرعون علا في الأرض) . وقوله جل جلاله عظمت (فاستكبروا وكانوا قوما عالين) من السرفين أى مسرف في أمره سخييف الرأى على نفسه . وقوله جل جلاله (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) قال مجاهد (اخترناهم على علم على العالمين) على من هم بين ظهريه وقال قتادة اختبروا على أهل زمانهم ذلك وكان يقال إن لكل زمان عالما وهذا كقوله تعالى (قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس) أى أهل زمانه ذلك كقوله عز وجل لمريم عليها السلام (واصطفاك على نساء العالمين) أى في زمانها فان خديجة رضي الله عنها إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وقوله جل جلاله (وآتيناهم من الآيات) الحجج والبراهين وخوارق العادات (ما فيه بلاء مبين) أى اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ * فَأْتُوا بِآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَمْ خَيْرِ الْأُمَمِ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد وأنه ماثم إلا هذه الحياة الدنيا ولا حياة بعد المات ولا بعث ولا نشور ويحتجون بأبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا فان كان البعث حقاً (فأتوا بآياتنا إن كنتم صادقين) وهذه حجة باطلة وشبهة فاسدة فان المعاد إتمام يوم القيامة لافى الدار الدنيا بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقا جديدا ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ، يوم تكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، ثم قال تعالى متهددا لهم ومتوعدا ومنذرهم بأسمه الذى لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع وهم سبأ حيث أهلكهم الله عز وجل وخرب بلادهم وشردهم في البلاد وفرقهم شذر منذر كما تقدم ذلك في سورة سبأ وهي مصدرة بانكار المشركين للمعاد وكذلك ههنا شبههم بأولئك وقد كانوا عرباً من قحطان كما أن هؤلاء عرب من عدنان وقد كانت حمير وهم سبأ كلها ملك فيهم رجل سموه تبعاً كما يقال كسرى لمن ملك الفرس وقصر لمن ملك الروم وفرعون لمن ملك مصر كافرا والنجاشي لمن ملك الحبشة وغير ذلك من أعلام الأجناس . ولكن اتفق أن بعض تابعيهم خرج من اليمن وسار في البلاد حتى وصل إلى سمرقند واشتد ملكه . وعظم سلطانه وجيشه واتسعت مملكته وبلاداه وكثرت رعاياه وهو الذى مصر الحيرة فاتفق أنه مر بالمدينة النبوية وذلك في أيام الجاهلية فأراد قتال أهلها فأنصاه وقاتلوه بالنهار وجعلوا يقرؤنه بالليل فاستحيا منهم وكف عنهم واستصحب معه حبرين من أحبار يهود كانا قد نصحاه وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة فاتها مهاجر نبي يكون في آخر الزمان فرجع عنها وأخذها معه إلى بلاد اليمن فلما اجتاز بمكة أراد هدم

الكعبة فنهاه عن ذلك أيضا وأخبراه بعظمة هذا البيت وأنه من بناء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأنه سيكون له شأن عظيم على يدي ذلك النبي المبعوث في آخر الزمان فعظمها وطاف بها وكساها اللاء والوصلات والحبر ثم كر راجعا إلى اليمن ودعا أهلها إلى التهود معه وكان إذ ذاك دين موسى عليه الصلاة والسلام فيه من يكون على الهداية قبل بعثة المسيح عليه الصلاة والسلام فتهود معه عامة أهل اليمن ، وقد ذكر القصة بطولها الإمام محمد بن إسحاق في كتابه السيرة وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة أورد فيها أشياء كثيرة مما ذكرنا وما لم نذكر . وذكر أنه ملك دمشق وأنه كان إذا استعرض الخيل صفت له من دمشق إلى اليمن . ثم ساق من طريق عبد الرزاق عن معمر بن ابن أبي ذئب عن القبري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما أدرى الحدود طهارة لأهلها أم لا ؟ ولا أدرى تبع لعينا كان أم لا ؟ ولا أدرى ذوالقرنين نبيا كان أم ملكا » . وقال غيره « عزيز أ كان نبيا أم لا » ، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن حماد الظهراني عن عبد الرزاق قال الدارقطني تفرد به عبد الرزاق ، ثم روى ابن عساكر من طريق محمد بن كريب عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا « عزيز لا أدرى أنبيا كان أم لا ؟ ولا أدرى ألعين تبع أم لا ؟ » ثم أورد ما جاء في النهي عن سبه ولعنته كما سيأتي إن شاء الله تعالى وكأنه والله أعلم كان كافرا ثم أسلم وتابع دين الكليم على يدي من كان من أحبار اليهود في ذلك الزمان على الحق قبل بعثة المسيح عليه السلام وحج البيت في زمن الجرميين وكساء اللاء والوصلات من الحرير والجبر ونهر عنده ستة آلاف بدنة وعظمه وأكرمه . ثم عاد إلى اليمن . وقد ساق قصته بطولها الحافظ ابن عساكر من طرق متعددة مطولة مبسولة عن أبي بن كعب وعبد الله بن سلام وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم وكعب الأحبار واليه المرجع في ذلك كله وإلى عبد الله بن سلام أيضا وهو أثبت وأكبر وأعلم . وكذا روى قصته وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق في السيرة كما هو مشهور فيها . وقد اختلط على الحافظ ابن عساكر في بعض السياقات ترجمة تبع هذا بترجمة آخر متأخر عنه بدهر طويل فان تبعا هذا المثار إليه في القرآن أسلم قومه على يديه ثم لما توفي عادوا بعده إلى عبادة النيران والأصنام فعاقبهم الله تعالى كما ذكره في سورة سبأ وقد بسطنا قصتهم هنالك والله الحمد واللثة ، وقال سعيد بن جبير: كسا تبع الكعبة وكان سعيد ينهى عن سبه وتبع هذا هو تبع الأوسط واسمه أسعد أبو كريب بن مليكرب اليماني ذكروا أنه ملك على قومه ثلاثمائة سنة وستا وعشرين سنة ولم يكن في حمير أطول مدته وتوفي قبل مبعث رسول الله ﷺ بنحو من سبعمائة سنة . وذكروا أنه لما ذكر له الخبران من يهود المدينة أن هذه البلدة مهاجرة نبي آخر في الزمان اسمه أحمد قال في ذلك شعرا واستودعه عند أهل المدينة فكانوا يتوارثونه ويروونه خلفا عن سلف وكان ممن يحفظه أبو أيوب خالد بن زيد الذي نزل رسول الله ﷺ في داره وهو :

شهدت على أحمد أنه رسول من الله باري النسب فلو مد عمرى إلى عمره

لكنك وزير له وابن عم وجاهدت بالسيف أعداء وفرجت عن صدره كل غم

وذكر ابن أبي الدنيا أنه حفر قبر بصنماء في الاسلام فوجدوا فيه امرأتين صبيحتين وعند رءوسهما لوح من فضة مكتوب فيه بالذهب : هذا قبر حيي وتميس وروى حيي وتماضر ابنتي تبع ماتتا وهما تشهدان أن لا إله إلا الله ولا تشركان به شيئا وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما . وقد ذكرنا في سورة سبأ شعر سبأ في ذلك أيضا . قال قتادة ذكر لنا أن كعبا كان يقول في تبع نعت نعت الرجل الصالح ذم الله تعالى قومه ولم يذمه قال وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان رجلاً صالحاً . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان حدثنا الوليد حدثنا عبد الله بن لهيعة عن أبي زرعة - يعني عمرو بن جابر الحضرمي - قال سمعت سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا تبعاً فإنه قد كان أسلم » ورواه الإمام أحمد في مسنده عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة به . وقال الطبراني حدثنا أحمد بن علي الأبار حدثنا أحمد بن محمد بن أبي برزة حدثنا مؤمل بن إسحاق حدثنا سفيان عن سالك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

« لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم » وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما أدرى تبع نبياً كان أم غير نبي » وتقدم بهذا السند من رواية ابن أبي حاتم كما أورده ابن عساكر « لا أدرى تبع كان لعينا أم لا » فالله أعلم . ورواه ابن عساكر من طريق زكريا بن يحيى المدني عن عكرمة عن ابن عباس موقوفاً وقال عبد الرزاق أخبرنا عمران أبو الهذيل أخبرني نعيم بن عبد الرحمن قال : قال عطاء بن أبي رباح لا تسبوا تبعاً فإن رسول الله ﷺ نهى عن سبه والله تعالى أعلم

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ *
إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ
إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث والباطل كقوله جل وعلا (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) وقال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) ثم قال تعالى (إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين) وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق فيعذب الكافرين ويثيب المؤمنين . وقوله عز وجل (ميقاتهم أجمعين) أى يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم (يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً) أى لا ينفع قريب قريباً كقوله سبحانه وتعالى (فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) وكقوله جلّت عظمتها (ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم) أى لا يسأل أخاه عن حاله وهو يراه عياناً . وقوله جل وعلا (ولا هم ينصرون) أى لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج ثم قال (إلا من رحم الله) أى لا ينفع يومئذ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه (إنه هو العزيز الرحيم) أى هو عزيز ذو رحمة واسعة

﴿ إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلَى الْحَمِيمِ * خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ
الْجَحِيمِ * ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنَّ هَذَا مَا كُتِبَ بِهِ تَمَتُّونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) والأثيم أى فى قوله وفعله وهو الكافر وذكر غير واحد أنه أبو جهل ولا شك فى دخوله فى هذه الآية ولكن ليست خاصة به قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن همام بن الحارث أن أبا الدرداء كان يقرئ رجلاً (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) فقال طعام اليتيم فقال أبو الدرداء رضى الله عنه قل إن شجرة الزقوم طعام الفاجر أى ليس له طعام من غيرها ، قال مجاهد ولو وقعت قطرة منها فى الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، وقد تقدم نحوه مرفوعاً ، وقوله (كالمهل) قالوا كعسكر الزيت (يغلى فى البطن كغلى الحميم) أى من حرارتها ورداءتها ، وقوله (خذوه) أى الكافر ، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية خذوه ابتدره سبعون ألفاً منهم ، وقوله (فاعتلوه) أى سوقوه سحبا ودفعوا فى ظهره ، قال مجاهد (خذوه فاعتلوه) أى خذوه فادفعوه ، وقال الفرزدق :

ليس الكرام بنا حليك أباهم * حتى ترد إلى عطية تغل

(إلى سواء الجحيم) أى وسطها (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم) كقوله عز وجل (يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به مافى بطونهم والجلود) وقد تقدم أن الملك يضربه بمقعدة من حديد فتفتح دماغه ثم يصب الحميم على رأسه فينزل فى بدنه فيسلى مافى بطنه من أمعائه حتى تمرق من كبه أعذا الله تعالى من ذلك . وقوله تعالى (ذق إنك أنت

العزیز الکرم) أى قولوا له ذلك طى وجه التهمك والتوبيخ ، وقال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما أى لست بعزیز ولا کریم وقد قال الاموى فى مغازيه حدثنا أسباط بن محمد حدثنا أبو بكر الهذلى عن عكرمة قال: لقي رسول الله ﷺ أبا جهل لعنه الله فقال « إن الله تعالى أمرنى أن أقول لك أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى » قال فنزع ثوبه من يده وقال ما تستطيع لى أنت ولا صاحبك من شىء ولقد علمت أنى أمنع أهل البطحاء وأنا العزیز الکرم ، قال فقتله الله تعالى يوم بدر وأذله وغيره بكلمته وأنزل (ذق إنك أنت العزیز الکرم) . وقوله عز وجل (إن هذا ما كنتم به تمترون) كقوله تعالى (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسح هذا أم أتم لا تبصرون) ولهذا قال تعالى ههنا (إن هذا ما كنتم به تمترون)

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ * يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَّعَهُمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ولهذا سمى القرآن مثنائى فقال (إن المتقين) أى الله فى الدنيا (فى مقام أمين) أى فى الآخرة وهو الجنة قد أمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيد و سائر الآفات والمصائب (فى جنات وعيون) وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الخمر ، وقوله تعالى (يلبسون من سندس) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها (وإستبرق) وهو ما فيه بريق ولعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعلى القماش (متقابلين) أى على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره وقوله تعالى (كذلك وزوجناهم بحور العين) أى هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان الحور العين اللاتي (لم يطمئنهن إنس قبلهم ولا جان) (كأنهن الياقوت والمرجان) (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نوح بن حبيب حدثنا نصر بن مزاحم العطار حدثنا عمر بن سعد عن رجل عن أنس رضى الله عنه رفعه نوح قال : لو أن حوراء بزقت فى بحر لجمى لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها . وقوله عز وجل (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) أى مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه بل يحضر إليهم كلما أرادوا ، وقوله (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) هذا استثناء يؤكد النفي فانه استثناء منقطع ومعناه أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدا كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت » وقد تقدم الحديث فى سورة مريم عليها الصلاة والسلام . وقال عبد الرزاق حدثنا سفيان الثورى عن أبي إسحق عن أبي مسلم الأغر عن أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ « يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا » رواه مسلم عن إسحق بن راهويه وعبد بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق بهكذا يقول أبو إسحق وأهل العراق أبو مسلم الأغر وأهل المدينة يقولون أبو عبد الله الأغر . وقال أبو بكر بن أبي داود السجستاني حدثنا أحمد بن حفص عن أبيه عن إبراهيم بن طهمان عن الحجاج هو ابن حجاج عن عبادة عن عبيد الله بن عمرو عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من اتقى الله دخل الجنة ينعم فيها ولا ييأس ويحيا فيها فلا يموت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا أحمد بن يحيى حدثنا عمرو بن محمد الناقد حدثنا

سلم بن عبد الله الرقي حدثنا مصعب بن إبراهيم حدثنا عمران بن الربيع الكوفي عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال : سئل نبي الله صلى الله عليه وسلم أينام أهل الجنة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون » وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا أحمد بن القاسم بن صدقة المصري حدثنا المقدم بن داود حدثنا عبد الله بن الغيرة حدثنا سفيان الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النوم أخو الموت وأهل الجنة لا ينامون » ، وقال أبو بكر البزار في مسنده حدثنا الفضل بن يعقوب حدثنا محمد بن يوسف الفريابي عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله هل ينام أهل الجنة ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لا ، النوم أخو الموت » ثم قال لا نعلم أحداً أسنده عن ابن المنكدر عن جابر رضي الله عنه إلا الثوري ولا عن الثوري إلا الفريابي ، هكذا قال وقد تقدم خلاف ذلك والله أعلم ، وقوله تعالى (ووقاهم عذاب الجحيم) أى مع هذا النعيم العظيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم فحصل لهم المطلوب ونجاهم من الرهوب ولهذا قال عز وجل (فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم) أى إنما كان هذا بفضلهم وإحسانه إليهم كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « اعملوا وسددوا وقاربوا واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة » قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل » ، وقوله تبارك وتعالى (فأنما يسرناه بلسانك لعلمهم يتذكرون) أى إنما يسرنا هذا القرآن الذى أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً جلياً بلسانك الذى هو أفصح اللغات وأجلها وأعلاها (لعلمهم يتذكرون) أى يفهمون ويعملون . ثم لما كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند قال الله تعالى لرسوله ﷺ مسلياً له وواعداً له بالنصر ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والمهلك (فارتقب) أى انتظر (إنهم مرتقبون) أى فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة فإنها لك يا محمد ولأخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين كما قال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) الآية وقال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) آخر تفسير سورة الدخان والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

(تفسير سورة الجاثية وهى مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(حم * تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ *) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْتُئِن دَابَّةً * آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ * آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

يرشد تعالى خلقه إلى التفكير في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة التى خلق بها السموات والأرض وما فيها من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات وما فى البحر من الأصناف المتنوعة واختلاف الليل والنهار فى تعاقبها دائبين لا يفتران هذا بظلامه وهذا بضائه وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر فى وقت الحاجة إليه ومما رزقاً لأن به يحصل الرزق (فأحيا به الأرض بعد موتها) أى بعد ما كانت هامدة لانبات فيها ولاشئ . وقوله عز وجل (وتصريف الرياح) أى جنوباً وشمالاً ودبوراً وصبارية وبحرية ليلية ونهارية . ومنها ما هو للمطر ، ومنها ما هو للفتح ، ومنها ما هو غذاء للارواح ومنها ما هو عقيم لا ينتج وقال سبحانه وتعالى أولاً (آيات للمؤمنين) ثم يوقنون ثم يعقلون وهو ترقى من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى ، وهذه الآيات شبيهة بآية البقرة وهى قوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض

واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (وقد أورد ابن أبي حاتم ههنا عن وهب بن منبه أنرا طويلا غريبا في خلق الإنسان من الأخلط الأربعة والله أعلم

﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ وَلِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * مَنْ وَرَّأَتْهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿

يقول تعالى (تلك آيات الله) يعني القرآن بما فيه من الحجج والبيئات (تتلوها عليك بالحق) أى متضمنة الحق من الحق فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا يتقادون لها فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ثم قال تعالى (ويل لكل أفَّاكٍ أَثِيمٍ) أى أفَّاكٍ في قوله كذاب حلاف مهين أَثِيمٍ في فعله وقلبه كافر بآيات الله ولهذا قال (يسمع آيات الله تتلى عليه) أى تقرأ عليه (ثم يصِرُّ) أى على كفره وجحوده استكبارا وعنادا (كأن لم يسمعها) أى كأنه ما سمعها (فبشره بعذاب أليم) أى فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذابا أليما موجعا (وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هُزُوًا) أى إذا حفظ شيئا من القرآن كفر به واتخذته سخريا وهُزُوًا (أولئك لهم عذاب مهين) أى في مقابلة ما استهان بالقرآن واستهزأ به ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو، ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال (من ورَّأَتْهُمْ جَهَنَّمُ) أى كل من اتصف بذلك سيصرون إلى جهنم يوم القيامة (ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئا) أى لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) أى ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئا (ولهم عذاب عظيم) ثم قال تبارك وتعالى (هذا هُدًى) يعنى القرآن (والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم) وهو المولم للوجع والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿

يذكر تعالى نعمه على عبده فيما سخر لهم من البحر (لتجري الفلك) وهى السفن فيه بأمره تعالى فإنه هو الذى أمر البحر بحملها (ولتبتغوا من فضله) أى فى التاجر والسكاسب (ولعلكم تشكرون) أى على حصول النافع المجلوبه إليكم من الأقليم النائية والآفاق القاصيه ثم قال عز وجل (وسخر لكم مافي السموات وما فى الأرض) أى من الكواكب والجبال والبحار والأنهار وجميع ما تنتفعون به أى الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ولهذا قال (جميعا منه) أى من عنده وحده لا شريك له فى ذلك كما قال تبارك وتعالى (وما بكم من نعمه فمن الله) ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون (وروى ابن جرير من طريق

العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تبارك وتعالى (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا) كل شيء هو من الله . وذلك الاسم فيه اسم من أسمائه فذلك جميعا منه ولا ينازعه فيه للنازعين واستيقن أنه كذلك وقت ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن خلف العسقلانى حدثنا الفريابى عن سفيان عن الأعمش عن الزهال بن عمرو عن أبى أراكه قال سأل رجل عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال ما خلق الخلق قال من النور والنار والظلمة والثرى قال واثبت ابن عباس رضى الله عنهما فأسأله فأتاه فقال له مثل ذلك فقال ارجع إليه فسله ما خلق ذلك كله . فرجع إليه فسأله فتلا (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا) هذا أثر غريب وفيه نكارة (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وقوله تعالى (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) أى ليصفحوا عنهم ويتحملوا لأذى منهم وكان هذا فى ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم ثم لما أصرروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد . هكذا روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة ، وقد مجاهد (لا يرجون أيام الله) لا يناولون نعم الله تعالى ، وقوله تبارك وتعالى (ليجزى قوما بما كانوا يكسبون) أى إذا صفحوا عنهم فى الدنيا فإن الله عز وجل مجازيهم بأعمالهم السيئة فى الآخرة ولهذا قال تعالى (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون) أى تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزىكم بأعمالكم خيرا وشرها والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعُهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ يُوَفُّونَ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعله الملك فيهم ولهذا قال تبارك وتعالى (ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات) أى من المأكول والمشرب (وفضلناهم على العالمين) أى فى زمانهم (وآتيناهم بينات من الأمر) أى حججا وبراهين وأدلة قاطعات فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة وإنما كان ذلك بغيا منهم على بعضهم بعضا (إن ربك) يا محمد (يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى سيفصل بينهم بحكمه العدل وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم ولهذا قال جل وعلا (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) أى اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين وقال جل جلاله هنا (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لى بغوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض) أى وماذا تغنى عنهم ولا يتهم بعضهم بعضا فانهم لا يزيدونهم إلا خسارا ودمارا وهلاكا (والله ولى المتقين) وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، ثم قال عز وجل (هذا بصائر للناس) يعنى القرآن (وهدى رخصة لقوم يؤمنون) يخرجونهم من الظلمات إلى النور

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً بِحِثِّهِمْ وَأَمْ يَخْتَصِمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾

يقول تعالى لا يستوى المؤمنون والكافرون كما قال عز وجل (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون) وقال تبارك وتعالى (أم حسب الذين اجترحوا السيئات) أى عملوها وكسبوها (أن نجعلهم كالدّين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟) أى نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة (سواء ما يحكمون) أى سواء ما ظنوا بنا وبعدلنا أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة وفى هذه الدار قال الحافظ أبو يعلى حدثنا مؤمل بن إهاب حدثنا بكير بن عثمان التنوخى حدثنا الوضين بن عطاء عن يزيد بن مرثد الباجى عن أبي ذر رضى الله عنه قال ؟ إن الله تعالى بنى دينه على أربعة أركان فمن صبر عليهن ولم يعمل بهن لقي الله من الفاسقين ، قيل وما هن يا أبا ذر ؟ قال يسلم حلال الله وحرام الله ، وأمر الله الله ونهى الله الله لا يؤتمن عليهن إلا الله ، قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « كما أنه لا يحتج من الشوك العنب كذلك لا ينال الفجار منازل الأبرار » هذا حديث غريب من هذا الوجه وقد ذكر محمد بن إسحق فى كتاب السيرة أنهم وجدوا حجرا بركة فى أس الكعبة مكتوب عليه : تعملون السيئات وترجون الحسنات أجل كما يحصى من الشوك العنب . وروى الطبرانى من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي الضحى عن مسروق أن تيمم الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالدّين آمنوا و عملوا الصالحات) ولهذا قال تعالى (سواء ما يحكمون) وقال عز وجل (وخلق الله السموات والأرض بالحق) أى بالعدل (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون)

ثم قال جل وعلا (أفرايت من اتخذ إلهه هواه) أى إنما ياتمر بهواه ، فمهما رآه حسنا فعله ومهما رآه قبيحا تركه وهذا قد يستدل به على المعتزلة فى قولهم بالتحيص والعقليين وعن مالك فيما روى عنه من التفسير لا يهوى شيئا إلا عبده وقوله (وأضله الله على علم) يحتمل قولين ﴿ أحدها ﴾ وأضله الله لعله أنه يستحق ذلك ﴿ والآخر ﴾ وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه والثانى يستلزم الأول ولا ينعكس (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) أى فلا يسمع ما ينفعه ولا يعى شيئا يهتدى به ولا يرى حجة يستضيء بها . ولهذا قال تعالى (فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) كقوله تعالى (من يضل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون)

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْبِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَأَنْتُمْ بِنَاءٌ بَنَيْنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى انكار المعاد (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا) أى ما ثم إلا هذه الدار يموت قوم ويعيش آخرون وما ثم معاد ولا قيامة وهذا يقوله مشركوا العرب للنكرين المعاد وتقوله الفلاسفة الإلهيون منهم وهم ينكرون البداءة والرجعة وتقوله الفلاسفة الدهرية الدربة النكرون للصانع المعتدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى فكابروا العقول وكذبوا النقول ولهذا قالوا (وما يهلكنا الدهر) قال الله تعالى (وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) أى يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذى أخرجه صاحبنا الصحيح وأبو داود والنسائى من رواية سفیان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « يقول تعالى يؤذني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، يسدى الأمر أقلب ليله ونهاره » وفي رواية « لا تسبوا الدهر فان الله تعالى هو الدهر » وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدا فقال : حدثنا أبو كريب حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « كان أهل الجاهلية يقولون إنما يهلكنا الليل والنهار وهو الذي يهلكنا يميتنا ويحيينا فقال الله تعالى في كتابه (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) ويسبون الدهر فقال الله عز وجل : يؤذني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، يسدى الأمر أقلب الليل والنهار » وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن شريح بن النعمان عن ابن عيينة مثله ، ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر يسدى الليل والنهار » وأخرجه صاحبنا الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى استقرضت عبدي فلم يعطني وسبني عبدي ، يقول وادهره وأنا الدهر » قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا يا خيبة الدهر فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه وإنما فاعلها هو الله تعالى فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك في الحقيقة فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال ، هذا أحسن ما قيل في تفسيره وهو المراد والله أعلم ، وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدم الدهر من الأسماء الحسنى أخذوا من هذا الحديث وقوله تعالى (وإذا تلى عليهم آياتنا بينات) أى إذا استدلل عليهم وبين لهم الحق وأن الله تعالى قادر على إعادة الأبدان بعد فناءها وتفرقها (ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتنوا بآبائنا إن كنتم صادقين) أى أحيوهم إن كان ماتقولونه حقا قال الله تعالى (قل الله يحييكم ثم يميتكم) أى كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم إلى الوجود (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ؟) أى الذى قدر على البداة قادر على الاعادة بطريق الأولى والأخرى (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) أى إنما يجمعكم إلى يوم القيامة لا يبعدكم في الدنيا حتى تقولوا (اتنوا بآبائنا إن كنتم صادقين) (يوم يجمعكم ليوم الجمع - لأى يوم اجلت - ليوم الفصل - وما تؤخره إلا لأجل معدود) وقال ههنا (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) أى لا شك فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى فلهذا ينكرون للعاد ويستبعدون قيام الأجساد قال الله تعالى (إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا) أى يرون وقوعه بعيدا والمؤمنون يرون ذلك سهلا قريبا

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِذُ يُخَسِّرُ الْبَاطِلُونَ * وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة ولهذا قال عز وجل (ويوم تقوم الساعة) أى يوم القيامة (يخسر الباطلون) وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات

وقال ابن أبي حاتم قدم سفيان الثوري المدينة فسمع العافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس فقال له يا شيخ أما علمت أن الله تعالى يوما يخسر فيه الباطلون ؟ قال فما زالت تعرف في العافري حتى لحق بالله تعالى ، ذكره ابن أبي حاتم ثم قال تعالى (وترى كل أمة جائية) أى على ركبها من الشدة والعظمة ويقال إن هذا إذا جرى بهم فأنها تفرز فرقة لا يبقى أحد إلا جثا لركبته حتى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ويقول نفسى نفسى نفسى لأسألك اليوم إلا نفسى

وحق إن عيسى عليه الصلاة والسلام ليقول لأسألك اليوم إلا نفسي لأسألك مريم التي ولدتنى . قال مجاهد وكعب الأحماس والحسن البصرى (كل أمة جاثية) أى على الركب وقال عكرمة جاثية متميزة على ناحيتها وليس على الركب والأول أولى . قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد القري حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن عبد الله بن باباه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « كأتى أراكم جاثين بالكوم دون جهنم » . وقال إسماعيل بن أبى رافع الدنى عن محمد بن كعب عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعا فى حديث الصور فيتميز الناس وتجنو الأمم وهى التي يقول الله تعالى (وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها) وهذا فيه جميع بين القولين ولا منافاة والله أعلم ، وقوله عز وجل (كل أمة تدعى إلى كتابها) يعنى كتاب أعمالها كقوله جل جلاله (ووضع الكتاب وجىء بالبين والشهداء) ولهذا قال سبحانه وتعالى (اليوم تجزون ما كنتم تعملون) أى تجازون بأعمالكم خيرها وشرها كقوله عز وجل (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره) ولهذا قال جل جلالته (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق) أى يستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص كقوله جل جلاله (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا) وقوله عز وجل (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) أى إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء فيقالون للملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيدى الكتبة بما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى كل ليلة قدر مما كتبه الله فى القدر على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا ثم قرأ (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون)

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَقِينَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنفَسُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ * ذَٰلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا لَهُمْ يُسَلِّتُونَ * فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرُ يَآءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة فقال تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة وهى الخالصة الموافقة للشرع (فيدخلهم ربهم فى رحمته) وهى الجنة كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى قال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشياء (ذلك هو الفوز البين) أى البين الواضح . ثم قال تعالى (وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم) أى يقال لهم ذلك تقريرا وتوبيخا أما قرئت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم عن اتباعها وأعرضتم عن معاصيها وكنتم قوما مجرمين فى أفعالكم مع ما شتمت عليه قلوبكم من التكذيب (وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها) أى إذا قال لكم المؤمنون ذلك (قلتم ما ندري ما الساعة) أى لانعرفها (إن نظن إلا ظنا) أى إن توهم وقوعها إلا توهمها أى مرجوحا ولهذا قال (وما نحن بمستقيين) أى

بمحققين قال الله تعالى (ويدا لهم سيئات ما عملوا) أى وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة (وحق بهم) أى أحاط بهم (ما كانوا به يستهزئون) أى من العذب والنكال (وقيل اليوم ننساكم) أى نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم (كما نسيتكم لقاء يومكم هذا) أى فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) . وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة « ألم أزوجهك ألم أكرمك ؟ ألم أسخرلك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى يارب فيقول أفظننت أنك ملاقى ؟ فيقول لا فيقول الله تعالى فاليوم أنساك كما نسيتنى » قال الله تعالى (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) أى إنما جازيناكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا تسخرون وتستهزئون بها (وغرتكم الحياة الدنيا) أى خدعتكم فاطمأنتم إليها فأصبحتم من الخاسرين ولهذا قال عز وجل فاليوم لا يخرجون منها) أى من النار (ولا هم يستعتبون) أى لا يطلب منهم العتي بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب . ثم لما ذكر تعالى حكمه فى المؤمنين والكافرين (قال فله الحمد رب السموات ورب الأرض) أى المالك لهما وما فيهما ولهذا قال (رب العالمين) ثم قال جل وعلا (وله الكبرياء فى السموات والأرض) قال مجاهد يعنى السلطان أى هو العظيم المجد الذى كل شيء خاضع لديه فقير إليه . وقد ورد فى الحديث الصحيح « يقول الله تعالى العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحدا منهما أسكنته نارى » ورواه مسلم من حديث الأعمش عن أبى إسحاق عن الأغر أبى مسلم عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ بنحوه ، وقوله تعالى (وهو العزيز) أى الذى لا يغالب ولا يمانع (الحكيم) فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره تعالى وتقدس لا إله إلا هو . آخر تفسير سورة الجاثية والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

(تفسير سورة الاحقاف وهى مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿ حم * نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين ووصف نفسه بالعزة التى لاترام ، والحكمة فى الأقوال والأفعال ثم قال تعالى (ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى لا على وجه العبث والباطل (وأجل مسمى) أى إلى مدة معينة مضروبه لازيد ولا تنقص ، وقوله تعالى (والذين كفروا عما أُنذروا معرضون) أى لا هون عما يراى بهم وقد أنزل الله تعالى إليهم كتابا وأرسل إليهم رسولا وهم معرضون عن ذلك كله أى وسيعلمون غب ذلك . ثم قال تعالى (قل) أى لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره (أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ) أى أرشدوني إلى السكان الذى استقلوا بخلقهم من الأرض (أم لهم شرك فى السموات ؟) أى ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض وما يملكون من قطمير إن الملك والتصرف كله إلا لله عز وجل فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به ؟ من أرشدكم إلى هذا ؟ من دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال (اتنوني بكتاب من قبل هذا) أى هاتوا كتابا من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام (أو أثارة من علم)

أى دليل بين على هذا المسلك الذى سلكتموه (إن كنتم صادقين) أى لا دليل لكم لا تقليا ولا عقليا على ذلك ولهذا قرأ آخرون أو أثرة من علم أى أو علم صحيح تؤثرونه عن أحد ممن قبلكم كما قال مجاهد فى قوله تعالى (أو أثرة من علم) أو أحد يأنر علما ، وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما أو بينة من الأمر . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن سفيان عن صفوان بن سليم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن ابن عباس رضى الله عنهما قال سفيان لا أعلم إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم أو أثرة من علم قال الخط وقال أبو بكر بن عياش أو بقية من علم وقال الحسن البصرى أو أثرة شئ يستخرجه فيثريه وقال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وأبو بكر بن عياش أيضا أو أثرة من علم يعنى الخط وقال قتادة أو أثرة من علم خاصة من علم وكل هذه الأقوال متقاربة وهى راجعة إلى ما قلناه وهو اختيار ابن جرير رحمه الله وأكرمه وأحسن مثواه . وقوله تبارك وتعالى (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون) أى لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناما ويطلب منها ما لا تستطيع إلى يوم القيامة وهى غافلة عما يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطلش لأنها جماد حجارة صم ؛ وقوله تبارك وتعالى (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) كقوله عز وجل (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) أى سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم وقال الخليل عليه الصلاة والسلام (إنما اتخذتم من دون أوثاننا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين)

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول عز وجل مخبرا عن المشركين فى كفرهم وعنادهم إنهم إذا تلى عليهم آيات الله بينات أى فى حال بيانها ووضوحها وجلالها يقولون (هذا سحر مبين) أى سحر واضح وقد كذبوا وافتروا وضلوا وكفروا (أم يقولون افتراه) يعنون محمدا ﷺ . قال الله عز وجل (قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا) أى لو كذبت عليه وزعمت أنه أرسلنى وليس كذلك لعاقبى أشد العقوبة ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أتم ولا غيركم أن ييجري منه كقوله تبارك وتعالى (قل إني لن يعبرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغا من الله ورسالاته) وقال تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فإمنكم من أددعنه حاجزين) ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا (قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم) هذا تهديد لهم ووعدا كيد وترهيب شديد ، وقوله جل وعلا (وهو الغفور الرحيم) ترغيب لهم إلى التوبة والانابة أى ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفانكم وغفر ورحم وهذه الآية كقوله عز وجل فى سورة الفرقان (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فىهى تلى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السرى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما) . وقوله تبارك وتعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل) أى لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلى فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستكرونى وتستبعدون بعثى إليكم فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلى جميع الأنبياء إلى الأمم قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وقاتة (قل ما كنت بدعا من الرسل) ما أنا بأول رسول ، ولم يحك ابن جرير ولا ابن أبى حاتم غير ذلك

وقوله تعالى (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية نزل بعدها (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) وهكذا قال عكرمة والحسن وقتادة إنها منسوخة بقوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) قالوا ولما نزلت هذه الآية قال رجل من المسلمين هذا قد بين الله تعالى ما هو فاعل بك يا رسول الله فما هو فاعل بنا ؟ فأنزل الله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار) هكذا قال والذي هو ثابت في الصحيح أن المؤمنين قالوا هنيئا لك يا رسول الله فما لنا ؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية وقال الضحاك (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) أي ما أدري بماذا أومر وبماذا أنهي بعد هذا ؟ وقال أبو بكر الهذلي عن الحسن البصري في قوله تعالى (وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) قال أما في الآخرة فمعاذ الله وقد علم أنه في الجنة ولكن قال لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ولا شك أن هذا هو اللائق به عليه السلام فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا يؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم ، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي عن ابن شهاب عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم العلاء وهي امرأة من نسائهم أخبرته وكانت بايعت رسول الله عليه السلام قالت طار لهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله عنه فاشتكى عثمان رضي الله عنه عندنا فمرضناه حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه فدخل علينا رسول الله عليه السلام فقلت رحمة الله عليك أبا السائب شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل فقال رسول الله عليه السلام « وما يدريك أن الله تعالى أكرمك ؟ » فقلت لا أدري بأبي أنت وأمي فقال رسول الله عليه السلام « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي » قالت : فقلت والله لا أزكي أحدا بعده أبدا وأحزني ذلك فمنت فرايت لعثمان رضي الله عنه عينا تجري فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك فقال رسول الله عليه السلام « ذاك عمله » فقد انقرد باخراجه البخاري دون مسلم ، وفي لفظ له « ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به » وهذا أشبه أن يكون هو المحفوظ بدليل قولها فأحزني ذلك وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والعميصاء وبلال وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام والله جابر والقراء السبعين الذين قتلوا بيثر معونة وزيد بن حارثة وجعفر وابن رواحة وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم . وقوله (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) أي إنما أتبع ما ينزل الله على من الوحي (وما أنا إلا نذير مبين) أي بين النذارة أمرى ظاهر لكل ذي لب وعقل والله أعلم

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَأُتِكَبَرْتُمْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ * وَ مِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين الكافرين بالقرآن (أرايتم إن كان) هذا القرآن (من عند الله وكفرت به)

أى ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذى جئتكم به قد أنزله على لأبلغكموه وقد كفرتم به وكذبتموه (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله) أى وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة للنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبلى بشرت به وأخبرت بمثل ما أخبر هذا القرآن به . وقوله عز وجل (فأمن) أى هذا الذى شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته (واستكبرتم) أتم عن اتباعه ، وقال مسروق فأمن هذا الشاهد بنبيه وكتابه وكفرتم أتم بنبيكم وكتابكم (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) وهذا الشاهد اسم جلس يعم عبدالله بن سلام رضى الله عنه وغيره فإن هذه الآية مكية نزلت قبل إسلام عبدالله بن سلام رضى الله عنه وهذه كقوله تبارك وتعالى (وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) وقال (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) قال مسروق والشعبي ليس بعبد الله بن سلام هذه الآية مكية وإسلام عبدالله بن سلام رضى الله عنه كان بالمدينة . رواه عنهما ابن جرير وابن أبي حاتم واختاره ابن جرير . وقال مالك عن أبي النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام رضى الله عنه قال وفيه نزلت (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله) رواه البخارى ومسلم والنسائى من حديث مالك به ، وكذا قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ويوسف بن عبد الله بن سلام وهلال بن يساف والسدى والثورى ومالك بن أنس وابن زيد أنهم كلهم قالوا : إنه عبد الله بن سلام . وقوله تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه) أى قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيرا ما سبقنا هؤلاء اليه يعنون بلالا وعمارا وصهيبا وخبابا رضى الله عنهم وأشباهم وأضرابهم من المستضعفين والعييد والإمام وماذا إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشا وأخطؤا خطأ بينا كما قال تبارك وتعالى (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا) أى يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا ولهذا قالوا (لو كان خيرا ما سبقونا إليه) وأما أهل السنة والجماعة فيقولون فى كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رضى الله عنهم هو بدعة لأنه لو كان خيرا لسبقونا اليه لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا بها . وقوله تعالى (وإذا لم يهتدوا به) أى بالقرآن (فسيقولون هذا إفك قديم) أى كذب قديم أى مأثور عن الناس الأقدمين فينتهضون القرآن وأهله وهذا هو الكبر الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بطل الحق وغمط الناس » ثم قال تعالى (ومن قبله كتاب موسى) وهو التوراة (إماما ورحمة وهذا كتاب) يعنى القرآن (مصدق) أى لما قبله من الكتب (لسانا عربيا) أى فصيحاً بينا واضحا (لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) أى مشتمل على النذارة للكافرين والبطارة للمؤمنين وقوله تعالى (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) تقدم تفسيرها فى سورة حم السجدة ، وقوله تعالى (فلا خوف عليهم) أى فيما يستقبلون (ولا هم يحزنون) على ما خلفوا (أولئك أصحاب الجنة الذين فيها جزاء بما كانوا يعملون) أى الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم وسبوغها عليهم والله أعلم

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِإِحْسَانٍ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ)

لما ذكر تعالى فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة اليه عطف بالوصية بالوالدين كما هو

مقرون في غير ما آية من القرآن كقوله عز وجل (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وقوله جل جلاله (أن أشكرلى ولوالديك إلى المير) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وقال عز وجل ههنا (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) أى أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما وقال أبو داود الطيالسى حدثنا شعبة أخبرنى ممالك بن حرب قال سمعت مصعب بن سعد يحدث عن سعد رضى الله عنه قال: قالت أم سعد لسعد أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين فلا آكل طعاما ولا أشرب شرابا حتى تكفر بالله تعالى فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاهها بالعصا ونزلت هذه الآية (ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا) الآية ورواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث شعبة بإسناد نحوه وأطول منه (حملته أمه كرها) أى قاست بسببه في حال حملها مشقة وتعبا من وحم وغشيان وتقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة (ووضعت كرها) أى بمشقة أيضا من الطلق وشدة (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) . وقد استدلل على رضى الله عنه بهذه الآية مع التى في لقمان (وفصاله في عامين) وقوله تبارك وتعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم قال محمد بن إسحاق بن يسار عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن معمر بن عبد الله الجهمى قال تزوج رجل منا امرأة من جبهة فولدت له تمام ستة أشهر فانطلق زوجها إلى عثمان رضى الله عنه فذكر ذلك له فبعث إليها فلما قامت لتلبس ثيابها بكى أختها فقالت وما يبكيك فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط فيقضى الله سبحانه وتعالى في ماشاء فلما أتى بها عثمان رضى الله عنه أمر برجمها فبلغ ذلك عليا رضى الله عنه فأتاه فقال له ما تصنع . قال ولدت تماما لستة أشهر وهل يكون ذلك . فقال له على رضى الله عنه أما تقرأ القرآن . قال بلى قال أما سمعت الله عز وجل يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال (حولين كاملين) فلم نجد بقى إلا ستة أشهر قال: فقال عثمان رضى الله عنه والله ما فطنت بهذا على المرأة فوجدوها قد فرغ منها قال : فقال معمر فوالله ما الغراب بالغراب ولا الببغاء بالببغاء وأشبه منه بأبيه فلما رآه أبوه قال ابني والله لا أشك فيه قال وابتلاه الله تعالى بهذه القرحة بوجهه الآكلة فما زالت تأكله حتى مات رواء ابن أبي حاتم وقد أوردناه من وجه آخر عند قوله عز وجل (فأنا أول العابدين) ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا فروة بن أبي الغراء حدثنا على بن مسهر عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إذا وضعت المرأة لتسعة أشهر كفاه من الرضاع أحد وعشرون شهرا وإذا وضعت لسبعة أشهر كفاه من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا وإذا وضعت لستة أشهر فحولين كاملين لأن الله تعالى يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى إذا بلغ أشده) أى قوى وشب وارتجل (وبلغ أربعين سنة) أى تنهى عقله وكل فهمه وحلمه ويقال إنه لا يتغير غالبا عما يكون عليه ابن الأربعين قال أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن القاسم بن عبد الرحمن قال: قلت لسروق متى يؤخذ الرجل بذنوبه قال إذا بلغت الأربعين فخذ حذرَكَ وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو عبد الله القواريرى حدثنا عروة بن قيس الأزدي وكان قد بلغ مائة سنة حدثنا أبو الحسن الكوفي عمر بن أوس قال : قال محمد بن عمرو بن عثمان عن عثمان رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال « العبد المسلم إذا بلغ أربعين سنة خفف الله تعالى حسابه وإذا بلغ ستين سنة رزقه الله تعالى الانابة إليه وإذا بلغ سبعين سنة أحبه أهل السماء وإذا بلغ ثمانين سنة ثبت الله تعالى حسناته ومحا سيئاته وإذا بلغ تسعين سنة غفر الله ما تقدم ذنبه وما تأخر وشفعه الله تعالى في أهل بيته وكتب في السماء أسير الله في أرضه » وقد روى هذا من غير هذا الوجه وهو في مسند الإمام أحمد وقد قال الحجاج بن عبد الله الحسكى أحد أمراء بني أمية بدمشق تركت المعاصي والدنوب أربعين سنة حياء من الناس ثم تركتها حياء من الله عز وجل وما أحسن قول الشاعر

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعده

(قال رب أوزعنى) أى ألهمنى (أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ولى والذى وأن أعمل صالحا ترضاه) أى في المستقبل (وأصلح لى في ذريقى) أى نسلى وعقبى (إني ثبت إليك وإني من المسلمين) وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين

أن يحمد التوبة والانابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها وقد روى أبو داود في سننه عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم أن يقولوا في التشهد « اللهم ألف بين قلوبنا وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أعمارنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك قابليها وأتممها علينا » قال الله عز وجل (أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة) أى هؤلاء للتصون بما ذكرنا التائبون إلى الله المنيون إليه المستدركون مافات بالتوبة والاستغفارهم الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل وتتقبل منهم اليسير من العمل (في أصحاب الجنة) أى هم في جملة أصحاب الجنة وهذا حكمهم عند الله كما وعد الله عز وجل من تاب إليه وأناب ، ولهذا قال تعالى (وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) قال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا العتمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن النضر بن جابر بن زيد عن ابن عباس رضى الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح الأمين عليه الصلاة والسلام قال « يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فيقتص بعضها ببعض فإن بقيت حسنة وسع الله تعالى له في الجنة » قال فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا قال : قلت فإن ذهبت الحسنة قال (أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن محمد بن عبد الأعلى الصنعاني عن العتمر بن سليمان بإسناده مثله وزاد عن الروح الأمين . قال : قال الرب جل جلاله يؤتى بحسنات العبد وسيئاته فذكره ، وهو حديث غريب وإسناده جيد لا بأس به :

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سليمان بن معبد حدثنا عمرو بن عاصم السكلائي حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر جعفر بن أبي وحشية عن أبي وحشية عن يوسف بن سعد عن محمد بن حاطب قال ونزل في دارى حيث ظهر على رضى الله عنه على أهل البصرة فقال لي يوما لقد شهدت أمير المؤمنين عليا رضى الله عنه وعنده عمار ومصصة والاشتر ومحمد ابن أبي بكر رضى الله عنهم فذكروا عثمان رضى الله عنه فقالوا منه فكان على رضى الله عنه على السرير ومعه عود في يده فقال قائل منهم إن عندكم من يفصل بينكم فسألوه فقال على رضى الله عنه كان عثمان رضى الله عنه من الذين قال الله تعالى (أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) قال والله عثمان وأصحاب عثمان رضى الله عنهم قالها ثلاثا قال يوسف فقلت لمحمد بن حاطب آله سمعت هذا من على رضى الله عنه ؟ قال آله سمعت هذا من على رضى الله عنه

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ أَنْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفْهِيَانِ اللَّهَ وَيَلُكَّ آمِنِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلُوا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَيْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما ومالهم عنده من الفوز والنجاة عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال (والذى قال لولديه أف لكما) وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما فقله ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من

خيار أهل زمانه وروى العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت في ابن لأبي بكر الصديق رضى الله عنهما وفي صحة هذا نظر والله تعالى أعلم . وقال ابن جريج عن مجاهد نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضى الله عنهما قاله ابن جريج ، وقال آخرون : عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما ، وهذا أيضا قول السدى وإنما هذا عام في كل من علق والديه وكذب بالحق فقال لوالديه أف لكما عقمهما وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن العلاء حدثنا يحيى ابن أبي زائدة عن إسماعيل بن أبي خاله أخبرني عبد الله بن اللدين قال إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال إن الله تعالى قد أرى أمير المؤمنين في يزيد رأيا حسنا وإن يستخلفه فقد استخلف أبو بكر عمر رضى الله عنهما فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما أهرقلية ؟ إن أبا بكر رضى الله عنه والله ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ولا جعلها معاوية في ولده إلا رحمة وكرامة لولده فقال مروان أأنت الذى قال لوالديه أف لكما ؟ فقال عبد الرحمن رضى الله عنه أأنت ابن اللعين الذى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أباك قال ومعهما عائشة رضى الله عنها فقالت يا مروان أنت القاتل لعبد الرحمن رضى الله عنه كذا وكذا كذبت ما فيه نزلت ولكن نزلت في فلان بن فلان ثم اتعجب مروان ثم نزل عن المنبر حتى أتى باب حجرتها فجعل يكلمها حتى انصرف وقد رواه البخارى بإسناد آخر ولفظ آخر فقال حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن يوسف بن ماهك قال كان مروان على الحجاز استعمله معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنهما فخطب وجعل يذكر يزيد بن معاوية لكي يبايع له بعد أبيه فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما شيئا فقال خذوه فدخل بيت عائشة رضى الله عنها فلم يقدروا عليه فقال مروان إن هذا الذى أنزل فيه (والذى قال لوالديه أف لكما أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى) فقالت عائشة رضى الله عنها من وراء الحجاب : ما أنزل الله عز وجل فينا شيئا من القرآن إلا أن الله تعالى أنزل عذرى

(طريق أخرى) قال النسائي حدثنا علي بن الحسين حدثنا أمية بن خالد حدثنا شعبة عن محمد بن زياد قال لما بايع معاوية رضى الله عنه لابنه قال مروان سنة أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فقال عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما سنة هرقل وقيصر فقال مروان هذا الذى أنزل الله تعالى فيه (والذى قال لوالديه أف لكما) الآية فبلغ ذلك عائشة رضى الله عنها فقالت كذب مروان والله ما هو به ولو شئت أن أسمي الذى أنزلت فيه لسميته ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أبا مروان ومروان في صلبه فمروان فضض من لعنة الله ، وقوله (أتعداني أن أخرج ؟) أى أبعث (وقد خلت القرون من قبلى) أى قد مضى الناس فلم يرجع منهم خبر (وهما يستغيثان) الله أى يسألان الله فيه أن يهديه ويقولان لولدهما (ويليك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين) . قال الله تعالى (أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين) أى دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهلهم يوم القيامة وقوله (أولئك) بعد قوله (والذى قال) دليل على ما ذكرناه من أنه جنس يعم كل من كان كذلك وقال الحسن وقتادة هو الكافر الفاجر العاقر لوالديه المكذب بالبعث وقد روى الحافظ ابن عساکر في ترجمة سهل بن داود من طريق همام بن عمار حدثنا حماد بن عبد الرحمن حدثنا خالد الزبرقان العليمى عن سليم بن حبيب عن أبي أمامة الباهلى رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أربعة لعنهم الله تعالى من فوق عرشه وأمنت عليهم الملائكة مضل للساكنين » قال خالد الذى يهوى يده إلى الساكنين فيقول هلم أعطيك فإذا جاءه قال ليس معى شيء « والذى يقول للماعون ابن (١) وليس بين يديه شيء والرجل يسأل عن دار القوم فيدلونه على غيرها والذى يضرب الوالدين حتى يستغيثا » غريب جدا . وقوله تبارك وتعالى (ولكل درجات مما عملوا) أى لكل عذاب بحسب عمله (وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون) أى لا يظلمهم مثقال ذرة فسا دونها قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : درجات النار تذهب سفلا ودرجات الجنة تذهب علوا . وقوله عز وجل (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) أى يقال لهم ذلك تقريبا وتوبيخا ، وقد (١) يياض بالأصل والحديث غير محرر فليراجع في كتاب الحافظ ابن عساکر .

تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن كثير من طيات المآكل والشارب وتنزه عنها ويقول
إني أخاف أن أكون كالدين قال الله لهم ونجهم وقرعهم (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) وقال أبو جابر
ليفقدن أقوام حسنة كانت لهم في الدنيا فيقال لهم (أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا) وقوله عز وجل (فاليوم
تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) فجوزوا من جنس عملهم
فكما تمتعوا أنفسهم واستكبروا عن اتباع الحق وتعاطوا الفسق والمعاصي جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون وهو
الاهانة والحزى والآلام الموجعة والحسرات المتتابعة والنازل في الدرجات المفضلة أجازنا الله سبحانه وتعالى
من ذلك كله.

﴿وَإِذْ كَرَّ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ قالوا أجهنمنا لتأفكنا عن الهتنا فأتينا بما تعدنا إن كنت
من الصادقين * قال إنما أعلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون * فلما رآوه
عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر
كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴿

يقول تعالى مسلياً لنبيه صلى الله عليه وسلم في تكذيب من كذبه من قومه (واذكر أخا عاد) وهو هود عليه
الصلاة والصلاة بعثه الله عز وجل إلى عاد الأولى وكانوا يسكنون الأحقاف جمع حقف وهو الجبل من الرمل قاله ابن زيد،
وقال عكرمة الأحقاف: الجبل والغار. وقال طي بن أبي طالب رضى الله عنه: الأحقاف واد بمحضرموت يدعى برهوت
تلقى فيه أرواح الكفار، وقال قتادة ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر بأرض يقال لها
الشحر قال ابن ماجه ﴿باب إذا دعا فليبدأ بنفسه﴾ حدثنا الحسين بن علي الخلال حدثنا أبي حدثنا زيد بن الحباب
حدثنا سفيان حدثنا طي بن إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم «يرحمنا الله وأخا عاد» وقوله تعالى (وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه) يعنى وقد أرسل
الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين كقوله عز وجل (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها)
وكقوله جل وعلا (فان أعرضوا قل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن
خلفهم ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى قال لهم هود ذلك فأجابه قومه قائلين (أجهنمنا لتأفكنا عن
آلهتنا؟) أى لتصدنا عن آلهتنا (فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم
وقوعه كقوله جل وعظمته (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها) (قال إنما العلم عند الله) أى الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين
لتعجيل العذاب فسيعل ذلك بكم وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به (ولكني أراكم قوماً تجهلون) أى لا تعلمون
ولا تفهمون. قال الله تعالى (فلما رآوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم) أى لما رأوا العذاب مستقبلاً اعتقدوا أنه عارض
مطر ففرحوا واستبشروا به وقد كانوا محجلين محتاجين إلى المطر قال الله تعالى (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب
أليم) أى هو العذاب الذى قلتم فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين (تدمر) أى تخرب (كل شيء) من بلادهم
بما من شأنه الخراب (بأمر ربها) أى بإذن الله لها في ذلك كقوله سبحانه وتعالى (ما تذر من شيء أمت عليه إلا
جعلته كالريم) أى كالشيء البالى ولهذا قال عز وجل (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) أى قد بادوا كلهم عن آخرهم
ولم يبق لهم بقية (كذلك نجزي القوم المجرمين) أى هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا وخالف أمرنا، وقد ورد حديث
في قصتهم وهو غريب جداً من غرائب الحديث وأفراده: قال الإمام أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو النضر سلام

ابن سليمان النحوي قال حدثنا عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن الحارث البكري قال خرجت أشكو العلاء بن الحضرمي إلى رسول الله ﷺ فمررت بالربذة فاذا عجوز من بني تميم منقطع بها فقالت لي يا عبد الله : إن لي إلى رسول الله ﷺ حاجة فهل أنت مبغى إليه ؟ قال فحملتها فأتيت بها المدينة فإذا المسجد غاص بأهله ، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال رضي الله عنه متقلداً السيف بين يدي رسول الله ﷺ فقلت ماشأن الناس ؟ قالوا يريد أن يبعث عمرو بن العاص رضي الله عنه وجهاً قال فجلست فدخل منزله أو قال رحله فاستأذنت عليه فأذن لي فدخلت فسلمت فقال ﷺ « هل كان بينكم وبين تميم شيء ؟ » قلت نعم وكانت لنا الدائرة عليهم ومررت بعجوز من بني تميم منقطع بها فسألتني أن أحملها إليك فها هي بالباب فأذن لها فدخلت فقلت يا رسول الله إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً فجعل الدهناء فحميت العجوز واستوفزت وقالت يا رسول الله فإني أين يضطر مضطرك ؟ قال قلت إن مثلي ما قال الأول : معزى حملت ختفها ؛ حملت هذه ولا أشعر أنها كانت لي خصماً أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد قال هي « وما وافد عاد ؟ » وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه قلت : إن عاداً قحطوا فبعثوا وفداً لهم يقال له قيل فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر وتغنيه جاريثان يقال لهما الجرادتان فلما مضى الشهر خرج إلى جبال مهرة فقال اللهم إني لم أجىء إلى مريض فأداويه ولا إلى أسير فأفاديه اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيه فمرت به سحابات سود فنودي منها اختر فأومأ إلى سحابة منها سوداء فنودي منها خذها رماداً رمداً ، لا تبقى من عاد أحداً ، قال فما بلغني أنه أرسل عليهم من الريح إلا قدر ما يجري في خاتمي هذا حتى هلكوا ، قال أبو وائل وصدق وكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا لا تكن كوافد عاد . ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه كما تقدم في سورة الأعراف

وقال الإمام أحمد حدثنا هارون بن معروف أخبرنا ابن وهب أخبرنا عمرو أن أبا النضر حدثه عن سليمان بن يسار عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما رأيت رسول الله ﷺ مستجعماً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسم وقالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رى غياً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه قالت يا رسول الله إن الناس إذا رأوا القيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر وأراك إذا رأيت عرف في وجهك الكراهية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح وقد رأى قوم العذاب وقالوا هذا عارض ممطرنا » وأخرجاه من حديث ابن وهب « طريق أخرى » قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن التقديم ابن شريح عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى ناشئاً في أفق من آفاق السماء ترك عمله وإن كان في صلاته ثم يقول « اللهم إني أعوذ بك من شر ما فيه فان كشفه الله تعالى حمد الله عز وجل وإن أمطر قال « اللهم صيباً نافعاً » « طريق أخرى » قال مسلم في صحيحه حدثنا أبو بكر الطاهر أخبرنا ابن وهب قال سمعت ابن جريج يحدثنا عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال « اللهم إني أسألك خيراً وخيراً ما فيها وخيراً ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » قالت وإذا تحلبت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرى عنه فعرفت ذلك عائشة رضي الله عنها فسألته فقال رسول الله ﷺ « لعله يا عائشة كما قال قوم عاد (فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أو ديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) » وقد ذكرنا قصة هلاك قوم عاد في سورة الأعراف وهو دجماً أغنى عن إعادته ههنا والله تعالى الحمد والمنة . وقال الطبراني حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا إسماعيل بن زكريا الكوفي حدثنا أبو مالك ابن مسلم اللامي عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « ما فتح على عاد من الريح إلا مثل موضع الخاتم ثم أرسلت عليهم في البدو إلى الحضرم فلما رأها أهل الحضرم قالوا هذا عارض ممطرنا مستقبلاً أوديتنا وكان أهل البوادي فيها فألقى أهل البادية على أهل الحضرة حتى هلكوا - قال عنت على خزائنها حتى خرجت من خلال الأبواب والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقَرْيَةِ وَصَرَّفْنَا الْآيَةَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَىٰ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد وأعطيناهم منها ما لم نعطيكم مثله ولا قريبا منه (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى وأحاط بهم العذاب والنكال الذى كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه أى فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة وقوله تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) يعنى أهل مكة وقد أهلك الله الأمم الكاذبة بالرسول بما حولها كعاد وكانوا بالاحقاف بمحرمات عند اليمن وعمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام وكذلك سبأ وهم أهل اليمن ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضا وقوله عز وجل (وصرفنا الآيات) أى بيناها وأوضحناها (لعلهم يرجعون * فلولوا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أى فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم (بل ضلوا عنهم) أى بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم (وذلك إفكهم) أى كذبهم (وما كانوا يفترُونَ) أى وافترأهم في اتخاذهم إياهم آلهة وقد خابوا وخسروا في عبادتهم لها واعتمادهم عليها والله أعلم

﴿ وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ * قَالُوا يَقَوْمُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ أُلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَقَوْمُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَدَاعِيَ الْيَوْمِ إِلَيْهِ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَلَمْ يَجْعَلْ لَّكُمْ دُونِ اللَّهِ ذُنُوبًا كُفِّرَ عَنْكُمْ بِهَا وَيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجْزِيَكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِيبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثنا عمرو سمعت عكرمة عن الزبير (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) قال بنخله ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى العشاء الآخرة (كادوا يكونون عليه لبدا) قال سفيان : ألبد بعضهم على بعض كاللبد بضه على بعض تفرد به أحمد وسيأتي من رواية ابن جرير عن عكرمة عن ابن عباس أنهم سبعة من جن نصيبين وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو عوانة ح وقال الإمام الشير الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة : أخبرنا أبو الحسن على بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا إسماعيل القاضي أخبرنا مسدد حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه طامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا ما لكم ، فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتنون ما هذا الذى حال بينهم

وبين خبر السماء فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهمامة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم (قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا) وأنزل الله على نبيه ﷺ (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) وإنما أوحى إليه قول الجن رواه البخاري عن مسدد بنحوه ، وأخرجه مسلم عن شيان بن فروخ عن أبي عوانة به ، ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من حديث أبي عوانة وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو أحمد حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كان الجن يستمعون الوحي فيسمعون الكلمة فيزيدون فيها عشرين فيكون ما سمعوا حقا وما زادوا باطلا وكانت النجوم لا يرمى بها قبل ذلك فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحدهم لا يأتي مقعده إلا رمى بشهاب يحرق ما أصاب فشكوا ذلك إلى إبليس فقال ما هذا إلا من أمر قد حدث فبث جنوده فاذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يصلي بين جبلي نخلة فأتوه فأخبروه فقال هذا الحدث الذي حدث في الأرض ، ورواه الترمذي والنسائي في كتابي التفسير من سننهما من حديث إسرائيل به ، وقال الترمذي حسن صحيح ، وهكذا رواه أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذا رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضا بمثل هذا السياق بطوله وهكذا قال الحسن البصري إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم وذكر محمد ابن إسحاق عن يزيد بن رومان عن محمد بن كعب القرظي قصة خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ودعائه إياهم إلى الله عز وجل وإبائهم عليه فذكر القصة بطولها وأورد ذلك الدعاء الحسن « اللهم إليك أشكوا ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلى صديق قريب ملكته أمري إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلى عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل لي سخطك ولك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » قال فلما انصرف عنهم بات بنخلة فقرأ تلك الليلة من القرآن فاستمعهم الجن من أهل نصيبين ، وهذا صحيح ولكن قوله إن الجن كان استماعهم تلك الليلة فيه نظر فإن الجن كان استماعهم في ابتداء الإيحاء كما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما المذكور وخروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف كان بعد موت عمه ، وذلك قبل الهجرة بسنة أو سنتين كما قرره ابن إسحاق وغيره والله أعلم وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة فلما سمعوه قالوا أنصتوا قال صه وكانوا تسعة أحدهم زوبة فأنزل الله عز وجل (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين - إلى - ضلال مبين) فهذا مع الأول من رواية ابن عباس رضي الله عنهما يقتضي أن رسول الله ﷺ لم يشعر بحضورهم في هذه المرة ، وإنما استمعوا قراءته ثم رجعوا إلى قومهم ثم بعد ذلك وفدوا إليه أرسلا قوما بعد قوم وفوجا بعد فوج كما ستأتي بذلك الأخبار في موضعها والآثار مما سنوردها هنا إن شاء الله تعالى وبه الثقة

فأما ما رواه البخاري ومسلم جميعا عن أبي قدامة عبيد الله بن سعيد السرخسي عن أبي أسامة حماد بن أسامة عن مسعر ابن كدام عن معن بن عبد الرحمن قال سمعت أبي يقول سألت مسروقا من آذن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة استمعوا القرآن ؟ فقال حدثني أبوك يعني ابن مسعود رضي الله عنه أنه آذنتهم شجرة فيحتمل أن يكون هذا في المرة الأولى ويكون إثباتا مقديما على نفي ابن عباس رضي الله عنهما ويحتمل أن يكون في الأولى ولكن لم يشعر بهم حال استماعهم حتى آذنتهم الشجرة أي أعلمته باجتماعهم والله أعلم ويحتمل أن يكون هذا في بعض المرات المتأخرات والله أعلم قال الحافظ البهقي وهذا الذي حكاه ابن عباس رضي الله عنهما إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمت حاله وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ودعاهم

إلى الله عز وجل كما رواه عبد الله بن مسعود رضی الله عنه

﴿ ذكر الرواية عنه بذلك ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا داود عن الشعبي وابن أبي زائدة أخبرنا داود عن الشعبي عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود رضی الله عنه هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال ما صحبه منا أحد ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما كان في وجه الصبح أوقال في السحر إذا نحن به يحيى من قبل حراء فقلنا يا رسول الله فذكروا له الذي كانوا فيه فقال « إنه أثنى داعى الجن فأتيهم فقرأت عليهم » قال فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال : قال الشعبي سألوه الزاد ، قال عامر سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بكرة أو روثه علف لدوابكم - قال - فلا تستنجوا بهما فانهما زاد إخوانكم من الجن » وهكذا رواه مسلم في صحيحه عن طي بن حجر عن إسماعيل بن علية به نحوه . وقال مسلم أيضا حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود وهو ابن أبي هند عن عامر قال سألت علقمة هل كان ابن مسعود رضی الله عنه شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : فقال علقمة أنا سألت ابن مسعود رضی الله عنه فقلت هل شهد أحد منكم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال لا ولكننا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب فقليل استطير ؟ اغتيل ؟ قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل . حراء قال فقلنا يا رسول الله فقدناك فطلبناك فلم نجدك فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فقال « أثنى داعى الجن فذهبت معهم فقرأت عليهم القرآن » قال فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بكرة أو روثه علف لدوابكم » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فلا تستنجوا بهما فانهما طعام إخوانكم » ﴿ طريق أخرى ﴾ عن ابن مسعود رضی الله عنه قال أبو جعفر بن جرير حدثني أحمد بن عبد الرحمن حدثني عمي حدثني يونس عن الزهري عن عبيد الله قال : إن عبد الله بن مسعود رضی الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بت الليلة أقرأ على الجن واقفا بالحجون » ﴿ طريق أخرى ﴾ فيها إنه كان معه ليلة الجن ، قال ابن جرير رحمه الله حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب حدثنا عمي عبد الله بن وهب أخبرني يونس عن ابن شهاب عن أبي عثمان ابن شبة الخزاعي وكان من أهل الشام قال : إن عبد الله بن مسعود رضی الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه وهو بمكة « من أحب منكم أن يحضر أمر الجن الليلة فليعمل » فلم يحضر منهم أحد غيري قال فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة خطى برجله خطا ثم أمرني أن أجلس فيه ثم انطلق حتى قام فافتتح القرآن فغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتى بقي منهم رهط ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر فانطلق فتبرز ثم أثنى فقال « ما فعل الرهط ؟ » قلت هم أولئك يا رسول الله فأعطاهم عظما وروثا زادا ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم . ورواه ابن جرير عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن أبي زرعة وهب بن راشد عن يونس بن يزيد الأيلي به

ورواه البيهقي في الدلائل من حديث عبد الله بن صالح كاتب الليث عن يونس به ، وقدرى إسحاق بن راهويه عن جرير عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن مسعود رضی الله عنه فذكر نحو ما تقدم . ورواه الحافظ أبو نعيم من طريق موسى بن عبيدة عن سعيد بن الحارث عن أبي العلى عن ابن مسعود رضی الله عنه فذكر نحوه أيضا . ﴿ طريق أخرى ﴾ قال أبو نعيم حدثنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثني أبي قال حدثنا عفان وعكرمة قالا : حدثنا معتمر قال : قال أبي حدثني أبو تميم عن عمرو ولعله قد يكون قال البكالى يحدثه عمرو عن عبد الله بن مسعود رضی الله عنه قال : استبغى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلقنا حتى أتينا مكان كذا وكذا فخط لي خطا فقال « كن بين ظهر هذه لا تخرج منها فانك إن خرجت منها هلك » فذكر الحديث بطوله وفيه غرابة شديدة

(طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا ابن ثور عن معمر عن يحيى بن أبي كثير عن عبد الله بن عمرو بن غيلان الثقفي أنه قال لابن مسعود رضي الله عنه حدثت أنك كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن قال أجل ، قال فكيف كان ؟ فذكر الحديث وذكر أن النبي ﷺ خط عليه خطأ وقال « لا تبرح منها » فذكر مثل العجاجة السوداء فغشيت رسول الله ﷺ فذعر ثلاث مرات حتى إذا كانت قريبا من الصبح أتاني النبي صلى الله عليه وسلم فقال « آمنت ! » فقلت لا والله ولقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى ممعتك تفرعهم بعصاك تقول « اجلسوا » فقال صلى الله عليه وسلم « لو خرجت لم آمن أن يتخطفك بعضهم » ثم قال صلى الله عليه وسلم « هل رأيت شيئا ؟ » قلت نعم رأيت رجلا سودا مستغفرين ثيابا بيضا^(١) قال صلى الله عليه وسلم « أولئك جن نصيبين سألوني المتاع - والمتاع الزاد - فمتعتهم بكل عظم حائل أو بكرة أو روثة - فقلت يا رسول الله وما يغني ذلك عنهم فقال رسول الله ﷺ - إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوه عليه لحمه يوم أكل . ولا روثا إلا وجدوا فيها حبا يوم أكلت فلا يستقين أحد منكم إذا خرج من الحلاء بعظم ولا بكرة ولا روثة » . (طريق أخرى) قال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي وأبو نصر بن قتادة قال أخبرنا أبو محمد يحيى بن منصور القاضي حدثنا أبو عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم البوشنجي حدثنا روح بن صلاح حدثنا موسى بن طلي بن رباح عن أبيه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال استتبعني رسول الله ﷺ فقال « إن فرا من الجن خمسة عشر بنى إخوة وبنى عم يأتوني الليلة أقرأ عليهم القرآن » فانطلقت معه إلى المكان الذي أراد فخط لي خطا وأجلسني فيه وقال لي « لا تخرج من هذا » فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السحر في يده عظم حائل ورثة وحمه فقال « إذا ذهبت إلى الحلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء » قال فلما أصبحت قلت لأعلن حيث كان رسول الله ﷺ قال فذهبت فرأيت موضع مبارك ستين بعيرا : (طريق أخرى) قال البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس الأصم حدثنا العباس بن محمد الدوري حدثنا عثمان بن عمر عن الشعر بن الريان عن أبي الجوزاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال انطلقت مع رسول الله ﷺ ليلة الجن حتى أتى الحجون فخط لي خطا ثم تقدم إليهم فازدحموا عليه فقال سيد لهم يقال له وزدان أنا أرحلهم عنك فقال إني لن يجرني من الله أحد (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن أبي فزارة العيسى حدثنا أبو زيد مولى عمرو بن حريث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لما كان ليلة الجن قال لي النبي ﷺ « أمعك ماء » ، قلت ليس معي ماء ولكن معي إداوة فيها نبيذ فقال النبي ﷺ « تمر طيبة وماء طهور » ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن زيد به (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحق أخبرنا ابن لهيعة عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال إنه كان مع رسول الله ﷺ ليلة الجن فقال رسول الله ﷺ « يا عبد الله أمعك ماء » قال معي نبيذ في إداوة قال صلى الله عليه وسلم « اصب على » فتوضأ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله شراب وطهور » فردد به أحسب من هذا الوجه وقد أورده الدارقطني من طريق آخر عن ابن مسعود رضي الله عنه به

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرني أبي عن ميناء عن عبد الله رضي الله عنه قال كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن فلما انصرف تنفس فقلت ما شأنك . قال « نعت إلى نفسي يا ابن مسعود » هكذا رأيته في السند مختصرا وقد رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة فقال حدثنا سليمان بن أحمد بن أيوب حدثنا إسحق بن إبراهيم وحدثنا أبو بكر بن مالك حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنا أبي قال حدثنا عبد الرزاق عن أبيه عن ميناء عن ابن مسعود قال كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة وفد الجن فتتنفس فقلت مالك يا رسول الله . قال نعت إلى نفسي يا ابن مسعود . قلت استخلف قال « من » قلت أبا بكر قال فسكت ثم مضى ساعة فتتنفس فقلت ما شأنك بأبي أنت وأمي يا رسول الله . قال « نعت إلى نفسي يا ابن مسعود » قلت استخلف قال « من . »

قلت عمر فسكت ثم مضى ساعة ثم تنفس فقلت ما شأنك . قال « نعت إلى نفسي » قلت فاستخلف قال ﷺ « من » قلت : طي بن أبي طالب رضى الله عنه قال ﷺ « أما والذى نفسى بيده لئن أطاعوه ليدخلن الجنة أجمعين أكتمين » وهو حديث غريب جدا وأحر به أن لا يكون محفوظا وبتقدير صحته فالظاهر أن هذا بعد وفودهم إليه بالمدينة طي ما سنورده إن شاء الله تعالى فإن في ذلك الوقت كان في آخر الأمر لما فتحت مكة ودخل الناس والجان أيضا في دين الله أفواجا نزلت سورة (إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) وهى السورة التى نعت نفسه الكريمة فيها إليه كما نص طي ذلك ابن عباس رضى الله عنهما وواقفه عمر بن الخطاب رضى الله عنه عليه وقد ورد في ذلك حديث سنورده إن شاء الله تعالى عند تفسيرها والله أعلم وقد رواه أبو نعيم أيضا عن الطبراني عن محمد بن عبد الله الحضرمي عن طي بن الحسين بن أبي بردة عن يحيى ابن سعيد الأسلمي عن حرب بن صبيح عن سعيد بن سلمة عن أبي مرة الصنعاني عن أبي عبد الله الجدلي عن ابن مسعود رضى الله عنه فذكره وذكر فيه قصة الاستخلاف وهذا إسناد غريب وسياق عجيب

(طريق أخرى) قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعيد حدثنا حماد بن سلمة عن طي بن زيد عن أبي رافع عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خط حوله فكان أحدهم مثل سواد النحل وقال « لا تبرح مكانك فأقرهم كتاب الله » فلما رأى الرعى قال كأنهم هؤلاء وقال النبي ﷺ « أمعك ماء » قلت لا قال « أمعك نبيذ . » قلت نعم فتوضأ به (طريق أخرى مرسل) قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبد الله الطبراني أخبرنا حفص بن عمر العدني حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة في قوله تعالى (وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن) قال هم اثنا عشر ألفا جاءوا من جزيرة الوصل فقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود رضى الله عنه « أنظرني حتى آتيك » وخط عليه خطا وقال « لا تبرح حتى آتيك » فلما خشيم ابن مسعود رضى الله عنه كاد أن يذهب فذكر قول رسول الله ﷺ فلم يبرح فقال له النبي ﷺ « لو ذهبت ما التقينا إلى يوم القيامة » .

(طريق أخرى مرسل أيضا) قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى (وإذا صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) قال ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى وأن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال « إني أمرت أن أقرأ على الجن فأيكم يتبعني . » فأطرقوا ثم استتبهم فأطرقوا ثم استتبهم الثالثة فقال رجل يا رسول الله إن ذالذو ندية فأتبعه ابن مسعود رضى الله عنه أخوه هذيل قال فدخل النبي صلى الله عليه وسلم شعبا يقال له شعب الحجون وخط عليه وخط طي ابن مسعود رضى الله عنه خطا ليثبت به ذلك قال فجعلت أهال وأرى أمثال النسور تمشي في دقوقها وممعت لقطا شديدا حتى خفت طي نبي الله صلى الله عليه وسلم ثم تلا القرآن فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت يا رسول الله ما اللفظ الذى ممعت قال صلى الله عليه وسلم « اختصموا في قتيل فقتل بينهم بالحق » رواه ابن جرير وابن أبي حاتم

فهذه الطرق كلها تدل على أنه ﷺ ذهب إلى الجن قصدا فتلا عليهم القرآن ودعاهم إلى الله عز وجل وشرع الله تعالى لهم على لسانه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوقت . وقد يحتمل أن أول مرة سمعوه يقرأ القرآن لم يشعر بهم كما قاله ابن عباس رضى الله عنهما . ثم بعد ذلك وفدوا إليه كما رواه ابن مسعود رضى الله عنه وأما ابن مسعود رضى الله عنه فإنه لم يكن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حال مخاطبته للجن ودعائه إياهم وإنما كان بعيدا منه ولم يخرج مع النبي صلى الله عليه وسلم أحد سواء ومع هذا لم يشهد حال مخاطبته ، هذه طريقة البيهقي . وقد يحتمل أن يكون أول مرة خرج إليهم لم يكن معه صلى الله عليه وسلم ابن مسعود رضى الله عنه ولا غيره كما هو ظاهر سياق الرواية الأولى من طريق الإمام أحمد وهى عند مسلم ، ثم بعد ذلك خرج معه ليلة أخرى والله أعلم كما روى ابن أبي حاتم في تفسيره (قل أوحى إلى) من حديث ابن جريج قال : قال عبد العزيز بن عمر . أما الجن الذين لقوه بنخلة فجن نينوى وأما الجن الذين لقوه بمكة فجن نصيبين وتأوله البيهقي على أنه يقول فبتنا بشر ليلة بات بها قوم طي غير ابن مسعود رضى الله عنه

ممن لم يعلم بخروجه عليه السلام إلى الجن وهو محتمل على بعد والله أعلم . وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عمرو ومحمد بن عبد الله الأديب حدثنا أبو بكر الإسماعيلي أخبرنا الحسن بن سفيان حدثني سويد بن سعيد حدثنا عمرو بن يحيى عن جده سعيد بن عمرو قال كان أبو هريرة رضي الله عنه يتبع رسول الله ﷺ بأدائه لوضوئه وحاجته فأدركه يوما فقال « من هذا ؟ » قال أنا أبو هريرة قال ﷺ « ائتني بأحجار أستنج بها ولا تأتني بعظم ولا روثة » فأتيته بأحجار في ثوبي فوضعتها إلى جنبه حتى إذا فرغ وقام اتبعته فقلت يا رسول الله ما بال العظم والروثة ؟ قال ﷺ « أتاني وفد جن نصيبين فسألوني الزاد فدعوت الله تعالى لهم أن لا يمروا بروثة ولا عظم إلا وجدوه طعاما » أخرجه البخاري في صحيحه عن موسى بن إسماعيل عن عمرو بن يحيى بإسناده قريبا منه فهذا يدل مع ما تقدم على أنهم وفدوا عليه بعد ذلك . وسند ذكر إن شاء الله تعالى ما يدل على تكرار ذلك .

وقد روى عن ابن عباس غير ما روى عنه أولا من وجه جيد فقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبد الحميد الحماني حدثنا النضر بن عربي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) الآية قال كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله ﷺ رسلا إلى قومهم . فهذا يدل على أنه قد روى القصةتين . وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا سويد بن عبد العزيز حدثنا رجل سباه عن ابن جريج عن مجاهد (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن) الآية قال كانوا سبعة نفر ثلاثة من أهل حران وأربعة من أهل نصيبين وكانت أسباؤهم حسي وحسي ومنسى وساصر وناصر والأردوبيان والأختم وذكر أبو حمزة الثمالي أن هذا الحي من الجن كان يقال لهم بنو الشيبان وكانوا أكثر الجن عددا وأشرفهم نسبا وهم كانوا عامة جنود إبليس

وقال سفيان الثوري عن عاصم عن زر عن ابن مسعود رضي الله عنه كانوا تسعة أحدهم زوبعة أثوهم من أصل نخلة وتقدم عنهم أنهم كانوا خمسة عشر ، وفي رواية أنهم كانوا على ستين راحلة وتقدم عنه أن اسم سيدهم وردان وقيل كانوا ثلثائة وتقدم عن عكرمة أنهم كانوا اثني عشر ألفا فلهذا الاختلاف دليل على تكرار وفادتهم عليه ﷺ ، وبما يدل على ذلك ما قاله البخاري في صحيحه حدثنا يحيى بن سليمان حدثني ابن وهب حدثني عمر هو ابن محمد قال إن سالما حدثه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط إني لأظنه هكذا إلا كان كما يظن ، بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس إذ مر به رجل جميل فقال لقد أخطأ ظني أو أن هذا على دينه في الجاهلية أو لقد كان كاهنهم ، على بالرجل ، فدعى له فقال له ذلك فقال ما رأيت كالיום استقبل به رجل مسلم قال فاني أعزم عليك إلا ما أخبرني قال كنت كاهنهم في الجاهلية قال فما أعجب ما جاءتك به جنيتك قال بينما أنا يوما في السوق جاءني أعرف فيها النزع فقالت :

ألم تر الجن وإبلاسا وبأسها من بعد إنكساها ولحوقها بالقلاص وإحلاسها

قال عمر رضي الله عنه صدق بيننا أنا نائم عند آلهم إذ جاء رجل بعجل فذبحه فصرخ به صارخ لم أسمع صارخا قط أشد صوتا منه يقول يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول لا إله إلا الله قال فوثب القوم فقلت لا أبرح حتى أعلم ما وراء هذا ثم نادى يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول لا إله إلا الله فقامت فأنشبتنا أن قيل هذا نبي . هذا سياق البخاري ، وقد رواه البيهقي من حديث ابن وهب بنحوه ثم قال وظاهر هذه الرواية يوم أن عمر رضي الله عنه بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذي ذبح وكذلك هو صريح في رواية ضعيفة عن عمر رضي الله عنه وسائر الروايات تدل على أن هذا الكاهن هو الذي أخبر بذلك عن رؤيته وسامعه والله أعلم ، وهذا الذي قاله البيهقي هو للتجسس وهذا الرجل هو سواد بن قارب ، وقد ذكرت هذا مستقصى في سيرة عمر رضي الله عنه فمن أراد فليأخذه من ثم وثقه الحمد والمنة . وقال البيهقي : حديث سواد بن قارب ويشبه أن يكون هذا هو الكاهن الذي لم يذكر اسمه في الحديث الصحيح أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب المفسر من أصل سماعه أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصغار الأصماني قراءة عليه حدثنا أبو جعفر أحمد بن موسى الحمار الكوفي بالكوفة حدثنا زياد بن يزيد بن بادويه ثنا أبو بكر القصري

حدثنا محمد بن نواس السكوفي حدثنا أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق عن البراء رضى الله عنه قال بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يخطب الناس على منبر رسول الله ﷺ إذ قال أيها الناس أفیکم سواد بن قارب ؟ قال فلم يجبه أحد تلك السنة فلما كانت السنة المقبلة قال : أيها الناس أفیکم سواد بن قارب ؟ قال فقلت يا أمير المؤمنين وما سواد بن قارب ؟ قال فقال له عمر رضى الله عنه إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئا عجيبا قال فبينما نحن كذلك إذ طلع سواد بن قارب قال : فقال له عمر رضى الله عنه ياسواد حدثنا بيده إسلامك كيف كان قال سواد رضى الله عنه فاني كنت نازلا بالهند وكان لى من الجن قال فبينما أنا ذات ليلة نائم إذ جاءنى فى منامى ذلك قال قم فافهم واعقل إن كنت تعقل قد بعث رسول من لؤى بن غالب ثم أنشأ يقول .

عجبت للجن وتحساسها وشدها العيس بأحلاسها تهوى إلى مكة تبغى الهدى
ما خير الجن كالحاسها فانهض إلى الصفوة من هاشم واسم بعينيك إلى رأسها

قال ثم أنبهى فأفرغنى وقال ياسواد بن قارب إن الله عز وجل بعث نبيا فانهض إليه تهتد وترشد فلما كان من الليلة الثانية أتانى فأنبهى ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلابها وشدها العيس بأقتابها تهوى إلى مكة تبغى الهدى
ليس قدامها كأذ نابها فانهض إلى الصفوة من هاشم واسم بعينيك إلى قابها

فلما كان فى الليلة الثالثة أتانى فأنبهى ثم قال :

عجبت للجن وتجارها وشدها العيس بأكوارها تهوى إلى مكة تبغى الهدى
ليس ذوو الشر كأخيارها فانهض إلى الصفوة من هاشم مامؤمنوا الجن ككفارها

قال : فلما سمعته تكرر ليلة بعد ليلة وقع فى قلبى حب الاسلام من أمر رسول الله ﷺ ماشاء الله قال فانطلقت إلى رحلى فشددته على راحلتى لما حلت تسعة ولا عقدت أخرى حتى أتيت رسول الله ﷺ فاذا هو بالمدينة يعنى مكة والناس عليه كعرف الفرس فلما رآنى النبى ﷺ قال « مرحبا بك ياسواد بن قارب قد علمنا ما جاء بك » قال : قلت يا رسول الله قد قلت شعرا فاسمعه منى قال ﷺ « قل ياسواد » فقلت :

أتانى ربي بعد ليل وهجعة ولم يك فيما قد بلوت بكاذب ثلاث ليال قوله كل ليلة
أتاك رسول من لؤى بن غالب فشمرت عن ساقى الازار ووسطت فى الدعلب الوجناء بين السباب
فأشهد أن الله لا رب غيره وأنت مأمون على كل غائب وأنت أدنى للرسلين وسيلة
الى الله يا ابن الأكرمين الأطايب فرنا بما يأتيك ياخير مرسل وإن كان فيما جاء شيب الدوايب

وكن لى شفيعا يوم لا ذو شفاعة سواك بمغن عن سواد بن قارب

قال فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه وقال لى « أفلحت ياسواد » فقال له عمر رضى الله عنه هل يأتيك ربك الآن ؟ فقال : منذ قرأت القرآن لم يأتنى ونعم العوض كتاب الله عز وجل من الجن . ثم أسنده البيهقى من وجهين آخرين . ومما يدل على وفادتهم إليه ﷺ بعد ما هاجر إلى المدينة الحديث الذى رواه الحافظ أبو نعيم فى كتاب دلائل النبوة حدثنا سلمان بن أحمد حدثنا محمد بن عبدة المصيصى حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع حدثنا معاوية ابن سلام عن زيد بن أسلم أنه سمع أبا سلام يقول حدثنى من حديث عمرو بن غيلان الثقفى قال أتيت عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فقلت له حدثت أنك كنت مع رسول الله ﷺ ليلة وفد الجن . قال أجل ، قلت حدثنى كيف كان شأنه ؟ فقال إن أهل الصفة أخذ كل رجل منهم رجل يعشيه وتركت فلم يأخذنى أحد منهم فربى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « من هذا ؟ » فقلت أنا ابن مسعود ، فقال ﷺ « ما أخذك أحد يعشيك ؟ » فقلت لا ، قال صلى الله عليه وسلم « فانطلق لعل أجد لك شيئا » قال فانطلقنا حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حجرة أم سلمة رضى الله عنها فتركنى قائما ودخل إلى أهله ثم خرجت الجارية فقالت يا ابن مسعود إن

رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجد ذلك عشاء فارجع إلى مضجعتك . قال فرجعت إلى المسجد فجمعت حصاء المسجد فتوسدته والتفتت بثوبي فلم ألبث إلا قليلا حتى جاءت الجارية فقالت أجبر رسول الله فاتبعها وأنا أرجو العشاء حتى إذا بلغت مقامى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عسيب من نخل فعرض به على صدرى فقال ﷺ « انطلق أنت معى حيث انطلقت » قلت ماشاء الله فأعادها على ثلاث مرات كل ذلك أقول ماشاء الله فانطلق وانطلقت معه حتى أتينا بقيع القرد فخط صلى الله عليه وسلم بعصاه خطا ثم قال « اجلس فيها ولا تبرح حتى آتيك » ثم انطلق يمشى وأنا أنظر إليه خلال النخل حتى إذا كان من حيث لا أراه ثارت قبله العجاجة السوداء ففرقت فقلت ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فاني أظن أن هوازن مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه فأسعى إلى البيوت فأستغيث الناس فذكرت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصانى أن لا أبرح مكانى الذى أنا فيه فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرعهم بعصاه ويقول « اجلسوا » فجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح ثم ثاروا وذهبوا فأتاني رسول الله ﷺ فقال « أمت بعدى ؟ » فقلت لا ولقد فرغت الفرقة الأولى حتى رأيت أن آتى البيوت فأستغيث الناس حتى ممعتك ثمرعهم بعصاك وكنت أظنها هوازن مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه فقال « لو أنك خرجت من هذه الحلقة ما أمنت عليك أن يختطفك بعضهم فهل رأيت من شيء منهم ؟ » فقلت رأيت رجلا سودا مستغفريا بثياب بيض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أو لك وفد جن نصيين أتوني فسألوني الزاد وللتاع فمتعهم بكل عظم حائل أو روثة أو برة » قلت فما يغنى عنهم ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم « إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحم الذى كان عليه يوم أكل ، ولا روثة إلا وجدوا فيها جها الذى كان فيها يوم أكلت فلا يستقي أحد منكم بعظم ولا برة » وهذا إسناد غريب جدا ولكن فيه رجل مبهم لم يسم والله تعالى أعلم وقد روى الحافظ أبو نعيم من حديث بقة بن الوليد حدثني نعيم بن زيد القنبر حدثنا أبي حدثنا قحافة بن ربيعة حدثني الزبير بن العوام رضى الله عنه قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح في مسجد المدينة فلما انصرف قال « أيكم يتبعني إلى وفد الجن الليلة » فأسكت القوم ثلاثا فمررت فأخذ بيدي فجعلت أمشي معه حتى حبست عنا جبال المدينة كلها وأفضينا إلى أرض برازا فإذا برجال طوال كأنهم الرماح مستغفرين بثيابهم من بين أرجلهم فلما رأيتهم غشيتني رعدة شديدة ثم ذكر نحو حديث ابن مسعود المتقدم وهذا حديث غريب والله أعلم

ومما يتعلق بوفود الجن ما رواه الحافظ أبو نعيم حدثنا أبو محمد بن حبان حدثنا أبو الطيب أحمد بن روح حدثنا يعقوب الدورقي حدثنا الوليد بن بكير التيمي حدثنا حصين بن عمر أخبرني عبيد المصنف عن إبراهيم قال خرج نفر من أصحاب عبد الله يريدون الحج حتى إذا كانوا في بعض الطريق إذا هم بحية تنثنى على الطريق أبيض ينفع منه ريح المسك فقلت لأصحابي امضوا فلست يبارح حتى أنظر إلى ما يصير إليه أمر هذه الحية قال فما لبثت أن ماتت فعمدت إلى خرقة يضاء فلففتها فيها ثم نحييتها عن الطريق فدفتها وأدركت أصحابي في التعشى . قال فوالله إنا لنعود إذ أقبل أربع نوبة من قبل المغرب فقالت واحدة منهم : أيكم دفن عمرا ، قلنا ومن عمرو ، قالت أيكم دفن الحية ؟ قال فقلت أنا قالت أما والله لقد دفنت صواما قواما يأمر بما أنزل الله تعالى ولقد آمن بنبيكم وسمع صفته من السماء قبل أن يبعث بأربعمائة عام قال الرجال فحمدنا الله تعالى ثم قضينا حجتنا ثم مررت بعمر بن الخطاب رضى الله عنه بالمدينة فأنبأته بأمر الحية فقال صدقت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لقد آمن بي قبل أن أبعث بأربعمائة سنة » وهذا حديث غريب جدا والله أعلم ، قال أبو نعيم وقد روى الثوري عن أبي إسحاق عن الشعبي عن رجل من ثقيف بنحوه وروى عبد الله بن أحمد والظاهراني عن صفوان بن العطل — هو الذى نزل ودفن تلك الحية من بين الصحابة وأنهم قالوا إنه آخر التسعة موتا الذين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن وروى أبو نعيم من حديث الليث ابن سعد عن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون عن عمه عن معاذ بن عبد الله بن معمر قال كنت جالسا عند عثمان ابن عفان رضى الله عنه فجاء رجل فقال يا أمير المؤمنين إني كنت بفلاة من الأرض فذكر أنه رأى ثبائين اقتتلا ثم

قتل أحدهما الآخر قال فذهبت إلى المعتك فوجدت حيات كثيرة مقتولة وإذا ينفع من بعضها ربح المسك فجعلت أئتمها واحدة واحدة حتى وجدت ذلك من حية صفراء رقيقة فلففتها في عمامتي ودفتها ، فبينما أنا أمشي إذ ناداني مناد : يا عبد الله لقد هديت هذان حيوان من الجن بنو شعيبان وبنو قيس التقيوا فكان من القتل ما رأيت واستشهد الذي دفتته وكان من الدين سمعوا الوحي من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فقال عثمان لك الرجل إن كنت صادقاً فقد رأيت عجبا وإن كنت كاذبا فعليك كذبك وقوله تبارك وتعالى (وإذا صرفنا إليك نورا من الجن) أى طائفة من الجن (يستمعون القرآن فلما حضروه نالوا أنصتوا) أى استمعوا وهذا أدب منهم وقد قال الحافظ البيهقي حدثنا الإمام أبو الطيب سهل بن محمد بن سليمان أخبرنا أبو الحسن محمد بن عبد الله الدقاق حدثنا محمد بن إبراهيم البوشنجي حدثنا هشام بن عمار الدمشقي حدثنا الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عن محمد بن النكدر عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال « مالى أراكم سكوتا ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة (فبأى آلاء ربكم تكذبان) إلا قالوا : ولا بشئ من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ورواه الترمذى فى التفسير عن أبى مسلم عبد الرحمن بن واقد عن الوليد ابن مسلم به قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن فذكره ثم قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير ، كذا قال وقد رواه البيهقي من حديث مروان بن محمد الطاطرى عن زهير بن محمد به مثله وقوله عز وجل (فلما قضى) أى فرغ كقوله تعالى (فإذا قضيت الصلاة) (فقصا من سبع سموات فى يومين) (فإذا قضيت مناسككم) (ولوا إلى قومهم منذرين) أى رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله جل وعلا (ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) وقد استدلل بهذه الآية على أنه فى الجن نذر وليس فيهم رسل ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولا لقوله تعالى (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى) وقال عز وجل (وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق) وقال عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فكل نبى بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته فأما قوله تبارك وتعالى فى الأنعام (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم) فالمراد من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهو الإنس كقوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) أى أحدهما ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبرا عنهم (قالوا يا قومنا إنا معكم كتابا أنزل من بعد موسى) ولم يذكر موسى لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ وترقيات وقليل من التحليل والتحريم وهو فى الحقيقة كالنعم للشرعة التوراة فالعمدة هو التوراة فلماذا قالوا أنزل من بعد موسى ، وهكذا قال ورقة بن نوفل حين أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بقصة نزول جبريل عليه ، عليه الصلاة والسلام أول مرة فقال بخ بخ هذا الناموس الذى كان يأتى موسى باليتى أكون فيها جلدعا (مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، وقولهم (يهذى إلى الحق) أى فى الاعتقاد والإخبار (وإلى طريق مستقيم) فى الأعمال فإن القرآن مشتمل على شيئين خبر وطلب فخره صدق وطلبه عدل كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) وقال سبحانه وتعالى (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) فالهدى هو العلم النافع ودين الحق هو العمل الصالح ، وهكذا قالت الجن (يهذى إلى الحق) فى الاعتقادات (وإلى طريق مستقيم) أى فى العمليات (يا قومنا أجيئوا داعى الله) فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الثقلين الجن والإنس حيث دعاهم إلى الله تعالى وقرأ عليهم السورة التى فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم وهى سورة الرحمن ولهذا قال (أجيئوا داعى الله وآمنوا به) وقوله تعالى (يغفر لكم من ذنوبكم) قيل إن من ههنا زائدة وفيه نظر لأن زيادتها فى الإثبات قليل ، وقيل إنها على بابها للتبعيض (ويحرمكم من عذاب أليم) أى ويقيكم من عذابه الأليم ، وقد استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الجن المؤمنين لا يدخلون الجنة وإنما جزاء صالحهم أن يجاروا من عذاب النار يوم القيامة ولهذا قالوا هذا

في هذا المقام وهو مقام تبجح ومبالغة فلو كان لهم جزاء على الإيمان أظن من هذا لأوشك أن يذكره . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي قال حدثت عن جرير عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لا يدخل مؤمنو الجنة الجنة لأنهم من ذرية إبليس ولا تدخل ذرية إبليس الجنة ، والحق أن مؤمنهم كثر من الإنس يدخلون الجنة كما هو مذهب جماعة من السلف وقد استدلل بعضهم لهذا بقوله عز وجل (لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان) وفي هذا الاستدلال نظر ، وأحسن منه قوله جل وعلا (ولن خاف مقام ربه جنتان * فبأى آلاء ربكما تكذبان) فقد امتن تعالى على الثقلين بأن جعل جزاء محسنهم الجنة وقد قابلت الجنة هذه الآية بالشكر القولي أبلغ من الإنس فقالوا ولا بشئ من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد فلم يكن تعالى ليمتن عليهم بجزاء لا يحصل لهم وأيضا فإنه إذا كان يجازى كافرهم بالنار وهو مقام عدل فلأن يجازى مؤمنهم بالجنة وهو مقام فضل بطريق الأولى والأحرى . ومما يدل أيضا على ذلك عموم قوله تعالى (إن الدين آمنوا وعملوا الصالحا كانت لهم جنات الفردوس نزلا) وما أشبه ذلك من الآيات . وقد أفردت هذه المسئلة في جزء على حدة والله الحمد والمنة وهذه الجنة لا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله تعالى لها خلقا أفلا يسكنها من آمن به وعمل له صالحا وما ذكره ههنا من الجزاء على الإيمان من تكفير الذنوب والاجارة من العذاب الأليم هو يستلزم دخول الجنة لأنه ليس في الآخرة إلا الجنة أو النار فمن أجبر من النار دخل الجنة لا محالة ولم يرد معنا نص صريح ولا ظاهر عن الشارع أن مؤمن الجن لا يدخلون الجنة وإن أجبروا من النار ولو صح لقلنا به والله أعلم . وهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه (يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى) ولا خلاف أن مؤمن قومه في الجنة فكذلك هؤلاء . وقد حكى فيهم أقوال غريبة فمن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنهم لا يدخلون بحبوحة الجنة وإنما يكونون في ربضها وحولها وفي أرجائها ومن الناس من زعم أنهم في الجنة يراهم بنو آدم ولا يرون بنو آدم بعكس ما كانوا عليه في الدار الدنيا : ومن الناس من قال لا يأكلون في الجنة ولا يشربون وإنما يلهمون التسييح والتحميد والتقديس عوضا عن الطعام والشراب كالملائكة لأنهم من جنسهم ، وكل هذه الأقوال فيها نظر ولا دليل عليها ، ثم قال مخبرا عنهم (ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض) أي بل قدرة الله شاملة له ومحيط به (وليس لهم من دونه أولياء) أي لا يجيرهم منه أحد (أولئك في ضلال مبين) وهذا مقام تهديد وترهيب فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ولهذا نجح في كثير منهم وجاءوا إلى رسول الله ﷺ وفودا وفودا كما تقدم بيانه والله الحمد والمنة والله أعلم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْنَىٰ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُوْحِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغَ فَبَلَ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى أو لم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة السبعدون لقيام الأجساد يوم المآل (أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يغنى بخلقهن بل قال لها كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة بل طاعة عجيبة خائفة وجليلة أفليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ كما قال عز وجل في الآية الأخرى (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ولهذا قال تعالى (بلى إنه على كل شيء قدير) . ثم قال جل جلاله متهددا ومتوعدا لمن كفر به (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق) أي يقال لهم أما هذا حق أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ (قالوا بلى وربنا) أي لا يسمعون إلا الاعتراف (قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) ثم قال

تبارك وتعالى أمرا رسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) أى على تكذيب قومهم لهم . وقد اختلفوا فى تعداد أولى العزم على أقوال وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم صلى الله عليه وسلم قد نص الله تعالى على أسمائهم من بين الأنبياء فى آيتين من سورتي الأحزاب والشورى ، وقد يجهل أن يكون المراد بأولى العزم جميع الرسل فتكون (من) فى قوله من الرسل لبيان الجنس والله أعلم وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن الحجاج الحضرى حدثنا السرى بن حيان حدثنا عباد بن عباد حدثنا مجاهد بن سبيد عن الشعبي عن مسروق قال : قالت عائشة رضى الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائما ثم طواه ثم ظل صائما ثم طواه ثم ظل صائما ثم قال « يا عائشة إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ولا آل محمد يا عائشة إن الله تعالى لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروها والصبر عن محبوبها لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم فقال (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وإنى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله » (ولا تستعجل لهم) أى لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم كقوله تبارك وتعالى (فذرني والكَذِبِينَ أُولَى النِّعْمَةِ وَمَهْلِكُمْ قَلِيلًا) وكقوله تعالى (فهل الكافرين أمهلهم رويدا) (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) كقوله جل وعلا (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) وكقوله عز وجل (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) الآية وقوله جل وعلا (بلاغ) قال ابن جرير يحتمل معنيين (أحدهما) أن يكون تقديره وذلك لبث بلاغ (والآخر) أن يكون تقديره هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) أى لا يهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب والله أعلم . [آخر تفسير سورة الأحقاف والله الحمد واللثة وبه التوفيق والعصمة .]

﴿ تفسير سورة القتال وهى مدنية ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾

يقول تعالى (الذين كفروا) أى بآيات الله (وصدوا) غيرهم (عن سبيل الله أضل أعملهم) أى أبطلها وأذهبها ولم يجعل لها ثوبا ولا جزاء كقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ثم قال جل وعلا (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنت قلوبهم وسرائرهم واتقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم (وآمنوا بما نزل على محمد) عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته صلى الله عليه وسلم وقوله تبارك وتعالى (وهو الحق من ربهم) جملة معترضة حسنة ولهذا قال جل جلاله (كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى أمرهم وقال مجاهد : شأنهم وقال قتادة وابن زيد حالهم والكل متقارب وقد جاء فى حديث تميم العاطس « يهديكم الله ويصلح بالكم » ثم قال عز وجل (ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل) أى إنما أبطلنا أعمال الكفار . وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل أى اختاروا الباطل على الحق (وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أى يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه فى معادهم ، والله سبحانه وتعالى أعلم

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنتَحَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْصَرَّ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلَهُمْ * سَيَجْزِيهِمْ وَبُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَلَهُمْ * ذَلِكَ
بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿

يقول تعالى مرشدا للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب)
أي إذا واجهتموهما فاحصدوه حصدا بالسيف (حتى إذا انختموهم) أي أهلكتهم قتلًا (فشدوا الوثاق) الأسارى
الذين تأسروهم ثم أتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة يخبرون في أمرهم إن شئتم منتقم عليهم فأطلقتم أسراهم
مجانا وإن شئتم فاديتهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه ، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر فإن
الله سبحانه وتعالى عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذ ليأخذوا منهم الفداء والتقليل من القتل يومئذ
فقال (ما كان لبي أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز
حكيم * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) ثم قد ادعى بعض العلماء أن هذه الآية الخيرة بين
مفاداة الأسير واللعن عليه منسوخة بقوله تعالى (فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)
الآية رواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما وقال قتادة والضحاك والسدي وابن جريج وقال الآخرون وهم
الأكثرون ليست بمنسوخة ، ثم قال بعضهم إنما الإمام مخير بين اللعن على الأسير ومفاداته فقط ولا يجوز له قتله
وقال آخرون منهم بل له أن يقتله إن شاء لحديث قتل النبي صلى الله عليه وسلم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط
من أسارى بدر وقال ثمامة بن أثال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال له « ما عندك يا ثمامة ؟ » فقال إن تقتل
تقتل ذا دم وإن تمنن تمنن على شاكر وإن كنت تريد المال فاسأل تعط منه ما شئت ، وزاد الشافعي رحمة الله عليه فقال
الإمام مخير بين قتله أو اللعن عليه أو مفادته أو استرقاقه أيضا وهذه المسألة محررة في علم الفروع وقد دللنا
على ذلك في كتابنا الأحكام والله سبحانه وتعالى الحمد والمنة . وقوله عز وجل (حتى تضع الحرب أوزارها) قال مجاهد
حتى ينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام وكأنه أخذه من قوله صلى الله عليه وسلم « لاتزال طائفة من أمتي
ظاهرين على الحق حتى يقاتل آخرهم الدجال » . وقال الإمام أحمد حدثنا الحكم بن نافع حدثنا إسماعيل بن عياش
عن إبراهيم بن سليمان عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير قال إن سلمة بن نفيل أخبرهم أنه أتى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فقال إني سيئت الحيل وألقيت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقلت : لا قتال ، فقال له النبي
صلى الله عليه وسلم « الآن جاء القتال لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس يزيغ الله تعالى قلوب أقوام فيقاتلونهم
ويرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك ، ألا إن عقد دار المؤمنين بالشام والحيل معقود في نواصيها الخير
إلى يوم القيامة » وهكذا رواه النسائي من طريقين عن جبير بن نفير عن سلمة بن نفيل السكوني به وقال أبو القاسم البغوي
حدثنا داود بن رشيد حدثنا الوليد بن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشي عن جبير بن نفير عن النواس
ابن ميمان رضي الله عنه قال لما فتح على رسول الله ﷺ فتح فقالوا يا رسول الله سيئت الحيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب
أوزارها قالوا لا قتال قال « كذبوا الآن جاء القتال لا يزال الله تعالى يزيغ قلوب قوم يقاتلونهم فيرزقهم الله منهم حتى يأتي أمر الله
وهم على ذلك وعقد دار المسلمين بالشام » وهكذا رواه الحافظ أبو يعلى الوصلي عن داود بن رشيد به ، والحفظ أنه من رواية
سلمة بن نفيل كما تقدم وهذا يقوى القول بعدم النسخ كأنه شرع هذا الحكم في الحرب إلى أن لا يبقى حرب وقال قتادة
(حتى تضع الحرب أوزارها) حتى لا يبقى شرك وهذا كقوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)
ثم قال بعضهم حتى تضع الحرب أوزارها أي أوزار المخاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله عز وجل وقيل أوزار
أهلها بأن يبذلوا الوسع في طاعة الله تعالى وقوله عز وجل (ذلك ولو شاء الله لانتصر منهم) أي هذا ولو شاء الله لانتقم

من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده (ولكن ليلو بعضكم ببعض) أى ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ليخبركم ويبلو أخباركم كاذ كرحمته في شرعية الجهاد في سورتى آل عمران وبراءة في قوله تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين)

وقال تبارك وتعالى في سورة براءة (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويغزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) ثم لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال (والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) أى لن يذهبها بل يكثرها وينمها ويضاعفها . ومنهم من يجرى عليه عمله طول برزخه كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الإمام أحمد في مسنده حيث قال حدثنا زيد بن يحيى الدمشقي حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن كثير بن مرة عن قيس الجذامي - رجل كانت له صحبة - قال : قال رسول الله ﷺ « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ويرى مقعده من الجنة ويزوج من الحور العين ويأمن من الفزع الأكبر ومن عذاب القبر ويحلى حلة الإيمان » تفرد به أحمد رحمه الله

(حديث آخر) قال أحمد أيضا حدثنا الحكم بن نافع حدثني إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعيد عن خالد بن معدان عن القدام بن معد يكرب الكندي رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للشهيد عند الله ست خصال : أن يغفر له في أول دفقة من دمه ، ويرى مقعده من الجنة ، ويحلى حلة الإيمان ، ويزوج من الحور العين ويحار من عذاب القبر ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار مرصع بالدر والياقوت ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين إنسانا من أقاربه » وقد أخرجه الترمذى وصححه وابن ماجه . وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما وعن أبي قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين » وروى من حديث جماعة من الصحابة رضى الله عنهم وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » ورواه أبو داود والأحاديث في فضل الشهيد كثيرة جدا . وقوله تبارك وتعالى (سهيدهم) أى إلى الجنة كقوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعم) . وقوله عز وجل (ويصلح بهم) أى أمرهم وحالهم (ويدخلهم الجنة عرفها لهم) أى عرفهم بها وهداهم إليها قال مجاهد يهتدى أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا لا يستدلون عليها أحدا ، وروى مالك عن زيد بن أسلم نحوه هذا ، وقال محمد بن كعب : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل ابن حيان بلغنا أن الملك الذى كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشى بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى يأتى أقصى منزل هوله فيعرفه كل شيء أعطاه الله تعالى في الجنة فإذا انتهى إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه ، ذكره ابن أبي حاتم رحمه الله . وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أيضا رواه البخارى من حديث قتادة عن أبي التوكل الناجى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا خلاص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا وتقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان في الدنيا » . ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) كقوله عز وجل (ولينصرن الله من ينصره) فإن الجزاء من جنس العمل ولهذا قال تعالى (ويثبت أقدامكم) كما جاء في الحديث « من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة » ثم قال تبارك وتعالى (والذين كفروا فتعسألهم) عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم وقد ثبت في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القטיפه تعس واتكس وإذا شيك فلا انتقش » أى فلا شفاء الله عز وجل . وقوله سبحانه وتعالى (وأضل أعمالهم) أى أحبطها وأبطلها ولهذا قال (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله) أى لا يريدونه ولا يحبونه (فأحبط أعمالهم)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ هَئِثَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾

يقول تعالى (أفلم يسروا) يعنى المشركين بالله الكاذبين لرسوله (في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم) أى عاقبتهم بتكذيبهم وكفرهم أى ونجى المؤمنين من بين أظهرهم ولهذا قال تعالى (وللكافرين أمثالها) . ثم قال (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) ولهذا الما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فلم يجب وقال أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال كذبت ياعدو الله بل أبقى الله تعالى لك ما يسوءك وإن الذين عدت لأحياء فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر والحرب سجال أما إنكم ستجدون مثله لم آمر بها ولم أنه عنها ثم ذهب يرتجز ويقول ثم * اعل هبل اعل هبل * فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا تحييه ؟ » فقالوا يا رسول الله وما تقول ؟ قال صلى الله عليه وسلم قولوا « الله أظى وأجل » ثم قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم فقال صلى الله عليه وسلم « ألا تحييه ؟ » قالوا وما تقول يا رسول الله قال قولوا « الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال سبحانه وتعالى (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار) أى يوم القيامة (والذين كفروا يمتعون ويأكلون كاتأكل الأنعام) أى فى دنياهم يمتعون بها ويأكلون منها كأكل الأنعام خضاً وقطماً ليس لهم همة إلا فى ذلك ولهذا ثبت فى الصحيح « المؤمن يأكل فى موى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » ثم قال تعالى (والنار مثوى لهم) أى يوم جزائهم وقوله عز وجل (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك) يعنى مكة (أهلكناهم فلا ناصر لهم) وهذا تهديد شديد ووعد أ كيد لأهل مكة فى تكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الرسل وخاتم الأنبياء فإذا كان الله عز وجل قد أهلكت الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء فإذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم فى الدنيا والأخرى ؟ فان رفع عن كثير منهم العقوبة فى الدنيا لبركة وجود الرسول نبى الرحمة فان العذاب يوفى على الكافرين به فى معادهم (يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) وقوله تعالى (من قريتك التى أخرجتك) أى الذين أخرجوك من بين أظهرهم وقال ابن أبى حاتم - كره أبى عن محمد بن عبد الأظى عن العتمر ابن سليمان عن أبيه عن حنش عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى النار وأتاه فالتفت إلى مكة وقال « أبت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إلى ، ولو لا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك » فأعدي الأعداء من عدا على الله تعالى فى حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بذحول الجاهلية فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم)

﴿ أَفَنَنْكَرَ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا ﴾

فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ

يقول تعالى (أفمن كان على بينة من ربه) أى على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم وبما جيله الله عليه من الفطرة المستقيمة (كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟) أى ليس هذا كهذا كقوله تعالى (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟) وكقوله تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون) ثم قال عز وجل (مثل الجنة التى وعد المتقون) قال عكرمة (مثل الجنة) أى نعمتها (فيها أنهار من ماء غير آسن) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وقتادة يعنى غير متغير وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراسانى غير متأن والعرب تقول أسن الماء إذا تغير ريحه ، وفى حديث مرفوع أورده ابن أبى حاتم غير آسن يعنى الصافى الذى لا كدر فيه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق قال : قال عبد الله رضى الله عنه : أنهار الجنة تفجر من جبل من مسك (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أى بل فى غاية البياض والحلاوة والسومة وفى حديث مرفوع « لم يخرج من ضرع الماشية » (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أى ليست كرية الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) (ييضاء لذة للشاربين) وفى حديث مرفوع « لم يعصرها الرجال بأقدامهم » (وأنهار من عسل مصفى) أى وهو فى غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح وفى حديث مرفوع « لم يخرج من بطون النحل » وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا الجريرى عن حكيم بن معاوية عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » ورواه الترمذى فى صفة الجنة عن محمد بن يسار عن يزيد بن هارون عن سعيد بن أبى إياس الجريرى وقال حسن صحيح وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا أحمد بن محمد بن عاصم حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا الحارث بن عبيد أبو قدامة الأيادى حدثنا أبو عمران الجوفى عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذه الأنهار تشخب من جنة عدن فى جوبة ثم تصدع بعد أنهارا » وفى الصحيح « إذا سألت الله تعالى فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن » . وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا مصعب بن إبراهيم بن حمزة الزبيرى وعبد الله بن الصفر السكرى قالا حدثنا إبراهيم بن النضر الحزامى حدثنا عبد الرحمن بن الغيرة حدثنى عبد الرحمن بن عياش عن دهم بن الأسود قال دهم وحدثنيه أيضا أبو الأسود عن عاصم بن لقيط قال إن لقيط بن عامر خرج وافدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت يا رسول الله فعلى ما نطلع من الجنة ؟ قال صلى الله عليه وسلم « على أنهار عسل مصفى ، وأنهار من خمر ما بها صداع ولاندامة ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وماء غير آسن ، وفاكهة لعمر إلهك ما تعلمون وخير من مثله ، وأزواج مطهرة » قلت يا رسول الله أولنا فيها أزواج مصلحات ؟ قال « الصالحات للصالحين تلذوّنهن مثل لذاتكم فى الدنيا ويلذوّنكن ، غير أن لا توالد » وقال أبو بكر عبيد الله بن محمد بن أبى الدنيا حدثنا يعقوب بن عبيد عن يزيد بن هارون أخبرنى الجريرى عن معاوية بن قرّة عن أبيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لعلمكم تظنون أن أنهار الجنة تجري فى أخدود فى الأرض والله إنها لتجرى سائحة على وجه الأرض حافاتهما قباب اللؤلؤ وطينها المسك الأذفر . وقد رواه أبو بكر ابن مردويه من حديث مهدي بن حكيم عن يزيد بن هارون به مرفوعا . وقوله تعالى (ولهم فيها من كل الثمرات) كقوله عز وجل (يدعون فيها بكل فاكهة آمنين) وقوله تبارك وتعالى (فيهما من كل فاكهة زوجان) وقوله سبحانه وتعالى (ومغفرة من ربهم) أى مع ذلك كله . وقوله سبحانه وتعالى (كمن هو خالد فى النار) أى هؤلاء الذين ذكرنا من أنهار الجنة من الجنة كمن هو خالد فى النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو فى الدرجات كمن هو فى الدرجات (وسقوا ماء حميا) أى حارا شديدا الحرا لا يستطاع (ففقطع أمعاءهم) أى قطع ما فى بطونهم من الأمعاء والأحشاء - عياذ بالله تعالى من ذلك -

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَآذَا قَالَ أَنفَا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَهَآئِهِمْ تَقَوْمُهُمْ * فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ * فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذَنبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين في بلادهم وقلة فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئا فإذا خرجوا من عنده (قالوا للذين أوتوا العلم) من الصحابة رضي الله عنهم (ماذا قال آنفا) أي الساعة . لا يعقلون ما قال ولا يكثرثون له . قال الله تعالى (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتباعوا أهواءهم) أي فلا فهم صحيح ولا قصد صحيح . ثم قال عز وجل (والذين اهتدوا زادهم هدى) أي والذين قصدوا الهداية وقهم الله تعالى لها فهداهم إليها وثبتهم عليها وزادهم منها (وآتاهم تقواهم) أي ألهمهم رشدهم . وقوله تعالى (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة) أي وهم غافلون عنها (فقد جاء أشراطها) أي أمارات اقترابها كقوله تبارك وتعالى (هذا نذير من النذر الأولى أذنت الآزفة) وكقوله جلّت عظمتة (اقتربت الساعة وانشق القمر) وقوله سبحانه وتعالى (آنى أمر الله فلا تستعجلوه) وقوله جل وعلا (اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون) فبعثة رسول الله ﷺ من أشراط الساعة لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين . وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراتها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله كما هو مبسوط في موضعه . وقال الحسن البصرى بعثة محمد صلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة وهو كما قال ولهذا جاء في أسماء ﷺ أنه نبى التوبة ونبى للحمية والحاشر الذى يحشر الناس على قدميه والعاقب الذى ليس بعده نبى وقال البخارى حدثنا أحمد بن المقدم حدثنا فضيل بن سليمان حدثنا أبو رجاء حدثنا سهل بن سعد رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعه هكذا بالوسطى والى تليها « بعثت أنا والساعة كهاتين » ثم قال تعالى (فانى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك كقوله تعالى (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) . (وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد). وقوله عز وجل (فاعلم أنه لا إله إلا الله) هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ولا يتأتى كونه أمرا يعلم ذلك ولهذا عطف عليه قوله عز وجل (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول « اللهم اغفر لى خطيئتي وحبلى وإسرافي فى أمرى وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطيئى وعمدى وكل ذلك عندى » . وفى الصحيح أنه كان يقول فى آخر الصلاة « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به منى أنت إلهى لا إله إلا أنت » وفى الصحيح أنه قال « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فانى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عاصم الأحول قال سمعت عبد الله بن سرحس قال أنبت رسول الله ﷺ فأكلت معه من طعامه فقلت غفر الله لك يا رسول الله فقال صلى الله عليه وسلم « ولك » فقلت أستغفر لك . فقال رسول الله ﷺ « نعم ولكم » وقرأ (واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) ثم نظرت إلى بعض كتفه الأيمن — أو كتفه الأيسر شعبة الذى شك — فإذا هو كهية الجمع عليه التآليل ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن عاصم الأحول به ، وفى الحديث الآخر الذى رواه أبو يعلى حدثنا محمد بن عون حدثنا عثمان بن مطر حدثنا عبد الغفور عن أبى نصر عن أبى رجاء عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منها فان

إبليس قال إنما هلكت الناس بالنوب وأهلكوني بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالاهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون» وفي الأثر المروي « قال إبليس وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم فقال الله عز وجل وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » والأحاديث في فضل الاستغفار كثيرة جدا وقوله تبارك وتعالى (والله يعلم متقبلكم ومثواكم) أى يعلم تصرفكم في نهركم ومستقركم في ليلكم كقوله تبارك وتعالى (وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار) وقوله سبحانه وتعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) وهذا القول ذهب إليه ابن جريج وهو اختيار ابن جرير ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما متقبلكم فى الدنيا ومثواكم فى الآخرة ، وقال السدى متقبلكم فى الدنيا ومثواكم فى قبوركم ، والأول أولى وأظهر والله أعلم .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنْ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد فلما فرضه الله عز وجل وأمر به نكل عنه كثير من الناس كقوله تبارك وتعالى (ألم تر إلى الذين قيل لهم كموا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) وقال عز وجل ههنا (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أى مشتملة على حكم القتال ولهذا قال (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) أى من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء ، ثم قال مشجعا لهم (فأولى لهم طاعة وقول معروف) أى وكان الأولى بهم أن يسمعوا ويطيعوا أى فى الحالة الراهنة (فإذا عزم الأمر) أى جد الحال ، وحضر القتال (فلو صدقوا الله) أى أخلصوا له النية (لكان خيرا لهم) وقوله سبحانه وتعالى (فهل عسيتم إن توليتم) أى عن الجهاد ونكلتم عنه (أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟) أى تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجاهلاء تسفكون الدماء وتقطعون الأرحام ولهذا قال تعالى (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) وهذا نهى عن الفساد فى الأرض عموما وعن قطع الأرحام خصوصا بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح فى الأرض وصلة الأرحام وهو الإحسان إلى الأقارب فى المقاتل والأفعال وبذل الأموال ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة ، قال البخارى حدثنا خالد بن مخلد حدثنا سليمان حدثني معاوية بن أبى مزرع عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوى الرحمن عز وجل فقال له فقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال تعالى : ألا تريين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت بلى قال فذلك لك » قال أبو هريرة رضى الله عنه اقرءوا إن شئتم (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) ثم رواه البخارى من طريقين آخرين عن معاوية بن أبى مزرع به قال : قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا إن شئتم (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) » . ورواه مسلم من حديث معاوية بن أبى مزرع به

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن علية حدثنا عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن عن أبيه عن أبى بكرة رضى

عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مامن ذنب أخرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البنى وقطيعه الرحم » ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث إسماعيل هو ابن علي به وقال الترمذي هذا حديث صحيح . وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن بكر حدثنا ميمون أبو محمد المراني حدثنا محمد بن عباد الخزومي عن ثوبان رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سره النساء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه » تفرد به أحمد وله شاهد في الصحيح . وقال أحمد أيضا حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن لي ذوى أرحام : أصل ويقطعون وأعفو ويظلمون وأحسن ويسئون أفأ كافهم ؟ قال ﷺ « لا ، إذن تتركون جميعا ولكن جد بالفضل وصلهم فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ما كنت على ذلك » تفرد به أحمد من هذا الوجه وله شاهد من وجه آخر . وقال الإمام أحمد حدثنا يعلى حدثنا مطر عن مجاهد عن عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافي ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » رواه البخاري . وقال أحمد حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا قتادة عن أبي ثمامة الثقفي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « توضع الرحم يوم القيامة لها حجة كحجة الغزل تكلم بلسان طلق ذاق فتقطع من قطعها وتصل من وصلها » وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثنا عمرو عن أبي قابوس عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء والرحم شحنة من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » وقد رواه أبو داود والترمذي من حديث سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار به وهذا هو الذي يروى بتسلسل الأولية وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير عن إبراهيم بن عبد الله بن فارس أن أباه حدثه أنه دخل على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو مريض فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه وصلتك رحم إن رسول الله ﷺ قال « قال الله عز وجل أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمي فمن يصلها أصله ومن يقطعها أقطعه فأبته - أو قال - من أبها أبته » تفرد به أحمد من هذا الوجه ، ورواه أحمد أيضا من حديث الزهري عن أبي سلمة عن المرداد - أو أبي المرداد - عن عبد الرحمن بن عوف به ، ورواه أبو داود والترمذي من رواية أبي سلمة عن أبيه ، والأحاديث في هذا كثيرة جداً . وقال الظهري حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا محمد بن عمار الموصلي حدثنا عيسى بن يونس عن الحجاج بن يونس عن الحجاج بن القرافصة عن أبي عمر البصري عن سليمان قال : قال رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » وبه قال رسول الله ﷺ « إذا ظهر القول وخزن العمل واختلفت الألسنة وتباغضت القلوب وقطع كل ذي رحم رحمه فعند ذلك لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم » والأحاديث في هذا كثيرة والله أعلم .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ أُرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَتِفَ إِذَا تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَائِكَةُ يُضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه وناهاها عن الإعراض عنه فقال (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

أى بل على قلوب أفعالها فهي مطبقة لا يخلص إليها شيء من معانيه قال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا حماد بن زيد حدثنا هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) فقال شاب من أهل اليمن بل عليها أقفالها حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها فما زال الشاب فى نفس عمر رضى الله عنه حتى ولى فاستعان به . ثم قال تعالى (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى) أى فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر (من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم) أى زين لهم ذلك وحسنه (وأملى لهم) أى غرهم وخدعهم (ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر) أى ماؤوهم وناصحوهم فى الباطن على الباطل وهذا شأن المنافقين يظهرهم خلاف ما يظنون ولهذا قال الله عز وجل (والله يعلم إسرارهم) أى ما يسرون وما يخفون ، الله مطلع عليه وعالم به كقوله تبارك وتعالى (والله يكتب ما يبيتون) . ثم قال تعالى (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) أى كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتماصت الأرواح فى أجسادهم واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب كما قال سبحانه وتعالى (ولوترى إذ أتوا فى الدين كغفرا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) الآية وقال تعالى (ولوترى إذا الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم) أى بالضرب (أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) ولهذا قال ههنا (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ سِيمَاهُمْ وَلَعَرَفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَتَلَبَّؤْكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَلَبَّؤْكُمْ أَخْبَارَكُمْ ﴾

يقول تعالى (أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ؟) أى أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر وقد أنزل الله تعالى فى ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والأضغان جمع ضغن وهو مافى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره ، وقوله تعالى (ولونشاء لأرينا لكم فلعرقتهم بسيماهم) يقول عز وجل ولو نشاء لأمحمد لأريناك أشخاصهم فعرقتهم عيانا ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين سترأ منه على خلقه وحملأ لأأمور على ظاهر السلامة وردأ للسرائر إلى عالمها (ولتعرفنهم فى لحن القول) أى فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم للتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفجواه وهو المراد من لحن القول كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وقللت لسانه . وفى الحديث « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها إن خيرا فخير وإن شرا فشر » وقد ذكرنا ما يستدل به على نفاق الرجل وتكلمنا على نفاق العمل والاعتقاد فى أول شرح البخارى بما أغنى عن إعادته ههنا . وقد ورد فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين . قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سلمة بن عياض عن أبيه عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضى الله عنه قال خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال « إن منكم منافقين فمن ميت فليقم - ثم قال - قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان - حتى مى ستة وثلاثين رجلا ثم قال - إن فيكم أومنكم - منافقين فاتقوا الله » قال فر عمر رضى الله عنه برجل من مى مقنع قد كان يعرفه فقال مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ فقال بعدأ لك سائر اليوم . وقوله عز وجل (وتلبؤنكم) أى لتختبرنكم بالأوامر والنواهي (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين وتلبؤا أخباركم) وليس فى تقدم علم الله تعالى بما هو كائن أنه سيكون شك ولا ريب فالمراد حتى نعلم وقوعه ولهذا يقول ابن عباس رضى الله عنهما فى مثل هذا : إلا لنعلم أى لرى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ تَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَمْنُنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾

يخبر تعالى عن كفر وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئا وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه برده مثقال بعوضة من خير بل يحبطه ويمحقه بالكلية كما أن الحسنات يذهبن السيئات . وقد قال الإمام أحمد بن نصر الروزي في كتاب الصلاة حدثنا أبو قدامة حدثنا وكيع حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فزلت (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فخافوا أن يبطل الذنب العمل ، ثم روى من طريق عبد الله بن المبارك أخبرني بكر بن معروف عن مقاتل بن حيان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا مع عمر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبول حتى نزلت (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) قلنا ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ قلنا الكائنات الموجبات والفواحش حتى نزل قوله تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فلما نزلت كففنا عن القول في ذلك فكنا نخاف على من أصاب الكبائر والفواحش ونرجوا لمن لم يصبها : ثم أمر تبارك وتعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله التي هي سعادتهم في الدنيا والآخرة ونهاهم عن الارتداد الذي هو مبطل للأعمال ولهذا قال تعالى (ولا تبطلوا أعمالكم) أى بالردة ، ولهذا قال بعدها (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل ثم ما تواراهم كفار فلن يغفر الله لهم) كقوله سبحانه وتعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) الآية ثم قال جل وعلا لعباده المؤمنين (فلا تمهنوا) أى لاتضعفوا عن الأعداء (وتدعوا إلى السلم) أى المهادنة والسلامة ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عددكم ولهذا قال (فلا تمهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون) أى في حال علوكم على عدوكم فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة إلى جميع المسلمين ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين فأجابهم صلى الله عليه وسلم إلى ذلك . وقوله جلت عظمته (والله معكم) فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء (ولن يترك أعمالكم) أى ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها بل يوفيكم ثوابها ولا ينقصكم منها شيئا والله أعلم

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَصْفَكُمْ * هَآؤُنْ هُوَ لَآءُ تَدْعَوْنَ لِنُفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قُوَّتًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا وتهويناً لشأنها (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) أى حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل ولهذا قال تعالى (وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) أى هو غنى عنكم لا يطلب منكم

شيء إنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لا خوانكم الفقراء ليعود تقع ذلك عليكم . ويرجع ثوابه إليكم ثم قال جل جلاله (إن يسألكموها فيحلفكم بئخوها) أى يخرجكم بئخوها (ويخرج أضغانكم) قال قتادة . قد علم الله تعالى أن في إخراج الأموال إخراج الأضغان وصدق قتادة فإن المال محبوب ولا يصرف إلا فيما هو أحب إلى الشخص منه . وقوله تعالى (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فنسلككم من يهلك) أى لا يجيب إلى ذلك (ومن يهلك فإنما يهلك عن نفسه) أى إنما نقص نفسه من الأجر وإنما يعود وبال ذلك عليه (والله الغنى) أى عن كل ماسواه وكل شيء فقير إليه دائماً ، ولهذا قال تعالى (وأنتم الفقراء) أى بالذات إليه ، فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لا زم لهم لا ينفكون عنه . وقوله تعالى (وإن تتولوا) أى عن طاعته واتباع شرعه (يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) أى ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . وقال ابن أبي حاتم وابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني مسلم بن خالد عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال ف ضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضى الله عنه ثم قال « هذا وقومه ولو كان الدين عندنا لثألنا له رجال من الفرس » تفرد به مسلم بن خالد الزنجي ورواه عنه غير واحد وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم والله أعلم . آخر تفسير سورة القتال والله الحمد واللثة

(تفسير سورة الفتح وهي مدنية)

قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا شعبة عن معاوية بن قررة قال سمعت عبد الله بن مغفل يقول قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في مسيره سورة الفتح طى راحلته فرجع فيها قال معاوية لولا أنى أكره أن يجتمع الناس عليا لحكيت قراءته ، أخرجاه من حديث شعبة به .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا * لِيَفْرِغَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ * وَبُيْتُمْ نِعْمَةً عَلَيْهِ وَبِهِدْيِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا)

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذى القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام فيقضى عمرته فيه وحالوا بينه وبين ذلك ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل فأجابهم إلى ذلك طى تكبره من جماعة من الصحابة منهم عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كما سيأتى تفصيله في موضعه من تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى ، فلما نحر هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله عز وجل هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة وما آل الأمر إليه كما روى ابن مسعود رضى الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية ، وقال الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضى الله عنه قال : ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية وقال البخارى حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضى الله عنه قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحاً ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة مائة والحديبية بئر فزحناها فلم تترك فيها قطرة فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثاها فجلس على شفيرها ثم دعا ياناء من ماء فتوضأ ثم تمضمض ودعا ثم صبه فيها فتركناها غير بعيد ثم إنهما أصدرتنا ما شئنا نحن وركابنا . وقال الإمام أحمد حدثنا نوح حدثنا مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر قال فسأله عن شيء ثلاث مرات فلم يرد طى ، قال فقلت في نفسى شككتك أمك يا ابن الخطاب ألححت كررت طى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات فلم يرد عليك ؟

قال فركبت راحلتي فحركت بعيري فتقدمت مخافة أن يكون نزل في شيء قال فإذا أنا بمناد يا عمر قال فرجعت وأنا أظن أنه نزل في شيء قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم « نزل على البارحة سورة هي أحب إلى من الدنيا وما فيها : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) » ورواه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله ، وقال علي بن المديني هذا إسناد مدني جيد لم نجده إلا عندهم . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال نزلت على النبي ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعه من الحديثية قال النبي ﷺ « لقد أنزلت على الليلة آية أحب إلى مما على الأرض » ثم قرأها عليهم النبي ﷺ فقالوا هنيئاً مريئاً يا نبي الله بين الله عز وجل ما يفعل بك فإذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه صلى الله عليه وسلم (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار - حتى بلغ - فوزاً عظيماً) أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به . وقال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا مجمع بن يعقوب قال سمعت أبي يحدث عن عمه عبد الرحمن بن زيد الأنصاري عن عمه مجمع بن حارثة الأنصاري رضي الله عنه وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن قال شهدنا الحديثية فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباقر فقال الناس بعضهم لبعض : ما للناس ؟ قالوا أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجنا مع الناس نوجف فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته عند كراع الغميم فاجتمع الناس عليه فقرأ عليهم (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) قال : فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أي رسول الله أو فتح هو ؟ قال ﷺ « إي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح » قسمت خير على أهل الحديثية لم يدخل معهم فيها أحد إلا من شهد الحديثية قسمها رسول الله ﷺ ثمانية عشر سهماً وكان الجيش ألفاً وخمسمائة منهم ثلثمائة فارس فأعطى الفارس سهمين وأعطى الراجل سهماً ورواه أبو داود في الجهاد عن محمد بن عيسى عن مجمع بن يعقوب به وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع حدثنا أبو يحيى حدثنا شعبة حدثنا جامع بن شداد عن عبد الرحمن بن أبي علقمة قال سمعت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : لما أقبلنا من الحديثية عرسنا فنمنا فلم نستيقظ إلا والشمس قد طلعت فاستيقظنا ورسول الله ﷺ نائم قال : قلنا أيقظوه فاستيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا « افعالوا ما كنتم تفعلون وكذلك يفعل من نام أو نسي » قال وفقدنا ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلبناها فوجدناها قد تعلق خطامها بشجرة فأثبته بها فركبها فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي قال وكان إذا أتاه الوحي اشتد عليه فلما سرى عنه أخبرنا أنه أنزل عليه (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) وقد رواه أحمد وأبو داود والنسائي من غير وجه عن جامع بن شداد به وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن زياد بن علاقة قال سمعت المغيرة بن شعبه يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي حتى ترم قدماه فقيل له أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » أخرجاه وبقية الجماعة إلا أبا داود من حديث زياد به وقال الإمام أحمد حدثنا هارون بن معروف حدثنا ابن وهب حدثني أبو صخر عن ابن قسيط عن عروة بن الرير عن عائشة رضي الله عنها قالت كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تتفطر رجلاه فقالت له عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال ﷺ « يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً » أخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب به وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن عون الحاراز وكان ثقة بمكة حدثنا محمد بن بشر حدثنا مسعر عن قتادة عن أنس قال : قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماه - أو قال ساقاه - فقيل له أليس الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أفلا أكون عبداً شكوراً » غريب من هذا الوجه فقوله (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) أي بيناً ظاهراً والراد به صلح الحديثية فانه حصل بسببه خير جليل ، وآمن الناس واجتمع بعضهم ببعض ، وتكلم المؤمن مع الكافر وانتشر العلم النافع والإيمان وقوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره وليس في حديث صحيح في ثواب

الأعمال لغيره غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهذا فيه تشریف عظیم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صلى الله عليه وسلم في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا من الآخرين وهو صلى الله عليه وسلم أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة حبسها حابس الفيل ثم قال ﷺ « والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم شيئاً يعظمون به حرمة الله إلا أجبتهم إليها » فلما أطاع الله في ذلك وأجاب إلى الصلح قال الله تعالى له (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليفزر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك) أى في الدنيا والآخرة (ويهديك صراطاً مستقيماً) أى بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم (وينصرك الله نصراً عزيزاً) أى بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك كما جاء في الحديث الصحيح « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله عز وجل إلا رفعه الله تعالى » وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ما عاقبت أحداً عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله تبارك وتعالى فيه

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً * وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾

يقول تعالى (هو الذى أنزل السكينة) أى جعل الطمأنينة قاله ابن عباس رضى الله عنهما وعنه الرحمة ، وقال قتادة الوقار في قلوب المؤمنين وهم الصحابة رضى الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله واتقادوا لحكم الله ورسوله فلما اطمانت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم ؛ وقد استدلل بها البخارى وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب ثم ذكر تعالى أنه لو شاء لاتنصر من الكافرين فقال سبحانه وتعالى (ولله جنود السموات والأرض) أى ولو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما له في ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدامغة ولهذا قال جلّت عظمتهم (وكان الله عليماً حكيماً) ثم قال عز وجل (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) قد تقدم حديث أنس رضى الله عنه حين قالوا هنيئاً لك يا رسول الله هذا لك فما لنا ؟ فأُنزل الله تعالى (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى ما كثر فيها أبداً (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ويفر ويستر ويرحم ويشكر (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) كقوله جل وعلا (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) الآية . وقوله تعالى (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظالنين بالله ظن السوء) أى يتهمون الله تعالى في حكمه ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ولهذا قال تعالى (عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم) أى أبعدهم من رحمته (وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) ثم قال عز وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين (ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً)

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَتَعَزَّزُوا وَتُوقِّرُوا وَتَسَبَّحُوا بِكُرَّةٍ

وَأَصِيلًا * إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَ اللَّهَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورَتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿

يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا) أى على الخلق (ومبشرا) أى للمؤمنين (ونذيرا) أى للكافرين وقد تقدم تفسيرها في سورة الأحزاب (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه) قال ابن عباس رضى الله عنهما وغير واحد تعظموه (وتوقروه) من التوقير وهو الاحترام والاجلال والاعظام (وتسبحوه) أى تسبحون الله (بكرة وأصيلًا) أى أول النهار وآخره . ثم قال عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم تشريفًا له وتعظيمًا وتكريمًا (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) كقوله جل وعلا (من يطع الرسول فقد أطاع الله) (يد الله فوق أيديهم) أى هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)

وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا الفضل بن يحيى الانباري حدثنا علي بن بكار عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » وحدثنا أبي حدثنا يحيى بن القيرة أخبرنا جرير عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ في الحजर « والله ليعشنه الله عز وجل يوم القيامة له عينان ينظر بهما ولسان ينطق به ويشهد على من استلمه بالحق فمن استلمه فقد بايع الله تعالى » ثم قرأ رسول الله ﷺ (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) ولهذا قال تعالى ههنا (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى إنما يعود وبذلك على الناكث والله غنى عنه (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فميسورته أجر عظيم) أى ثوابا جزيلًا وهذه البيعة هي بيعة الرضوان وكانت تحت شجرة ممرة بالحديبية وكان الصحابة رضى الله عنهم الذين بايعوا رسول الله ﷺ يومئذ قیل ألفا وثلاثمائة ، وقيل وأربعمائة وقيل وخمسمائة والأوسط أصح

﴿ ذكر الأحاديث الواردة في ذلك ﴾

قال البخاري حدثنا قتيبة حدثنا سفيان عن عمرو عن جابر رضى الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة به ، وأخرجاه أيضا من حديث الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن جابر رضى الله عنه قال : كنا يومئذ ألفا وأربعمائة ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رويوا كلهم وهذا مختصر من سياق آخر حين ذكر قصة عطشهم يوم الحديبية وأن رسول الله ﷺ أعطاهم سهما من كنانته فوضعوه في بئر الحديبية فجاشت بالماء حتى كففتهم قليل لجابر رضى الله عنه كم كنتم يومئذ ؟ قال : كنا ألفا وأربعمائة ولو كنا مائة ألف لسكفانا ، وفي رواية في الصحيحين عن جابر رضى الله عنه أنهم كانوا خمس عشرة مائة

وروى البخاري من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال : خمس عشرة مائة ، قلت فان جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال كانوا أربع عشرة مائة قال رحمه الله : وهم ، هو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة . قال البيهقي هذه الرواية تدل على انه كان في القديم يقول خمس عشرة مائة ثم ذكر الوهم فقال أربع عشرة مائة وروى العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنهم كانوا ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين والمشهور الذي رواه عنه غير واحد أربع عشرة مائة وهذا هو الذي رواه البيهقي عن الحاكم عن الأصم عن العباس الدوري عن يحيى بن معين عن شعبة بن سوار عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفا وأربعمائة ، وكذلك هو الذي في رواية سلمة بن الأكوع ومفضل بن يسار والبراء بن عازب رضى الله عنهم

وبه يقول غير واحد من أصحاب المغازي والسير ، وقد أخرج صاحب الصحيح من حديث شعبة عن عمرو بن مرة قال : سمعت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه يقول كان أصحاب الشجرة ألفا وأربعمائة وكانت أسلم يومئذ ثمن المهاجرين وروى محمد بن إسحاق في السيرة عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم أنهما حدثاه قالا : خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية يريد زيارة البيت لا يريد قتالا وساق معه الهدى سبعين بدنة وكان الناس سبعمائة رجل كل بدنة عن عشرة نفر وكان جابر بن عبد الله رضي الله عنهما فيما بلغني عنه يقول : كنا أصحاب الحديبية أربع عشرة مائة . كذا قال ابن إسحاق وهو معدود من أوهامه فإن المحفوظ في الصحيحين أنهم كانوا بضع عشرة مائة كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

﴿ ذكر سبب هذه البيعة العظيمة ﴾

قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليعثه إلى مكة ليلبغ عنه أشراف قريش ماجاءه فقال يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وليس بمكة من بني عدى بن كعب من يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظي عليها ولكني أدلك على رجل أعز بها مني عثمان بن عفان رضي الله عنه نبهته إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائرا لهذا البيت ومعظم الحرمة فخرج عثمان رضي الله عنه إلى مكة فلقبه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحملة بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فأنطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ما أرسله به فقالوا لعثمان رضي الله عنه حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان رضي الله عنه قد قتل قال ابن إسحاق فحدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم قال حين بلغه أن عثمان قد قتل : « لا نبج حتى نتأجر القوم » ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون بآيهم رسول الله ﷺ على الموت ولكن بآيهم على أن لا نفر فبايع الناس ولم يتلخف أحد من المسلمين حضرها إلا الجدي بن قيس أخو بني سلمة فكان جابر رضي الله عنه يقول والله لسكأتني أنظر إليه لاصقا بإبط ناقته قد صبا إليها يستريحها من الناس ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان رضي الله عنه باطل ، وذكر ابن أبي شيبة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قريبا من هذا السياق وزاد في سياقه أن قريشا بشوا وعندهم عثمان رضي الله عنه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص إلى رسول الله ﷺ فبينما هم عندهم إذ وقع كلام بين بعض المسلمين وبعض المشركين وتراموا بالنبل والحجارة وصاح الفريقان كلاما وارتعن كل من الفريقين من عنده من الرسل ونادى منادى رسول الله ﷺ ألا إن روح القدس قد نزل على رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وأمر بالبيعة فاخرجوا على اسم الله تعالى فبايعوا فصار المسلمون إلى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وهو تحت الشجرة فبايعوه على أن لا يفروا أبدا فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا من كان عندهم من المسلمين ودعوا إلى المودة والصلح وقال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا علي بن أحمد ابن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا هشام حدثنا الحسن بن بشير حدثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما أمر رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم ببيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رضي الله عنه رسول رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة فبايع الناس فقال رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم : « اللهم إن عثمان في حاجة الله تعالى وحاجة رسوله » فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه خيرا من أيديهم لأنفسهم . قال ابن هشام : حدثني من أثق به عن حدثه بأسناد له عن ابن أبي مليكة عن ابن

عمر رضى الله عنهما قال : بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان رضى الله عنه فضرِبَ باحدى يديه على الأخرى وقال عبد الملك بن هشام النحوى فذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي قال : إن أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان أبو سنان الأسدى ، وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى حدثنا سفيان حدثنا ابن أبي خالد عن الشعبي قال لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة كان أول من انتهى إليه أبو سنان الأسدى فقال ابسط يدك أبايعك فقال النبي ﷺ « علام تباعى ؟ » فقال أبو سنان رضى الله عنه على ما فى نفسك ، هذا أبو سنان بن وهب الأسدى رضى الله عنه . وقال البخارى حدثنا شجاع بن الوليد أنه مع النضر ابن محمد يقول حدثنا صخر بن الربيع عن نافع رضى الله عنه قال إن الناس يتحدثون أن ابن عمر رضى الله عنهما أسلم قبل عمر وليس كذلك ولكن عمر رضى الله عنه يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له ، عند رجل من الأنصار أن يأتى به ليقاتل عليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبائع عند الشجرة وعمر رضى الله عنه لا يدري بذلك فبايعه عبد الله رضى الله عنه ثم ذهب إلى الفرس فجاء به إلى عمر رضى الله عنه وعمر رضى الله عنه يستلهم للقتال فأخبره أن رسول الله ﷺ يبائع تحت الشجرة فانطلق فذهب معه حتى بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى التى يتحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر رضى الله عنهما . ثم قال البخارى وقال هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا عمرو بن محمد العمرى أخبرنى نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : إن الناس كانوا مع رسول الله ﷺ قد تفرقوا فى ظلال الشجر فاذا الناس محدقون بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال يعنى عمر رضى الله عنه يا عبد الله انظر ما شأن الناس قد أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدهم يبائعون فبايع ثم رجع إلى عمر رضى الله عنه فخرج فبايع . وقد أسنده البيهقى عن أبي عمرو الأديب . عن أبي بكر الإسماعيلى عن الحسن بن سفيان عن دحيم حدثنى الوليد بن مسلم فذكره ، وقال الليث عن أبي الزبير عن جابر رضى الله عنه قال : كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فبايعناه وعمر رضى الله عنه أخذ يده تحت الشجرة وهى ممرة وقال بامعناه على أن لا نفر ولم نبايعه على الموت . رواه مسلم عن قتيبة عنه . وروى مسلم عن يحيى عن يزيد بن زريع عن خالد عن الحكم بن عبد الله الأعرج عن معقل بن يسار رضى الله عنه قال . لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبي صلى الله عليه وسلم يبائع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها على رأسه ونحن أربع عشرة مائة قال ولم نبايعه على الموت ولكن بايعناه على أن لا نفر . وقال البخارى حدثنا الكسى بن إبراهيم عن يزيد بن أبي عبيد عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة قال يزيد قلت يا أبا سلمة على أى شيء كنتم تبائعون يومئذ ؟ قال على الموت وقال البخارى أيضا حدثنا أبو عاصم حدثنا يزيد بن أبي عبيد عن سلمة رضى الله عنه قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ثم تنحيت فقال صلى الله عليه وسلم « يا سلمة ألا تبائع ؟ » قلت قد بايعت ، قال ﷺ « أقبل فبايع » فدنوت فبايعته ، قلت علام بايعته يا سلمة ؟ قال على الموت . وأخرجه مسلم من وجه آخر عن يزيد بن أبي عبيد ، وكذا روى البخارى عن عباد بن تميم أنهم بايعوه على الموت . وقال البيهقى أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو الفضل بن إبراهيم حدثنا أحمد بن سلمة حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا أبو عامر العقدي حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا عكرمة بن عمار الجامى عن إياس بن سلمة عن أبيه سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال : قدمنا الحديبية مع رسول الله ﷺ ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا تروىها ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها يعنى الركى فاما دعا وإما بصق فيها فجاشت فسقيننا واستقيننا . قال ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا إلى البيعة فى أصل الشجرة فبايعته أول الناس ثم بايع وبايع حتى إذا كان فى وسط الناس قال صلى الله عليه وسلم « بايعنى يا سلمة » قال قلت يا رسول الله قد بايعتك فى أول الناس قال صلى الله عليه وسلم « وأيضا » قال ورآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عزلا فأعطانى حجة أو درقة ثم بايع حتى إذا كان فى آخر الناس قال ﷺ « ألا تبائع يا سلمة ؟ » قال : قلت يا رسول الله قد بايعتك فى أول الناس وأوسطهم ، قال صلى الله عليه وسلم « وأيضا » فبايعته الثالثة ،

فقال رسول الله ﷺ « يا سلمة أين حجفتك أو درتكت التي أعطيتك ؟ » قال : قلت يا رسول الله لقيني عامر عزلا فأعطيتها إياه فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال « إنك كالذي قال الأول اللهم ابني حبيبا هو أحب إلي من نفسي » قال ثم إن المشركين من أهل مكة راسلونا في الصلح حتى مشى بعضنا في بعضي فاصطلحنا قال وكنت خادما لطاحلة بن عبيد الله رضى الله عنه أسقى فرسه وأجنبه وآكل من طعامه وتركت أهلي ومالي مهاجرا إلى الله ورسوله ، فلما اصطلحنا نحن وأهل مكة واختلط بعضنا في بعض أتيت شجرة فكشحت شوكتها ثم اضطجعت في أصلها في ظلها فأتاني أربعة من مشركي أهل مكة فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ فأبغضتهم وتحولت إلى شجرة أخرى فقاموا سلاحهم واضطجعوا فيها هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي يالها جرين قتل ابن زنيم فاخرطت سيفي فشددت على أولئك الأربعة وهم رقود فأخذت سلاحهم وجعلته ضغفا في يدي ثم قلت والذي كرم وجهه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، قال ثم جث بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال وجاء عمي عامر برجل من العبلات يقال له مكرز من المشركين يقوده حتى وقفنا بهم على رسول الله ﷺ في سبعين من المشركين فنظر إليهم رسول الله ﷺ وقال « دعوهم يكن لهم بدم الفجور وثناؤه » فعفا عنهم رسول الله ﷺ وأنزل الله عز وجل (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) الآية . وهكذا رواه مسلم عن إسحاق بن راهويه بسنده نحوه أو قريبا منه

وثبت في الصحيحين من حديث أبي عوانة عن طارق عن سعيد بن السيب قال : كان أبي ممن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة قال فانطلقنا من قابل حاجين فخفي علينا مكانها فان كان بينك لكم فأنتم أعلم ، وقال أبو بكر الحميدي حدثنا سفيان حدثنا أبو الزبير حدثنا جابر رضى الله عنه قال لما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة وجدنا رجلا منا يقال له الجدة بن قيس مخبئا تحت إبط بعيره ، رواه مسلم من حديث ابن جريج عن ابن الزبير به وقال الحميدي أيضا حدثنا سفيان عن عمرو أنه مع جابرا رضى الله عنه قال كنا يوم الحديبية ألفا وأربعمائة فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتم خير أهل الأرض اليوم » قال جابر رضى الله عنه . لو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة ، قال سفيان إنهم اختلفوا في موضعها أخرجاه من حديث سفيان ، وقال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا الليث عن أبي الزبير عن جابر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن هارون الفلاس المحرمي حدثنا سعيد بن عمرو الأشعثي حدثنا محمد بن ثابت العبدى عن خدش بن عياض عن أبي الزبير عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل من بايع تحت الشجرة كلهم الجنة إلا صاحب الجمل الأحمر » قال فانطلقنا نبتدره فاذا رجل قد أضل بعيره فقلنا تعال فبايع قال أصيب بعيرى أحب إلى من أن أباع وقال عبد الله بن أحمد حدثنا عبيد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا قرة عن أبي الزبير عن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « من يصعد الثانية ثنية المرافاة يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل » فكان أول من صعد خيل بنى الحزرج ثم تبادر الناس بعد فقال النبي ﷺ « كلكم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » فقلنا تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والله لأن أجد ضالقي أحب إلى من أن يستغفر لى صاحبكم فإذا هو رجل ينشد ضالة ، رواه مسلم عن عبيد الله به وقال ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرا رضى الله عنه يقول أخبرتنى أم مبشر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضى الله عنها « لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد » قالت بلى يا رسول الله فاتهرها فقالت حفصة رضى الله عنها (وإن منكم إلا واردها) فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد قال الله تعالى (ثم نجى الدين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا) رواه مسلم ، وفيه أيضا عن تقيية عن الليث عن أبي الزبير عن جابر رضى الله عنه قال : إن عبد الحاطب بن أبي بلتعة جاء يشكوا حاطبا فقال يا رسول الله ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله ﷺ : « كذبت لا يدخلها فانه قد شهد بدرا والحديبية » ولهذا قال تعالى في الثناء عليهم (إن الدين يبايعونك إنما يبايعون

الله ، يد الله فوق أيديهم فمَن نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (كما قال عز وجل في الآية الأخرى) لقد رضى الله عن المؤمنين إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا)

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سُوًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا * وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبرا رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا اللقاع في أهلهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قولهم لا على سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والصناعة ولهذا قال تعالى (يقولون بآلسنهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعاً) أى لا يقدر أحد أن يرد ما أَرَادَهُ اللهُ فيكم تعالى وتقدس وهو العليم بسر أئركم وصائركم وإن صانتمونا وناقتمونا ولهذا قال تعالى (بل كان الله بما تعملون خبيراً) ثم قال تعالى (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً) أى لم يكن تخلفكم تخلف معذور ولا عاص بل تخلف نقاق (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً) أى اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأقتهم وتستبد خضراؤهم ولا يرجع منهم خبر (وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بوراً) أى هلكى قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وغير واحد ، وقال قتادة فاسدين ، وقيل هى لغة عمان . ثم قال تعالى (ومن لم يؤمن بالله ورسوله) أى من لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله فان الله تعالى سيعذبه فى السعير وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر . ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك للتصرف فى أهل السموات والأرض (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما) أى لمن تاب إليه وأناب وخضع لديه

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذْ وَهَازِرُونَ نَنْبَغْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية إذ ذهب النى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم إلى خير يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المنى وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجاللتهم ومصابرتهم فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم فى ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فان الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خير وخدم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب التخلفين فلا يقع غير ذلك شرعا ولا قدرا ولهذا قال تعالى (يريدون أن يبدلوا كلام الله) قال مجاهد وقتادة وجوير وهو الوعد الذى وعده أهل الحديبية واختاره ابن جرير ، وقال ابن زيد هو قوله تعالى (فان رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن أخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالعقود أول مرة فاقعدوا مع الحالفين) وهذا الذى قاله ابن زيد فيه نظر لأن هذه الآية التى فى براءة نزلت فى غزوة تبوك وهى متأخرة عن عمرة

الحديبية وقال ابن جريج (يريدون أن يبدلوا كلام الله) يعنى بتشيطهم المسلمين عن الجهاد (قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) أى وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم (فسيقولون بل تحسدونا) أى أن تشرركم فى الغنائم (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا) أى ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُنُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ آبَائِهِمْ أَوْ يُسْلَمُونَ فَإِنْ يُطِيعُوا يَؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿

اختلف المفسرون فى هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولو بأس شديد طى أقوال (أحدها) أنهم هوازن رواه شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير أو عكرمة أو جميعا ورواه هشيم عن أبى بشر عنهما وبه يقول قتادة فى رواية عنه (الثانى) ثقيف قاله الضحاك (الثالث) بنو حنيفة قاله جوير ورواه محمد بن إسحق عن الزهرى وروى مثله عن سعيد وعكرمة (الرابع) هم أهل فارس رواه طى بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما وبه يقول عطاء ومجاهد وعكرمة فى إحدى الروايات عنه وقال كعب الأجباز : هم الروم ، وعن ابن أبى ليلى وعطاء والحسن وقتادة : هم فارس والروم ، وعن مجاهد هم أهل الأوثان وعنه أيضا هم رجال أولو بأس شديد ولم يعين فرقة وبه يقول ابن جريج وهو اختيار ابن جرير وقال ابن أبى حاتم حدثنا الأشج حدثنا عبد الرحمن بن إسحق القواريرى عن معمر عن الزهرى فى قوله تعالى (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) قال لم يأت أولئك بعدوحدثنا أبى حدثنا ابن أبى عمير حدثنا سفيان عن ابن أبى خالدة عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه فى قوله تعالى (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد) قال هم البارزون . قال وحدثنا سفيان عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوما صفار الأعين ذلف الأنوف كأن وجوههم المجان المطرقة » قال سفيان : هم الترك ، قال ابن أبى عمير وجدت فى مكان آخر حدثنا ابن أبى خالدة عن أبيه قال نزل علينا أبو هريرة رضى الله عنه ففسر قول رسول الله ﷺ « تقاتلوا قوما نعالهم الشعر » قال هم البارزون يعنى الأكراد وقوله تعالى (تقاتلونهم أو يسلمون) يعنى شرع لكم جهادهم وقتالهم فلا يزال ذلك مستمرا عليهم ولكم النصرة عليهم أو يسلمون فيدخلون فى دينكم بلا قتال بل باختيار . ثم قال عز وجل (فان طيعوا) أى تستجيبوا وتتفروا فى الجهاد وتؤدوا الذى عليكم فيه (يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تولوا كما توليتم من قبل) يعنى زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم (يعذبكم عذابا أليما) . ثم ذكر تعالى الأعذار فى ترك الجهاد فمنها لازم كالعصى والعرج المستمر وعارض كالمرض الذى يطرأ أيا ما ثم يزول فهو فى حال مرضه ملحق بدوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ . ثم قال تبارك وتعالى مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله (ومن يطع الله ورسوله يدخله جناب تجرى من تحته الأنهار ومن يتول) أى يتكل عن الجهاد ويقبل طى العاصى (يعذبه عذابا أليما) فى الدنيا بالمذلة وفى الآخرة بالنار والله تعالى أعلم .

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿

يخبر تعالى عن رضا عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وقد تقدم ذكر عدتهم وأنهم كانوا ألفا وأربعمائة وأن الشجرة كانت ممره بأرض الحديبية . قال البخارى حدثنا محمود حدثنا عبيد الله عن

إسرائيل عن طارق أن عبد الرحمن رضى الله عنه قال انطلقت حاجا فمررت بقوم يصلون فقلت ما هذا المسجد؟ قالوا هذه الشجرة حيث بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان فأثبتت سعيد بن المسيب فأخبرته فقال سعيد حدثني أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة قال فلما خرجنا من العام القبل نسيناها فلم تقدر عليها فقال سعيد إن أصحاب محمد ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم فأنتم أعلم

وقوله تعالى (فاعلم ما فى قلوبهم) أى من الصدق والوفاء والسمع والطاعة (فأنزل السكينة) وهى الطمأنينة (عليهم وأثابهم فتحا قريبا) وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خير وفتح مكة ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى (ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما)

قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان حدثنا عبيد الله بن موسى يعنى ابن عبيدة حدثني إياس بن سلمة عن أبيه قال : بينا نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس : البيعة البيعة نزل روح القدس ، قال فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة ممرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) قال بايع رسول الله ﷺ لعثمان رضى الله عنه باحدى يديه على الأخرى فقال الناس هنيئلا بن عفان يطوف بالبيت ونحن هنا فقال رسول الله ﷺ « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف »

﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا * وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأُذُنَ بَرْثُكُمْ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

قال مجاهد فى قوله تعالى (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها) هى جميع الغنائم إلى اليوم (فعجل لكم هذه) يعنى فتح خير ، وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما (فعجل لكم هذه) يعنى صلح الحديبية (وكف أيدي الناس عنكم) أى لم ينلكنم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكهم وحرىكم (ولتكون آية للمؤمنين) أى يعتبرون بذلك فان الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم وليعلموا بصلح الله هذا بهم أنه العالم بعواقب الأمور وأن الخير فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه فى الظاهر كما قال عز وجل (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) (ويهديكم صراطا مستقيما) أى بسبب إقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقكم رسول الله ﷺ وقوله تبارك وتعالى (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا) أى وغنيمة أخرى وفتح آخر معنا لم تكونوا تقدررون عليها قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم فانه تعالى يرزق عباده للتقين له من حيث لا يحتسبون ، وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة ما للراد بها فقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما هى خير وهذا على قوله فى قوله عز وجل (فعجل لكم هذه) إنها صلح الحديبية . وقاله الضحاك وابن إسحق وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال قتادة هى مكة واختاره ابن جرير ، وقال ابن أبى لىلى والحسن البصرى : هى فارس والروم ، وقال مجاهد : هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة وقال أبو داود الطيالسى

حدثنا شعبة عن سماك الخنفي عن ابن عباس رضي الله عنهما (وأخرى لم تقدرها عليها قد أحاط الله بها) قال هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم وقوله تعالى (ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأعداء ثم لا يجذون وليا ولا نصيرا) يقول عز وجل مبشرا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولا نهزم جيش الكفر فإرا مدبرا لا يجذون وليا ولا نصيرا لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين ثم قال تبارك وتعالى (سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أي هذه سنة الله وعادته في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين نصرهم على أعدائهم من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعددهم وكثرة المشركين وعددهم وقوله سبحانه وتعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا) هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم فلم يصل إليهم منهم سوء وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلهم عند المسجد الحرام بل صان كلا من الفريقين وأوجد بينهم صلحا فيه خيرة للمؤمنين وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة ، وقد تقدم في حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه حين جاءوا بأولئك السبعين الأسارى فأوثقهم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليهم فقال « أرسلوهم يكن لهم بدء الفجور وثناؤه » قال وفي ذلك أنزل الله عز وجل (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) الآية . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون حدثنا حماد عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم فأخذوا قال عفان : ففعا عنهم ونزلت هذه الآية (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) ورواه مسلم وأبو داود في سننه والترمذي والنسائي في التفسير من سننهما من طرق عن حماد بن سلمة به ، وقال أحمد أيضا حدثنا زيد بن الحباب حدثنا الحسين بن واقد حدثنا ثابت البناني عن عبد الله بن مغفل الزني رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله ﷺ في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب رضي الله عنه وسهيل بن عمرو بين يديه فقال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فأخذ سهيل يده وقال ما نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال « اكتب باسمك اللهم - وكتب - هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة » فأمسك سهيل ابن عمرو يده وقال لقد ظلمناك إن كنت رسوله اكتب في قضيتنا ما نعرف فقال « اكتب هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله » فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله تعالى بأمعاعهم فقمنا إليهم فأخذناهم فقال رسول الله ﷺ : « هل جئتم في عهد أحد ؟ أو هل جعل لكم أحد أمانا ؟ » فقالوا : لا ، فخلى سبيلهم فأنزل الله تعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) الآية . رواه النسائي من حديث حسين بن واقد به

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمي حدثنا جعفر عن ابن أبيزى قال لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم بالهدى وانتهى إلى ذى الحليفة قال له عمر رضي الله عنه يا نبي الله تدخل على قوم لك حرب بغير سلاح ولا كراع ؟ قال فبعث ﷺ إلى المدينة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حمله فلما دنا من مكة منعه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بمنى فأتاه عينه أن عكرمة بن أبي جهل قد خرج عليك في خمسمائة فقال لحالد بن الوليد رضي الله عنه « يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الحيل » فقال خالد رضي الله عنه أنا سيف الله وسيف رسوله فيومئذ مني سيف الله فقال يا رسول الله ابغضني أين شئت فبعثه على خيل فلقى عكرمة في الشعب فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ثم عاد في الثانية فهزمه حتى أدخله حيطان مكة ثم عاد في الثالثة فهزمه حتى أدخله حيطان مكة فأنزل الله تعالى (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة - إلى قوله تعالى - عذابا أليبا) قال فكف الله عز وجل النبي ﷺ عنهم

من بعد أن أظفرو عليهم لبقايا من المسلمين كانوا أبغوا فيها كراهية أن تطأهم الحيل ورواه ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح وهذا السياق فيه نظر فانه لا يجوز أن يكون عام الحديبية لأن خالدا رضى الله عنه لم يكن أسلم بل قد كان طليعة للمشركين يومئذ كما ثبت في الصحيح ولا يجوز أن يكون في عمرة القضاء لأنهم قاضوه على أن يأتي في العام القابل فيعتمر ويقيم بمكة ثلاثة أيام ولما قدم ﷺ لم يمانعوه ولا حاربوه ولا قاتلوه ، فان قيل فيكون يوم الفتح فالجواب ولا يجوز أن يكون يوم الفتح لأنه لم يسق عام الفتح هديا وإنما جاء محاربا مقاتلا في جيش عرمرم فهذا السياق فيه خلل وقد وقع فيه شيء فليتأمل والله أعلم . وقال ابن إسحاق : حدثني من لاأنهم عن عكرمة مولى ابن عباس رضى الله عنه قال : إن قريشا بعثوا أربعين رجلا منهم أوحسين وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيروا من أصحابه أحدا فأخذوا أخذا فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعفا عنهم وخلي سبيلهم وقد كانوا رموا إلى عسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والنبل . قال ابن إسحاق وفي ذلك أنزل الله تعالى (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) الآية وقال قتادة ذكر لنا أن رجلا يقال له ابن زنم اطلع على الثنية من الحديبية فرماه للمشركون بسهم فقتلوه فبعث رسول الله ﷺ خيلا فأتوه باثني عشر من الكفار فقال لهم « هل لكم على عهد ؟ هل لكم على ذمة ؟ » قالوا : لا . فأرسلهم وأنزل الله تعالى في ذلك (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم) الآية

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَنَذَرْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

يقول تعالى عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن مالأهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ (هم الذين كفروا) أى هم الكفار دون غيرهم (وصدوكم عن المسجد الحرام) أى وأنتم أحق به وأنتم أهلها في نفس الأمر (والهدى معكوفاً أن يبلغ محله) أى وصدوا الهدى أن يصل إلى محله وهذا من بغيتهم وعنادهم وكان الهدى سبعين بدنة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى ، وقوله عز وجل (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) أى بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم لكننا سلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبدتم خضراءهم ولكن بين أفعالهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ولهذا قال تعالى (لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة) أى إثم وغرامة (بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء) أى يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ويرجع كثير منهم إلى الاسلام ثم قال تبارك وتعالى (لوتزيلوا) أى لوتميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم (لنذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أى لسلطانكم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعا قال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أبو الزنبايع روح بن الفرج حدثنا عبد الرحمن بن أبي عباد الكشي حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد مولى بني هاشم حدثنا حجر بن خلف قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول سمعت جنيد بن سبيع يقول قالت ربيعة أول النهار كافرا وقتلت معه آخر النهار مسلما وفيها نزلت (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) قال كنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين ثم روى عن طريق أخرى عن محمد بن عباد الكشي به وقال فيه عن أبي جمعة جنيد بن سبيع فذكره والصواب أبو جعفر حبيب بن سباع ورواه ابن أبي حاتم عن حديث حجر بن خلف به

وقال كنا ثلاثة رجال وتسع نسوة وفيما نزلت (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات) وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري حدثنا عبد الله بن عثمان بن جبلة عن أبي حمزة عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (لوتزيلوا لعذبا الذين كفروا منهم عذابا أليما) يقول لو تزيل الكفار من المؤمنين لعذبهم الله عذابا أليما بقتلهم إياهم . وقوله عز وجل (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) وذلك حين أبوا أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم وأبوا أن يكتبوا هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله (فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى) وهي قول لا إله إلا الله كما قال ابن جرير وعبد الله بن الإمام أحمد حدثنا الحسن بن قزعة أبو علي البصري حدثنا سفيان بن حبيب حدثنا شعبة عن ثور عن أبيه عن الطفيل يعني ابن أبي ابن كعب عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (وألزمهم كلمة التقوى) قال « لا إله إلا الله » وكذا رواه الترمذي عن الحسن بن قزعة وقال غريب لا نعرفه إلا من حديثه وسألت أبا زرعة عنه فلم يعرفه إلا من هذا الوجه وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن منصور الرمادي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة رضي الله عنه أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بجهنم وحسابه على الله عز وجل » وأنزل الله عز وجل في كتابه وذكر قوما فقال (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون) وقال الله جل ثناؤه (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكانهم رسول الله ﷺ على قضية للذة وكذا رواه بهذه الزيادات ابن جرير من حديث الزهري والظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري والله أعلم . وقال مجاهد : كلمة التقوى الاخلاص ، وقال عطاء بن أبي رباح هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، وقاله يونس بن بكير عن ابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن المسور (وألزمهم كلمة التقوى) قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن عباية بن ربيع عن أبيه رضي الله عنه (وألزمهم كلمة التقوى) قال لا إله إلا الله والله أكبر ، وكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى (وألزمهم كلمة التقوى) قال : يقول شهادة أن لا إله إلا الله وهي رأس كل تقوى ، وقال سعيد بن جبير (وألزمهم كلمة التقوى) قال لا إله إلا الله والجهاد في سبيله ، وقال عطاء الخراساني هي لا إله إلا الله محمد رسول الله وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن الزهري (وألزمهم كلمة التقوى) قال بسم الله الرحمن الرحيم . وقال قتادة (وألزمهم كلمة التقوى) قال لا إله إلا الله (وكانوا أحق بها وأهلها) كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها (وكان الله بكل شيء علما) أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر وقد قال النسائي : حدثنا إبراهيم بن سعيد حدثنا شعبة بن سوار عن أبي رزين عن عبد الله بن العلاء بن نوير عن بشر بن عبد الله عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه كان يقرأ (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) ولوحهم كما هموا لفسد المسجد الحرام فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فأغلظ له فقال إنك لتعلم أني كنت أدخل على رسول الله ﷺ فيعلمني مما علمه الله تعالى ، فقال عمر رضي الله عنه بل أنت رجل عندك علم وقرآن فاقرأ وعلم مما علمك الله تعالى ورسوله

﴿ وهذا ذكر الأحاديث الواردة في قصة الحديبية وقصة الصلح ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا محمد بن إسحاق بن يسار عن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور ابن مخزومة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما قالا : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد زيارة البيت لا يريد قتالا وساق معه المدي سبعين بدنة وكان الناس سبعمئة رجل فكانت كل بدنة عن عشرة وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال يا رسول الله هذه قريش قد جمعت بمسيرك فخرجت معها المود المطايل قد لبست جلود النمر يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبدا وهذا خالد بن الوليد في خيلهم

قد قدموه إلى كراع الغميم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس ؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا ، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الاسلام وهم وافرون وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فإذا تظن قريش فوالله لأزال أجاهدم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يظهرني الله عز وجل أو تنفرد هذه السافلة » ثم أمر الناس فسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض على طريق تخرجه على ثنية للرار والحديبية من أسفل مكة ، قال فسلك بالجيش تلك الطريق فلما رأت خيل قريش قرة الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا سلك ثنية الرار بركت ناقته فقال الناس خلأت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلأت وما ذلك لها بخلق ولكن حبسها حابس الليل عن مكة ، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ثم قال صلى الله عليه وسلم للناس « انزلوا » قالوا يا رسول الله ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سهما من كنانته فأعطاه رجلا من أصحابه فنزل في قليب من تلك القلب ففرزه فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بطن . فلما اطمان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة فقال لهم كقولهم لبشر بن سفيان فرجعوا إلى قريش فقالوا : يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد صلى الله عليه وسلم إن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحقه فاتهموم . قال محمد بن إسحاق : قال الزهري وكانت خزاعة عية نصح رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم مشركها ومسلمها لا يخفون على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم شيئاً كان بمكة فقالوا وإن كان إنما جاء لذلك فوالله لا يدخلها أبداً علينا عنوة ولا يتحدث بذلك العرب ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص أحد بني عامر بن لؤي فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هذا رجل غادر » فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم كلمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بنحو ما تكلم به مع أصحابه ثم رجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعثوا إليه الحليس بن علقمة الكنانى وهو يومئذ سيد الاحابيش فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « هذا من قوم يتأهلون فابغوا الهدى » فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله رجع ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى فقال يا معشر قريش لقد رأيت ما لا يحل صد الهدى في قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله قالوا اجلس إنما أنت أعرابى لا علم لك . فبعثوا إليه عروة بن مسعود الثقفى فقال يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقى منكم من تبعثون إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ وقد عرفتم أنكم إلى والد وأنا ولد وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومي ثم جئت حتى آسيكم بنفسى قالوا صدقت ما أنت عندنا بمتهم فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه فقال يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتقضها إنما قريش قد خرجت معها العوذ اللطافيل قد لبسوا جلود النمرور يهاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوة أبداً وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً قال وأبو بكر رضى الله عنه قاعد خلف رسول الله ﷺ فقال : امصص بظر اللات أنحن نشتكف عنه ؟ قال من هذا يا محمد ؟ قال صلى الله عليه وسلم « هذا ابن أبى قحافة » قال أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ولكن هذه بهائم تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم واللغيرة بن شعبة رضى الله عنه واقف على رأس رسول الله ﷺ بالحديد قال ققرع يده ثم قال أمسك يدك عن لحية رسول الله ﷺ قبل والله أن لا تصل اليك قال ويحك ما أفظك وأغلظك فتبسم رسول الله ﷺ قال من هذا يا محمد ؟ قال ﷺ « هذا ابن أخيك للغيرة بن شعبة » قال أغدر وهل غسلت سوانتك إلا بالأمس ؟ قال فكلمه رسول الله ﷺ بمثل ما كلم به أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً قال فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضأ وضوءاً إلا ابتدروه . ولا يصق جاقاً إلا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه فرجع إلى قريش فقال يا معشر قريش إني جئت كسرى فى ملكه وجئت قيصر

والنجاشي في ملكهما والله ما رأيت ملكا قط مثل محمد صلى الله عليه وسلم في أصحابه ولقد رأيت قوما لا يسمونه
 شيئا أبدا فروا رأيكم : قال وقد كان رسول الله ﷺ قبل ذلك بعث خراش بن أمية الخزاعي إلى مكة
 وحمله على جمل له يقال له الثعلب فلما دخل مكة عقرت به قريش وأرادوا قتل خراش فمنعهم الأحابيش حتى أتى
 رسول الله ﷺ فدعا عمر رضي الله عنه ليعثه إلى مكة فقال يارسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وليس
 بها من بني عدى أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكن أدلك على رجل هو أعزمني بها
 عثمان بن عفان رضي الله عنه قال فدعا رسول الله ﷺ فبعثه يخبرهم أنه لم يأت لحرب أحد وإنما جاء زائرا لهذا
 البيت معظما لحرمة فخرج عثمان رضي الله عنه حتى أتى مكة فلقى أبا بن سعيد بن العاص فنزل عن دابته وحمله بين
 يديه وأردفه خلفه واجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان رضي الله عنه حتى أتى أبا سفيان وعظما
 قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به فقالوا لعثمان رضي الله عنه ان شئت ان تطوف بالبيت
 فطف به فقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال واحتبسته قريش عندها قال وبلغ
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عثمان رضي الله عنه قد قتل . قال محمد فحدثني الزهري ان قريشا بثوا سهيل بن
 عمرو وقالوا ائت عمدا فصالحه ولا تلن في صلحه الا ان يرجع عنا عامه هذا فوالله لا تحدث العرب انه دخلها
 علينا عنوة ابدا فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال « قد أراد القوم الصلح حين بثوا هذا الرجل » فلما
 انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلموا وأطلا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح فلما التأم الأمر
 ولم يبق الا الكتاب وثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال يا أبا بكر أوليس برسول
 الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى قال فعلام نعطى الدية في ديننا ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه
 الزم غرزه حيث كان فإني أشهد أنه رسول الله فقال عمر رضي الله عنه وأنا أشهد ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
 فقال يارسول الله أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال صلى الله عليه وسلم « بلى » قال فعلام نعطى الدية في
 ديننا ؟ فقال ﷺ « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعني » ثم قال عمر رضي الله عنه ما رلت
 أصوم وأصلي وأصدق وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيرا قال
 ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضي الله عنه فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم »
 فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اكتب باسمك اللهم .
 هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال سهيل بن عمرو لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب هذا
 ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو على وضع الحرب عشرين سنة يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن
 بعض على أنه من أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه بغير إذن وليه رده عليه ومن أتى قريشا بمن مع رسول
 الله ﷺ لم يردوه عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا أسلح ولا أغلال . وكان في شرطهم حين كتبوا الكتاب :
 انه من أحب أن يدخل في عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه
 فتوالت خزاعة فقالوا نحن في عقد رسول الله ﷺ وعهده وتوالت بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم
 وأنتك ترجع عنا عامنا هذا فلا تدخل علينا مكة وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك وأقت بها ثلاثا
 معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القرب فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب إذ جاءه أبو جندل بن
 سهيل بن عمرو في الحديد قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 وسلم خرجوا وهم لا يشككون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوا من الصلح والرجوع
 وما تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا أن يهلكوا . فلما رأى
 سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وقال يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا قال « صدقت » فقام
 إليه فأخذ بتلابيه قال وصريح أبو جندل بأعلى صوته يامعشر المسلمين أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنونني في ديني قال

فزاد الناس شرا إلى ما بهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله تعالى جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا . إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا فأعطيناهم على ذلك وأعطيناهم عليه عهدا وإنا لن نعذر بهم » قال فوثب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجعل يمشى مع جندل إلى جنبه ويقول اصبر أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم دم كلب قال ويدنى قائم السيف منه قال يقول رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه قال ففطن الرجل بأبيه ، قال ونفذت القضية فلما فرغا من الكتاب وكان رسول الله ﷺ يصلى فى الحرم وهو مضطرب فى الحل قال ققام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس انمروا واحلقوا » قال فما قام أحد ، قال ثم عاد صلى الله عليه وسلم بمثلها فما قام رجل ثم عاد صلى الله عليه وسلم بمثلها فما قام رجل ثم عاد صلى الله عليه وسلم بمثلها فما قام رجل فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على أم سلمة رضى الله عنها فقال « يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ » قالت يا رسول الله قد دخلهم ما رأيت فلا تكلمن منهم إنسانا واعمدى إلى هديك حيث كان فانخره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك فخرج رسول الله ﷺ لا يكلم أحدا حتى إذا أتى هديه فنخره ثم جلس فحلق قال ققام الناس ينحرون ويحلقون حتى إذا كان بين مكة والمدينة فى وسط الطريق نزلت سورة الفتح ، هكذا ساقه أحمد من هذا الوجه وهكذا رواه يونس بن بكير وزيد البكائى عن أبى إسحاق بنحوه . وقد رواه أيضا عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى به نحوه وخالفه فى أشياء وفيه إغراب وقد رواه البخارى رحمه الله فى صحيحه فساقه ساقا حسنة مطولة بزيادات جيدة فقال فى كتاب الشروط من صحيحه حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أنا معمر أخبرنى الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير عن السور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالا . خرج رسول الله ﷺ ومن الحديدية فى بضع عشرة مائة من أصحابه فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى وأشعره وأحرم منها بعمرة وبعث عينا من خزاعة وسار حتى إذا كان بغدير الأشطاط أتاه عينة فقال إن قريشا قد جمعوا لك جموعا والأك الأحابيش وهم مقاتلون وصادوك وما نعوك فقال ﷺ « أشيروا أيها الناس على أترون أن نميل على عيالهم وذرائى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت » وفى لفظ « ترون أن نميل على ذرائى هؤلاء الذين أعانواهم فإن أتونا كان الله قد قطع عنا من المشركين والأتراك منهم محزونين » وفى لفظ « فإن قعدوا قعدوا موتورين مجهودين محزونين وإن نجوا يكن عناق قطعها الله عز وجل أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه » فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حربا فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه ، وفى لفظ فقال أبو بكر رضى الله عنه والله ورسوله علم إنما جئنا معتمرين ولم نجىء لقتال أحد ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فروحوا إذن » وفى لفظ « فامضوا على اسم الله تعالى » حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن خالد ابن الوليد فى خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس حل حل فألحت فقالوا خلأت القصواء خلأت القصواء فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل — ثم قال صلى الله عليه وسلم — والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمت الله تعالى إلا أعطيتهم إياها » ثم زجرها فوثبت فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديدية على تمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضا فلم يلبث الناس حتى نزحوا وشكى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش فأنزع ﷺ من كنانته سهما ثم أمرهم أن يجعلوه فيه فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا عنه . فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من قومه من خزاعة وكانوا عية نصح رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل تهامة فقال إني تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى نزلوا عدا مياة الحديدية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلون وصادوك عن البيت فقال النبي ﷺ « إنا لم نجىء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشا قد نهكهم الحرب فأضرت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويغلاؤا بينى وبين الناس فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما

دخل فيه الناس فعلوا والا فقد حموا ، وإن هم أبوا فواللهي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفني أو لينفذن الله أمره . قال بديل سأبلغهم ما تقول فانطلق حتى أتى قريشا فقال : إنا قد جئنا من عند هذا الرجل ومعهنا يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا فقال سفهاؤهم لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه شيء وقال ذوو الرأي منهم هات ما سمعته يقول قال سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام عروة ابن مسعود فقال أي قوم أستم بالوالد ؟ قالوا بلى ، قال أولست بالولد ؟ قالوا بلى ، قال فهل تهموني قالوا : لا ، قال أستم تعلمون أني استغفرت أهل عكاظ فلما بلحوا على جيشكم بأهلي وولدي ومن أطاعني ؟ قالوا بلى قال فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوها ودعوني آتة قالوا آتة فأتاه فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي ﷺ له نحوا من قوله لبديل بن ورقاء فقال عروة عند ذلك أي محمد أرايت إن استأصلت قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أصله قبلك ؟ وإن تك الأخرى فاني والله لأرى وجوها واني لأرى أشواجا من الناس خليفاً أن يغروا ويدعوك فقال له أبو بكر رضي الله عنه امصص بظر اللات أنحن نفر وندعه قال من ذا قالوا أبو بكر فقال أما والله نفسي بيده لولا يداك عندي لم أجرك بها لأجبتك قال وجعل يكلم النبي ﷺ فكلما كلمه أخذ بلحيته ﷺ وللغيرة بن شعبة رضي الله عنه قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه اللغفر وكلما أهوى عروة يده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنعل السيف وقال آخر يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع عروة رأسه وقال من هذا قال للغيرة بن شعبة قال أي غدر ألت أسمى في غدرتك ، وكان للغيرة ابن شعبة رضي الله عنه صحب قوما في الجاهلية قتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء فاسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أما الإسلام فاقبل ، وأما المال فلست منه في شيء » ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينه قال فوالله ما تتخمن رسول الله ﷺ نخامة الا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ﷺ فرجع عروة إلى أصحابه فقال أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على كسرى وقيصر والنجاشي والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ والله إن تتخمن نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشداً فاقبلوها فقال رجل منهم من بني كنانة دعوني آتة فقالوا آتة فلما أشرف على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم قال النبي ﷺ « هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له » فبعثت له واستقبله الناس يلبنون فلما رأى ذلك قال سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت فلما رجع إلى أصحابه قال رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت . فقام رجل منهم يقال له مكر بن حفص ، فقال دعوني آتة فقالوا آتة فلما أشرف عليهم قال النبي صلى الله عليه وسلم « هذا مكرز وهو رجل فاجر » فجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فينبأ هو يكلم إذ جاء سهيل بن عمرو . وقال معمر أخبرني أيوب عن عكرمة أنه قال لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ « قد سهل لكم من أمركم » . قال معمر قال الزهري في حديثه فجاء سهيل بن عمرو فقال هات اكتب بيننا وبينك كتاباً فدعا النبي صلى الله عليه وسلم بعلي رضي الله عنه وقال « اكتب بسم الرحمن الرحيم » فقال سهيل ابن عمرو أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب فقال المسلمون والله لا نكتبها الا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ﷺ « اكتب باسمك اللهم » ثم قال — هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ فقال سهيل والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصدناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ « والله اني لرسول الله وأن كذبتموني ، اكتب محمد بن عبد الله » قال الزهري وذلك أقوله « والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمت الله تعالى الا أعطيتهم إياها » فقال له النبي ﷺ على أن تخلوا بيننا وبين

البيت فتطوف به فقال سهيل والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام القبل فكتب فقال سهيل وطي أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا فقال للمسلمون سبحان الله كيف يرد إلى الشركين وقد جاء مسلماً ؟ فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين فقال سهيل هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلى فقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنا لم نقض الكتاب بعد » قال فوالله إذا لا أصلحك على شيء أبدا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « فأجزه لي » قال ما أنا بمجيز ذلك لك قال « بلى فافعل » قال ما أنا بفاعل قال مكرز بلى قد أجزنا لك قال أبو جندل أي معشر المسلمين أرد إلى الشركين وقد جئت مسلماً ألا ترون ما قد لقيت ؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله عز وجل . قال عمر رضي الله عنه فأنتيت نبي الله صلى الله عليه وسلم فقلت ألسنت نبي الله حقا ؟ قال صلى الله عليه وسلم « بلى » قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال « بلى » قلت فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا ؟ قال « بلى » إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري قلت أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به قال صلى الله عليه وسلم : « بلى فأخبرتكم أنا تأتية العام » . قلت لا قال « بلى » : فإنك آتية ومطوف به : قال فأنتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال بلى قلت فلم نعطي الدنيا في ديننا إذا ؟ قال أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره فاستمسك بفرزه فوالله إنه على الحق قلت أو ليس كان يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال بلى ، قال فأخبرك أنك تأتية العام ؟ قلت لا قال فانك تأتية وتطوف به .

قال الزهري قال عمر رضي الله عنه فعملت لذلك أعمالاً . قال فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله ﷺ لأصحابه « قوموا فانحروا ثم احلقوا » قال فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ﷺ ذلك ثلاث مرات فلما لم يبق منهم أحد دخل صلى الله عليه وسلم على أم سلمة رضي الله عنها فذكر لها ما لقي من الناس قالت له أم سلمة رضي الله عنها يا نبي الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدئك وتدعو حائك فيحلقك فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدئه ودعا حائه فحلقه فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات - حتى بلغ - بعصم الكوافر) فطلق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى إذا بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم فقال أبو بصير لأحد الرجلين والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر فقال أجل والله إنه لجيد لقد جربت منه ثم جربت فقال أبو بصير أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد وفر الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه « لقد رأي هذا ذعرا » فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال قتل والله صاحبي واني لقتول فجاء أبو بصير فقال يا رسول الله قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم ثم نجاني الله تعالى منهم فقال النبي ﷺ « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد » فلما مع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر قال وتلفت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها قتلواهم وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم فن أتاها منهم فهو آمن فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليهم وأنزل الله عز وجل (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم بطن مكة - حتى بلغ - حمية الجاهلية) وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه رسول الله ولم يقرؤا بيسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت ، هكذا ساقه البخاري

ههنا وقد أخرجه في التفسير وفي عمرة الحديبية وفي الحج وغير ذلك من حديث معمر وسفيان بن عيينة كلاهما عن الزهري به . ووقع في بعض الأماكن عن الزهري عن عروة بن مروان والصور عن رجال من أصحاب النبي ﷺ بذلك وهذا أشبه والله أعلم ولم يسقه أبسط من ههنا وبينه وبين سياق ابن إسحق تباين في مواضع وهناك فوائد ينبغي إضافتها إلى ما هنا ولذلك سقنا تلك الرواية وهذه والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . وقال البخاري في التفسير حدثنا أحمد بن إسحق السلمي حدثنا يعلى حدثنا عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت قال أتيت أبا وائل أسأله فقال كنا بصفين فقال رجل ألم تر إلى الدين يدعون إلى كتاب الله فقال طي بن أبي طالب رضي الله عنه نعم فقال سهل بن حنيف اتهموا أنفسهم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ولو نرى قتالا لقاتلنا فجاء عمر رضي الله عنه فقال ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ أليس قتالنا في الجنة وقتلام في النار ؟ فقال بلى قال فقيم نعطي الدنيا في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا ؟ فقال ﷺ « يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا » فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر رضي الله عنه فقال يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ فقال يا ابن الخطاب إنه رسول الله ولن يضيعه الله أبدا فزلت سورة الفتح . وقد رواه البخاري أيضا في مواضع أخر ومسلم والنسائي من طرق أخر عن أبي وائل وسفيان بن سلمة عن سهل بن حنيف به ، وفي بعض ألفاظه يا أيها الناس اتهموا الرأي فلقد رأيتني يوم أني جندل ولو أقدر على أن أقدر على رسول الله ﷺ أمره لرددته ، وفي رواية فزلت سورة الفتح فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأها عليه

وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : إن قريشا صالحوا النبي ﷺ وفيهم سهل بن عمرو فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهل لا ندرى ما بسم الله الرحمن الرحيم ولكن اكتب باسمك اللهم فقال صلى الله عليه وسلم « اكتب من محمد رسول الله » قال لو نعلم أنك رسول الله لا تبعناك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لم اكتب من محمد بن عبد الله » واشتروطوا على النبي صلى الله عليه وسلم أن من جاء منكم نرده عليكم ومن جاءكم منا رددنموه علينا فقال يا رسول الله أنكتب هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله » رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به : وقال أحمد أيضا حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن عكرمة بن عمار قال حدثني ممالك عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال لما خرجب الحرورية اعتزلوا فتملت لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية صالح للمشركين فقال لعلي رضي الله عنه « اكتب يا طي هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » قالوا نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « امح يا طي رسولك امح يا طي واكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، والله لرسول الله خير من طي وقد محاه نفسه ولم يكن محوه ذلك يحويه من النبوة أخرجت من هذه » قالوا نعم ورواه أبو داود من حديث عكرمة بن عمار الجامي بنحوه وروى الإمام أحمد عن يحيى ابن آدم عن زهير بن حرب عن محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نحر رسول الله ﷺ يوم الحديبية سبعين بدنة فيها جمل لأبي جهل فلما صدت عن البيت خنت كما تحن إلى أولادها

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَامَيْنِ مُخْلِطِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُصْرَبِينَ لَا تَحْفَونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْمَلُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝ ﴾

لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء دخلها وعبد الله بن رواحه رضى الله عنه أخذ بخطام ناقته وهو يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله إني شهيد أنه رسوله خلوا فكل الخير في رسوله
يارب إني مؤمن بقبيله نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهري عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال لما دخل رسول الله ﷺ مكة في عمرة القضاء مشى عبد الله بن رواحه رضى الله عنه بين يديه وفي رواية وابن رواحه أخذ بغرزه وهو رضى الله عنه يقول :

خلوا بني الكفار عن سبيله قد نزل الرحمن في تنزيله بأن خير القتل في سبيله
يارب إني مؤمن بقبيله نحن قتلناكم على تأويله كما قتلناكم على تنزيله
اليوم نضربكم على تأويله ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن الصباح حدثنا إسماعيل يعني ابن زكريا عن عبد الله يعني ابن عثمان عن أبي الطفيل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مر الظهران في عمرته بلغ أصحاب رسول الله ﷺ أن قريشا تقول ما يتبعثون من العجف فقال أصحابه لو اتحرننا من ظهرنا فأكلنا من لحمه وحسونا من مرقه أصبحنا غدا حين ندخل على القوم وبنا جماعة قال ﷺ لا تفعلوا ولكن اجمعوا إلى من أزوادكم فجمعوا له وبسطوا الأنطاع فأكلوا حتى تركوا وحشا كل واحد منهم في جرابه ، ثم أقبل رسول الله ﷺ حتى دخل المسجد وقعدت قريش نحو الحجر فاضطجع ﷺ بردائه ثم قال : « لا يرى القوم فيكم غميمة » فاستلم الركن ثم رمل حتى إذا تغيب بالركن اليماني مشى إلى الركن الأسود فقالت قريش ما ترضون بالمشى أما إنكم لتتقرون نقر الظاء ففعل ذلك ثلاثة أشواط فكانت سنة قال أبو الطفيل فأخبرني ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ فعل ذلك في حجة الوداع . وقال أحمد أيضا حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد ابن زيد حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة وقد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءا فقال المشركون أنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حمى يثرب ولقوا منها سوءا وجلس المشركون من الناحية التي تلى الحجر فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ما قالوا فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة ليرى المشركون جلدهم قال فرملوا ثلاثة أشواط وأمرهم أن يمشوا بين الركنين حيث لا يراهم المشركون ولم يمنع النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم فقال المشركون : أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم هؤلاء أجلد من كذا وكذا . أخرجاه في الصحيحين من حديث حماد بن زيد به . وفي لفظ قدم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم صبيحة رابعة يعني من ذى القعدة فقال المشركون إنه يقدم عليكم وقد وهنتهم حمى يثرب فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاثة ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا إبقاء عليهم قال البخاري وزاد ابن سلمة يعني حماد بن سلمة عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما قدم النبي ﷺ لعامة الذي استأمن قال ارملوا ليرى المشركين قوتهم والمشركون من قبل قيعقان وحدثنا محمد حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال إنما سعى النبي ﷺ بالبيت وبالصفا والروة ليرى المشركون قوته . ورواه في مواضع أخر ومسلم والقسائي من طرق عن سفيان بن عيينة به : وقال أيضا حدثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا إسماعيل بن أبي خالد أنه مع ابن أبي أوفى يقول لما اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سترناه من غلمان المشركين ومنهم أن يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم انفراد به البخاري دون مسلم ، وقال البخاري أيضا : حدثنا محمد بن رافع حدثنا شريح بن

النعمان حدثنا فليح وحدثني محمد بن الحسين بن إبراهيم حدثنا أبي حدثنا فليح بن سليمان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال إن رسول الله ﷺ خرج معتمرا فحال كفار قريش بينه وبين البيت فحرقه هديه وحلق رأسه بالحديبية وقاضاهم على أن يعتمر العام المقبل ولا يحمل سلاحا عليهم إلا سيوا فلا يقيم بها إلا ما أحبوا . فاعتمر صلى الله عليه وسلم من العام للمقبل فدخلها كما كانت صالحهم فلما أن أقام بها ثلاثا أمره أن يخرج فخرج ﷺ وهو في صحيح مسلم أيضا . وقال البخاري أيضا حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء رضي الله عنه قال اعتمر النبي ﷺ في ذي القعدة فأبى أهل مكة أن يدعوه يدخل مكة حتى قاضاهم على أن يقيموا بها ثلاثة أيام فلما كتبوا الكتاب كتبوا : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله قالوا لا نقر بهذا ولو نعلم أنك رسول الله ما منعناك شيئا ولكن اكتب محمد بن عبد الله قال صلى الله عليه وسلم « أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله » ثم قال ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه « أمح رسول الله » قال رضي الله عنه لا والله لا أحملك أبدا فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب وليس يحسن يكتب فكتب « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله أن لا يدخل مكة بالسلاح إلا بالسيف في القرباب وأن لا يخرج من أهلها بأحد أراد أن يتبعه وأن لا يمنع من أصحابه أحدا إن أراد أن يقيم بها » فلما دخلها ومضى الأجل أتوا عليا فقالوا قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فتبعته ابنة حمزة رضي الله عنه تنادي ياعم ياعم فتناولها على رضي الله عنه فأخذ بيدها وقال لفاطمة رضي الله عنها : دونك ابنة عمك فحملتها فاختصم فيها على وزيد وجعفر رضي الله عنهم فقال على رضي الله عنه أنا أخذتها وهي ابنة عمي وقال جعفر رضي الله عنه : ابنة عمي وخالتها تحق ، وقال زيد رضي الله عنه : ابنة أخى قضى بها النبي صلى الله عليه وسلم لحالتها وقال « الحالة بمنزلة الأم » وقال لعلي رضي الله عنه « أنت مني وأنا منك » وقال لجعفر رضي الله عنه « أشبهت خلقى وخلقي » وقال صلى الله عليه وسلم لزيد رضي الله عنه « أنت أخونا ومولانا » قال على رضي الله عنه ألا تزوج ابنة حمزة رضي الله عنه ؟ قال صلى الله عليه وسلم « إنها ابنة أخى من الرضاعة » تفرد به من هذا الوجه ، وقوله تعالى (فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا) أى فعمل الله عز وجل من الحيرة والصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم (فجعل من دون ذلك) أى قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم فتحا قريبا وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين ، ثم قال تبارك وتعالى مبشرا للمؤمنين بنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم على عدوه وعلى سائر أهل الأرض (هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) أى بالعلم النافع والعمل الصالح فان الشريعة تشتمل على شيئين علم وعمل فالعلم الشرعى صحيح والعمل الشرعى مقبول فاخباراتها حق وإنشائها عدل (ليظهره على الدين كله) أى على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين ومشركين (وكفى بالله شهيدا) أى أنه رسوله وهو ناصره والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّامًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيْفِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

يجبر تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب فقال (محمد رسول الله) وهذا مبتدأ وخبر وهو مشتمل على كل وصف جميل ثم تثنى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) كما قال عز وجل (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعززة على الكافرين) وهذه

صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار ، رحيا بر بالأخيار ، غضوبا بعوسا في وجه الكافر ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » . وشبك عليه السلام بين أصابعه ، كلا الحديثين في الصحيح

وقوله سبحانه وتعالى (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال ووصفهم بالاخلاص فيها لله عز وجل والأحساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة للمشتعلة على فضل الله عز وجل وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول كما قال وجل وعلا (ورضوان من الله أكبر) . وقوله جل جلاله (سيأهم في وجوههم من أثر السجود) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما سيأهم في وجوههم يعني السمات الحسن وقال مجاهد وغير واحد يعني الخشوع والتواضع . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافسي حدثنا حسين الجعفي عن زائدة عن منصور عن مجاهد (سيأهم في وجوههم من أثر السجود) قال الخشوع قلت ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه فقال ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون . وقال السدي الصلاة تحسن وجوههم ، وقال بعض السلف من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار ، وقد أسنده ابن ماجه في سننه عن إسماعيل بن محمد الصالح عن ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار » والصحيح أنه موقوف . وقال بعضهم إن للحسنة نورا في القلب وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس . وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وقلبت لسانه ، والفرس أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله عز وجل ظاهره للناس كما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال من أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته . وقال أبو القاسم الطبراني حدثنا محمود بن محمد اللوزي حدثنا حامد بن آدم اللوزي حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عبيد الله العرزمي عن سلمة بن كهيل عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله تعالى رداها إن خيرا فخير وإن شرا فشر » العرزمي متروك . وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كائن ما كان »

وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا زهير حدثنا قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الهدى الصالح والسمت الصالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة » ورواه أبو داود عن عبد الله بن محمد النفيلي عن زهير به فالصحابه رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر اليهم أعجبوه في ممتهم وهدبهم . وقال مالك رضي الله عنه بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون والله لمؤلاء خير من الحواريين فيا بلغنا . وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا (ذلك مثلهم في التوراة) ثم قال (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه) أي فراخه (فأزره) أي شده (فاستغلظ) أي شب وطال (فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أي فكذلك أصحاب رسول الله ﷺ آزره وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع (ليغيظ بهم الكفار) ومن هذه الآية اتزع الإمام مالك رحمه الله عليه في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يغيضون الصحابة رضي الله عنهم قال لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة رضي الله عنهم فهو كافر لهذه الآية وواقفه طائفة من العلماء رضي الله عنهم على ذلك

والأحاديث في فضل الصحابة رضى الله عنهم والنهي عن التعرض لهم بمساوئهم كثيرة ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم . ثم قال تبارك وتعالى (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم) من هذه لبيان الجنس (مغفرة) أى للتوهم (وأجر عظيم) أى ثوابا جزيلا ورزقا كريما ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل وكل من اتقى أثر الصحابة رضى الله عنهم فهو في حكمهم ولهم الفضل والسبق والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضى الله عنهم وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل . قال مسلم في صحيحه حدثنا يحيى بن يحيى حدثنا أبو معاوية عن عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أتق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » . آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة

(تفسير سورة الحجرات وهى مدنية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ فَلَتَوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والاعظام فقال تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) أى لا تسرعوا في الأشياء بين يديه أى قبله بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور حتى يدخل في عموم هذا الأدب الشرعى حديث معاذ رضى الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن « بم تحكم ؟ » قال بكتاب الله تعالى ، قال ﷺ « فان لم تجد ؟ » قال بسنة رسول الله ﷺ قال صلى الله عليه وسلم « فان لم تجد » قال رضى الله عنه اجتهد رأى ، فضرب في صدره وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضى رسول الله ﷺ » . وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه فالغرض منه أنه آخر رأيه ونظيره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ولو قدمه قبل البحث عنهما لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله .

قال طى بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، وقال العوفى عنه : نهوا أن يتكلموا بين يدي كلامه ، وقال مجاهد لا تفتنوا طى رسول الله ﷺ بشئ حتى يقضى الله تعالى على لسانه ، وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم . وقال سفيان الثورى (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) بقول ولا فعل ، وقال الحسن البصرى (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) قال لا تدعوا قبل الإمام ، وقال قتادة ذكر لنا أن ناساً كانوا يقولون لو أنزل في كذا كذا لو صح كذا فكره الله تعالى ذلك وتقدم فيه (واتقوا الله) أى قبا أمركم به (إن الله شامع) أى لأقوالكم (عليم) بنياتكم . وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته ، وقد روى أنها نزلت في الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وقال البخارى حدثنا يسرة بن صفوان اللخمي حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة قال : كاد الحيران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضى الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بنى تميم فأشار أحدهما بالاقراع بن حابس رضى الله عنه أخى بنى مجاشع وأشار الآخر برجل آخر قال نافع لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر

لعمري رضي الله عنهما ما أردت إلا خلافي قال ما أردت خلافاً فارفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) قال ابن الزبير رضي الله عنهما فما كان عمر رضي الله عنه يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه ولم يذكر ذلك عن أييه يعني أبا بكر رضي الله عنه . انفرد به دون مسلم . ثم قال البخاري حدثنا حسن بن محمد حدثنا حجاج عن ابن جريج حدثني ابن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أخبره أنه قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رضي الله عنه أمر القعقاع بن معبد وقال عمر رضي الله عنه بل أمر الأقرع ابن حابس فقال أبو بكر رضي الله عنه ما أردت إلا خلافي فقال عمر رضي الله عنه ما أردت خلافاً قهاريًا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت في ذلك (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) حتى انقضت الآية (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم) الآية وهكذا رواه ههنا منفردا به أيضا وقال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا الفضل بن سهل حدثنا إسحق بن منصور حدثنا حصين بن عمر عن عمارق عن طارق بن شهاب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) قلت يا رسول الله والله لا أكلملك إلا كأخي السرار . حصين بن عمر هذا وإن كان ضعيفا لكن قد رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة رضي عنهما بنحو ذلك والله أعلم . وقال البخاري حدثنا علي بن عبد الله حدثنا أنس بن سعد أخبرنا ابن عون أن أنس بن موسى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه فقال رجل يا رسول الله أنا أعلم لك علمه فأتاه فوجده في بيته منكسار رأسه فقال له ما شأنك فقال شر كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله فهو من أهل النار فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال كذا وكذا قال موسى فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال « اذهب إليه فقل له إنك لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة » تفرد به البخاري من هذا الوجه

وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم حدثنا سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) - إلى قوله - وأنتم لا تشعرون) وكانت ثابت ابن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أنا من أهل النار حبط عملي وجلس في أهله حزينا ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له تفقدك رسول الله ﷺ مالك ! قال أنا الذي أرفع صوتي فوق صوت النبي ﷺ وأجهر له بالقول حبط عملي أنا من أهل النار فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه بما قال فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا ، بل هو من أهل الجنة » قال أنس رضي الله عنه فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفن فقال بشما تعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه وقال مسلم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا الحسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لما نزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) إلى آخر الآية جلس ثابت رضي الله عنه في بيته قال أنا من أهل النار واحتبس عن النبي ﷺ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد ابن معاذ « يا أبا عمرو ما شأن ثابت اشتكى ؟ » فقال سعد رضي الله عنه إنه لجاري وما علمت له بشكوى قال فأتاه سعد رضي الله عنه فذكر له قول رسول الله ﷺ فقال ثابت رضي الله عنه أنزلت هذه الآية ولقد علمت أني من أرفعكم صوتا على رسول الله ﷺ فأننا من أهل النار فذكر ذلك سعد رضي الله عنه للنبي ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بل هو من أهل الجنة » ثم رواه مسلم عن أحمد بن سعيد الدارمي عن حيان بن هلال عن سليمان بن المغيرة به قال ولم يذكر سعد بن معاذ رضي الله عنه وعن قطن بن بشير عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس رضي الله عنه بنحوه وقال ليس فيه ذكر سعد

ابن معاذ رضى الله عنه حدثني هذبة بن عبد الأعلى الأسدي حدثنا المعتز بن سليمان سمعت أبي يذكر عن أنس رضى الله عنه قال لما نزلت هذه الآية فاقص الحديث ولم يذكر سعد بن معاذ رضى الله عنه وزاد : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا رجل من أهل الجنة . فهذه الطرق الثلاث معللة لرواية حماد بن سلمة فيما تفرد به من ذكر سعد بن معاذ رضى الله عنه والصحيح أن حال نزول هذه الآية لم يكن سعد بن معاذ رضى الله عنه موجوداً لأنه كان قد مات بعد بنى قريظة بأيام قلائل سنة خمس وهذه الآية نزلت في وفد بنى تميم والوفود إنما تواتروا في سنة تسع من الهجرة والله أعلم ، وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو ثابت بن ثابت بن قيس بن شماس حدثني عمي إسماعيل بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه رضى الله عنه قال لما نزلت هذه الآية (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) قال قعد ثابت بن قيس رضى الله عنه في الطريق يبكي قال فمر به عاصم بن عدي من بنى العجلان فقال ما يبكيك يا ثابت ؟ قال هذه الآية تخوف أن تكون نزلت في وأنا صيت رفيع الصوت قال فمضى عاصم بن عدي رضى الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وغلبه البكاء فأتى امرأته جميلة ابنة عبد الله بن أبي ابن سؤل فقال لها إذا دخلت بيت فرشى فشدي على الضبة بمسار فضربه بمسار حتى إذا خرج عطفه وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله تعالى أو يرضى عني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وآتى عاصم رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره فقال « اذهب فادعه لى » فجاء عاصم رضى الله عنه إلى السكان فلم يجد فوجده في بيت الفرش فقال له إن رسول الله ﷺ يدعوك فقال اكرس الضبة قال فخرجاً فأبى النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ « ما يبكيك يا ثابت ؟ » فقال رضى الله عنه أنا صيت وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول) فقال له النبي ﷺ « أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ » فقال رضيت بيشري الله تعالى ورسوله ﷺ ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ قال وأنزل الله تعالى (إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) الآية . وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك فقد نهى الله عز وجل عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى عنه أنه مع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال أتدريان أين أنا ؟ ثم قال من أين أنا ؟ قال من أهل الطائف فقال لو كنما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً . وقال العلماء يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام لأنه محترم حياً وفي قبره ﷺ دائماً ، ثم نهى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه بل يخاطب بسكينة ووقار وتعظيم ، ولهذا قال تبارك وتعالى (ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) كما قال تعالى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً)

وقوله عز وجل (أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) أى إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك فيغضب الله تعالى لغضبه فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري كما جاء في الصحيح « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقى لها بالاً يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالاً يهوى بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض » ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده وحث على ذلك وأرشد إليه ورغب فيه فقال (إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) أى أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحللاً (لهم مغفرة وأجر عظيم) وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن منصور عن مجاهد قال كتب إلى عمر يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهي العصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهي العصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضى الله عنه إن الذين يشتهون العصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم)

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب فقال (أكثرهم لا يعقلون) ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل (ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم) أي لكان لهم في ذلك الحيرة والمصلحة في الدنيا والآخرة. ثم قال جل ثناؤه داعيا لهم إلى التوبة والإنابة (والله غفور رحيم) وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضى الله عنه فيما أورده غير واحد قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا موسى بن عقبة عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس رضى الله عنه أنه نادى رسول الله ﷺ فقال يا محمد يا محمد وفي رواية يا رسول الله فلم يجبه فقال يا رسول الله إن حمدي لزين وإن ذمي لشين فقال «ذاك الله عز وجل» وقال ابن جرير حدثنا أبو عمار الحسين بن حريث اللوزي حدثنا الفضل بن موسى عن الحسين بن واقد عن أبي إسحاق عن البراء في قوله تبارك وتعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) قال جاء رجل إلى رسول صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إن حمدي زين وذمي شين فقال صلى الله عليه وسلم «ذاك الله عز وجل» وهكذا ذكره الحسن البصري وقتادة مرسلًا. وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة قال كان بشر بن غالب وليد بن عطارد أو بشر بن عطارد وليد بن غالب وهما عند الحجاج جالسان فقال بشر بن غالب وليد بن عطارد نزلت في قومك بنى تميم (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) قال فذكرت ذلك لسعيد ابن جبير فقال أما إنه لو علم بآخر الآية أجابه (يعنون عليك أن أسلموا) قالوا أسلمنا ولم يقاتلك بنو أسد وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن علي الباهلي حدثنا المعتز بن سليمان قال سمعت داود الطائفي يحدث عن أبي مسلم البجلي عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال: اجتمع أناس من العرب فقالوا انطلقوا بنا إلى هذا الرجل فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به وإن يك ملكا نعش بجناحه قال فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ فجمعوا ينادونه وهو في حجرته يا محمد يا محمد فأنزل الله تعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) قال فأخذ رسول الله ﷺ بأذني فمدها فجعل يقول «لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد لقد صدق الله قولك يا زيد» ورواه ابن جرير عن الحسن بن عرفة عن المعتز بن سليمان به

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثْلِهِ فَمَضَّيْتُمْ عَلَى مَا قَعَلْتُمْ * وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ * وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ * الَّذِينَ وَزَّيْتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاكِدُونَ * فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

يأمر تعالى بالثبوت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذبا أو غلطًا فيكون الحاكم بقوله قد اتقنى وراءه وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين ومن هاهنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر وقبلها آخرون لأننا إنما أمرنا بالثبوت عند خبر الفاسق وهذا ليس بمحقق الفسق لأنه مجهول الحال وقد قررنا هذه المسئلة في كتاب العلم من شرح البخارى والله تعالى الحمد والمنة. وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بنى الصطلق وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده من رواية ملك بنى

المصطلق وهو الحارث بن أبي ضرار والد جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضى الله عنها . قال الامام أحمد حدثنا محمد بن سابق حدثنا عيسى بن دينار حدثني أبي أنه مع الحارث بن أبي ضرار الخزاعي رضى الله عنه يقول : قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به . ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يا رسول الله أرجع اليهم فأدعهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب لي جمعت زكاته . وترسل إلى يا رسول الله رسولا إيان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة بمن استجاب له وبلغ الابان الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبعث اليه احتبس عليه الرسول ولم يأتته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله تعالى ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان وقت لي وقتا يرسل إلى رسوله ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلف ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطه فانطلقوا بنائى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أى خاف فرجع حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن الحارث قد منعنى الزكاة وأراد قتلى فغضب رسول الله ﷺ وبعث البعث إلى الحارث رضى الله عنه وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم إلى من بعثتم ؟ قالوا اليك . قال ولم ؟ قالوا إن رسول الله ﷺ بعث اليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله . قال رضى الله عنه لا والله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالحق ما رأيته بته ولا أتانى فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال « منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟ » قال لا والذى بعثك بالحق ما رأيته ولا أتانى وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله ﷺ خشيت أن يكون كانت سخطه من الله تعالى ورسوله قال فنزلت الحجرات (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ - الى قوله - حكيم) ورواه ابن أبي حاتم عن النضر بن شاذان التمار عن محمد بن سابق به ، ورواه الطبرانى من حديث محمد بن سابق به غير أنه سماه الحارث بن سرار والصواب أنه الحارث بن ضرار كما تقدم . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا جعفر بن عون عن موسى بن عبيدة عن ثابت مولى أم سلمة عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : بعث رسول الله ﷺ رجلا في صدقات بنى المصطلق بعد الواقعة فسمع بذلك القوم فتلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ قالت فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله قالت فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال إن بنى المصطلق قد منعونى صدقاتهم فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون قالت فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فصفوا له حين صلى الظهر فقالوا نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله بعثت إلينا رجلا مصدقا فسررنا بذلك وقرت به أعيننا ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضبا من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال رضى الله عنه فأذن بصلاة العصر قالت ونزلت (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين) . وروى ابن جرير أيضا من طريق العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى بنى المصطلق ليأخذ منهم الصدقات وانهم لما أتاهم الخبر فرحوا وخرجوا يتلقون رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه لما حدث الوليد أنهم خرجوا يتلقونه رجع الوليد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن بنى المصطلق قد منعوا الصدقة فغضب رسول الله ﷺ من ذلك غضبا شديدا فبينما هو يحدث نفسه أن يغزوم إذ أتاه الوفد فقالوا يا رسول الله إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق وإنا خشينا أن ما رده كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، وإن النبى صلى الله عليه وسلم استغشهم وهم بهم فأنزل الله تبارك وتعالى عذرهم فى الكتاب فقال (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) إلى آخر الآية . وقال مجاهد

وقتادة أرسل رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليصدقهم فتلقوه بالصدقة فرجع فقال إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك زاد قتادة وإنهم قد ارتدوا عن الإسلام فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضى الله عنه اليهم وأمره أن يثبت ولا يعجل فانطلق حتى أتاهم ليلا فبعث عيونه فلما جاءوا أخبروا خالدًا رضى الله عنه أنهم مستمسكون بالإسلام ومعموا أذانهم وصلاتهم فلما أصبحوا أتاهم خالد رضى الله عنه فرأى الذى يعجبه فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فأنزل الله تعالى هذه الآية ، قال قتادة فكان رسول الله ﷺ يقول « التثبت من الله والعجلة من الشيطان » وكذا ذكر غير واحد من السلف منهم ابن أبى ليلى وزيد بن رومان والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم في هذه الآية أنها نزلت في الوليد بن عقبة والله أعلم .

وقوله تعالى (واعلموا أن فيكم رسول الله) أى اعلوا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه واتقادوا لأمره فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تبارك وتعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) ثم بين أن رأيهم سخيף بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال (لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) أى لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجمكم كما قال سبحانه وتعالى (ولواتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) وقوله عز وجل (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم) أى حبه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم

قال الإمام أحمد حدثنا بهز حدثنا طلى بن مسعدة حدثنا قتادة عن أنس رضى الله عنه قال كان رسول الله ﷺ يقول « الاسلام علانية والإيمان في القلب » قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول — التقوى ههنا التقوى ههنا (وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أى وبنض إليكم الكفر والفسوق وهى الدبوب الكبار والعصيان وهى جميع المعاصى وهذا تدرج لكمال النعمة ، وقوله تعالى (أولئك هم الراشدون) أى المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد أتاهم الله رشدهم . قال الإمام أحمد حدثنا مروان بن معاوية الفزارى حدثنا عبد الواحد بن أيمن السكى عن أبى رفاعة الزرقى عن أبيه قال لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ « استووا حتى أتى على ربي عز وجل » فصاروا خلفه صفوفًا فقال صلى الله عليه وسلم « اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ، ولا هادى لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت ، ولا مقرب لما باعدت ، ولا مباعد لما قربت . اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ، اللهم انى أسألك النعم المقيم الذى لا يحول ولا يزول . اللهم أسألك النعم يوم العيلة والأمن يوم الخوف . اللهم انى عائد بك من شر ما أعطيتنا ومن شر ما منعنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك . اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق » ورواه النسائى في اليوم واليلة عن زياد بن أيوب عن مروان بن معاوية عن عبد الواحد ابن أيمن عن عبيد بن رفاعة عن أبيه به . وفي الحديث المرفوع « من سرتة حسنة وساءته سيئة فهو مؤمن » ثم قال (فضلا من الله ونعمة) أى هذا العطاء الذى منحكموه هو فضل منه عليكم ونعمة من لدنه (والله عليم حكيم) أى عليم بمن يستحق الهداية بمن يستحق النواية حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ نَفَتْ أَحَدِيَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يقول تعالى آمرا بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فسام مؤمنين مع الاقتتال ، وبهذا استدلل البخارى وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وأن عظمت لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من العزلة ونحوهم ، وهكذا ثبت في صحيح البخارى من حديث الحسن عن أبى بكره رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على النبر الحسن بن على رضى الله عنهما فجعل ينظر اليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول : « إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » . فكان كما قال ﷺ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة . وقوله تعالى (فان بشت أحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفء إلى أمر الله) أى حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه كما ثبت في الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قلت يارسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟ قال ﷺ : « تمنعه من الظلم فذاك نصرته »

وقال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر قال سمعت أبى يحدث أن أنسا رضى الله عنه قال : قيل للنبي ﷺ لو أتيت عبد الله بن أبى فأنطلق إليه النبي صلى الله عليه وسلم وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سيخة فلما انطلق النبي صلى الله عليه وسلم إليه قال « اليك عنى فوالله لقد آذانى ريح حمارك » فقال رجل من الأنصار والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحا منك قال فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل واحد منهما أصحابه قال فكان بينهم ضرب بالجرید والأيدى والنعال فبلغنا أنه أنزلت فيهم (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ورواه البخارى فى الصلح عن مسدد ومسلم فى المغازى عن محمد بن عبد الأعلى كلاهما عن العتمر بن سليمان عن أبیه به نحوه . وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسيف والنعال فأمر الله تعالى هذه الآية فامر بالصلح بينهما . وقال السدى كان رجل من الأنصار يقال له عمران كانت له امرأة تدعى أم زيد وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها فى علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها . وإن المرأة بشت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها وإن الرجل كان قد خرج فاستعان أهل الرجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فدافعوا واجتلدوا بالنعال فزلت فيهم هذه الآية فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله تعالى . وقوله عز وجل (فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) أى اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل (إن الله يحب المقسطين) . قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا محمد بن أبى بكر القدامى حدثنا عبد الأعلى عن معمر عن الزهرى عن سعيد بن السيب عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال إن رسول الله ﷺ قال « إن المقسطين فى الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدى الرحمن عز وجل بما أقسطوا فى الدنيا » ورواه النسائى عن محمد بن المثنى عن عبد الأعلى به وهذا إسناد جيد قوى رجاله على شرط الصحيح وحدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو ابن أوس عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وما ولوا » ورواه مسلم والنسائى من حديث سفيان بن عيينة به وقوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة) أى الجميع أخوة فى الدين كما قال رسول الله ﷺ « السلم أخو السلم لا يظلمه ولا يسلمه » وفى الصحيح « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » وفى الصحيح أيضا « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ولك بمثله » والأحاديث فى هذا كثيرة وفى الصحيح « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحيمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وفى الصحيح أيضا « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك بين أصابعه ﷺ ، وقال أحمد حدثنا أحمد بن الحجاج حدثنا عبد الله أخبرنا مصعب بن ثابت حدثنى أبو حازم قال سمعت سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه يحدث

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس » تفرد به أحمد ولا بأس بإسناده . وقوله تعالى (فأصلحوا بين أخوانكم) يعنى الفئتين المقتلتين (واتقوا الله) أى فى جميع أموركم (لعلكم ترحمون) وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « الكبر بطن الحق وغصص الناس - ويروى - وغمط الناس » والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام فانه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله تعالى وأحب اليه من الساخر منه المحتقر له ولهذا قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن) ففس طى نهى الرجال وعطف بنهى النساء . وقوله تبارك وتعالى (ولا تلمزوا أنفسكم) أى لا تلمزوا الناس . والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون كما قال تعالى (ويل لكل همزة لمزة) والهمز بالفعل واللمز بالقول كما قال عز وجل (هازموا أنفسكم) أى يحتقر الناس ويهمزهم طاغيا عليهم ويمشى بينهم بالنميمة وهى اللمز بالمقال ولهذا قال ههنا (ولا تلمزوا أنفسكم) كما قال (ولا تقتلوا أنفسكم) أى لا يقتل بعضكم بعضا . قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل بن حيان (ولا تلمزوا أنفسكم) أى لا يطعن بعضكم على بعض وقوله تعالى (ولا تنابزوا بالألقاب) أى لا تندعوا بالألقاب وهى التى يسوء الشخص سمعها . قال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل حدثنا داود بن أبى هند عن الشعبي قال حدثنى أبو جيرة بن الضحاك قال فىنا نزلت فى بنى سلمة (ولا تنابزوا بالألقاب) قال قدم رسول الله ﷺ المدينة وليس فىنا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحدا منهم باسم من تلك الأسماء قالوا يا رسول الله إنه يغضب من هذا فنزلت (ولا تنابزوا بالألقاب) ورواه أبو داود عن موسى بن إسماعيل عن وهب عن داود به . وقوله جل وعلا (بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بشئ الصفة والاسم الفسوق وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتناعتون بعد ما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه (ومن لم يتب) أى من هذا (فأولئك هم الظالمون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى ناهيا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس فى غير محله لأن بعض ذلك يكون إثما محضا فليجتنب كثير منه احتياطا . وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا وأنت تجد لها فى الخير محملا . وقال أبو عبد الله بن ماجه حدثنا أبو القاسم بن أبى ضمرة نصر بن محمد بن سلمان الحمصى حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن أبى قيس النضرى حدثنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال رأيت النبى ﷺ يطوف بالكعبة ويقول « ما أطيبك وأطيب ريحك ما أعظمك وأعظم حرمتك والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا » تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه ، وقال مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا

ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا» رواه البخاري عن عبد الله بن يوسف ومسلم عن يحيى بن يحيى ، وأبو داود عن العتيبي عن مالك به . وقال سفيان بن عيينة عن الزهري عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » رواه مسلم والترمذي وصححه من حديث سفيان بن عيينة به . وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبد الله القرمطي العدوي حدثنا بكر بن عبد الوهاب اللذني حدثنا إسماعيل بن قيس الأنصاري حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي الرجال عن أبيه عن جده حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث لازمت لأمتي : الطيرة والحسد وسوء الظن » فقال رجل وما يذهبن يا رسول الله عن هن فيه ؟ قال ﷺ « إذا حسدت فاستغفر الله ؛ وإذا ظننت فلا تحقق . وإذا تطيرت فامض » وقال أبو داود حدثنا أبو بكر ابن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن زيد رضي الله عنه قال آتى ابن مسعود رضي الله عنه برجل فقيل له هذا فلان تقطر لحيته خمرا فقال عبد الله رضي الله عنه إنا قد نهينا عن التجسس ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به . سمع ابن أبي حاتم في روايته الوليد بن عقبة بن أبي معيط . وقال الإمام أحمد حدثنا هاشم حدثنا ليث عن إبراهيم بن نشيط الخولاني عن كعب بن علقمة عن أبي الهيثم عن دجين كاتب عقبة قال : قلت لعقبة إن لنا جيرانا يشربون الخمر وأنادع لهم الشرط فيأخذونهم قال لا تفعل ولكن عظمهم وتهدهم قال ففعل فلم ينتهوا . قال فجاءه دجين فقال إني قد نهيتهم فلم ينتهوا وإني داع لهم الشرط فتأخذهم فقال له عقبة ويحك لا تفعل فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من ستر عورة مؤمن فكأنما استجيا موءودة من قبرها » ورواه أبو داود والنسائي من حديث الليث بن سعد به نحوه ، وقال سفيان الثوري عن راشد بن سعد عن معاوية رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أوكدت أن تفسدهم » فقال أبو الدرداء رضي الله عنه كلمة سمعها معاوية رضي الله عنه من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها ورواه أبو داود منفردا به من حديث الثوري به . وقال أبو داود أيضا حدثنا سعيد بن عمرو والحضرمي حدثنا إسماعيل بن عياش حدثنا ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معديكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال « إن الأمير إذا ابتغى الريية في الناس أفسدهم » (ولا تجسسوا) أي على بعضهم بعضا والتجسس غالبا يطلق في الشر ومنه الجاسوس . وأما التجسس فيكون غالبا في الخير كما قال عز وجل إخبارا عن يعقوب أنه قال (يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله) وقد يستعمل كل منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا » وقال الأوزاعي : التجسس البحث عن الشيء . والتجسس الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون أو يتسمع على أبوابهم ، والتدابير : الصرم رواه ابن أبي حاتم عنه .

وقوله تعالى (ولا تغتب بعضهم بعضا) فيه نهى عن الغيبة وقد فسرهما الشارع كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود حدثنا القعني حدثنا عبد العزيز بن محمد عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال : قيل يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال « ذكرك أخاك بما يكره » قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال صلى الله عليه وسلم « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » ورواه الترمذي عن قتيبة عن الدراوردي به وقال حسن صحيح ، ورواه ابن جرير عن بNDAR عن غندر عن شعبة عن العلاء . وهكذا قال ابن عمر رضي الله عنهما وسروق وقتادة وأبو إسحق ومعاوية بن قرة . وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان حدثني طي بن الأقرع عن أبي حذيفة عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي ﷺ حسبك مثب صفة كذا وكذا . قال غير مسدد تعنى قصيرة فقال ﷺ « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » قالت وحكيت له إنسانا فقال ﷺ « ما أحب أني حكيت إنسانا وإن لي كذا وكذا » ورواه الترمذي من حديث يحيى القطان وعبد الرحمن

ابن مهدي وو كيع ثلاثهم عن سفيان الثوري عن طي بن الأقرع عن أبي حذيفة سلمة بن صهيب الأرحبي عن عائشة رضي الله عنها به وقال حسن صحيح وقال ابن جرير حدثني ابن أبي الشوارب حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا سليمان الشيباني حدثنا حسان بن المخارق أن امرأة دخلت على عائشة رضي الله عنها فلما قامت لتخرج أشارت عائشة رضي الله عنها بيدها إلى النبي ﷺ أي أنها قصيرة فقال النبي ﷺ « اغتبتها » والغيبة محرمة بالاجماع ولا يستثنى من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله صلى الله عليه وسلم لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر « ائذنوا له بشي أخو العشرة » وكقوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم « أما معاوية فصعلوك ، وأما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه » وكذا ما جرى مجرى ذلك ، ثم بقيت على التحريم الشديد وقد ورد فيها الزجر الأكيد ولهذا شبهها تبارك وتعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت كما قال عز وجل (أوجب أحذكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه) أي كما تكرهون هذا طبعاً فأكروهوا ذلك شرعاً فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها والتحذير منها كما قال ﷺ في العائد في هبته « كالكلب بقيء ثم يرجع في قيئه » وقد قال « ليس لنا مثل السوء » وثبت في الصحيح والاحسان والمسانيد من غير وجه أنه ﷺ قال في خطبة حجة الوداع « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » وقال أبو داود حدثنا واصل بن عبد الأعلى حدثنا أسباط بن محمد عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « كل المسلم على المسلم حرام ماله وعرضه ودمه ، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » ورواه الترمذي عن عبيد بن أسباط ابن محمد عن أبيه به وقال حسن غريب وحدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا الأسود بن عامر حدثنا أبو بكر بن عياش عن الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن خديج عن أبي بردة البلوي قال : قال رسول الله ﷺ « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تقتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته » تفرد به أبو داود وقد روى من حديث البراء بن عازب . فقال الحافظ أبو يعلى في مسنده حدثنا إبراهيم بن دينار حدثنا مصعب بن سلام عن حمزة بن حبيب الزيات عن أبي إسحق السبيعي عن البراء ابن عازب رضي الله عنه قال خطبنا رسول الله ﷺ حتى أجمع العواتق في بيوتها أو قال في خدورها فقال « يا معشر من آمن بلسانه لا تقتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته » (طريق أخرى) عن ابن عمر قال أبو بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي حدثنا عبد الله بن ناجية حدثنا يحيى بن أكثم حدثنا الفضل بن موسى الشيباني عن الحسين بن واقد عن أوفى بن دهم عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « يا معشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تقتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورات المسلمين يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله » قال ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال ما أعظمك وأعظم حرمتك وللؤم أعظم حرمة عند الله منك . قال أبو داود حدثنا حيوة بن شريح حدثنا فتيبة عن ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن وقاص بن زينة عن السور أنه حدثه أن النبي ﷺ قال « من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم ، ومن كسا ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله في جهنم ؛ ومن قام برجل مسلم مقام صخرة فإن الله تعالى يقوم به مقام صخرة ورياء يوم القيامة » تفرد به أبو داود وحدثنا ابن مصفى حدثنا بقية وأبو الغيرة حدثنا صفوان حدثني راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لما عرج بي مرت قوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم قلت من هؤلاء يا جبرائيل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » . تفرد به أبو داود وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي الغيرة عبد القدوس بن الحجاج الشامي به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أحمد بن عتبة أخبرنا أبو عبد الصمد بن عبد العزيز العمي أخبرنا أبو هارون العبدى عن أبي سعيد الخدرى قال : قلنا

يا رسول الله حدثنا ما رأيت ليلة أسرى بك ؟ قال ثم انطلق بي إلى خلق من خلق الله كثير رجال ونساء موكل بهم رجال يعمدون إلى عرض جنب أحدهم فيجدون منه الجذعة مثل النعل ثم يضعونها في في أحدهم فيقال له كل كما أكلت وهو يجد من أكله الموت يا محمد لو يجد الموت وهو يكره عليه فقلت يا جبرائيل من هؤلاء هؤلاء الهمازون الممازون أصحاب النيمة فيقال أوجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرتموه وهو يكره على كل لحم هكذا ورد هذا الحديث وقد سقناه بطوله في أول تفسير سورة سبحان لله الحمد والمنة . وقال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا الربيع عن يزيد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن يصوموا يوما ولا يفطرن أحد حتى آذن له فصام الناس فلما أمسوا جعل الرجل يجيء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول ظلمت منذ اليوم صائما فآذن لي فأفطر فيأذن له ويجيء الرجل فيقول ذلك فيأذن له حتى جاء رجل فقال يا رسول الله إن امرأتين من أهلك ظلمتا منذ اليوم صائمتين فآذن لهما فليفطرا فأعرض عنه ثم أعاد فقال رسول الله ﷺ « ما صامتا ، وكيف صام من ظل يأكل من لحوم الناس ؟ اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن يستقيتا ففعلتا فقالت كل واحدة منهما علة فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو صامتا وهما فيهما لأكلتهما النار » إسناده ضعيف ومتن غريب وقد رواه الحافظ البيهقي من حديث يزيد بن هارون حدثنا سليمان التيمي قال سمعت رجلا يحدث في مجلس أبي عثمان النهدي عن عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن رجلا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن ههنا امرأتين صامتا وإنهما كادتا تموتان من العطش أراه قال بالهجرة فأعرض عنه أو سكت عنه فقال يا نبي الله إنهما والله قد ماتتا أو كادتا تموتان فقال : ادعهما . فجاءتا قال فجيء فمدح أوعس فقال لاحداهما : قيش . فقالت من قيش ودم وصديد حتى قامت نصف القدر ثم قال للآخرى : قيش فقالت قيشا ودم وصديدا ولحما ودما عبيطا وغيره حتى ملأت القدر ثم قال : إن هاتين صامتا عما أحل الله تعالى لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما جلست احدهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس . وهكذا رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وابن أبي عدي كلاهما عن سليمان بن صوغان التيمي به مثله أو نحوه ثم رواه أيضا من حديث مسدد عن يحيى القطان عن عثمان بن غياث حدثني رجل أظنه في حلقة أبي عثمان عن سعد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم أمروا بصيام فجاء رجل في نصف النهار فقال يا رسول الله : فلانة وفلانة قد بلغت الجهد فأعرض عنه مرتين أو ثلاثا ثم قال « ادعهما » فجاء بعس أو قدح فقال لاحداهما : قيش . فقالت لحما ودما عبيطا وقيا وقال للآخرى مثل ذلك ثم قال : إن هاتين صامتا عما أحل الله لهما وأفطرتا على ما حرم الله عليهما . أتت إحداها للآخرى فلم تزل تأكلان لحوم الناس حتى امتلأت أجوافهما قيا . قال البيهقي كذا قال عن سعد الأول وهو عبيد أصبح وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا عمرو ابن الضحاك بن مخلد حدثنا أبي ثنا أبو عاصم حدثنا ابن جريج أخبرني أبو الزبير عن ابن عمر (١) لأبي هريرة أن ما عزا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إني قد زينت فأعرض عنه حتى قالها أربعاً فلما كان في الخامسة قال : زينتي ؟ . قال نعم قال : وتدرى ما الزنا ؟ قال نعم أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من امرأته حلالا قال ما تريد إلى هذا القول ؟ . قال أريد أن تطهرني قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الليل في المكحلة والرشا في البئر ؟ قال نعم يا رسول الله قال فأمر برحمه فرجم فسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلين يقول أحدهما لصاحبه ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال : أين فلان وفلان ؟ انزلا فكلتا من جيفة هذا الحمار . قالوا غفر الله لك يا رسول الله وهل يؤكل هذا ؟ قال ﷺ : فما نلتما من أخيكما آتفا أشد أكلامته ، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينمض فيها . إسناده صحيح

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثني أبي حدثنا واصل مولى ابن عيينة حدثني خالد بن عرفطة عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح جيفة منتنة فقال رسول الله

(١) عمر بتشديد الميم مبنى للمجهول

ﷺ « أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يتتابون الناس ؟ » (طريق أخرى) قال عبد بن حميد في مسنده حدثنا إبراهيم بن الأشعث حدثنا الفضيل بن عياض عن سليمان عن أبي سفيان وهو طلحة بن نافع عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال كنا مع النبي ﷺ في سفر فهاجت ريح منتنة فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ان نفرا من المنافقين اغتابوا ناسا من المسلمين فلذلك بعثت هذه الريح » وربما قال « فلذلك هاجت هذه الريح » وقال السدي في قوله تعالى (أيجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ؟) زعم أن سلمان الفارسي رضي الله عنه كان مع رجلين من أصحاب النبي ﷺ في سفر يخدمهما ويخف لهما وينال من طعامها وأن سلمان رضي الله عنه لما سار الناس ذات يوم وبقي سلمان رضي الله عنه نائما لم يسر معهم فجعل صاحبه يكلمه فلم يجده ففرض الحباء فقالا ما يريد سلمان أو هذا العبد شيئا غير هذا أن يجيء إلى طعام مقدور وخباء مضروب فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله ﷺ يطلب لهما اداما فانطلق فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه قرح له فقال يا رسول الله بعثي أصحابي لتؤدبهم إن كان عندك قال ﷺ « ما يصنع أصحابك بالأدم ؟ قد اتدموا » فرجع سلمان رضي الله عنه يخبرها بقول رسول الله ﷺ فانطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : والذي بعثك بالحق ما أصبنا طعاما منذ نزلنا قال رسول الله ﷺ « انكما قد اتدمتما بسلمان بقولكما » قال ونزلت (أيجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا) انه كان نائما . وروى الحافظ الضياء المقدسي في كتابه المختار من طريق حسان بن هلال عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال كانت العرب تخدم بعضها بعضا في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما رجل يخدمهما فنما فاستيقظا ولم يهتئ لهما طعاما فقالا إن هذا لتؤم فابقظاه فقالا له انت رسول الله ﷺ فقل له إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما يقرئانك السلام ويستأدما لك فقال ﷺ « إنهما قد اتدمتا » فجاءا فقالا يا رسول الله بأي شيء اتدمنا فقال صلى الله عليه وسلم « بلحم أخيكما والذي نفسي بيده اني لأرى لحمه بين ثناياكما » فقالا رضي الله عنهما استغفر لنا يا رسول الله فقال ﷺ « مرأه فليستغفر لكما » وقال الحافظ أبو يعلى حدثنا الحكم بن موسى حدثنا محمد بن مسلمة عن محمد بن إسحاق عن عمه موسى بن يسار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من أكل من لحم أخيه في الدنيا قرب إليه لحمه في الآخرة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا — قال — فإكله ويكلم ويصيح » غريب جدا وقوله عز وجل (واتقوا الله) أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه (إن الله تواب رحيم) أي تواب على من تاب إليه رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه . قال الجمهور من العلماء طريق المقتاب للناس في توبته أن يقطع عن ذلك ويعزم على أن لا يعود ، وهل يشترط الندم على ما فات ؟ فيه نزاع ، وأن يتحلل من الذي اغتابه وقال آخرون لا يشترط إن يتحلله فانه إذا أعلمه بذلك ربما تأذى أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذا أن يثنى عليه بما فيه في المجالس التي كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقة لتكون تلك تلك كما قال الإمام أحمد حدثنا أحمد ابن الحجاج حدثنا عبد الله أخبرنا يحيى بن أيوب عن عبد الله بن سليمان أن إسماعيل بن يحيى المعافري أخبره أن سهل بن معاذ بن أنس الجهني أخبره عن أبيه رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « من حرم مؤمنا من منافق يغتابه بعث الله تعالى إليه ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مؤمنا بشيء يريد سبه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال » وكذا رواه أبو داود من حديث عبد الله وهو ابن المبارك به بنحوه . وقال أبو داود أيضا حدثنا إسحاق بن الصباح حدثنا بن أبي مريم أخبرنا الليث حدثني يحيى بن سليم أنه سمع إسماعيل بن بشير يقول سمعت جابر بن عبد الله وأبا طلحة بن سهل الأنصاري رضي الله عنهما يقولان قال رسول الله ﷺ « ما من امرئ يخذل امرأ مسلما في موضع فتبه في حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى في موطن يحب فيها نصرته ، وما من امرئ ينصر امرأ مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله عز وجل في موطن يحب فيها نصرته » تفرد به أبو داود .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَحَمَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

يقول تعالى مخبرا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء وجعلهم شعوبا وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل ، مراتب آخر كالفصائل والعشائر والعائير والأفخاذ وغير ذلك ، وقيل المراد بالشعوب بطون العجم والقبائل بطون العرب كما أن الاسباط بطون بني إسرائيل وقد لحصت هذا في مقدمة مفردة جمعتها من كتاب الأشباه لأبي عمر بن عبد البر ، ومن كتاب ﴿القصص والأهم في معرفة أنساب العرب والعجم﴾ فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء وإنما يتفاضلون بالأمر الدينية وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله ﷺ ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضا منها على تساويهم في البشرية (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته ، وقال مجاهد في قوله عز وجل (لتعارفوا) كما يقال فلان بن فلان من كذا وكذا أي من قبيلة كذا وكذا ، وقال سفيان الثوري كانت حمير يتنسبون إلى مخاليفها ، وكانت عرب الحجاز ينتسبون إلى قبائلها وقد قال أبو عيسى الترمذي حدثنا أحمد بن محمد حدثنا عبد الله بن المبارك عن عبد الملك بن عيسى التقي عن يزيد مولى للنبت عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم فإن صلة الرحم حبة في الأهل مثرة في المال منسأة في الأثر » ثم قال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أي إنما تتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى لا بالإحساب وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ . قال البخاري حدثنا محمد بن سلام حدثنا عبدة عن عبيد الله عن سعيد بن أبي سعيد رضي الله عنه عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا ليس عن هذا نسألك قال « فأكرم الناس يوسف نبى الله ، ابن نبى الله ، ابن نبى الله بن خليل الله » قالوا ليس عن هذا نسألك قال « فمن معادن العرب تسألوني ؟ قالوا نعم قال « فخيركم في الجاهلية خاركم في الإسلام إذا قهوا » وقد رواه البخاري في غير موضع من طرق عن عبدة بن سليمان ، ورواه النسائي في التفسير من حديث عبيد الله وهو ابن عمر العمري به . ﴿ حديث آخر ﴾ ، قال مسلم رحمه الله حدثنا عمرو الناقد حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سنان عن كثير بن هشام به ﴿ حديث آخر ﴾ وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن أبي هلال عن بكر عن أبي ذر رضي الله عنه قال إن النبي ﷺ قال له « انظر فانك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضل بتقوى الله » تفرد به أحمد رحمه الله ﴿ حديث آخر ﴾ وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا أبو عبيدة عبد الوارث بن إبراهيم العسكري حدثنا عبد الرحمن ابن عمرو بن جبلة حدثنا عبيد بن حنين الطائي سمعت محمد بن حبيب بن خراش المصري يحدث عن أبيه رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « المسلمون أخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » ﴿ حديث آخر ﴾ قال أبو بكر البرار في مسنده حدثنا أحمد بن يحيى الكوفي حدثنا الحسن بن الحسين حدثنا قيس بن الربيع عن شبيب بن عرقدة عن السستل بن حصين عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب وليتهن قوم يفخرون بأبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان » . ثم قال لا نعرفه عن حذيفة إلا من هذا الوجه ﴿ حديث آخر ﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا يحيى ابن زكريا القطان حدثنا موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر رضي الله عنهما قال طاف رسول الله ﷺ

ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده فما وجد لها مناخا في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن السيل فأنيخت ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم على راحلته فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « يا أيها الناس إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها فالناس رجلان رجل برتقى كريم على الله تعالى . ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) — ثم قال صلى الله عليه وسلم — أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » هكذا رواه عبد بن حميد عن أبي عاصم الضحاك عن مغلدة عن موسى بن عبيدة به (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق حدثنا ابن لهيعة عن الحارث بن يزيد عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله ﷺ قال « إن أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد كلكم بنو آدم طف الصاع لم يملثوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى وكفى بالرجل أن يكون بذيا غيلا فاحشا » . وقد رواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن ابن لهيعة به ولفظه : « الناس لآدم وحواء طف الصاع لم يملثوه إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا أحمد بن عبد الملك حدثنا شريك عن سالك عن عبد الله بن عمرة زوج درة بنت أبي لهب عن درة بنت أبي لهب رضي الله عنها قالت : قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « خير الناس أقرأهم وأتقاهم لله عز وجل وأمرهم بالمعروف ونهأهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا أبو الأسود عن القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها قالت ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا ولا أعجبه أحد قط إلا ذوتني ، تفرد به أحمد ، وقوله تعالى (إن الله عليم خبير) أي عليم بكم خير بأموركم فيهدى من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ويفضل من يشاء على من يشاء وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله ، وقد استدلت بهذه الآية الكريمة وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وذهب الآخرون إلى أدلة أخرى مذكورة في كتب الفقه وقد ذكرنا طرفا من ذلك في (كتاب الأحكام) والله الحمد والمنة . وقد روى الطبراني عن عبد الرحمن أنه سمع رجلا من بني هاشم يقول أنا أولى الناس برسول الله ﷺ فقال غيره أنا أولى به منك ولي منه نسة

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ أَنْتُمْ تُدْعَوْنَ إِلَى اللَّهِ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِلَّاتُمْ بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى منكرا على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وقد أستفيد من

هذه الآية الكريمة أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ويدل عليه حديث جبريل عليه الصلاة والسلام حين سأل عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه . وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه رضى الله عنهما قال أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً فقال سعد رضى الله تعالى عنه يارسول الله أعطيت فلانا وفلانا ولم تعط فلانا شيئاً وهو مؤمن فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أو مسلم . حتى أعادها سعد رضى الله عنه ثلاثاً والنبي ﷺ يقول : أو مسلم ؟ ثم قال النبي ﷺ « إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلي منهم فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبو في النار على وجوههم » أخرجه في الصحيحين من حديث الزهري به . فقد فرق النبي ﷺ بين المؤمن والمسلم فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام وقد قررنا ذلك بأدلة في أول شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى والله الحمد والمنة . ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك وهذا معنى قول ابن عباس رضى الله عنهما وإبراهيم النخعي وقادة واختاره ابن جرير . وإنما قلنا هذا لأن البخارى رحمه الله ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرعون الإيمان وليسوا كذلك . وقد روى عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله تبارك وتعالى (ولكن قولوا أسلمنا) أى استسلمنا خوف القتل والسبي . قال مجاهد نزلت في بنى أسد بن خزيمه . وقال قتادة نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ والصحيح الأول أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد . ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقون في سورة براءة وإنما قيل لهؤلاء تأديباً (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أى لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد . ثم قال تعالى (وإن طيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) أى لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عز وجل (وما ألتناهم من عملهم من شيء) وقوله تعالى (إن الله غفور رحيم) أى لمن تاب إليه وأتاب . وقوله تعالى (إنما المؤمنون الكمل) الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا (أى لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة وهى التصديق المحض) وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله (أى وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه) (أولئك هم الصادقون) أى في قولهم إذا قالوا إنهم مؤمنون لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثنا عمرو بن الحارث عن أبي السمع عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضى الله عنه قال إن النبي ﷺ قال « المؤمنون في الدنيا على ثلاثة أجزاء : الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . والذى يأمنه الناس على أموالهم وأنفسهم . والذى إذا أشرف على طمع تركه لله عز وجل » وقوله سبحانه وتعالى (قل أتعلمون الله دينكم) أى أنخبرونه بما في ضمائركم (والله يعلم ما السموات وما فى الأرض) أى لا يخفى عليه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر (والله بكل شيء عليم) ثم قال تعالى (يمينون عليك أن أسلموا قل لا آمنوا على إسلامكم) يعنى الأعراب الذين يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله تعالى ردا عليهم (قل لا آمنوا على إسلامكم) فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم والله اللئيم عليكم فيه (بل الله يمين عليكم أن هذا كم للإيمان إن كنتم صادقين) أى فى دعواكم ذلك كما قال النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار يوم حنين « يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ » كلما قال شيئاً قالوا الله ورسوله أمن . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا يحيى بن سعيد الأموى عن محمد بن قيس عن أبي عون عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاءت بنو أسد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يارسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم

فأتاك فقال رسول الله ﷺ : إن فقههم قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم . ونزلت هذه الآية (يعنون عليك أن أسلموا قل لا آمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) ثم قال لانعله يروى إلا من هذا الوجه ولا نعلم روى أبوعون محمد بن عبيد الله عن سعيد بن جبيرة غير هذا الحديث . ثم كرر الاخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال (إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) آخر تفسير سورة الحجرات والله الحمد والمنة وبه التوفيق والعصمة .

﴿ تفسير سورة ق وهي مكية ﴾

هذه السورة هي أول الحزب للفصل على الصحيح وقيل من الحجرات . وأما ما يقوله العوام إنه من (عم) فلا أصل له ولم يقله أحد من العلماء رضى الله عنهم المعبرين فيما نعلم . والدليل على أن هذه السورة هي أول الفصل ما رواه أبو داود في سننه باب تحزيب القرآن ثم قال حدثنا مسدد حدثنا قراب بن تمام ح وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد ثنا سليمان بن حبان وهذا لفظه عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده قال عبد الله بن سعيد حدثني أوس بن حذيفة ثم اتفقا قال قدما على رسول الله ﷺ في وفد ثقيف قال فنزلت الاحلاف على الغيرة بن شعبة رضى الله عنه وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك في قبة له قال مسدد وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف قال كان رسول الله ﷺ كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا قال أبو سعيد قائما على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام فأكثر ما يحدثنا صلى الله عليه وسلم مالقى من قومه قريش ثم يقول ﷺ « لا أساء وكنا مستضعفين مستذلين — قال مسدد بمكة — فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالا بيننا وبينهم ندال عليهم ويدالون علينا » فلما كانت ليلة أبطأ عنا صلى الله عليه وسلم عن الوقت الذي كان يأتينا فيه قلنا لقد أبطأت علينا الليلة قال صلى الله عليه وسلم « إنه طرأ على حزبي من القرآن فكهرت أن أجيء حتى آتمه » . قال أوس سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن فقالوا ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة . وحزب الفصل وحده ورواه ابن ماجه عن أبي بكر ابن أبي شيبة عن أبي خالد الأحمر به ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الله بن عبد الرحمن هو ابن يعلى الطائفي به . إذا علم هذا فاذا عدت ثمانيا وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة ق . بيانه ثلاث : البقرة وآل عمران والنساء . وخمس : للمائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة . وسبع : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل . وتسع : سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان . وإحدى عشرة : الشعراء والتمل والقصاص والعنكبوت والروم ولقمان والمآ السجدة والأحزاب وسبا واطر ويس . وثلاث عشرة : الصافات وص والزمر وغافر وحمل السجدة وحمل عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات . ثم بعد ذلك الحزب للفصل كما قاله الصحابة رضى الله عنهم . فتعين أن أوله سورة ق وهو الذى قلنا والله الحمد والمنة . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا مالك عن ضمرة بن سعيد عن عبد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيد قال بقاف واقتربت ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة من حديث مالك به وفي رواية لمسلم عن مالك عن ضمرة عن عبد الله عن أبي واقد قال سألتني عمر رضى الله عنه فذكره ﴿ حديث آخر ﴾ وقال أحمد حدثنا يعقوب حدثنا أبي ثنا أبي إسحاق حدثني عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة عن أم هشام بنت حارثة قالت لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحدا سنتين أو سنة وبعض سنة وما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس رواه مسلم من حديث ابن إسحاق به . وقال أبو داود حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن حبيب بن عبد الله بن محمد بن معن عن ابنه الحارث بن النعمان قالت ما حفظت ق إلا من في رسول الله ﷺ

يخطب بها كل جمعة. قالت وكان تنورنا وتنور رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدا وكذا رواه مسلم والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة به ، والقصد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب والله أعلم .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَدَّأَ مِنْكَ وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

(ق) حرف من حروف الهجاء المذكورة في أوائل السور كقوله تعالى (ص - ون - الم - وح - وطس) ونحو ذلك قاله مجاهد وغيره وقد أسلفنا الكلام عليها في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا ق جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكان هذا والله أعلم من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس لما رأى من جواز الرواية عنهم بما لا يصدق ولا يكذب ، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقهم يلبسون به على الناس أمر دينهم كما افترى في هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي ﷺ وما بالعهد من قدم فكيف بأمة بني إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم وشرهم الحُمور وتحريف علمائهم الكلام عن مواضعه وتبديل كتب الله وآياته ، وإنما أباح الشارع الرواية عنهم في قوله « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » فيما قد يجوز العقل ، فاما فيما تحمله العقول ويحكم فيه بالبطلان ويغلب على الظنون كذبه فليس من هذا القبيل والله أعلم . وقد أكر كثير من السلف من المفسرين وكذا طائفة كثيرة من الخلف من الحكاية عن كتب أهل الكتاب في تفسير القرآن المجيد وليس بهم احتياج إلى أخبارهم والله الحمد والمنة حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمه الله عليه أورد ههنا أثرا غريبا لا يصح سنده عن ابن عباس رضي الله عنهما فقال حدثنا أبي قال حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومي حدثنا ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خلق الله تبارك وتعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك البحر نجلا يقال له قاف مماء الدنيا مرفوعة عليه ثم خلق الله تعالى من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرات ، ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له قاف السماء الثانية مرفوعة عليه حتى عد سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل وسبع سموات قال وذلك قوله تعالى (والبحر يمدد من بعده سبعة أبحر) فاسناد هذا الأثر فيه انقطاع ، والذي رواه طي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل (ق) هو اسم من أسماء الله عز وجل والذي ثبت عن مجاهد أنه حرف من حروف الهجاء كقوله تعالى (ص - ن - حم - طس - الم) ونحو ذلك فهذه تبعد ما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل المراد قضى الأمر والله وأن قوله جل ثناؤه ق دلت على المحذوف من بقية الكلمة كقول الشاعر * قلت لها قفي فقالت ق * وفي هذا التفسير نظر لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف ؟ وقوله تعالى (والقرآن المجيد) أى الكريم العظيم الذى (لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) واختلفوا في جواب القسم ما هو فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) وعندنا كتاب حفيظ (وفي هذا نظر بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم وهو اثبات النبوة واثبات المعاد وتقديره وتحقيقه وإن لم يكن القسم يتلقى لفظا وهذا كثير في أقسام القرآن كما تقدم في قوله (ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق) وهكذا قال ههنا (ق والقرآن المجيد)

أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (أى تعجبوا من ارسال رسول إليهم من البشر كقوله جل جلاله (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس) أى وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس . ثم قال عزوجل مخبراً عنهم فى تعجبهم أيضاً من العباد واستبعادهم لوقوعه أنذامتنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد) أى يقولون أنذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ (ذلك رجع بعيد) أى بعيد الوقوع . والمعنى أنهم يستقدون استحالة وعدم إمكانه قال الله تعالى راداً عليهم (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى مائتاً كل من أجسادهم فى البلى تعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت (وعندنا كتاب حفيظ) أى حافظ لذلك فالعلم شامل والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة قال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى مائتاً كل من لحومهم وأبشارهم ، وعظامهم وأشعارهم ، وكذا قال مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم ، ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس يبعد فقال (بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريب) أى وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال بعد ذلك فهو باطل ، والمريب: المختلف المضطرب للتبس النكر خلاله كقوله تعالى (إنكم لى قول مختلف يؤيك عنه من أفك)

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾

يقول تعالى منها للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها) أى بالمصاييح (وما لها من فروع) قال مجاهد يعنى من شقوق وقال غيره فتوق ، وقال غيره صدوع والمعنى متقارب كقوله تبارك وتعالى (الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) أى كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً وقوله تبارك وتعالى (والأرض مددناها) أى وسعناها وفرشناها (وألقينا فيها رواسي) وهى الجبال ثلاثيم بأهلها وتضطرب فانها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها (وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أى من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وقوله بهيج أى حسن للنظر (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) أى ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب أى خاضع خائف وجل رجاع إلى الله عزوجل وقوله تعالى (ونزلنا من السماء ماء مباركا) أى نافعا (فأنبطنا به جنات) أى حدائق من بساتين ونحوها (وحب الحصيد) وهو الزرع الذى يراد لجه وادخاره (والنخل باسقات) أى طوالا شاهقات قال ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى وغيرهم الباسقات الطوال (لها طلع نضيد) أى منضود (رزقا للعباد) أى للخلق (وأحيينا به بلدة ميتا) وهى الأرض التى كانت هامة فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزهار وغير ذلك مما يحار الطرف فى حسنها وذلك بعد ما كانت لا نبات بها فأصبحت تتهز خضراء فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك كذلك يحيى الله الموتى وهذا الشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث كقوله عزوجل (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقوله تعالى (أولم يروا أن الله الذى خلق

السموات والأرض ولم يمسى مخلقهين بقادر على أن يحيى الموتى . بل إنه على كل شيء قدير) وقال سبحانه وتعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ * وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباهم ونظرائهم وأمثالهم من الكذابين قبلهم من النعمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح وماعذبهم الله تعالى به من الفرق العام لجميع أهل الأرض وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم في سورة الفرقان (وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط) وهم أمته الذين بعث اليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق (وأصحاب الأيكة) وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام (وقوم تبع) وهو اليماني وقد ذكرنا من شأنه في سورة الدخان ما أغنى عن اعادته ههنا والله الحمد والشكر (كل كذب الرسل) أى كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسولهم ومن كذب رسولا فكأنما كذب جميع الرسل كقولهم جل وعلا (كذبت قوم نوح المرسلين) وإنما جاءهم رسول واحد فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم (فحق وعيد) أى فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فانهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك وقوله تعالى (أفعيينا بالخلق الأول) أى أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الاعادة (بل هم في لبس من خلق جديد) والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والاعادة أسهل منه كما قال عز وجل (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وقال الله جل جلاله (وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) وقد تقدم في الصحيح « يقول الله تعالى يؤذني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون على من اعادته »

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلْنَاهُ مَّا تَوْسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَقِيدٌ * وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنَفَخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

خبر تعالى عن قدرته على الإنسان بانه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر . وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » وقوله عز وجل (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) يعنى ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم فأنما قرئ لا يلزم حلول أو اتحاد وهما منفيان بالإجماع تعالى الله وتقدس ولكن اللفظ لا يقتضيه فانه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد وإنما قال (ونحن أقرب إليه من حبل والوريد) كما قال في المختصر (ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون) يعنى ملائكته وكما قال تبارك وتعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فالملائكة نزلت بالذكر وهو القرآن باذن الله عز وجل وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه باقدار الله جل وعلا لهم على ذلك . فللملك لمة من

الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ولهذا قال تعالى ههنا (إذ يتلقى المتلقيان) يعنى الملكين الذين يكتبان عمل الإنسان (عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى مترصد (ما يلفظ) أى ابن آدم (من قول) أى ما يتكلم بكلمة (إلا لديه رقيب عتيد) أى إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة كما قال تعالى (وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يفعلون ما فعلون) وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شيء من الكلام . وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس رضى الله عنهما . على قولين وظاهر الآية الأول لعموم قوله تبارك وتعالى (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) . وقد قال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة اللبى عن أبيه عن جده علقمة عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه » فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث محمد بن عمرو به وقال الترمذى حسن صحيح وله شاهد فى الصحيح وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها . رواه أبى حاتم وقال الحسن البصرى وتلا هذه الآية (عن اليمين وعن الشمال قعيد) يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكلك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الله عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقل أو أكثر حتى إذا مات ما طويت صحيفةك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى (وكل إنسان الزمان طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) ثم يقول عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) قال يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى أنه يكتب قوله أكلت شربة ذهبت جئت رأيت حتى إذا كان يوم الحيس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر وألقى سائرته وذلك قوله تعالى (يحسب الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب) وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه قبله عن طاوس أنه قال يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله . وقوله تبارك وتعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) يقول عز وجل وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أى كشفت لك عن اليقين الذى كنت تترى فيه (ذلك ما كنت منه تحيد) أى هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص . وقد اختلف المفسرون فى الخطاب بقوله (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) فالصحيح أن الخطاب بذلك الإنسان من حيث هو وقيل للكافر وقيل غير ذلك . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا حدثنا إبراهيم بن زياد سبلان أخبرنا عباد بن عباد عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده علقمة بن وقاص قال ان عائشة رضى الله عنها قالت حضرت أبى رضى الله عنه وهو يموت وأنا جالسة عند رأسه فاخذته غشية فتمثلت بييت من الشعر :

من لا يزال دمه مقنعا فانه لا بد مرة مدفوق

قالت فرجع رضى الله عنه رأسه فقال يا بنية ليس وكذلك لكن كما قال تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) وحدثنا خلف بن هشام حدثنا أبو شهاب الحياط عن إسماعيل بن أبى خالد عن البهي قال لما أن تقل أبو بكر رضى الله عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

لعمرك ما يبنى التراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشفت عن وجهه وقال رضى الله عنه ليس كذلك ولكن قولى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه

نحيد) . وقد أوردت لهذا الأثر طرفا كثيرة في سيرة الصديق رضى الله عنه عند ذكر وفاته ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما تشاء الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول « سبحان الله إن الموت لسكرات » وفي قوله (ذلك ما كنت منه نحيد) قولان (أحدهما) أن ما ههنا موصولة أى الذى كنت منه نحيد بمعنى تبتعد وتتناهى وتفر قد حل بك ونزل بساحتك (والقول الثانى) أن ما نافية بمعنى ذلك ما كنت تقدر على الفراق منه ولا الحيد عنه وقد قال الطبرانى فى المعجم الكبير حدثنا مؤمل بن طى الصائغ المكي حدثنا حفص عن ابن عمر الحدى حدثنا معاذ ابن محمد الهذلى عن يونس بن عبيد عن الحسن بن مرة قال : قال رسول الله ﷺ « مثل الذى يفر من الموت مثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فجاء يسعى حتى إذا أعيا وأسهر دخل جحره وقالت له الأرض يا ثعلب ديبى فخرج وله حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات » ومضمون هذا المثل كما لا انفكاك له ولا يحيد عن الأرض كذلك الإنسان لا يحيد له عن الموت ، وقوله تبارك وتعالى (ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور والفرع والصعق والبعث وذلك يوم القيامة وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جهته وانتظر أن يؤذن له » قالوا يا رسول الله كيف يقول ؟ قال ﷺ « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال القوم حسبنا الله ونعم الوكيل (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) أى ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله . هذا هو الظاهر من الآية الكريمة . وهو اختيار ابن جرير ثم روى من حديث إسماعيل بن أبى خالد عن يحيى بن رافع مولى لثقيف قال سمعت عثمان بن عفان رضى الله عنه يخطب فقرا هذه الآية (وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) فقال سائق يسوقها إلى الله تعالى وشاهد يشهد عليها بما عملت وكذا قال مجاهد وقادة وابن زيد وقال مطرف عن أبى جعفر مولى أشجع عن أبى هريرة رضى الله عنه قال السائق الملك والشهيد العمل وكذا قال الضحاك والسدى وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما السائق من الملائكة والشهيد الإنسان نفسه يشهد على نفسه وبه قال الضحاك بن مزاحم أيضا . وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله تعالى (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أحدها أن المراد بذلك الكافر رواه طى بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان والثانى أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالقطة والدنيا كاللنام وهذا اختيار ابن جرير وثقه عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله عن عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ، والثالث أن المخاطب بذلك النبي ﷺ وبه يقول زيد بن أسلم وابنه والمعنى طى قولهما لقد كنت فى غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك فكشفنا عنك غطاءك بانزاله إليك فبصرك اليوم حديد والظاهر من السياق خلاف هذا بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو والمراد بقوله تعالى (لقد كنت فى غفلة من هذا) يعنى من هذا اليوم (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أى قوى لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصرا حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة طى الاستقامة لكن لا يفهم ذلك قال الله تعالى (أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا) وقال عز وجل (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون)

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَتِيدٍ * مُّنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُّعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ * مَا يُبْدِلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن الملك الموكل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ويقول (هذا ما لدى عتيد) أى معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان وقال مجاهد هذا كلام الملك السائق يقول هذا ابن آدم الذى وكلتني به قد أحضرته

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد وله اتجاه وقوة فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليفة بالعدل فيقول (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) وقد اختلف النحاة في قوله (ألقيا) فقال بعضهم هي لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية كما روى عن الحجاج أنه كان يقول يا حرسى اضربا عنقه وما أنشد ابن جرير على هذه قول الشاعر

فان تزجراني يا ابن عفان أنزجر * وإن تركاني أحمر ضامنا

وقيل بل هي نون التأكيد سهلت إلى الألف وهذا بعيد لأن هذا إنما يكون في الوقف والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب فلما أدى الشهيد عليه أمرها الله تعالى بالقائه في نار جهنم وبئس الصير (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) أي كثير الكفر والتكذيب بالحق عنيد معاند لا يحق معارضه بالباطل مع علمه بذلك (مناع للخير) أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ولا يرفيه ولا صلة ولا صدقة (معتد) أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد . وقال قتادة معتد في منطقته وسيره وأمره (مريب) أي شاك في أمره مريب لمن نظر في أمره (الذي جعل مع الله إلها آخر) أي أشرك بالله فعبد معه غيره (فألقياه في العذاب الشديد) وقد تقدم في الحديث أن عنقا من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق إني وكلت بثلاثة بكل جبار عنيد ؟ ومن جعل مع الله إلها آخر . وبالمصورين ثم تنطوى عليهم قال الإمام أحمد حدثنا معاوية هو ابن هشام حدثنا شيان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « يخرج عنق من النار يتكلم يقول وكلت اليوم بثلاثة بكل جبار عنيد ومن جعل مع الله إلها آخر ومن قتل نفسا بغير نفس فتتطوى عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم » (قال قرينه) قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقادة وغيرهم هو الشيطان الذي وكل به (ربنا ما أطغيته) أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرا يترأ منه شيطانه فيقول (ربنا ما أطغيته) أي ما أضلته (ولكن كان في ضلال بعيد) أي بل كان هو في نفسه ضالا قابلا للباطل معاندا للحق كما أخبر سبحانه وتعالى في الآية الأخرى في قوله (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) . وقوله تبارك وتعالى (قال لا تختصموا لدي) يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق تعالى فيقول الانسي يارب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ويقول الشيطان (ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد) أي عن منهج الحق فيقول الرب عز وجل لهما (لا تختصموا لدي) أي عندي (وقد قدمت إليكم بالوعيد) أي قد أعددت إليكم على السنة الرسل وأنزلت الكتب وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين (ما يدل القول لدي) قال مجاهد يعني قد قضيت ما أنا فاض (وما أنا بظلام للعبيد) أي لست أعذب أحدا بذنب أحد ولكن لا أعذب أحدا إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

يخبر تعالى أنه يقول للجهنم يوم القيامة هل امتلأت ؟ وذلك لأنه تبارك وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين فهو سبحانه وتعالى يأمر بمن يأمر به إليها ويلقي وهي تقول هل من مزيد : أي هل بقي شيء تزيدوني ؟ وهذا هو الظاهر من سياق الآية وعليه تدل الأحاديث . قال البخاري عند تفسير هذه الآية حدثنا عبد الله بن أبي الأسود حدثنا حرمي بن عمار حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « يلقي في النار وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول : قط قط » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة قدمه فيها فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط وعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم الله تعالى في فضول الجنة » ثم رواه مسلم من حديث قتادة بنحوه ، ورواه أبان العطار وسليمان التيمي عن قتادة بنحوه ﴿ حديث آخر ﴾ قال البخارى حدثنا محمد بن موسى القطان حدثنا أبو سفيان الحميرى سعيد بن يحيى بن مهادى حدثنا عوف عن محمد عن أبي هريرة رضى الله عنه رفعه وأكثرت ما كان يوقفه أبو سفيان : « يقال للجنة هل امتلأت وتقول هل من مزيد فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول قط قط » . ورواه أبو أيوب وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين به ﴿ طريق أخرى ﴾ قال البخارى وحدثنا عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تحاجت الجنة والنار فقالت النار أو ثرت بالتكبرين وللتجبرين ، وقالت الجنة ما لى لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادى ، وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشياء من عبادى ولكل واحدة منكما ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فيها فتقول قط قط فهناك تمتلئ وينزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدا ، وأما الجنة فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا آخر »

﴿ حديث آخر ﴾ قال مسلم في صحيحه : حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « احتجت الجنة والنار فقالت النار في الجبارون وللتكبرون وقالت الجنة في ضعفاء الناس ومساكينهم فتضى بينهما فقال للجنة إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادى وقال للنار إنما أنت عذابى أعذب بك من أشياء من عبادى ولكل واحد منكما ملؤها » انفرد به مسلم دون البخارى من هذا الوجه والله سبحانه وتعالى أعلم : وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى عن أبي سعيد رضى الله عنه بأبسط من هذا السياق فقال حدثنا حسن وروح قال حدثنا حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « افتخرت الجنة والنار فقالت النار يارب يدخلني الجبابرة والتكبرون والملوك والأشراف ، وقالت الجنة أى رب يدخلني الضعفاء والفقراء والمساكين فيقول الله تبارك وتعالى للنار أنت عذابى أصيب بك من أشياء ، وقال للجنة أنت رحمتي وسعت كل شيء ولكل واحدة منكما ملؤها فيلقى في النار أهلها فتقول هل من مزيد ، قال ويلقى فيها وتقول هل من مزيد ويلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يأتها عز وجل فيضع قدمه عليها فتزوى وتقول قدنى قدنى ، وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله تعالى أن يبقى فينشئ الله سبحانه وتعالى لها خلقا ما يشاء » ﴿ حديث آخر ﴾ وقال الحافظ أبو يعلى في مسنده حدثنا عقبه بن مكرم حدثنا يونس حدثنا عبد الغفار بن القاسم عن عدى بن ثابت عن زبر بن حبيش عن أبي بن كعب رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال « يعرفني الله تعالى نفسه يوم القيامة فأسجد سجدة يرضى بها عني ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني ثم يؤذن لي في الكلام ثم تمر أمقي على الصراط مضروب بين ظهري جهنم فيمرون أسرع من الطرف والسهم وأسرع من أجود الخيل حتى يخرج الرجل منها محبوبا وهي الأعمال ، وجهنم تسأل الزيد حتى يضع فيها قدمه فينزوى بعضها إلى بعض وتقول قط قط وأنا على الحوض » قيل وما الحوض يا رسول الله ؟ قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده إن شرباه أبيض من اللبن وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج . وأطيب ريحا من المسك ، وآنيته أكثر من عدد النجوم لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدا ولا يصرف فيروى أبدا » وهذا القول هو اختيار ابن جرير . وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى الحماني عن نصر الجزار عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما (يوم تقول للجنة هل امتلأت وتقول هل من مزيد) قال ما امتلأت قال تقول وهل في من مكان زاد في ، وكذا رواه الحكم بن أبان عن عكرمة (وتقول هل من مزيد) وهل في مدخل واحد قدامتلات قال الوليد بن مسلم عن يزيد بن أبي مرزوم أنه سمع معاهدا يقول لا يزال يقذف فيها حتى تقول قدامتلات فتقول هل في مزيد ، وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

نحو هذا فعند هؤلاء أن قوله تعالى (هل امتلأت) إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه فتزوى وتقول حينئذ هل بقي في مزيد يسع شيئا ؟ قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة والله أعلم وقوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد) قال قتادة وأبو مالك والسدي (وأزلفت) أدنيت وقربت من المتقين (غير بعيد) وذلك يوم القيامة وليس بعيد لأنه واقع لاحالة وكل ما هو آت قريب (هذا ما توعدون لكل أبواب) أي رجاء تأب مقلع (حفيظ) أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه ، وقال عبيد بن عمير : الأبواب الحفيظ الذي لا يجلس مجلسا فيقوم حتى يستغفر الله عز وجل (من خشى الرحمن بالغيث) أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل كقوله ﷺ « ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه » (وجاء بقلب منيب) أي ولقى الله عز وجل يوم القيامة بقلب منيب سليم اليه خاضع لديه (ادخلوها) أي الجنة (بسلام) . قال قتادة سلموا من عذاب الله عز وجل وسلم عليهم ملائكة الله . وقوله سبحانه وتعالى (ذلك يوم الخلود) أي يخلدون في الجنة فلا يموتون أبدا ولا يظعنون أبدا ولا ييغون عنها حولا ، وقوله جللت عظمتها (لهم ما يشاءون فيها) أي مهما اختاروا وجدوا من أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عمر بن عثمان حدثنا بقية عن يحيى بن سعيد عن خالد بن معدان عن كثير بن مرة قال من الزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول ماذا تريدون فأمرطره لكم ؟ فلا يدعون بشيء إلا أمطرتهم ، قال كثير لئن أشهدني الله تعالى ذلك لأقولن أمطرينا جوارى مزيينات وفي الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال له « إنك لتشتهى الطير في الجنة فيخبر بين يديك مشويا » وقال الإمام أحمد حدثنا علي بن عبد الله حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن عامر الأحول عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حمله ووضعوه وسنه في ساعة واحدة » ورواه الترمذي وابن ماجه عن بNDAR عن معاذ بن هشام به وقال الترمذي حسن غريب وزاد : كما اشتهى وقوله تعالى (ولدينا مزيد) كقوله عز وجل (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وقد تقدم في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان الرومي أنها النظر إلى وجه الله الكريم . وقد روى البرار وابن أبي حاتم من حديث شريك القاضي عن عثمان بن عمير أبي اليقظان عن أنس مالك رضي الله عنه في قوله عز وجل (ولدينا مزيد) قال يظهر لهم الرب عز وجل في كل جمعة ، وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعي مرفوعا فقال في مسنده أخبرنا إبراهيم بن محمد حدثني موسى بن عبيدة حدثني أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة عن عبيد الله بن عمير أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول أتى جبرائيل عليه الصلاة والسلام امرأة يضاء فيها نكتة إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماهذه » فقال هذه الجمعة فضلت بها أنت وأمتك فالناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ولكم فيها خير ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن يدعو الله تعالى فيها بخير إلا استجيب له وهو عندنا يوم المزيد قال النبي ﷺ « يا جبريل وما يوم المزيد » قال عليه السلام إن ربك تبارك وتعالى اتخذ في الفردوس واديا أفتح فيه كتب المسك فاذا كان يوم الجمعة أنزل الله تعالى ما شاء من ملائكته وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين وحفت تلك المنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزر جرد عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب فيقول الله عز وجل أنا ربكم قد صدقتم وعدى فسلوني أعطكم فيقولون ربنا نسألك رضوانك فيقول قد رضيت عنكم ولكم على ما تمنيت ولدي مزيد . فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم تبارك وتعالى من الخير وهو اليوم الذي استوى فيه ربكم على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة . هكذا أورده الإمام الشافعي رحمه الله في كتاب الجمعة من الأم وله طرق عن أنس بن مالك رضي الله عنه وقد أورد ابن جرير هذا الحديث من رواية عثمان بن عمير عن أنس رضي الله عنه بأبسط من هذا وذكر هنا أثرا مطولا عن أنس بن مالك رضي الله عنه موقوفا وفيه غرائب كثيرة

وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله

عليه السلام قال « إن الرجل في الجنة ليتكىء في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتيه امرأة تضرب على منكبيه فينظر وجهه في خدها أصفى من المرأة وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب فتسلم عليه فيرد السلام فيسألها من أنت؟ فتقول أنا من الزيد وإنه ليكون عليها سبعون حلة أداها مثل النعمان من طوبى فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك ، وإن عليها من التيجان إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب » وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُثُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴾

يقول تعالى وكما أهلكنا قبل هؤلاء الكافرين (من قرن هم أشد منهم بطشا) أى كانوا أكثر منهم وأشد قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ولهذا قال تعالى ههنا (فتقربوا في البلاد هل من محيص) قال ابن عباس رضى الله عنهما أثروا فيها وقال مجاهد (فتقربوا في البلاد) ضربوا في الأرض وقال قتادة فساروا في البلاد أى ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طعمت بها ويقال لمن طوف في البلاد قُب فيها ، قال امرؤ القيس
لقد قُبت في الآفاق حتى رُضيت من الغنمة بالإياب

وقوله تعالى (هل من محيص) أى هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره وهل تفهم ما جمعه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل فأتهم أيضا لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص . وقوله عز وجل (إن في ذلك لذكرى) أى لعبرة (لمن كان له قلب) أى لب يعى به . وقال مجاهد : عقل (أو ألقى السمع وهو شهيد) أى استمع الكلام فوعاه وتقبله بعقله وتفهمه بلبه ، وقال مجاهد (أو ألقى السمع) يعنى لا يحدث نفسه في هذا بقلب ، وقال الضحاك العرب تقول ألقى فلان ممعه إذا استمع بأذنيه وهو شاهد بقلب غير غائب وهكذا قال الثوري وغير واحد وقوله سبحانه وتعالى (ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب) فيه تقرير للعاد لأن من قسدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن قادر على أن يعى الموتى بطريق الأولى والأخرى ، وقال قتادة : قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تعالى تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه (وما مسنا من لغوب) أى من إعياء ولا تعب ولا نصب كما قال تبارك وتعالى في الآية الأخرى (أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يعى الموتى بل إنه على كل شيء قدير) وكما قال عز وجل (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس) وقال تعالى (أتأثم أشد خلقا أم السماء بناها؟)

وقوله عز وجل (فاصبر على ما يقولون) يعنى المكذبين اصبر عليهم واهجرهم هجرا جميلا (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) وكانت الصلاة المفروضة قبل الاسراء لثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفجر وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجبا على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته ثم نسخ في حق الأمة وجوبه . ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . وقد قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر

فقال « أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر لا تضامون فيه فان استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب) ورواه البخارى ومسلم وبقية الجماعة من حديث إسماعيل به . وقوله تعالى (ومن الليل فسبحه) أى فصل له كقوله (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) (وأدبار السجود) قال ابن أبى نجیح عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما هو التسييح بعد الصلاة . ويؤيد هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : جاء قراء للمهاجرين فقالوا يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « وما ذاك ؟ » قالوا يصلون كما نصلى . ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا تصدق . ويعتقون ولا نتق . قال ﷺ « أفلا أعلمكم شيئا إذا فعلتموه سبقتكم من بعدهم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين » قال : فقالوا يا رسول الله مع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله . فقال صلى الله عليه وسلم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » والقول الثانى أن المراد بقوله تعالى (وأدبار السجود) هما الركعتان بعد المغرب وروى ذلك عن عمر وطى وابنه الحسن وابن عباس وأبى هريرة وأبى أمامة رضى الله عنهم . وبه يقول مجاهد وعكرمة والشعبى والنخعى والحسن وقتادة وغيرهم قال الإمام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن عن سفيان عن أبى إسحاق عن عاصم بن ضمرة عن طى رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر وقال عبد الرحمن دبر كل صلاة . ورواه أبو داود والنسائى من حديث سفيان الثورى به زاد النسائى ومطرف عن أبى إسحاق به وقال ابن أبى حاتم حدثنا هارون بن إسحاق الحمداى حدثنا ابن فضيل عن رشدين بن كريب عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت ليلة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ركعتين خفيفتين اللتين قبل الفجر ثم خرج إلى الصلاة فقال يا ابن عباس « ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم . وركعتين بعد المغرب إدبار السجود » ورواه الترمذى عن هشام الرفاعى عن محمد بن فضيل به وقال غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وحديث ابن عباس رضى الله عنهما وأنه بات فى بيت خالته ميمونة رضى الله عنها وصلى تلك الليلة مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة ركعة . ثابت فى الصحيحين وغيرها . فأما هذه الزيادة فغريبة لا تعرف إلا من هذا الوجه ورشدين بن كريب ضعيف ولعله من كلام ابن عباس رضى الله عنهما موقوفا عليه والله أعلم

﴿ يَا سَمِيعُ يَوْمَ يَنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرُ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾

يقول تعالى (واستمع) يا محمد (يوم ينادى المناد من مكان قريب) قال قتادة : قال كعب الأحبار يأمر الله تعالى ملكا أن ينسأدى على صخرة بيت المقدس أيتها العظام البالية والواصل المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء (يوم يسمعون الصيحة بالحق) يعنى النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون (ذلك يوم الخروج) أى من الأجداث (إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير) أى هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم فيجازى كلا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر . وقوله تعالى (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) وذلك أن الله عز وجل ينزل مطرا من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها فى قبورها كما ينبت الحب فى الترى بالماء فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ فى الصور وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح توهج بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل : وعزنى وجلالى لترجعن كل روح إلى الجسد

الذي كانت تعمده فترجع كل روح إلى جسدها فتدب فيه كما يدب السم في اللدغ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعا مبادرين إلى أمر الله عز وجل (مطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر) وقال الله تعالى (يوم يدعوكم فتستجيون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أنا أول من تنشق عنه الأرض»، وقوله عز وجل (ذلك حشر علينا يسير) أي تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا كما قال جل جلاله (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وقال سبحانه وتعالى (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله مميع بصير). وقوله جل وعلا (نحش أعلم بما يقولون) أي نحن علمنا محيط بما يقول لك للشركون من التكذيب فلا يهول لك ذلك كقوله (ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين). وقوله تبارك وتعالى (وما أنت عليهم بجبار) أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى وليس لك مما كلفت به وقال مجاهد وقناة والضحاك (وما أنت عليهم بجبار) أي لا تجبر عليهم والقول الأول أولى ولو أراد ما قالوه لقال ولا تكن جبارا عليهم وإنما قال (وما أنت عليهم بجبار) بمعنى وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ، قاله الفراء: سمعت العرب تقول جبر فلان فلانا على كذا بمعنى أجبره ثم قال عز وجل (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أي بلغ أنت رسالة ربك فأنما يذكرك من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده كقوله تعالى (فأنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وقوله جل جلاله (فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر). (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) ولهذا قال تعالى ههنا (وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) كان قناة يقول اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعودك يا بار يارحيم. آخر تفسير سورة ق والحمد لله وحده وحسبنا الله ونعم الوكيل.

(تفسير سورة الذاريات وهي مكية)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

(وَالَّذِي رِيتَ ذُرْوًا * فَالْحَمِلَتْ وَفِرًا * فَالْجَارِيَتِ يُسْرًا * فَالْمَقْسَمِتِ أَمْرًا * إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّعُوا * وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْحُبُكِ * إِنَّا كُنَّا فِي قَوْلٍ مُتَخَفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ * قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ)

قال شعبة بن الحجاج عن ممالك عن خالد بن عرعة أنه سمع عليا رضي الله عنه وشعبة أيضا عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل أنه سمع عليا رضي الله عنه، وثبت أيضا من غير وجه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أنه سعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال يا أمير المؤمنين مامعنى قوله تعالى (والذاريات ذروا)، قال علي رضي الله عنه: الريح، قال (فالحمالات وقرا) قال رضي الله عنه: السحاب، قال (فالجاريات يسرا) قال رضي الله عنه: السفن، قال (فالمقسمت أمرًا) قال رضي الله عنه: للملائكة

وقد روى في ذلك حديث مرفوع فقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا إبراهيم بن هانيء حدثنا سعيد بن سلام العطار حدثنا أبو بكر بن أبي سبرة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال جاء صبيغ التيمي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين أخبرني عن الذاريات ذروا فقال رضي الله عنه هي الرياح ولولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ماقلته قال فأخبرني عن المقسمات أمرا قال رضي الله عنه هي الملائكة ولولا أني سمعت

رسول الله ﷺ يقول ما قلته ، قال فأخبرني عن الجاريات يسرا قال رضى الله عنه هي السفن ولولا آتى سمعت رسول الله ﷺ يقول ما قلته ثم أمر بضربه ف ضرب مائة وجعل في بيت فلما برأ دعا به ف ضربه مائة أخرى وحمله على قتب وكتب على آتى موسى الأشعري رضى الله عنه امنع الناس من مجالسته فلم يزل كذلك حتى آتى أبا موسى رضى الله عنه فحلف بالآيمان الغلظة ما يجد في نفسه مما كان يجد شيئا فكتب في ذلك إلى عمر رضى الله عنه فكتب عمر ما إخاله الا قد صدق فخل بينه وبين مجالسة الناس قال أبو بكر البزار فأبو بكر بن أبي سبرة لين وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث قلت فهذا الحديث ضعيف رفعه وأقرب ما فيه أنه موقوف على عمر رضى الله عنه فان قصة صبيغ بن عسل مشهورة مع عمر رضى الله عنه وإنما ضربه لأنه ظهر له من أمره فيما يسأل تفتا وعنادا والله أعلم . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر هذه القصة في ترجمة صبيغ مطولة وهكذا فسرها ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدي وغير واحد ، ولم يحك ابن جرير وابن أبي حاتم غير ذلك ، وقد قيل ان المراد بتدريبات الريح كما تقدم وبالحاملات وقرأ السحاب كما تقدم لأنها تحمل الماء كما قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وأسلمت نفسي لمن أسلمت له الزن تحمل عذبا زلالا

فأما الجاريات يسرا فالمشهور عن الجمهور كما تقدم أنها السفن تجري ميسرة في الماء جريا سهلا وقال بعضهم هي النجوم تجري يسرا في أفلاكها ليكون ذلك ترقيا من الأدنى الى الأعلى الى ما هو أعلى منه فالرياح فوقها السحاب والنجوم فوق ذلك والقبسات أمرا الملائكة فوق ذلك تنزل بأوامر الله الشرعية والكونية وهذا قسم من الله عز وجل على وقوع المعاد ولهذا قال تعالى (إنما تعدون لصادق) أى لحبر صدق (وإن الدين) وهو الحساب (لواقع) أى لكائن لا محالة :

ثم قال تعالى (والسماء ذات الحجب) قال ابن عباس رضى الله عنهما ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو صالح والسدي وقتادة وعطية العوفي والريبع بن أنس وغيرهم وقال الضحاك وللنهار بن عمرو وغيرها مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضا طرائق طرائق فذلك الحجب قال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا أيوب عن أبي قلابة عن رجل من أصحاب النبي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن من ورائكم الكذاب المضل وإن رأسه من ورائه حبكا حبكا » يعنى بالحجب الجعودة . وعن أبي صالح ذات الحجب الشدة وقال خفيف ذات الحجب ذات الصفاة . وقال الحسن بن أبي الحسن البصري ذات الحجب حبكت بالنجوم . وقال قتادة عن سالم بن أبي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن عمرو الكافى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما (والسماء ذات الحجب) يعنى السماء السابعة وكأنه والله أعلم أراد بذلك السماء التى فيها الكواكب الثابتة وهى عند كثير من علماء الهيئة فى الفلك الثامن الذى فوق السابع والله أعلم . وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد وهو الحسن والبهاء كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فانها من حسنها مرتفعة شفاقة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء مكللة بالنجوم الثوابت والسيارات موشحة بالشمس والقمر والكواكب المزاهرات . وتوله تعالى (إنكم لئى قول مختلف) أى إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول لئى قول مختلف مضطرب لا يلتزم ولا يجتمع وقال قتادة إنكم لئى قول مختلف ما بين مصدق بالقرآن ومكذب به . (يؤفك عنك من أفك) أى إنما يروج على من هو ضال فى نفسه لأنه قول باطل إنما ينقاد له ويضل بسببه ويؤفك عنه بن هو مأفوك ضال غمر لا فهم له كما قال تعالى (فإنكم وما تعبدون ما أتم عليه بغاتين إلا من هو صال الجحيم) قال ابن عباس رضى الله عنهما والسدي (يؤفك عنه من أفك) يضل عنه من ضل وقال مجاهد (يؤفك عنه من أفك) يؤفن عنه من أفن ، وقال الحسن البصري يصرف عن هذا القرآن من كذب به . وقوله تعالى (قتل الحراصون) قال مجاهد الكذابون قال وهى مثل التى فى عبس (قتل الإنسان ما أ كفره) والحراصون الذين يقولون لا نبعث ولا يوقنون . وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (قتل الحراصون) أى لمن المرتابون . وهكذا كان معاذ رضى الله عنه يقول فى خطبته : هلك المرتابون .

وقال قتادة : الخراسون أهل الغرة والظنون وقوله تبارك وتعالى (الذين هم في غمرة ساهون) قال ابن عباس رضى الله عنهما وغير واحد في الكفر والشك غافلون لا هون (يسألون أيان يوم الدين) وإنما يقولون هذا تكذيبا وعنادا وشكا واستبعادا قال الله تعالى (يوم هم على النار يفتنون) . قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد يفتنون يعذبون قال مجاهد: كما يفتن الذهب على النار ، وقال جماعة آخرون كمجاهد أيضا وعكرمة وإبراهيم السخمي وزيد بن أسلم وسفيان الثوري يفتنون يحرقون (ذوقوا فنتنكم) قال مجاهد: حريقكم وقال غيره عذابكم (هذا الذي كنتم به تستعجلون) أى يقال لهم ذلك قريبا وتوبيخا وتحقيرا وتصغيرا والله أعلم

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * قَرِيبٌ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ إِنَّهُ خَلَقَ مِثْلَ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المتقين لله عز وجل أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال . وقوله تعالى (آخذين ما آتاهم ربهم) قال ابن جرير أى عاملين بما آتاهم الله من الفرائض (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضا ثم روى عن ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن أبي عمر عن مسلم البطين عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى (آخذين ما آتاهم ربهم) قال من الفرائض (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) قبل الفرائض يعملون ، وهذا الإسناد ضعيف ولا يصح عن ابن عباس رضى الله عنهما

وقد رواه عثمان بن أبي شيبة عن معاوية بن هشام عن سفيان عن أبي عمر البزار عن مسلم البطين عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما فذكره ، والذي فسر به ابن جرير فيه نظر لأن قوله تبارك وتعالى آخذين حال من قوله في جنات وعيون فالمتقون في حال كونهم في الجنان والعيون آخذين ما آتاهم ربهم أى من النعم والسرور والقبطة ، وقوله عز وجل (إنهم كانوا قبل ذلك) أى في الدار الدنيا (محسنين) كقوله جل جلاله (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) اختلف المفسرون في ذلك على قولين أحدهما أن ما نافية تقديره كانوا قليلا من الليل لا يهجعونه قال ابن عباس رضى الله عنهما لم تكن تمضى عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئا ؛ وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله قل ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عز وجل إما من أولها ومن أوسطها وقال مجاهد قل ما يرقدون ليلة حتى الصباح لا يتهجدون وكذا قال قتادة وقال أنس بن مالك رضى الله عنه وأبو العالية كانوا يصلون بين المغرب والعشاء . وقال أبو جعفر الباقر كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة ، والقول الثاني أن ما مصدرية تقديره كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم ، واختاره ابن جرير ، وقال الحسن البصري (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا فشدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ، وقال قتادة: قال الأخنف بن قيس (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) كانوا لا ينامون إلا قليلا ثم يقول لست من أهل هذه الآية . وقال الحسن البصري كان الأخنف ابن قيس يقول عرضت عملي على عمل أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا إذا قوم لا نبليغ أعمالهم كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله مكذبون بالبعث بعد الموت فقد وجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

قال رجل من بني تميم لأبي : يا أبا أسامة صفة لا أجد هافينا ذكر الله تعالى قوما فقال (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم فقال له أبي رضي الله عنه طوبى لمن رقد إذا نفس واتقى الله إذا استيقظ . وقال عبد الله بن سلام رضي الله عنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انجفل الناس إليه فكنت قيمن انجفل فلما رأيت وجهه صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب فكان أول ما سمعته صلى الله عليه وسلم يقول « يا أيها الناس أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وأفشوا السلام ، وصلوا بالليل والناس نيام تَدْخُلُوا الجنة بسلام » وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثني يحيى بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن في الجنة غرضا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » فقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ « لمن ألان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائما والناس نيام » وقال معمر في قوله تعالى (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) كان الزهري والحسن يقولان كانوا كثيرا من الليل ما يصابون وقال ابن عباس رضي الله عنهما وإبراهيم النخعي (كانوا قليلا من الليل ما يهجعون) ما ينامون وقال الضحاك (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا) ثم ابتداء فقال (من الليل ما يهجعون وبالأسحارهم يستغفرون) وهذا القول إليه بعد وتعسف

وقوله عز وجل (وبالأسحارهم يستغفرون) قال مجاهد وغير واحد يصابون وقال آخرون قاموا الليل وأخروا الاستغفار إلى الأسحار كما قال تبارك وتعالى (والمستغفرين بالأسحار) فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن . وقد ثبت في الصحيح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى أخبرا عن يعقوب أنه قال لبنيه (سوف أستغفر لكم ربي) قالوا أخرهم إلى وقت السحر وقوله تعالى (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) لما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال (وفي أموالهم حق) أي جزء مقسوم قد أقرزوه للسائل والمحروم أما السائل فمعروف وهو الذي يتدنى بالسؤال وله حق كما قال الإمام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبي يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن علي رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « للسائل حق وإن جاء على فرس » ورواه أبو داود من حديث سفيان الثوري به . ثم أسنده من وجه آخر عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وروى من حديث الهرماس بن زياد مرفوعا ، وأما المحروم فقال ابن عباس رضي الله عنهما وعجاهد هو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم يعني لاسهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هو المحارف الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه وقال الضحاك هو الذي لا يكون له مال إلا ذهب قضى الله تعالى له ذلك وقال أبو قلابة جاء سيل بالجماعة فذهب بمال رجل فقال رجل من الصحابة رضي الله عنهم هذا المحروم وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضا وسعيد ابن المسيب وإبراهيم النخعي ونافع مولى ابن عمر رضي الله عنهما وعطاء بن أبي رباح : المحروم المحارف وقال قتادة والزهري المحروم الذي لا يسأل الناس شيئا . قال الزهري وقد قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمر والتمران ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحهما من وجه آخر وقال سعيد بن جبير هو الذي يجي وقد قسم المقم فبرضخ له . وقال محمد بن إسحق حدثني بعض أصحابنا قال كنا مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في طريق مكة فجاء كلب فانتزع عمر رضي الله عنه كنف شاة فرمى بها إليه وقال : يقولون إنه المحروم ، وقال الشعبي أعياني أن أعلم ما المحروم ، واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له بأي سبب كان وقد ذهب ماله ، سواء كان لا يقدر على الكسب أو قد هلك ماله أو نحوه بأفة أو نحوه . وقال الثوري عن قيس بن مسلم عن الحسن بن محمد

رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ بعث سرية فغنموا فجاءه قوم لم يشهدوا الغنمة فنزلت هذه الآية (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم) وهذا يقتضى أن هذه مدينة وليس كذلك بل هى مكية شاملة لما بعدها وقوله عز وجل (وفي الأرض آيات للموقنين) أى فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف ألسنة الناس وألوانهم وما جبلوا عليه من الارادات والقوى وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه ولهذا قال عز وجل (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) قال قتادة من تفكر فى خلق نفسه عرف أنه إنما خلق وليت مفاصله للعبادة . ثم قال تعالى (وفي السماء رزقكم) يعنى المطر (وما تواعدون) يعنى الجنة قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وغير واحد وقال سفيان الثوري قرأ واصل الأحذب هذه الآية (وفي السماء رزقكم وما تواعدون) فقال ألا أرى رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض ؟ فدخل خربة فكث ثلاثا لا يصيب شيئا فلما أن كان فى اليوم الثالث إذا هو بدخولة من رطب وكان له أخ أحسن نية منه فدخل معه فصارتا دواخلتين فلم يزل ذلك دأبهما حتى فرق بينهما الموت . وقوله تعالى (فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة وهو حق لا مرية فيه فلا تشكوا فيه كالأ تشكوا فى نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ رضى الله عنه إذا حدث بالشئ يقول لصاحبه إن هذا الحق كما أنك ههنا قال مسدد عن ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن البصرى قال بلغنى أن رسول الله ﷺ قال « قاتل الله أفواما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن فذكره مرسل

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْكَرِيمِ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ صَمِيمٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَمَ عَلَيْهِمُ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾

هذه القصة قد تقدمت فى سورة هود والحجر أيضا فقلوه (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم الكرمين) أى الدين أرصد لهم الكرامة ، وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل . وقوله تعالى (قالوا سلاما قال سلام) الرفع أقوى وأثبت من النصب فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) فالخليل اختار الأفضل ، وقوله تعالى (قوم منكرون) وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه فى صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال (قوم منكرون) . وقوله عز وجل (فراغ إلى أهله) أى انسل خفية فى سرعة (فجاء بعجل صميم) أى أدناه من خيار ماله ، وفى الآية الأخرى (فما لبث أن جاء بعجل صميم) أى مشوى على الرضف (فقربه إليهم) أى أدناه منهم (قال ألا تأكلون ؟) تلتطف فى العبارة وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة فانه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ولم يمتن عليهم أو لا فقال تأتسكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء وآتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجول فتى صميم مشوى فقربه إليهم لم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال (ألا تأكلون ؟) على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل . وقوله تعالى (فأوجس منهم خيفة) هذا محال على ما تقدم فى القصة فى السورة الأخرى وهى قوله

تعالى (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامراته قائمة فضحكت) أى استبشرت بهلاكهم لفردهم وعتوهم على الله تعالى فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب (قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد) ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ههنا (وبشروه بغلام عليم) فالبشارة له هى بشاره لها . لأن الولد منهما فكل منهما بشر به . وقوله تعالى (فأقبلت امرأته فى صرة) أى فى صرخة عظيمة ورنه ، قاله ابن عباس رضى الله عنهما ومجاهد وعكرمة وأبو صالح والضحاك وزيد بن أسلم والثورى والسدى وهى قولها (يا ويلتا) (فسكت وجهها) أى ضربت يديها على جبينها قاله مجاهد وابن سابط ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما لطمت أى تعجبا كما تعجب النساء من الأمر الريب (وقالت عجوز عقيم) أى كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت فى حال الصبا عقيلا لأجبل ؟ (قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) أى عليم بما تستحقون من الكرامة حكيم فى أقواله وأفعاله .

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ * مَّسْوْمَةً وَعِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام (فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجاد لنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود وقال ههنا (قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟) أى ما شأنكم وفيهم جثم (قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) يعنون قوم لوط (لئرسل عليهم حجارة من طين مسمومة) أى معلقة (عند ربك للسرفين) أى مكتوبة عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه فقال فى سورة التكبوت (قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينها وأهلها إلا امرأته كانت من الفاجرين) وقال تعالى ههنا (فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين) وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته (فمأوجدنا فيها غير بيت من المسلمين) احتج بهذه من ذهب إلى رأى المعتزلة بمن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين وهذا الاستدلال ضعيف لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس فاتفق الايمان ههنا لخصوصية الحال ولا يلزم ذلك فى كل حال ، وقوله تعالى (وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم) أى جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة ، فى ذلك عبرة للمؤمنين (الذين يخافون العذاب الأليم)

(وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَجِرَةٌ أَوْ يَحْنُونُ * فَأَخَذَهُ جُنُودُهُ فَبَدَّوْنَهُمْ فِي السَّيِّمِ * وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُونَ شَيْءًا أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَمَتَّعُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ * وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِذْ أَوْفَيْنَاهُمْ بِوَعْدِهِمْ * فَاتَّخَذُوا إِلَٰهًا غَيْرَ اللَّهِ * فَغَرَّاهُمْ أَهْوَاؤُهُمْ * فَانصَبُوا لِشِئَانِهِ * فَأَنزَلْنَا سُلُوفَهُمْ * وَجَعَلْنَاهُمْ لِبَاسًا مِّنْ عَرِيسٍ * فَأَنصَبُوا لِشِئَانِهِ * فَأَنزَلْنَا سُلُوفَهُمْ * وَجَعَلْنَاهُمْ لِبَاسًا مِّنْ عَرِيسٍ * فَأَنصَبُوا لِشِئَانِهِ)

يقول تعالى (وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبين) أى بدليل باهر وحجة قاطعة (فتولى بركنه) أى فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق البين استكبارا وعنادا . وقال مجاهد تعزز بأصحابه ، وقال قتادة غلب

عدو الله على قومه ، وقال ابن زيد (فتولى بركنه) أى بجموعه التى معه ثم قرأ (لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد) واللعنى الأول قوى كقوله تعالى (ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله) أى معرض عن الحق مستكبر (وقال ساحر أو مجنون) أى لا يخلو أمرك فيما جثنتى به من أن تكون ساحرا أو مجنونا قال الله تعالى (فأخذناه وجنوده فنبذناهم) أى ألقيناهم (فى اليم) وهو البحر (وهو ملهم) أى وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند

ثم قال عز وجل (وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) أى الفسدة التى لا تفتح شيئا . قاله الضحاك وقتادة وغيرهما ولهذا قال تعالى (ما تذر من شيء أتت عليه) أى مما نفسده الريح (إلا جعلته كالرميم) أى كالشيء المهلك البالى وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب حدثنا عمى عبد الله بن وهب حدثنى عبد الله بن يحيى ابن عياش النسائى حدثنى عبد الله بن سليمان عن دراج عن عيسى بن هلال الصدى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « الريح مسخرة من الثانية - يعنى من الأرض الثانية - ، فلما أراد الله تعالى أن يهلك بماذا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحا تهلك عادا قال أى رب أرسل عليهم الريح قدر منخر الثور ؟ قال له الجبار تبارك وتعالى لا إذا تكفأ الأرض ومن عليها ولكن أرسل عليهم بقدر خاتم ففى التى قال الله عز وجل فى كتابه (ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم) « هذا الحديث رفعه منكر والأقرب أن يكون موقوفا على عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما من زاملتيه اللتين أصابهما يوم اليرموك والله أعلم قال سعيد بن المسيب وغيره فى قوله تعالى (إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم) قالوا هى الجنوب . وقد ثبت فى الصحيح من رواية شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين) قال ابن جرير يعنى إلى وقت فناء آجالكم . والظاهر أن هذه كقوله تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) وهكذا قال ههنا (وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون) وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم فى صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار (فما استطاعوا من قيام) أى من هرب ولا نهوض (وما كانوا منتصرين) أى لا يقدرُونَ على أن ينتصروا محاسم فيه ، وقوله عز وجل (وقوم نوح من قبل) أى من وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء (إنهم كانوا قوما فاسقين) وكل هذه القصص قد تقدمت مبسطة فى أماكن كثيرة من سور متعددة والله تعالى أعلم

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمَوْسِعُونَ * وَالْأَرْضَ قَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَيِّدُونَ * وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَقَرِّءُوا إِلَى اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

يقول تعالى منها على خلق العالم العلوى والسفلى (والسما ببنيناها) أى جعلناها سقفا محفوظا رفيعا (بأيدى) أى بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد (وإننا لموسعون) أى قد وسعنا أرجاءها وفرغناها بغير عمد حتى استقلت كما هى (والأرض فرشناها) أى جعلناها فراشا للمخلوقات (فنعم المهيدون) أى وجعلناها مهذا لأهلها (ومن كل شيء خلقنا زوجين) أى جميع المخلوقات أزواج مماء وأرض وليل ونهار وشمس وقمر وبر وبحر وضياء وظلام وإيمان وكفر وموت وحياة وشقاء وسعادة وجنة ونار حتى الحيوانات والنباتات ولهذا قال تعالى (لعلكم تذكرون) أى لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له (فقرأوا إلى الله) أى الجأوا إليه واعتمدوا فى أموركم عليه (إنى لكم منه نذير مبين * ولا تجعلوا مع الله إلها آخر) أى لا تشركوا به شيئا (إنى لكم منه نذير مبين)

﴿ كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴾

فَقَوْلَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَكْلُومٍ * وَذَكَرَ فَإِنَّ اللَّهَ كَرَىٰ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿

يقول تعالى مسلينا لنبيه صلى الله عليه وسلم وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسولهم (كذلك ما أتى الدين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون) قال الله عز وجل (أتواصوا به ؟) أى أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة ؟ (بل هم قوم طاغون) أى لكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فقال متأخرهم كما قال متقدمهم قال الله تعالى (فتول عنهم) أى فأعرض عنهم يا محمد (فما أنت بمكلم) يعنى فما نلومك على ذلك (وذكر فإن الله كرى تنفع للمؤمنين) أى إيمان تنفع بها القلوب المؤمنة ثم قال جل جلاله (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) أى إيمان خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (إلا ليعبدون) أى إلا ليقرؤا بعبادتي طوعا أو كرها . وهذا اختيار ابن جرير . وقال ابن جريج إلا يعرفون ؟ وقال الربيع بن أنس (إلا ليعبدون) أى إلا للعبادة وقال السدى من العبادة ما ينفع ومنها ما لا ينفع (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) هذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك . وقال الضحاك : الراد بذلك المؤمنون . وقوله تعالى (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن آدم وأبو سعيد قالا حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال أقرأنى رسول الله ﷺ (إنى أنا الرزاق ذو القوة المتين) ورواه أبو داود والترمذى والنسائى من حديث إسرائيل وقال الترمذى حسن صحيح ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أثم الجزاء . ومن عصاه عذبه أشد العذاب . وأخبر أنه غير محتاج إليهم بل هم القراء إليه فى جميع أحوالهم . فهو خالقهم ورازقهم قال الامام أحمد حدثنا محمد بن عبد الله حدثنا عمران - يعنى ابن زائدة بن نسيطة عن أبي خاله - هو الوالى - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ - يعنى قال الله تعالى - « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك » ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة وقال الترمذى حسن غريب ، وقد روى الإمام أحمد عن وكيع وأبى معاوية عن الأعمش عن سلام بن شرحبيل سمعت حبة وسواء ابني خالد يقولان : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعمل عملا أو يبنى بناء ، وقال أبو معاوية يصلح شيئا فأعناه عليه فلما فرغ دعا لنا وقال « لا تيأسا من الرزق ما تهنهزت رءوسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ثم يعطيه الله ويرزقه » . وقد ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب . وتكفلت برزقك فلا تعب . فاطلبنى تجدنى فإن وجدتنى وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء . وقوله تعالى (فإن للذين ظلموا ذنوبا) أى نصيبا من العذاب (مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون) أى فلا يستعجلون ذلك فانه واقع لا محالة (فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون) يعنى يوم القيامة آخر تفسير الناريات والله الحمد والمنة .

(تفسير سورة الطور وهى مكية)

قال مالك عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه سمعت النبي ﷺ يقرأ فى المغرب بالطور فما سمعت أحدا أحسن صوتا أو قراءة منه أخرجاه من طريق مالك وقالت البخارى حدثنا عبد الله بن يوسف أخبرنا مالك عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن أم سلمة قالت شكوت إلى رسول الله ﷺ أنى أشتكى فقال « طوفى من وراء الناس وأنت راكبة » فطقت ورسول الله صلى الله عليه وسلم

يصلى إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالطُّورِ * وَكَتَبَ مُسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ * وَالسَّمَاءِ الْمَرْفُوعِ * وَالْبَحْرِ الْمَسْحُورِ
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا * هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا
تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحَّرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه وأنه لا دافع لهم ، فالطور هو الجبل الذي يكون فيها أشجار مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورا وإنما يقال له جبل (وكتاب مسطور) قيل هو اللوح المحفوظ ، وقيل الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهارا ولهاذا قال (في رقي منشور * والبيت المعمور) ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الاسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة « ثم رفع بي إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم » يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، كذلك ذاك البيت للمعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام مسندا ظهره إلى البيت المعمور لأنه باني الكعبة الأرضية والجزاء من جنس العمل وهو بحيال الكعبة وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي في السماء الدنيا يقال له بيت العزة والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جناح عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « في السماء السابعة بيت يقال له المعمور بحيال الكعبة ، وفي السماء الرابعة نهر يقال له الحيوان يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه انغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخرج عنه سبعون ألف قطرة يخلق الله من كل قطرة ملكا يؤمرون أن يؤتوا البيت للمعمور فيصلون فيه فيفعلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبدا ويولى عليهم أحدهم يؤمر أن يقف بهم من السماء موقفا يسبحون الله فيه إلى أن تقوم الساعة » هذا حديث غريب جدا تفرد به روح بن جناح وهذا وهو القرشي الأموي مولاهم أبو سعيد الدمشقي وقد أنكر عليه هذا الحديث جماعة من الحفاظ منهم الجوزجاني والعقيلي والحاكم أبو عبد الله النيسابوري وغيرهم قال الحاكم لا أصل له من حديث أبي هريرة ولا سعيد ولا الزهري وقال ابن جرير حدثنا هناد بن السري حدثنا أبو الأحوص عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعة أن رجلا قال لعلي ما البيت للمعمور قال بيت في السماء يقال له الضراح وهو بحيال الكعبة من فوقها حرمة في السماء كحرمة البيت في الأرض يصل في كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبدا ، وكذا رواه شعبة وسفيان الثوري عن سماك ، وعندهما أن ابن الكواء هو السائل عن ذلك ثم رواه ابن جرير عن أبي كريب عن طلق بن غنم عن زائدة عن عاصم عن علي بن ربيعة قال سألت ابن الكواء عليا عن البيت للمعمور قال مسجد في السماء يقال له الضراح يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون فيه أبدا . ورواه من حديث أبي الطفيل عن علي بن عيسى . وقال العوفي عن ابن عباس هو بيت حذاء العرش تعمه الملائكة يصل في كل يوم سبعون ألفا من الملائكة ثم لا يعودون إليه . وكذا قال عكرمة ومجاهد وغير واحد من السلف

وقال قتادة والربيع بن أنس والسدي: ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه « هل تدرون ما البيت للمعمور ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « فانه مسجد في السماء بحيال الكعبة لوخر لحر عليها يصل في كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا آخر ما عليهم » وزعم الضحاك أنه يعمره طائفة من الملائكة يقال

لهم الجن من قبيلة إبليس فآله أعلم . وقوله تعالى (والسقف الرفوع) قال سفيان الثوري وشعبة وأبو الأحوص عن سهاك عن خاله بن عرعة عن طي (والسقف الرفوع) يعني السماء قال سفيان ثم تلا (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وكذا قال مجاهد وقتادة والسدي وابن جريج وابن زيد واختاره ابن جرير ، وقال الربيع ابن أنس هو العرش يعني أنه سقف لجميع المخلوقات وله اتجاه وهو مراد مع غيره كما قاله الجمهور . وقوله تعالى (والبحر المسجور) قال الربيع بن أنس هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحياه الأجساد في قورها يوم معادها ، وقال الجمهور : هو هذا البحر ، واختلف في معنى قوله المسجور فقال بعضهم المراد أنه يوقد يوم القيامة نارا كقوله (وإذا البحار سجرت) أي أضرمت فتصير نارا تتأجج محيطه بأهل الموقف . ورواه سعيد بن المسيب عن طي بن أبي طالب . وروى عن ابن عباس وبه يقول سعيد بن جبير ومجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير وغيرهم . وقال العلاء بن بدر إنما سمي البحر المسجور لأنه لا يشرب منه ماء ولا يسقى به زرع وكذلك البحار يوم القيامة . كذا رواه عنه ابن أبي حاتم . وعن سعيد بن جبير (والبحر المسجور) يعني المرسل . وقال قتادة المسجور الملوأ واختاره ابن جرير ووجهه بأنه ليس موقدا اليوم فهو مملوء . وقيل المراد به الفارغ

قال الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء عن ذى الرمة عن ابن عباس في قوله تعالى (والبحر المسجور) قال الفارغ . خرجت أمة تستسقي فرجعت فقالت إن الخوض مسجور يعني فارغا . رواه ابن مردويه في مسانيد الشعراء . وقيل المراد بالمسجور المنوع المكفوف عن الأرض لئلا ينعمها فيغرق أهلها . قاله طي بن أبي طلحة عن ابن عباس وبه يقول السدي وغيره وعليه يدل الحديث الذي رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده فانه قال حدثنا يزيد حدثنا العوام حدثني شيخ كان مرابطا بالساحل قال لقيت أبا صالح مولى عمر بن الخطاب فقال حدثنا عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ قال « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله تعالى أن ينفذ عليهم فيكفه الله عز وجل »

وقال الحافظ أبو بكر الاسماعيلي حدثنا الحسن بن سفيان عن إسحاق بن راهويه عن يزيد وهو ابن هارون عن العوام ابن حوشب حدثني شيخ مرابط قال خرجت ليلة لمحرس لم يخرج أحد من الحرس غيري فأتيت الميناء فصعدت فجعل يخيل إلي أن البحر يشرف يحاذي رؤوس الجبال فعل ذلك مرارا وأنا مستيقظ فليقت أبا صالح فقال : حدثنا عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال « مامن ليلة إلا والبحر يشرف ثلاث مرات يستأذن الله تعالى أن ينفذ عليهم فيكفه الله عز وجل » فيه رجل منهم لم يسم

وقوله تعالى (إن عذاب ربك لواقع) هذا هو القسم عليه أي لواقع بالكافرين كما قال في الآية الأخرى (ماله من دافع) أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك . قال الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا حدثنا أبي حدثنا موسى بن داود عن صالح الرمي عن جعفر بن زيد العبدى قال خرج عمر بن الخطاب المدينة ذات ليلة فر بدار رجل من المسلمين فواقفه قائما يصلى فوقف يستمع قراءته فقرأ (والطور - حتى بلغ - إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع) قال قسم ورب الكعبة حق ، فنزل عن حمارة واستند إلى حائط فمكث مليا ثم رجع إلى منزله فمكث شهرا يعود الناس لا يدرون ما مرضه رضى الله عنه وقال الامام أبو عبيد في فضائل القرآن حدثنا محمد بن صالح حدثنا هشام بن حسان عن الحسن أن عمر قرأ (إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع) فربا لها ربوة عيد منها عشرين يوما . وقوله تعالى (يوم تمور السماء مورا) قال ابن عباس وقتادة : تتحرك تحريكا . وعن ابن عباس هو تشققها وقال مجاهد : تدور دورا . وقال الضحاك : استدارتها وتحركها لأمر الله وموج بعضها في بعض . وهذا اختيار ابن جرير أنه التحرك في استدارة . قال وأنشد أبو عبيدة معمر بن اللثمي بيت الأعشى فقال :

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل

(وتسير الجبال سيرا) أي تذهب فتصير هباء منبثا وتنسف نفسها (فويل يومئذ للمكذبين) أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم (الذين هم في خوض يلعبون) أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ويتخذون دينهم

هزوا ولعبا (يوم يدعون) أى يدفعون ويساقون (إلى نار جهنم دعا) وقال مجاهد والشعبي ومحمد بن كعب والضحاك والسدي والثوري يدفعون فيها دفعا (هذه النار التى كنتم بها تكذبون) أى تقول لهم الزبانية ذلك تقريرا وتوبيخا (أفسح هذا أم أتم لا تبصرون * اصلوها) أى ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته (فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم) أى سواء صبرتم على عذابها ونكالتها أم لم تبصروا لا يحيد لكم عنها ولا خلاص لكم منها) وإنما تجزون ما كنتم تعملون (أى ولا يظلم الله أحدا بل يجازى كلا بعمله

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّعَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَكَبِّرِينَ عَلَىٰ سُرُورٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال (إن المتقين فى جنات ونعيم) وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال (فاكهين بما آتاهم ربهم) أى يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف اللذات من مأكول ومشرب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك (ووقاهم ربهم عذاب الجحيم) أى وقد نجاهم من عذاب النار وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التى فيها من السرور مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) كقوله تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) أى هذا بذاتك تفضلا منه وإحسانا وقوله تعالى (متكبين على سرور مصفوفة) قال الثوري عن حصين عن مجاهد عن ابن عباس السرر فى الحجال ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الهيثم عن حماد بن عمار أنه سمع الهيثم بن مالك الطائى يقول إن رسول الله ﷺ قال « إن الرجل ليتكوى التكاوى مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه ولا يملك يأتيه ما شئت نفسه ولدت عينه » وحدثنا أبى أخبرنا هدية بن خالد عن سليمان بن المغيرة عن ثابت قال بلغنا أن الرجل ليتكوى فى الجنة سبعين سنة عنده من أزواجه وخدمه وما أعطاه الله من الكرامة والنعيم فإذا حانت منه نظرة فإذا أزواج له لم يكن رءاهن قبل ذلك فيقلن قد آن لك أن تجعل لنا منك نصيبا ، ومعنى (مصفوفة) أى وجوه بعضهم إلى بعض كقوله (على سرر متقابلين) (وزوجناهم بحور عين) أى وجعلناهم قرينات صالحات وزوجات حسان من الحور العين ، وقال مجاهد (وزوجناهم) أنكحناهم بحور عين وقد تقدم وصفهن فى غير موضع بما أغنى عن إعادته ههنا

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ * وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِي سَكِينَةٍ وَلَخِمْ * يَتَذَكَّرُونَ * يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٍ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّنَا عَذَابَ السُّعُورِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعهم ذرياتهم فى الإيمان يلحقهم بأبائهم فى المنزلة وإن لم يلغوا عملهم لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ولا ينقص ذلك من عمله ومنزله للتساوى بينه وبين ذلك ولهذا قال (ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) قال الثوري عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته وإن كانوا دونه فى العمل لتقربهم عنه ثم قرأ (والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء) ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث سفيان الثوري به ، وكذا رواه ابن جرير من حديث

شعبة عن عمرو بن مرة ، ورواه البراء عن سهل بن بحر عن الحسن بن حماد الوراق عن قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد بن عباس مرفوعاً فذكره ثم قال وقد رواه الثوري عن عمرو بن مرة عن سعيد بن عباس مرفوعاً وقال ابن أبي حاتم حدثنا العباس بن الوليد بن يزيد البيروني أخبرني محمد بن سعيد أخبرني شيان أخبرني ليث عن حبيب بن أبي ثابت الأسدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم) قال هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بأبائهم ولم ينقصوا من أعمالهم التي عملوها شيئاً . وقال الحافظ الطبراني حدثنا الحسين بن إسحاق التستري حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن غزوان حدثنا شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبيه وزوجته وولده فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول يارب قد عملت لي ولهم فيؤمر بالحاقهم به وقرأ ابن عباس (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) الآية .

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية يقول والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتهم بإيمانهم إلى الجنة وأولادهم الصغار تلحق بهم وهذا راجع إلى التفسير الأول فإن ذلك مفسر أصح من هذا ، وهكذا يقول الشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم وقتادة وأبو صالح والربيع بن أنس والضحاك وابن زيد ، وهو اختيار ابن جرير وقد قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا محمد بن فضيل عن محمد بن عثمان عن زاذان عن علي بن أبي حمزة قال سألت خديجة النبي ﷺ عن ولده بن مائلا لها في الجاهلية فقال رسول الله ﷺ « هما في النار » فلما رأى الكراهة في وجهها قال « لو رأيت مكانهما لأبغضهما » قالت يا رسول الله فولدى منك قال « في الجنة » قال ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للمؤمنين وأولادهم في الجنة ، وإن للشركيين وأولادهم في النار » ثم قرأ رسول الله ﷺ (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان) الآية ، هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يارب آتني هذه ؟ فيقول باستغفار ولدك لك » إسناده صحيح ولم يخرجوه من هذا الوجه ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . وقوله تعالى (كل امرئ بما كسب رهين) لما أخبر عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤخذ أحداً بذنب أحد فقال تعالى (كل امرئ بما كسب رهين) أي مرتبه بعمله لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً كما قال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين في جنات يتساءلون عن المجرمين) وقوله (وأمددناهم بغاكة ولمعما يشتهون) أي وألحقناهم بغواك ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشهى . وقوله (يتنازعون فيها كأساً) أي يتعاطون فيها كأساً أي من الخمر قاله الضحاك (لا لغو فيها ولا تأثيم) أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ أي هذيان ولا إثم أي فحش كما يتكلم به الشريرة من أهل الدنيا ، قال ابن عباس : اللغو الباطل والتأثيم الكذب وقال مجاهد لا يستبون ولا يؤتمنون وقال قتادة كان ذلك في الدنيا مع الشيطان فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها كما تقدم فنفى عنها صدام الرأس ووجع البطن وإزالة العقل بالكلية وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام السيئ الفارغ عن الفائدة التضمن هذياناً وفحشاً وأخبر بحسن منظرها وطيب طعمها وعذبتها فقال (يبيضاء لذة للشاربين * لافها غول ولاهم عنها ولا يزفون) وقال (لا يصدعون عنها ولا يزفون) وقال ههنا (يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم) وقوله تعالى (ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون) إخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حشمهم وبهائهم ونظافتهم وحسن ملابسهم كما قال تعالى (ويطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين) . وقوله تعالى (وأقبل بعضهم على بعض

يتسائلون) أى أقبلوا يتحدثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا وهذا كما يتحدث أهل الشراب على شرايهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم (قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين) أى كنا في الدار الدنيا ونحن بين أهلنا خائفين من ربنا مشفقين من عذابه وعقابه (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم) أى فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف (إنا كنا من قبل ندعوه) أى تنصرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا (إنه هو البر الرحيم)

وقد ورد في هذا المقام حديث رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده فقال حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن دينار حدثنا الربيع بن صبيح عن الحسن عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان فيجىء سرير هذا حتى يحاذى سرير هذا فيتحدثان فيتسكىء هذا ويتسكىء هذا فيتحدثان بما كان في الدنيا فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان تدرى أى يوم غفر الله لنا ؟ يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا » ثم قال البزار لا نعرفه يرى إلا بهذا الإسناد قلت وسعيد بن دينار الدمشقي قال أبو حاتم هو مجهول وشيخة الربيع ابن صبيح وقد تكلم فيه غير واحد من جهة حفظه وهو رجل صالح ثقة في نفسه . وقال ابن أبي حاتم حدثنا عمرو ابن عبد الله الأودى حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن عائشة أنها قرأت هذه الآية (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم) فقالت اللهم من علينا وقنا عذاب السموم إنك أنت البر الرحيم . قيل للأعمش في الصلاة ؟ قال نعم

﴿ فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّنَا أَلْمُنُونَ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَاهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يبلغ رسالته إلى عباده وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) أى لست بحمد الله بكاهن كما تقول الجهمية من كفار قريش والكاهن الذى يأتيه الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء (ولا مجنون) وهو الذى يتخطبه الشيطان من اللس . ثم قال تعالى منكراً عليهم فى قولهم فى الرسول صلى الله عليه وسلم (أم يقولون شاعر تتربص به ريب النون ؟) أى قوارع الدهر ، والنون الموت ، يقولون ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه قال الله تعالى (قل ترهبوا فإنى معكم من التربين) أى انتظروا فإنى منتظر معكم وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة . قال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبى نجیح عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما إن قريشاً لما اجتمعوا فى دار الندوة فى أمر النبي ﷺ قال قائل منهم احتبسوه فى وثاق وترهبوا به ريب النون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابعة إنما هو كأحدكم فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم (أم يقولون شاعر تتربص به ريب المنون ؟) . ثم قال تعالى (أم تأمرهم أخلاهم بهذا) أى عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فىك من الأقاويل الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها كذب وزور (أم هم قوم طاغون) أى ولكن هم قوم طاغون ضلال معاندون فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فىك . وقوله تعالى (أم يقولون تقوله ؟) أى اختلقه وافتراه من عند نفسه يعنون القرآن قال الله تعالى (بل لا يؤمنون) أى كفرهم هو الذى يحملهم على هذه المقالة (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أى إن كانوا صادقين فى قولهم تقوله وافترأ فليأتوا بمثله ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن فانهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بشر سور من مثله ولا بسورة من مثله

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَا تِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ * أَمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية فقال تعالى (أَمْ خَلَقُوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟) أى أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ، أى لا هذا ولا هذا بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا قال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان قال حدثني عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية (أَمْ خَلَقُوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ؟ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ؟) كاد قلبي أن يطير ، وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من طرق عن الزهري به وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى وكان إذ ذاك مشركا فكان مماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك . ثم قال تعالى (أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ) أى أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ وهذا إنكار عليهم في شركهم بالله وهم يعلمون أنه الخالق وحده لا شريك له ولكن عدم إيقانهم هو الذى يجعلهم على ذلك (أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ؟) أى أَمْ يتصرفون في الملك ويسدّهم مفاتيح الخزائن أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ، أى المحاسنون للخلائق ، ليس الأمر كذلك بل الله عز وجل هو المالك المتصرف فى المال لما يريد . وقوله تعالى (أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ) أى مرفاة إلى الملا الأعلى (فَلَيَا تِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ) أى قليات الذى يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من المعال وللقال أى وليس لهم سبيل إلى ذلك فليسوا على شيء ولا لهم دليل ثم قال مسكرا عليهم فيما نسبوه إليه من الدات وحملهم الملائكة إنانا واختيارهم لأنفسهم الذكور على الاناث بحيث إذا شر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظم . هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله وعبدوهم مع الله فقال (أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) وهذا تهديد شديد ووعد أ كيد (أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا) أى أجرة على إبلاغك إياهم رسالة الله ، أى لست تسألهم على ذلك شيئا (فهم من مغرم مثقلون) أى فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم (أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ) أى ليس الأمر كذلك فانه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا . فالذين كفروا هم المكيدون) يقول تعالى أَمْ يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه فكيدهم إما يرجع وبالله على أنفسهم فالذين كفروا هم المكيدون (أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وهذا إنكار شديد على الشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله ، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال (سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ * فَذَرْنُهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَأَصْبَحَ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المشركين بالعناد والكابرة للمحسوس (وإن يروا كسفا من السماء ساقطا) أى عليهم يعذبون به لما صدقوا ولما أيقنوا بل يقولون هذا سحاب مركوم أى متراكم وهذا كقوله تعالى (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) . وقال الله تعالى (فذرهم) أى دعهم يا محمد (حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون) وذلك يوم القيامة (يوم لا ينفعهم كيدهم ولا مكرمهم الذى استعملوه فى الدنيا لا يحزى عنهم يوم القيامة شيئا) (ولا هم ينصرون) . ثم قال تعالى (وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك) أى قبل ذلك فى الدار الدنيا كقوله تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلمهم يرجعون) ولهذا قال تعالى (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى نذيقهم فى الدنيا ونبتليهم فيها بالمصائب لعلمهم يرجعون وينبيون فلا يفهمون ما يرادهم بل إذا جلى عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه كما جاء فى بعض الأحاديث « إن المناق إذا مرض وعوفي مثله فى ذلك كمثل البعير لا يدري فيما عقولوه ولا فيما أرسلوه » وفى الأثر الإلهى : كم أعصبك ولا تعاقبنى ؟ قال الله تعالى يا عبدى كم أعافيك وأنت لا تدرى ؟ . وقوله تعالى (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) أى اصبر على أذاهم ولا تبألهم فإنك بمراى منا وتحت كلاءتنا والله يعصمك من الناس . وقوله تعالى (وسبح بحمد ربك حين تقوم) قال الضحاك أى إلى الصلاة : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك

وقد روى مثله عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهما ، وروى مسلم فى صحيحه عن عمر أنه كان يقول هذا فى ابتداء الصلاة ، ورواه أحمد وأهل السنن عن أنس بن سعيد وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول ذلك . وقال أبو الجوزاء (وسبح بحمد ربك حين تقوم) أى من نومك من فراشك ، واختارهما ابن جرير ويتأيد هذا القول بما رواه الامام أحمد حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأزاعي حدثني عمير بن هاني حدثني جنادة بن أبي أمية حدثنا عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال « من تعار من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال رب اغفرلى — أو قال ثم دعا — استجيب له فان عزم فتوضأ ثم صلى قبلت صلاته » وأخرجه البخارى فى صحيحه وأهل السنن من حديث الوليد بن مسلم به وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد (وسبح بحمد ربك حين تقوم) قال من كل مجلس ، وقال الثورى عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص (وسبح بحمد ربك حين تقوم) قال إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال سبحانك اللهم وبحمدك

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو النضر إسحاق بن إبراهيم الدمشقى حدثنا محمد بن شعيب أخبرني طلحة بن عمرو الحضرمى عن عطاء بن أبي رباح أنه حدثه عن قول الله تعالى (وسبح بحمد ربك حين تقوم) يقول حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيرا وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له ، وقد قال عبد الرزاق فى جامعه أخبرنا معمر عن عبد الكريم الجزرى عن أبي عثمان الفقير أن جبريل علم النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من مجلسه أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . قال معمر وميمت غيره يقول هذا القول كفارة المجالس وهذا مرسل وقد وردت أحاديث مسندة من طرق يقوى بعضها بعضا بذلك فمن ذلك حديث ابن جريج عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من جلس فى مجلس فكثر فيه لفظه فقال قل أن يقوم من مجلسه سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر الله له ما كان فى مجلسه ذلك » رواه الترمذى وهذا لفظه والنسائى فى اليوم واللييلة من حديث ابن جريج ، وقال الترمذى حسن صحيح وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال إسناده على شرط مسلم إلا أن البخارى عله قلت عله الامام أحمد والبخارى ومسلم وأبو حاتم وأبو زرعة والدارقطنى وغيرهم ، ونسبوا الوهم فيه إلى ابن جريج على أن أبا داود قد رواه فى سننه من طريق غير ابن جريج إلى أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه ، ورواه أبو داود واللفظ له والنسائى والحاكم فى المستدركه من طريق الحجاج بن دينار عن

هاشم عن أبي العالية عن أبي برزة الأسلمي قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بآخر عمره إذا أراد أن يقوم من المجلس : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » فقال رجل يارسول الله إنك لتقول قولاً ما كنت تقولهُ فَمَا مَضَى قَالَ « كفارة لما يكون في المجلس » وقد روى مرسلًا عن أبي العالية قاله أعلم . وهكذا رواه النسائي والحاكم من حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن رافع بن خديج عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله سواء وروى مرسلًا أيضًا قاله أعلم ، وكذا رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو أنه قال « كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه ولا يقولهن في مجلس خير ومجلس ذكر إلا ختم له بهن كما يختم بالخاتم : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » وأخرجه الحاكم من حديث أم المؤمنين عائشة وصححه ومن رواية جبير بن مطعم ورواه أبو بكر الاسماعيلي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كلهم عن النبي ﷺ وقد أفردت لذلك جزءاً على حدة بذكر طرقه وألفاظه وعمله وما يتعلق بها والله الحمد والمنة . وقوله تعالى (ومن الليل فسيحه) أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل كما قال تعالى (ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) . وقوله تعالى (وإدبار النجوم) قد تقدم في حديث ابن عباس أنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر فانهما مشروعتان عند إدبار النجوم أي عند جنوحها للغيوب . وقد روى ابن سيلان عن أبي هريرة مرفوعاً « لاتدعوها وإن طردتكم الخيل » يعني ركعتي الفجر رواه أبو داود ، ومن هذا الحديث حكى عن بعض أصحاب أحمد القول بوجوبها وهو ضعيف لحديث « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال هل على غيرها قال « لا إلا أن تطوع » . وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر وفي لفظ لمسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » . آخر تفسير سورة الطور والله الحمد والمنة .

﴿ تفسير سورة النجم وهي مكية ﴾

قال البخاري حدثنا نصر بن علي أخبرني أبو أحمد — يعني الزبيدي — حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن الأسود ابن يزيد عن عبد الله قال أول سورة أنزلت فيها سجدة والنجم قال فسجد النبي صلى الله عليه وسلم وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه فرأيتُه بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف ، وقد رواه البخاري أيضاً في مواضع ومسلم وأبو داود والنسائي من طرق عن أبي إسحاق به ، وقوله في المتن أنه أمية بن خلف في هذه الرواية مشكل فانه قد جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق ، رواه ابن أبي حاتم . واختلف المفسرون في معنى قوله (والنجم إذا هوى) فقال ابن أبي نجيع عن مجاهد يعني بالنجم الثريا إذا سقطت مع الفجر وكذا روى عن ابن عباس وسفيان الثوري واختاره ابن جرير ، وزعم السدي أنها الزهرة وقال الضحاك (والنجم إذا هوى) إذا رمى به الشياطين وهذا القول له اتجاه . وروى الأعمش عن مجاهد في قوله تعالى (والنجم إذا هوى) يعني القرآن إذا نزل ، وهذه الآية كقوله تعالى (فلا أقسم بمواقع النجوم) وإنه لقسم لوتعلمون عظيم * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين) وقوله تعالى (ما ضل صاحبكم وما غوى) هذا هو القسم عليه ، وهو الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو الجاهل الذي يسلك على غير طريق غير علم ، والغاوى هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره ، فزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطوائف اليهود . وهي علم الشيء وكتابه والعمل بخلافه ، بل هو صلاة الله وسلامه

عليه وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ولهذا قال تعالى (وما ينطق على الهوى)
 أى ما يقول قولاً عن هوى وغرض (إن هو إلا وحي يوحى) أى إنما يقول ما أمر به يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً
 من غير زيادة ولا نقصان كما رواه الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا جرير بن عثمان عن عبد الرحمن بن ميسرة عن أبي أمامة
 أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « ليدخل الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين - أو مثل أحد الحيين -
 ربيعة ومضر » فقال رجل يا رسول الله أو ما ربيعة من مضر قال « إنما أقول ما أقول » . وقال الإمام أحمد حدثنا
 يحيى بن سعيد عن عبيد الله بن الأحنس أخبرنا الوليد بن عبد الله عن يوسف بن ماهك عن عبد الله بن عمرو قال كنت
 أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا إنك تكتب كل شيء تسمعه
 من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب فأمسكت عن الكتاب
 فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال « اكتب فوالذي نفسى بيده ما خرج مني إلا الحق » ورواه أبو داود عن
 مسدد وأبي بكر بن أبي شيبة كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به . وقال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا أحمد
 ابن منصور حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي
 ﷺ قال « ما أخبرتكم أنه من عند الله فهو الذي لا شك فيه » ثم قال لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد . وقال الإمام أحمد
 حدثنا يونس حدثنا ليث عن محمد بن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أقول إلا
 حقا » قال بعض أصحابه فأنك تداعبنا يا رسول الله ؟ قال « إني لا أقول إلا حقا »

﴿ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ
 أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى * وَلَقَدْ
 رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَفْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ
 وَمَا طَفَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله محمد ﷺ أنه علمه الذي جاء به إلى الناس (شديد القوى) وهو
 جبريل عليه الصلاة والسلام كما قال تعالى (إنه لقول رسول كريم * ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين)
 وقال ههنا (ذو مرة) أى ذو قوة قاله مجاهد والحسن وابن زيد . وقال ابن عباس : ذو منظر حسن وقال قتادة : ذو خلق
 طويل حسن . ولا منافاة بين القولين فإنه عليه السلام ذو منظر حسن وقوة شديدة . وقد ورد في الحديث الصحيح من
 رواية ابن عمر وأبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تحمل الصدقة لغنى ولا لدى مرة سوى »
 وقوله تعالى (فاستوى) يعنى جبريل عليه السلام . قاله الحسن ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس (وهو بالأنفق الأعلى)
 يعنى جبريل استوى في الأفق الأعلى . قاله عكرمة وغير واحد . قاله عكرمة : والأنفق الأعلى الذى يأتى منه الصبح
 وقال مجاهد هو مطلع الشمس وقال قتادة هو الذى يأتى منه النهار وكذا قال ابن زيد وغيرهم وقال ابن أبي حاتم حدثنا
 أبو زرعة حدثنا مصرف بن عمرو واليامى أبو القاسم حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن طلحة بن مصرف حدثنى أبي عن الوليد
 هو ابن قيس عن إسحق بن أبي الكهيلة أنه ذكره عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
 لم ير جبريل في صورته إلا مرتين أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق . وأما الثانية فإنه كان معه
 حيث صعد فذلك قوله (وهو بالأنفق الأعلى) وقد قال ابن جرير ههنا قولاً لم أره لغيره ولا حكاة هو عن أحد
 وحاصله أنه ذهب إلى أن المعنى فاستوى أى هذا الشديد القوى ذو المرة هو ومحمد ﷺ بالأنفق الأعلى أى استويا
 جميعاً بالأنفق الأعلى وذلك ليلة الاسراء كذا قال ولم يوافق أحد على ذلك . ثم شرع يوجه ما قاله من حيث

العريية فقال وهو كقولاه (أنذا كنا ترابا وآبائنا) فعطف بالآباء على السكنى في كنان من غير اظهار نحن فكذلك قوله فاستوى وهو ، قال وذكر الفراء عن بعض العرب أنه أنشده :

ألم تر أن النبع يصلب عوده * ولا يستوى والخروج المتعصف

وهذا الذى قاله من جهة العريية متجه ولكن لا يساعده المعنى على ذلك فان هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الاسراء بل قبلها ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الأرض فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلّى إليه فاقترّب منه وهو على الصورة التى خلقه الله عليها له ستائة جناح ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدره النتهى يعنى ليلة الاسراء وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة فأوحى الله إليه صدر سورة اقرأ ، ثم قتر الوحي فترده ذهب النبي صلى الله عليه وسلم فيها مرارا ليردى من رؤوس الجبال فكلما هم بذلك ناداه جبريل من الهواء يا محمد أنت رسول الله حقاً وأنا جبريل فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ بالأبطح في صورته التى خلقه الله عليها له ستائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق فاقترّب منه وأوحى إليه عن الله عز وجل ما أمره به فعرف عند ذلك عظمة الملك الذى جاءه بالرسالة وجلالة قدره وعلو مكاته عند خالقه الذى بعثه إليه . فأما الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حيث قال حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا سعيد بن منصور حدثنا الحارث بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينا أنا قاعد إذ جاء جبريل عليه السلام فوكز بين كتفي فقممت إلى شجرة فيها كوكرى الطيز فقعده في أحدهما وقعدت في الآخر . فسمت وارتفعت حتى سدت الحافقين وأنا أقلب طرفي ولو شئت أن أمس السماء لمست فالتفت إلى جبريل كأنه جلس لاطىء فعرفت فضل علمه بالله على . وفتح لي باب من أبواب السماء ورأيت النور الأعظم وإذا دون الحجاب رفرفة الدر والياقوت . وأوحى إلى ما شاء الله أن يوحى » ثم قال البزار لا يرويه إلا الحارث بن عبيد وكان رجلا مشهورا من أهل البصرة (قلت) الحارث بن عبيد هذا هو أبو قدامة اليبادى أخرج له مسلم في صحيحه إلا ان ابن معين ضعفه وقال ليس هو بشيء وقال الإمام أحمد مضطرب الحديث . وقال أبو حاتم الرازى يكتب حديثه ولا يحتج به . وقال ابن حبان كثير وهمه فلا يحوز الاحتجاج به إذا انفرد فهذا الحديث من غرائب رواياته فان فيه نكارة وغرابة ألفاظ وسيافا عجيبا وله منام والله أعلم وقال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شريك عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله أنه قال رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم . انفرد به أحمد وقال أحمد حدثنا يحيى بن آدم حدثنا أبو بكر بن عياش عن إدريس بن منبه عن وهب بن منبه عن ابن عباس قال : سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال ادع ربك فدعاه ربه عز وجل فطلع عليه سواد من قبل المشرق فجعل يرتفع وينتشر فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم صعد فأتاه فنعشه ومسح البزاق عن شقه . انفرد به أحمد وقد رواه ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب من طريق محمد بن إسحق عن عثمان بن عروة بن الزبير عن أبيه عن هناد بن الأسود قال كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام فتجهزت معهما فقال ابنه عتبة والله لأنطلقن إلى محمد ولأذنيه في ربه سبحانه وتعالى فأنطلق حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد هو يكفر بالذى دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه فقال يا بني ما قلت له ؟ فذكر له ما قاله فقال لما قال لك قال : قال « اللهم سلط عليه كلبا من كلابك » قال يا بني والله ما آمن عليك دعاءه فسرنا حتى نزلنا ابراه وهى في سدة ونزلنا إلى صومعة راهب فقال الراهب يا معشر العرب : ما أنزلكم هذه البلاد فأنها يسرح الأسد فيها كما تسرح الغنم فقال لنا أبو لهب : إنكم قد عرقتم كبر سنى وحق وإن هذا الرجل قد دعا على ابني دعوة والله ما آمنها عليه فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة وافرشوا لابني عليها ثم افرشوا حولها ، ففعلنا فجاء الأسد فشم وجوهنا فلما لم يجد ما يريد

تقبض فوثب وثبة فاذا هو فوق اللتاع فشم وجهه ثم هزمه هزيمة ففسخ رأسه ، فقال أبو لهب : قد عرفت أنه لا يتفقت
عن دعوة محمد وقوله تعالى (فكان قاب قوسين أو أدنى) أى فاقرب جبريل إلى عند لما هبط عليه إلى الأرض
حتى كان بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم قاب قوسين أى بقدرها إذا مدا قاله مجاهد وقتادة ، وقد قيل إن المراد
بذلك بعدما بين وتر القوس إلى كبدها . وقوله تعالى (أو أدنى) قد تقدم أن هذه الصيغة تستعمل في اللغة لاثبات
الخبر عنه ونفى ما زاد عليه كقوله تعالى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة) أى ما هي بألين
من الحجارة بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة وكذا قوله (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية)
وقوله (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) أى ليسوا أقل منها بل هم مائة ألف حقيقة أو يزيدون عليها فهذا تحقيق
للخبر به لاشك ولا تردد فإن هذا ممتنع ههنا وهكذا هذه الآية (فكان قاب قوسين أو أدنى) وهذا الذى قلناه من
أن هذا للمقرب الذى صار بينه وبين محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إنما هو جبريل عليه السلام هو
قول أم المؤمنين عائشة وابن مسعود وأبي ذر وأبي هريرة كما سنورد أحاديثهم قريبا إن شاء الله تعالى . وروى
مسلم في صحيحه عن ابن عباس أنه قال : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين فجعل هذه إحدهما وجاء في حديث شريك بن
أبي نمر عن أنس في حديث الإسراء ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى ولهذا قد تكلم كثير من الناس في متن هذه الرواية
وذكروا أشياء فيها من الغرابة فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى لا أنها تفسير لهذه الآية فإن هذه
كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لآلية الاسراء ولهذا قال بعده (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) فهذه هي
ليلة الاسراء والأولى كانت في الأرض

وقد قال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا سليمان الشيباني حدثنا
زر بن حبيش قال : قال عبد الله بن مسعود في هذه الآية (فكان قاب قوسين أو أدنى) قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « رأيت جبريل له سبائة جناح »

وقال ابن وهب حدثنا ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت كان أول شأن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أنه رأى في منامه جبريل بأجباد ثم إنه خرج ليقضى حاجته فصرخ به جبريل يا محمد يا محمد فنظر
رسول الله صلى الله عليه وسلم عينا وشمالا فلم ير أحدا ثلاثاً ثم رفع بصره فاذا هو ثمانى إحدى رجله مع الأخرى على
أفق السماء فقال يا محمد جبريل يسكنه فهرب النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخل في الناس فنظر فلم ير شيئا ثم خرج
من الناس ثم نظر فرآه فدخل في الناس فلم ير شيئا ثم خرج فنظر فرآه فذلك قول الله عز وجل (والنجم إذا هوى
- إلى قوله - ثم دنا فتدلى) يعنى جبريل إلى محمد عليهما الصلاة والسلام (فكان قاب قوسين أو أدنى) ويقولون : القاب
نصف اصبع وقال بعضهم ذراعين كان بينهما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث ابن وهب به وفي حديث الزهري
عن أبي سلمة عن جابر شاهد لهذا . وروى البخارى عن طلق بن غنم عن زائدة عن الشيباني قال سألت زراً عن قوله
(فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) قال حدثنا عبد الله أن محمد صلى الله عليه وسلم رأى جبريل
له سبائة جناح . وقال ابن جرير حدثني ابن بزيع البغدادي حدثنا إسحاق بن منصور حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن
عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله (ما كذب القواد ما رأى) قال رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه حلتا
رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض ، فعلى ما ذكرناه يكون قوله (فأوحى إلى عبده ما أوحى) معناه فأوحى جبريل
إلى عبد الله محمد ما أوحى ، أو فأوحى الله إلى عبده محمد ما أوحى بواسطة جبريل ؛ وكلا المعنيين صحيح . وقد ذكر عن
سعيد بن جبير في قوله تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) قال أوحى الله إليه (ألم أجعلك نبيا - ورفعنا لك ذكرك) وقال
غيره أوحى الله إليه أن الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وطى الأمم حتى تدخلها أمتك . وقوله تعالى (ما كذب
القواد ما رأى * أتبارونه على ما يرى) قال مسلم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن زياد بن حصين
عن أبي العالية عن ابن عباس (ما كذب القواد ما رأى) (ولقد رآه نزلة أخرى) قال رآه بفؤاده مرتين وكذروا ههنا

عن عكرمة عن ابن عباس مثله وكذا قال أبو صالح والسدي وغيرها إنه رآه بفؤاده مرتين وقد خالعه ابن مسعود وغيره وفي رواية عنه أنه أطلق الرؤية وهي محمولة على المقيدة بالفؤاد ، ومن روى عنه بالبصر فقد أغرب فانه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة رضي الله عنهم ، وقول البغوي في تفسيره وذهب جماعة إلى أنه رآه بعينه وهو قول أنس والحسن وعكرمة فيه نظر والله أعلم .

وقال الترمذي حدثنا محمد بن عمرو بن النبال بن صفوان حدثنا يحيى بن كثير العنبري عن سلمة بن جعفر عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال رأى محمد ربه قلت أليس الله يقول (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) قال ويحك ذلك إذا تجلى بنوره الذي هو نوره وقد رأى ربه مرتين . ثم قال حسن غريب وقال أيضا حدثنا ابن أبي عمير حدثنا سفيان عن مجاهد عن الشعبي قال لقي ابن عباس كعبا بعرفة فسأله عن شيء فذكر حتى جاوبته الجبال فقال ابن عباس إنا بنو هاشم فقال كعب إن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين وقال مسروق دخلت على عائشة فقلت هل رأى محمد ربه فقالت لقد تكلمت بشيء قف له شعري فقلت رويدا ثم قرأت (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) فقالت أين يذهب بك إنما هو جبريل من أخبرك أن محمدا رأى ربه أو كنتم شيئا مما أمر به أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث) فقد أعظم على الله الفرية ولكنه رأى جبريل ؛ لم يره في صورته إلا مرتين مرة عند سدرة المنتهى ومرة في أجياد وله ستائة جناح قد سد الأفق . وقال النسائي حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال أعجبون أن تكون الحلة لابراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد عليهم السلام وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هل رأيت ربك فقال « نوراني أراه » وفي رواية « رأيت نورا » وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب قال : قالوا يا رسول الله رأيت ربك ، قال « رأيت بفؤادي مرتين » ثم قرأ (ما كذب الفؤاد ما رأى) ورواه ابن جرير عن ابن حميد عن مهران عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب عن بعض أصحاب النبي ﷺ قال قلنا يا رسول الله هل رأيت ربك ، قال « لم أره بعيني ورأيت بفؤادي مرتين » ثم تلا (ثم دنا فتدلى)

ثم قال ابن أبي حاتم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري أخبرني عباد بن منصور قال سألت عكرمة عن قوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) فقال عكرمة تريد أن أخبرك أنه قد رآه ، قلت نعم قال قد رآه ، ثم قد رآه قال فسألت عنه الحسن فقال قد رأى جلاله وعظمته وورده . وحدثنا أبي حدثنا محمد بن مجاهد حدثنا أبو عامر العقدي أخبرنا أبو خلدة عن أبي العالية قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك ، قال « رأيت نهرا ورأيت وراء النهر حجابا ورأيت وراء الحجاب نورا لم أر غيره » وذلك غريب جدا ، فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت ربي عز وجل » فانه حديث إسناده على شرط الصحيح لكنه مختصر من حديث اللثام كما رواه الإمام أحمد أيضا حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أتاني ربي الليلة في أحسن صورة - أحسبه يعني في النوم - فقال يا محمد أتدري فيم يختصم الملائكة الأعلى قال قلت لا ، فوضع يده بين كنفى حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال نخري - فعملت ما في السموات وما في الأرض ثم قال يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ، قال قلت نعم يختصمون في الكفارات والدراجات قال وما الكفارات ، قال قلت المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الأقدام إلى الجماعات ، وإبلاغ الوضوء في المكاره ، من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال قل يا محمد إذا صليت اللهم اني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادتك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون ، قال والدراجات بذل الطعام وإنشاء السلام . والصلاة بالليل والناس نيام » وقد تقدم في آخر سورة ص عن معاذ نحوه . وقد رواه ابن جرير من

وجه آخر عن ابن عباس وفيه سياق آخر وزيادة غريبة فقال حدثني أحمد بن عيسى التميمي حدثني سليمان بن عمر بن سيار حدثني أبي عن سعيد بن زريق عن عمر بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم « رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي يا محمد هل تدري فم يختصم الملا الأعلى ؟ قلت لا يا رب فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين يدي فقلت ما في السموات والأرض قلت يا رب في الدرجات والسموات ، وتقل الأقدام إلى الجمعات ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، قلت يا رب إنك اتخذت إبراهيم خيلا وكلمت موسى تكليما وقلت وقلت فقال ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أفعل بك ألم أفعل بك ؟ قال فأفضى إلي بأشياء لم يؤذن لي أن أحدثكموها قال فذاك قوله في كتابه (ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذاب الفؤاد ما رأى) فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه فؤادي « إسناده ضعيف . وقد ذكر الحافظ ابن عساكر بسنده إلى حبار بن الأسود رضي الله عنه أن عتبة بن أبي لهب لما خرج في تجارة إلى الشام قال لأهل مكة اعلوا أني كافر بالذي دنا فتدلى فبلغ قوله رسول الله ﷺ فقال سيرسل الله عليه كلبا من كلابه قال حبار فكنت معهم فنزلنا بأرض كثيرة الأسد قال فلقد رأيت الأسد جاء فجعل يشم رؤوس القوم واحدا واحدا حتى تخطى إلى عتبة فاقتطع رأسه من بينهم . وذكر ابن إسحاق وغيره في السيرة أن ذلك كان بأرض الزرقاء وقيل بالسراة وأنه خاف ليلئذ وأنهم جعلوه بينهم وناموا من حوله فجاء الأسد فجعل يزار ثم تغطاهم إليه فضغم رأسه لعنه الله . وقوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى) هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها وكانت ليلة الإسراء . وقد قدمنا الأحاديث الواردة في الإسراء بطرقها وألفاظها في أول سورة سبحان بما أغنى عن إعادته ههنا ، وتقدم أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ويستشهد بهذه الآية وتابعه جماعة من السلف والخلف وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم ، وقال الإمام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زريق جيش عن ابن مسعود في هذه الآية (ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى) قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينثر من ريشه التهاويل من الدر والياقوت » وهذا إسناد جيد قوي . وقال أحمد أيضا حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك عن جامع بن أبي راشد عن أبي وائل عن عبد الله قال رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق : يسقط من جناحه من التهاويل من الدر والياقوت ما الله به عليم . إسناده حسن أيضا . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا زيد بن الحباب حدثني حسين حدثني عاصم بن بهدلة قال : سمعت شقيق بن سلمة يقول سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله ﷺ « رأيت جبريل على سدرة المنتهى وله ستمائة جناح » سألت عاصما عن الأجنحة فأبى أن يخبرني قال فأخبرني بعض أصحابه أن الجناح ما بين الشرق والغرب وهذا أيضا إسناد جيد وقال أحمد حدثنا زيد بن الحباب حدثنا حسين حدثني عاصم بن بهدلة حدثني شقيق ابن سلمة قال سمعت ابن مسعود يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتاني جبريل عليه السلام في حصر معلق به الدر » إسناده جيد أيضا . وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى عن إسماعيل حدثنا عامر قال أتني مسروق عائشة فقال يا أم المؤمنين هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل ؟ قالت سبحان الله لقد قف شعري لما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب : من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب ثم قرأت (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب) ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ثم قرأت (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويسم ما في الأرحام) الآية ومن أخبرك أن محمدا قد كتم فقد كذب ثم قرأت (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين . وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا محمد بن أبي عدي عن داود عن الشعبي عن مسروق قال كنت عند عائشة فقلت أليس الله يقول (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى) فقالت أنا أول هذه الأمة سألت رسول الله ﷺ عنها فقال « إنما ذاك

جبريل» لم يره في صورته التي خلق عليها الامرتين رآه منهبطا من السماء إلى الأرض سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض أخرجه في الصحيحين من حديث الشعبي به

(رواية أبي ذر) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام حدثنا قتادة عن عبد الله بن شقيق قال قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله ﷺ لسأله قال وما كنت تسأله؟ قال كنت أسأله هل رأى ربه عز وجل فقال إني قد سأله فقال «قد رأيته نورا أتى أراه» هكذا وقع في رواية الإمام أحمد وقد أخرجه مسلم من طريقين بلفظين فقال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع عن يزيد بن إبراهيم عن قتادة عن عبد الله بن شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال «نوراني أراه». وقال حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة عن عبد الله بن شقيق قال قلت لأبي ذر لو رأيت رسول الله ﷺ لسأله فقال عن أي شيء كنت تسأله؟ قال كنت أسأله هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر قد سأله فقال «رأيت نورا» وقد حكى الخلال في علله أن الإمام أحمد سئل عن هذا الحديث فقال ما زلت منكرا له وما أدري ما وجهه.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عمرو بن عون الواسطي أخبرنا هشيم عن منصور عن الحكم عن إبراهيم عن أبيه عن أبي ذر قال رآه بقلبه ولم يره بعينه، وحاول ابن خزيمة أن يدعى انقطاعه بين عبد الله بن شقيق وبين أبي ذر وأما ابن الجوزي فتأوله على أن أبا ذر لعله سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء فاجابه بما أجابه به ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات وهذا ضعيف جدا فان عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد سألت عن ذلك بعد الإسراء ولم يثبت لها الرؤية ومن قال إنه خاطبها على قدر عقلها أو حاول تخطئها فيها ذهبت إليه كابن خزيمة في كتاب التوحيد فإنه هو الخطيء والله أعلم وقال النسائي حدثنا يعقوب بن إبراهيم عن منصور عن الحكم عن يزيد بن شريك عن أبي ذر قال: رأى رسول الله ﷺ ربه بقلبه ولم يره ببصره. وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن علي بن مسهر عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى (ولقد رآه نزلة أخرى) قال رأى جبريل عليه السلام

وقال مجاهد في قوله (ولقد رآه نزلة أخرى) قال رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته مرتين وكذا قال قتادة والريبع بن أنس وغيرهم. وقوله تعالى (إذ ينشئ السدرة ما ينشئ) قد تقدم في أحاديث الاسراء أنه غشيها الملائكة مثل الغربان وغشيها نور الرب وغشيها ألوان ما أدري ماهي؟ وقال الإمام أحمد حدثنا مالك بن مغول حدثنا الزبير بن عدي عن طلحة عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود قال لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة إليها ينتهي ما يخرج به من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها (إذ ينشئ السدرة ما ينشئ) قال فراش من ذهب قال وأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا: أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سورة البقرة وغفر لمن لا يشرك بالله شيئا من أمتة المقححات. انفرد به مسلم وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية عن أبي هريرة أو غيره - شك أبو جعفر - قال: لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى إلى لسدرة قليل له إن هذه السدرة فغشيها نور الخلاق وغشيها الملائكة مثل الغربان حين يقعن على الشجر قال فكلمه عند ذلك فقال له سل وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد (إذ ينشئ السدر ما ينشئ) قال كان أعصان السدرة لؤلؤا وياقوتا وزبرجدا فرآها محمد ﷺ ورأى ربه بقلبه، وقال ابن زيد قيل يا رسول الله أي شيء رأيت ينشئ تلك السدرة؟ قال «رأيت ينشأها فراش من ذهب ورأيت على كل ورقة من ورقها ملكا قائما يسبح الله عز وجل» وقوله تعالى (ما زاغ البصر وما طغى) قال ابن عباس رضي الله عنهما ما ذهب عينا ولا شمالا (وما طغى) ما جاوز ما أمر به، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة فإنه ما فعل الا ما أمر به ولا سال فوق ما أعطى، وما أحسن ما قال الناطم: رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لهاها وقوله تعالى (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) كقوله (لنريه من آياتنا) أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا وبهاتين

الآيتين استدلل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع لأنه قال (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك وقال ذلك للناس ؛ وقد تقدم تقرير ذلك في سورة سبحان . وقد قال الإمام أحمد حدث أبو النضر حدثنا محمد بن طلحة عن الوليد بن قيس عن إسحق بن أبي الكهيلة قال محمد أظنه عن ابن مسعود أنه قال إن محمدا لم ير جبريل في صورته إلا مرتين أما مرة فانه سأله أن يريه نفسه في صورته فأراه صورته فسد الأفق ، وأما الأخرى فانه صعد معه حين صعد به ، وقوله (وهو بالأفق الأعلى) ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى) فلما أخبر جبريل ربه عز وجل عاد في صورته وسجد فقوله (ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يغشى السدرة ما يغشى * ما زاغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قال خلق جبريل عليه السلام هكذا رواه الإمام أحمد وهو غريب

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَبَآؤُكُمْ مِمَّا أُنْزِلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ * وَكَمِ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُفْقَى شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ)

يقول تعالى مقرعا للشركين في عبادتهم الأصنام والأوثان واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن عليه السلام (أفرايتم اللات) وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة وحوله فناء معظم عند أهل الطائف وهم ثقيف ومن تابعها يمتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش ، قال ابن جرير وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات يعنون مؤنثة منه تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ، وحكى عن ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس أنهم قرءوا اللات بتشديد التاء وفسروه بأنه كان رحلا يلت للحجيج في الجاهلية السوق فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه وقال البخاري حدثنا مسلم هو ابن إبراهيم حدثنا أبو الأشهب حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (اللات والعزى) قال كان اللات رجلا يلت السوق سوق الحاج ، قال ابن جرير وكذا العزى من العزيز وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة وهى بين مكة والطائف كانت قريش يعظمونها كما قال أبو سفيان يوم أحد لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » وروى البخاري من حديث الزهري عن حميد ابن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حلف فقال في حلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله ، ومن قال لصاحبه تعال أقامرك فليصدق » فهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته من زمن الجاهلية ، كما قال النسائي أخبرنا أحمد بن بكر حدثنا عبد الحميد بن محمد قال حدثنا محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال حلفت باللات والعزى فقال لى أصحابي بش من قلت يونس عن أبيه حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال حلفت باللات والعزى فقال لى أصحابي بش من قلت هجرا فأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فدكرت ذلك له فقال « قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير واشت عن شمالك ثلاثا وتموذ بالله من الشيطان الرجيم ثم لا تعد » وأما مناة فكانت بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها الحج إلى الكعبة ، وروى البخاري عن عائشة نحوه وقد كانت بحزيرة العرب وغيرها وطواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نص عليها في كتابه العزيز وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها . قال ابن إسحق في السيرة وقد كانت العرب اتخذت مع الكعبة طواغيت وهى بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة

وحجاب وتهدي لها كما يهدي للكعبة وتطوف بها كطوافها بها وتنحدر عندها وهي تعرف فضل الكعبة عليها لأنها كانت قد عرفت أنها بيت إبراهيم عليه السلام مسجده فكانت لقريش ولبنى كنانة العزى بنخلة وكان سدتها وحجابها بنى شيبان من سليم حلفاء بنى هاشم قلت بعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدمها وجعل يقول: يا عزي كفرانك لا سبحانك * إني رأيت الله قد أهانك

وقال النسائي أخبرنا علي بن النضر أخبرنا ابن فضيل حدثنا الوليد بن جميع عن أبي الطفيل قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة وكانت بها العزى فأناها خالد وكانت على ثلاث سمرة قطع السمرة وهدم البيت الذي كان عليها ثم أتى النبي ﷺ فأخبره فقال « ارجع فانك لم تصنع شيئا » فرجع خالد فلما أبصرته السدنة وهم حجبها أمعنوا في الحيل وهم يقولون: يا عزي، يا عزي فأناها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها فغمسها بالسيف حتى قتلها ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال « تلك العزى » قال ابن إسحق وكانت اللات لتقيف بالطائف وكان سدتها وحجابها بنى معتب (قلت) وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبه وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها وجعلها مكانها مسجدا بالطائف قال ابن إسحق وكانت مناة للأوس والحزرج ومن دان بدينهم من أهل يثرب على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد فبعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان صخر بن حرب فهدمها ويقال على بن أبي طالب قال وكانت ذو الحليفة لدوس وخشم وبجيلة ومن كان يولد من العرب بقبالة (قلت) وكان يقال لها الكعبة الجمانية والكعبة التي بمكة الكعبة الشامية فبعث إليه رسول الله ﷺ جرير بن عبد الله البجلي فهدمها قال وكانت قيس لطي ومن يليها بجبل طى بين سلى وأجا ، قال ابن هشام فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ بعث إليه على بن أبي طالب فهدمها واصطنع منه سيفين الرسوب والخزيم ففعله إياهما رسول الله ﷺ فهما سيفان على قال ابن إسحق وكان لحير وأهل اليمن بيت يصنع يقال له ريام وذكر أنه كان به كلب أسود وأن الحبرين اللذين ذهبا مع تبع استخرجاه وقتلاه وهدما البيت قال ابن إسحق وكانت رضاء بنت أبي ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن عيم ولها يقول المستور بن ربيعة بن كعب بن سعد حين هدمها في الإسلام ولقد شددت على رضاء شدة * فتركها قفرا بقاع أممها

قال ابن هشام إنه عاش ثلاثمائة وثلاثين سنة وهو القائل

ولقد شمت من الحياة وطولها * وعمرت من عدد السنين مئينا * مائة حدثها بعدها مائتان لي وعمرت من عدد الشهور سنينا * هل ما بقي إلا كما قد فاتنا * يوم يمر وليلة تحددونا قال ابن إسحق وكان ذو الكعبات لبكر وتغلب ابني وائل وإياد بسنداد وله يقول أعتشى بن قيس بن ثعلبة بين الحورنق والسدير وبارق * والبيت ذو الكعبات من سنداد

ولهذا قال تعالى (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثلاثة الأخرى؟) ثم قال تعالى (الكم الذي ذكر وله الأنثى؟) أي أتجمعون له ولدا وتجمعون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور فلو اقتسمتم أتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت (قسمة ضيزى) أي جورا باطلة فكيف تقامون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورا وسفها ، ثم قال تعالى منكرنا عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة (إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم) أي من تلقاء أنفسكم (ما أنزل الله بها من سلطان) أي من حجة (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) أي ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا السلك الباطل قبلهم وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين (ولقد جاءهم من ربهم الهدى) أي ولقد أرسل الله إليهم الرسل بالحق للنير والنجاة القاطعة ومع هذا ما اتبعوا ما جاءهم به ولا اتقوا له

ثم قال تعالى (أم للانسان ما تمنى) أي ليس كل من تمنى خيرا حصل له (ليس بأمانيك ولا أمانى أهل الكتاب) ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ولا كل من ود شيئا يحصل له. قال الإمام أحمد حدثنا إسحق حدثنا أبو عوانة عن عمر ابن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري

ما يكتب له من أميته « تفرد به أحمد . وقوله (فله الآخرة والأولى) أى إنما الأمر كله لله مالك الدنيا والآخرة والمتصرف في الدنيا والآخرة فهو الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقوله تعالى (وكم من ملك في السموات لا تنفى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) كقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) (ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) فإذا كان هذا في حق الملائكة القربين فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها بل قد نهى عنها على السنة جميع رسله وأنزل بالنهى عن ذلك جميع كتبه ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى * وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يُفْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا * فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾

يقول تعالى منكرا على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى وجعلهم لها أنها بنات الله تعالى الله عن ذلك كما قال تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إنانا أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم وبشلتون) ولهذا قال تعالى (وما لهم به من علم) أى ليس لهم علم صحيح صدق ما قالوه بل هو كذب وزور واقتراء وكفر شنيع (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا ينفى من الحق شيئا) أى لا يحدى شيئا ولا يقوم أبدا مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « إياكم والظن فإن الظن أ كذب الحديث » وقوله تعالى (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) أى أعرض عن الذى أعرض عن الحق واهجره . وقوله (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) أى وإنما أ كثر همه ومبلغ علمه الدنيا فذاك هو غاية مالا خير فيه ولهذا قال تعالى (ذلك مبلغهم من العلم) أى طلب الدنيا والسعى لها هو غاية ما وصلوا اليه . وقد روى الامام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ « الدنيا دار من لادار له ، ومال من لامال له ، ولها يجمع من لا عقل له » وفي الدعاء للأئمة « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » وقوله تعالى (إن ربك هو أعلم بمن ضل سبيله وهو أعلم بمن اهتدى) أى هو الخالق لجميع المخلوقات والعالم بمصالح عبادته وهو الذى يهتدى من يشاء ويضل من يشاء وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته وهو العادل الذى لا يجوز أبدا لافى شرعه ولا فى قدره

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّعَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض وأنه الغنى عما سواه الحاكم فى خلقه بالعدل وخلق الخلق بالحق (ليجزى الدين أساءوا بما عملوا ويجزى الدين أحسنوا بالحسنى) أى يجازى كلا بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أى لا يتعاطون المهرمات الكبائر وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يفر لهم ويستر عليهم كما قال فى الآية الأخرى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما) وقال ههنا (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللعَم) وهذا استثناء منقطع لأن اللعَم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال . قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر بن أرمطة عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال ما رأيت شيئا أشبه باللعم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى كتب

على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لاحالة فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشتى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به . وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى أخبرنا ابن ثور حدثنا معمر عن الأعمش عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال : زنا العينين النظر وزنا الشفتين التقيل ، وزنا اليدين البطش ، وزنا الرجلين المشي ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه فإن تقدم بفرجه كان زانيا وإلا فهو المم وكذا قال مسروق والشعبي . وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال سألت أبا هريرة عن قوله الله (إلا المم) قال القبلة والعمزة والنظرة والمباشرة فإذا مس الحتان الحتان فقد وجب القسل وهو الزنا وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (إلا المم) إلا ما سلف وكذا قال زيد بن أسلم . وقال ابن جرير حدثنا ابن المنذر حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور عن مجاهد أنه قال في هذه الآية (إلا المم) قال الذي يلم بالذنب ثم يدعه قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن منصور عن مجاهد في قول الله تعالى (إلا المم) قال الرجل يلم بالذنب ثم ينزع عنه قال وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت وهم يقولون

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما

وقد رواه ابن جرير وغيره مرفوعا قال ابن جرير حدثني سليمان بن عبد الجبار حدثنا أبو عاصم حدثنا زكريا بن إسحاق عن عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا المم) قال هو الرجل يلم بالفاحشة ثم يتوب وقال : قال رسول الله ﷺ

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك ما ألما ؟

وهكذا رواه الترمذي عن أحمد بن عثمان أي عثمان البصري عن أبي عاصم النبيل ثم قال هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن إسحاق وكذا قال البراء لانله يروى متصلا لإمام هذا الوجه وسأله ابن أبي حاتم والبعثي من حديث أبي عاصم النبيل وإنما ذكره البغوي في تفسير سورة تنزيل وفي صحته مرفوعا نظر . ثم قال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الله بن زياد حدثنا يزيد بن زريع حدثنا يونس عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أراه رفعه في (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا المم) قال اللمة من الزنا ثم يتوب ولا يعود . والمم من السرقة ثم يتوب ولا يعود واللمة من شرب الخمر ثم يتوب ولا يعود . وحدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن في قول الله تعالى (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا المم) قال اللمة من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر ثم لا يعود . وحدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قول الله (الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا المم) قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون هو الرجل يصيب اللمة من الزنا واللمة من شرب الخمر فيجتنبها ويتوب منها . وقال ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس (إلا المم) يلم بها في الحين قلت : الزنا ؟ قال : الزنا ثم يتوب وقال ابن جرير أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا ابن عيينة عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال : المم ، الذي يلم للمرة . وقال السدي قال أبو صالح سئلت عن المم قللت هو الرجل يصيب الذنب ثم يتوب وأخبرت بذلك ابن عباس فقال لقد أعانك عليها ملك كريم حكاه البغوي . وروى ابن جرير من طريق الثوري عن جابر الجعفي عن عطاء عن ابن الزبير ابن شبيب أن عبد الله بن عمرو قال المم مادون الشرك ، وقال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن عطاء عن ابن الزبير (إلا المم) قال ما بين الحدين حد الزنا وعذاب الآخرة ، وكذا رواه شعبة عن الحكم عن ابن عباس مثله سواء . وقال العوفي عن ابن عباس في قوله (إلا المم) كل شيء بين الحدين حد الدنيا وحد الآخرة تكفره الصلوات فهو المم وهو دون كل موجب فأما حد الدنيا فكل حد فرض الله عقوبته في الدنيا ، وأما حد الآخرة فكل شيء ختمه الله بالنار وأخر عقوبته إلى الآخرة . وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك . وقوله تعالى (إن ربك واسع المغفرة) أي رحمة وسعت كل شيء ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها كقوله تعالى (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم

لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وقوله تعالى (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) أى هو بصير بكم عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقولكم التى تصدر عنكم وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض واستخرج ذريته من صلبه أمثال الدر ثم قسمهم فريقين فريقا للجنة وفريقا للسعير وكذا قوله (وإذا أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم) قد كتب للملك الذى يؤكل به رزقه وأجله وعمله وشقى أم سعيد ؟ قال مكحول كنا أجنة فى بطون أمهاتنا فسقط منا من سقط وكنا فيمن بقى ثم كنا مراضيع فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى ثم صرنا يفعة فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى ثم صرنا شبانا فهلك منا من هلك وكنا فيمن بقى ثم صرنا شيوخا لا أبالك فإدا بعد هذا ننتظر ؟ رواء ابن أبى حاتم عنه . وقوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم) أى تمد حوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم (هو أعلم بمن اتقى) كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون شيئا) . وقال مسلم فى صحيحه حدثنا عمرو والنقاد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا الليث بن يزيد بن أبى جبيب عن محمد بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتى برة فقالت لى زينب بنت أبى سلمة إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الاسم وسميت برة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم » فقالوا بم نسميها ؟ قال « سموها زينب » وقد ثبت أيضا فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال مدح رجل رجلا عند النبي ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وبلك قطعت عنق صاحبك - مرارا - إذا كان أحدكم مادحا صاحبه لاحتالة فليقل أحسب فلانا والله حسيبه ولا أذكرى على الله أحدا أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك » ثم رواه عن غندر عن شعبة عن خالد الحذاء به وكذا رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجه من طرق عن خالد الحذاء به . وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا أخبرنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن همام بن الحارث قال جاء رجل إلى عثمان فأتى عليه فى وجهه قال فجعل القداد بن الأسود يحشو فى وجهه التراب ويقول أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا السداحين أن نحشو فى وجوههم التراب . ورواه مسلم وأبو داود من حديث الثورى عن منصور به

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى * أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لِّىْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾

يقول تعالى ذاما لمن تولى عن طاعة الله (فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى) (وأعطى قليلا وأكدى) قال ابن عباس أطلع قليلا ثم قطعه وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد قال عكرمة وسعيد كثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرا فيجدون فى أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون أ كدنا ويتكون العمل وقوله تعالى (أعنده علم الغيب فهو يرى) أى أعنده هذا الذى قد أمسك يده خشية الانفاق وقطع معروفة أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما فى يده حتى قد أمسك عن معروفة فهو يرى ذلك عيانا ؟ أى ليس الأمر كذلك . وإنما أمسك عن الصدقة والعروف والبر والصلة بخلا وشحا وهلما ، ولهذا جاء فى الحديث « أتقى بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلاقا » وقد قال الله تعالى (وما أفقتم من شئ فهو بخلفه وهو خير الرازقين) . وقوله تعالى (ألم نبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى) ؟ قال سعيد بن جبير والثورى أى بلغ جميع ما أمر به ، وقال ابن عباس (وفى) لله بالبلاغ ، وقال سعيد بن جبير (وفى) ما أمر به ، وقال قتادة (وفى) طاعة الله وأدى رسالته إلى خلقه وهذا القول هو اختيار ابن جرير وهو يشمل الذى قبله ويشهد له قوله تعالى (وإذا تبلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماما) فقام بجميع الأوامر وترك جميع النواهي وبلغ الرسالة على التمام والكمال فاستحق بهذا أن يكون للناس

إماما يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله قال الله تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) وقال ابن حاتم حدثنا محمد بن عوف الحمصي حدثنا آدم بن أبي إياس العسقلاني حدثنا حماد بن سلمة حدثنا جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (وإبراهيم الذي وفى) قال « أتدرى ما وفى ؟ » قلت الله ورسوله أعلم قال « وفى عمل يومه بأربع ركعات من أول النهار » ورواه ابن جرير من حديث جعفر بن الزبير وهو ضعيف . وقال الترمذي في جامعه حدثنا أبو جعفر السمعاني حدثنا أبو مسهر حدثنا إسماعيل بن عياش عن يحيى بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن أبي الدرداء وأبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل أنه قال « ابن آدم اركع لى أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » قال ابن أبي حاتم رحمه الله وحدثنا أبي حدثنا الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « ألا أخبركم لمسمى الله تعالى إبراهيم خليله الذى وفى ؟ إنه كان يقول كلما أصبح وأمسى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) » حتى ختم الآية . ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن رشدين بن سعد عن زبان به ، ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال (أن لاتزر وازرة وزر أخرى) أى كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فأنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد كما قال (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) أى كما لا يحمل عليه وزر غيره كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه ، ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعى رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى اللوتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إجماع ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء فأما الدعاء والصدقة فذلك مجمع على وصولها ومنصوص من الشارع عليهما .

وأما الحديث الذى رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث من ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده أو علم ينتفع به » فهذه الثلاثة في الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله كما جاء في الحديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه » والصدقة الجارية كالوَقْف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه وقد قال تعالى (إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) الآية والعلم الذى نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضا من سعيه وعمله ، وثبت في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا » . وقوله تعالى (وأن سعيه سوف يرى) أى يوم القيامة كفوله تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى فيخبركم به ويجزيكم عنه أتم الجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر وهكذا قال ههنا (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) أى الأوفر

(وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ * وَثَوَّدَا فَمَا أَتْبَقَىٰ * وَتَوَّصَّاهُ نُوحٌ مِّن قَبْلُ لَهُم كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَىٰ * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَفَشَّهَا مَا غَشَّىٰ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ)

يقول تعالى (وأن إلى ربك المنتهى) أى اللعاديوم القيامة قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد حدثنا

مسلم بن خالد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون الأودي قال قام فينا معاذ بن جبل فقال يا بني أوداني رسول الله صلى الله عليه وسلم إليكم تعلمون أن العباد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار وذكر البغوي من رواية أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله (وأن إلى ربك المنتهى) قال لا فكرة في الرب قال البغوي وهذا مثل ما روى عن أبي هريرة مرفوعا « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإنه لا تحيط به الفكرة » وكذا أورده وليس بمحفوظ بهذا اللفظ ، وإنما الذي في الصحيح « يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغ أحدكم ذلك فليستد بالله ولينته » وفي الحديث الآخر الذي في السنن « تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله فإن الله تعالى خلق ملكا ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة ثلاثمائة سنة » أو كما قال وقوله تعالى (وأنه هو أضحك وبكى) أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما هما مختلفان (وأنه هو أمات وأحيا) كقوله (الذي خلق الموت والحياة) (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى) كقوله (أحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ * ألم يك نطفة من منى يعني ١ * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) وقوله تعالى (وأن عليه النشأة الآخرة) أي كما خلق البداية هو قادر على الاعادة وهي النشأة الآخرة يوم القيامة (وأنه هو أغنى وأقنى) أي ملك عباده للمال وجعله لهم قنية مقبلا عندهم لا يحتاجون إلى بيعه فهذا تمام النعمة عليهم ، وعلى هذا يدور كلام كثير من المفسرين منهم أبو صالح وابن جرير وغيرهما ، وعن مجاهد (أغنى) مول (وأقنى) أخدم وكذا قال قتادة وقال ابن عباس ومجاهد أيضا (أغنى) أعطى (وأقنى) رضى وقيل معناه أغنى نفسه وأقرب الخلق إليه قاله الحضرى بن لاحق وقيل أغنى من شاء من خلقه وأقنى أى أقفر من شاء منهم قاله ابن زيد حكاهما ابن جرير ومهما بعيدان من حيث اللفظ وقوله (وأنه هو الرب الشعري) قال ابن عباس ومجاهد وقاتة وابن زيد وغيرهم هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له مرزم الجوزاء كانت طائفة من العرب يعبدونه (وأنه أهلك عادا الأولى) وهم قوم هود ويقال لهم عاد بن إرم بن سام بن نوح كما قال تعالى (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ؟) فكانوا من أشد الناس أقواهم وأعناهم على الله تعالى وعلى رسوله فأهلكهم الله (بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما) أى متتابعة

وقوله تعالى (ونعود فما أبقى) أى دمرهم فلم يبق منهم أحدا (وقوم نوح من قبل) أى من قبل هؤلاء (إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) أى أشد تمردا من الذين من بعدهم (والذوات فكة أهوى) يعنى مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ولهذا قال فمشاها ما غشى يعنى من الحجارة التى أرسلها عليهم (وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر النذر) قال قتادة كان في مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان فانصرم عليهم الوادى شيئا من نار ونقط وقطران كهم الأتون . ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن محمد بن وهب بن عطية عن الوليد بن مسلم عن خليفته به وهو غريب جدا (فبأى آلاء ربك تتبارى ؟) أى فى أى نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري ؟ قاله قتادة وقال ابن جرير (فبأى آلاء ربك تتبارى ؟) يا محمد والأول أولى وهو اختيار ابن جرير

(هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ * أَزِفَتِ الْأَافَاقُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ * فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا)

(هذا نذير) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم (من النذر الأولى) أى من جنسهم أرسل كما أرسلوا كما قال تعالى (قل ما كنت بدعا من الرسل) (أزفت الآفاق) أى اقتربت القرية وهى القيامة (ليس لها من دون الله كاشفة) أى لا يدفعها إذا من دون الله أحد ولا يطلع على علمها سواء والنذير الحذر لما يعاين من الشر الذى يخشى وقوعه فيمن أنذرهم كما قال (إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد) وفى الحديث « أنا النذير العريان » أى الذى أعجله شدة ما عاين

من الشر عن أن يلبس عليه شيئا بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك فجاءهم عريانا مسرعا وهو مناسب لقوله (أزفت الآزقة) أى اقتربت القرية يعنى يوم القيامة كما قال في أول السورة التى بعدها (اقتربت الساعة) وقال الإمام أحمد حدثنا أنس بن عياض حدثني أبو حاتم لا أعلم الا عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيكم ومحقرات الذنوب فانما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا يبطن واد فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » وقال أبو حازم : قال رسول الله ﷺ قال أبو نصره لا أعلم الا عن سهل بن سعد قال « مثلى ومثل الساعة كهاتين » وفرق بين اصبعيه الوسطى والى تلى الابهام ثم قال « مثلى ومثل الساعة كمثل فرس رهان » ثم قال « مثلى ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة فلما خشي أن يسبق ألاح بثوبه أتيتم أتيتم » ثم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا ذلك » وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان ثم قال تعالى منكرا على المشركين فى استماعهم القرآن واعراضهم عنه وتلميحهم (تعجبون) من أن يكون صحيحا (وتضحكون) منه استهزاء وسخرية (ولا تبكون) أى كما يفعل الموقنون به كما أخبر عنهم (ويخرون للأذقان يكون ويزيدهم خشوعا) وقوله تعالى (وأتم سامدون) قال سفيان الثوري عن أبيه عن ابن عباس قال : الفناء هى يمانية اسمد لنا غن لنا وكذا قال عكرمة ، وفى رواية عن ابن عباس (سامدون) معرضون ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقال الحسن خافلون وهو رواية عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وفى رواية عن ابن عباس تستكبرون وبه يقول السدى ، ثم قال تعالى آمرا لعباده بالسجود له والعبادة التابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والاخلاص (فاسجدوا لله واعبدوا) أى فاخلعوا له وأخلصوا ووجدوه قال البخارى حدثنا أبو معمر حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والشركون والجن والإنس . انفراد به دون مسلم ، وقال الإمام أحمد حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا رباح عن معمر عن ابن طاوس عن عكرمة بن خالد عن جعفر بن المطلب ابن أبى وداعة عن أبيه قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم فسجد وسجد من عنده فرفعت رأسى فأبيت أن أسجد ولم يكن أسلم يومئذ المطلب فكان بعد ذلك لا يسمع أحدا يقرؤها إلا سجد معه . وقد رواه النسائي فى الصلاة عن عبد الملك بن عبد الحميد عن أحمد بن حنبل به . آخر تفسير سورة النجم والله الحمد والمنة .

(تفسير سورة اقتربت الساعة وهى مكية)

قد تقدم فى حديث أبى واقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة فى الأضحى والفطر وكان يقرأ بهما فى المحافل الكبار لاشتبهالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق وإعادةه والتوحيد وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتِرٌ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى (أنى أمر الله فلا تستعجلوه) وقال (اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون) وقد وردت الأحاديث بذلك قال الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى وعمرو بن على قالا حدثنا خلف بن موسى حدثني أبى عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه ذات يوم وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا سف يسير فقال « والذى نفسى بيده ما بقى من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه وما نرى من الشمس إلا يسيرا » (قلت) هذا حديث مداره على خلف

ابن موسى بن خلف العمى عن أبيه وقد ذكره ابن جبان في الثقات وقال ربما أخطأ (حديث آخر يعضد الذي قبله ويفسره) قال الامام أحمد حدثنا الفضل بن دكين حدثنا شريك حدثنا سلمة بن كهيل عن مجاهد عن ابن عمر قال : كنا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم والشمس على قيعان بعد العصر فقال « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقي من النهار فيها مضى » وقال الإمام أحمد حدثنا حسين حدثنا محمد بن مطرف عن أبي حازم عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بصبغيه السبابة والوسطى . أخرجاه من حديث أبي حازم سلمة بن دينار

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد أخبرنا الأعمش عن أبي خالد عن وهب السوائي قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقني » وجمع الأعمش بين السبابة والوسطى . وقال الإمام أحمد حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعي حدثني إسحاق بن عبيد الله قال قدم أنس بن مالك على الوليد بن عبد الملك فسأله ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة ؟ فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أتم والساعة كهاتين » تفرد به أحمد رحمه الله وشاهد ذلك أيضا في الصحيح في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه الحاشر الذي يحشر الناس على قدميه . وقال الامام أحمد حدثنا بهز بن أسد حدثنا سليمان بن المغيرة حدثنا حميد بن هلال عن خالد بن عمير قال خطب عتبة بن غزوان قال بهز وقال قبل هذه المرة خطبنا رسول الله ﷺ قال فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولت حذاء ولم يبق منها إلا سبابة كسبابة الاناء يتصاها صاحبها وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقي من شفير جهنم فيهوى فيها سبعين عاما ما يدرك لها قعرا ، والله لئلا يؤنه أفعبتم والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعى الجنة مسيرة أربعين عاما وليأتين عليه يوم وهو كطيظ من الزحام » وذكر تمام الحديث انفرد به مسلم وقال أبو جعفر بن جرير حدثني يعقوب حدثني ابن علية أخبرنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي قال زلنا للدائن فكنا منها على فرسخ فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول (اقتربت الساعة وانشق القمر) ألا وإن الساعة قد اقتربت ألا وإن القمر قد انشق ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المظهار وغدا السباق فقلت لأبي أيستبق الناس غدا ؟ فقال يا بني إنك لجاهل إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله عز وجل يقول (اقتربت الساعة وانشق القمر) ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ألا وإن اليوم المظهار وغدا السباق ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة وقوله تعالى (وانشق القمر) قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة . وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود أنه قال « خمس قدمضين الروم والدخان والزام والبطشة والقمر » وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(رواية أنس بن مالك) قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة عن أنس بن مالك قال سألت أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين فقال (اقتربت الساعة وانشق القمر) ورواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق وقال البخاري حدثني عبد الله بن عبد الوهاب حدثنا بشر بن الفضل حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك أن أهل مكة سألو رسول الله ﷺ أن يرهم آية فأرأهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . وأخرجاه أيضا من حديث يونس بن محمد المؤدب عن شيان عن قتادة ورواه مسلم أيضا من حديث أبي داود الطيالسي ويحيى القطان وغيرها عن شعبة عن قتادة به (رواية جبير بن مطعم رضي الله عنه) قال الامام أحمد حدثنا محمد بن كثير ثنا سليمان بن كثير عن حصين بن عبد الرحمن عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فرقة على هذا الجبل وفرقة على هذا الجبل فقالوا

سحرنا محمد فقالوا إن كان سحرنا فانه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . تفرد به الامام أحمد من هذا الوجه وأسنده البيهقي في الدلائل من طريق محمد بن كثير عن أخيه سليمان بن كثير عن حصين بن عبد الرحمن وهكذا رواه ابن جرير من حديث محمد بن فضيل وغيره عن حصين به . ورواه البيهقي أيضا من طريق إبراهيم بن طهمان وهشيم كلاهما عن حصين عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده فذكره ﴿ رواية عبد الله ابن عباس رضى الله عنهما ﴾ قال البخارى حدثنا يحيى بن كثير حدثنا بكر عن جعفر عن عراك بن مالك عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس قال : انشق القمر في زمان النبي صلى الله عليه وسلم . ورواه البخارى أيضا ومسلم من حديث بكر بن مضر عن جعفر بن ربيعة عن عراك به مثله . وقال ابن جرير حدثنا ابن مثنى حدثنا عبد الأعلى حدثنا داود بن أبي هند عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر) قال قد مضى ذلك كان قبل الهجرة انشق القمر حتى رأوا شقيه ، وروى العوفي عن ابن عباس نحو هذا ، وقال الطبراني حدثنا أحمد بن عمرو البزار حدثنا محمد بن يحيى القعطي حدثنا محمد ابن شكر حدثنا ابن جريج عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال كسف القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالوا سحر القمر فزلت (اقتربت الساعة وانشق القمر - إلى قوله - مستمر) ﴿ رواية عبد الله بن عمر ﴾ قال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ وأبو بكر أحمد بن الحسن القاضي قال حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا العباس ابن محمد الدوري حدثنا وهب بن جرير عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد عن عبد الله بن عمر في قوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) قال وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقين فلقه من دون الجبل وفلقه من خلف الجبل فقال النبي ﷺ « اللهم اشهد » وهكذا رواه مسلم والترمذي من طرق عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد به ، قال مسلم كراوية مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود وقال الترمذي حسن صحيح ﴿ رواية عبد الله ابن مسعود ﴾ قال الامام أحمد حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن أبي معمر عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين حتى نظروا إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اشهدوا » وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث سفيان بن عيينة به ، وأخرجاه من حديث الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عبد الله ابن سحبرة عن ابن مسعود به وقال ابن جرير حدثني عيسى بن عثمان بن عيسى الرملى حدثنا عمي يحيى بن عيسى عن الأعمش عن إبراهيم عن رجبل عن عبد الله قال : كنا مع رسول الله ﷺ بمنى فانشق القمر فأخذت فرقة خلف الجبل فقال رسول الله ﷺ « اشهدوا اشهدوا » قال البخارى : وقال أبو الضحى عن مسروق عن عبد الله بن بكة وقال أبو داود الطيالسي حدثنا أبو عوانة عن المغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فقالت قريش هذا سحر ابن أبي كبشة قال فقالوا انظروا ما يأتيكم به السفار فان محمد لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم قال فجاء السفار فقالوا ذلك . وقال البيهقي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدثنا العباس بن محمد الدوري حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا هشام حدثنا مغيرة عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله قال انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين فقال كفار قريش أهل مكة هذا سحر سحرهم به ابن أبي كبشة انظروا السفار فان كانوا رأوا مارأيتم فقد صدق وإن كانوا لم يروا مثل مارأيتم فهو سحر سحرهم به قال فسل السفار قال وقدموا من كل وجهة فقالوا : رأينا، ورواه ابن جرير من حديث المغيرة به وزاد فأنزل الله عز وجل (اقتربت الساعة وانشق القمر) . ثم قال ابن جرير حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا أيوب عن محمد هو ابن سيرين قال نبئت أن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول لقد انشق القمر وقال ابن جرير أيضا حدثني محمد بن عمار حدثنا عمرو بن حماد حدثنا أسباط عن ممالك عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله قال لقد رأيت الجبل من فرج القمر حين انشق . ورواه الامام أحمد عن مؤمل عن إسرائيل عن سمالك عن إبراهيم عن الأسود عن عبد الله قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى رأيت الجبل من بين فرجى القمر

وقال ليث عن مجاهد انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصار فرقتين فقال النبي ﷺ لأبي بكر «اشهد يا أبا بكر» فقال الشركون سحر القمر حتى انشق وقوله تعالى (وإن يروا آية) أى دليلا وحجة وبرهانا (يعرضوا) أى لا يتقادوا له بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم (ويقولوا سحر مستمر) أى ويقولون هذا الذى شاهدناه من الحجيح سحر سحرنا به ومعنى (مستمر) أى ذاهب قاله مجاهد وقناة وغيرهما أى باطل مضحل لا دوام له (وكذبوا واتبعوا أهواءهم) أى كذبوا بالحق إذ جامم واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقلمهم . وقوله (وكل أمر مستقر) قال قتادة معناه أن الخير واقع بأهل الخير والشر واقع بأهل الشر ، وقال ابن جريج مستقر بأهله وقال مجاهد (وكل أمر مستقر) أى يوم القيامة وقال السدى مستقر أى واقع ، وقوله تعالى (ولقد جاءهم من الأنباء) أى من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسول وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن (ما فيه مزدجر) أى ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتماذى على التكذيب. وقوله تعالى (حكمة بالغة) أى في هدايته تعالى لمن هداه واضلله لمن أضله (فما تنفى النذر) يعنى أى شيء تنفى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة وختم على قلبه ؟ فمن الذى يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله تعالى (قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) وكذا قوله تعالى (تنفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكِرٍ * خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

يقول تعالى فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكير (يوم يدع الداع إلى شيء نكير) أى إلى شيء منكرف فظيع وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء بل والزلازل والأحوال (خشعا أبصارهم) أى ذليلة أبصارهم (يخرجون من الأجداث) وهى القبور (كأنهم جراد منتشر) أى كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى جراد منتشر فى الآفاق ، ولهذا قال (مهطعين) أى مسرعين (إلى الداعى) لا يخالفون ولا يتأخرون (يقول الكافرون هذا يوم عسير) أى يوم شديد المول عبوس فظير (فذلك يوم عسير على الكافرين غير يسير .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَقَدَرَبَهُ أُنًى مَّغْلُوبٌ فَاتَّصَرَ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِّمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ * فَكَيفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كَرِهَ فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ ﴾

يقول تعالى (كذبت) قبل قومك يا محمد (قوم نوح فكذبوا عبدنا) أى صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون (وقالوا مجنون وازدجر) قال مجاهد وازدجر أى استطير جنونا ، وقيل وازدجر أى اتهموه وزجروه وتواعدوه لأن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قاله ابن زيد وهذا متوجه حسن (قد ربه أُنًى مغلوب فاتتصر) أى أنى ضعف عن هؤلاء وعن مقاومتهم فاتتصر أنت لديك قال الله تعالى (فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر) قال السدى وهو الكثير (وفجرتنا الأرض عيونا) أى نبعت جميع أرجاء الأرض حتى التناير التى هى محال النيران نبعت عيونا (فاللقى الماء) أى من السماء والأرض (على أمر قد قدر) أى أمر مقدر

قال ابن جريج عن ابن عباس (فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر) كثير لم تخطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب ، فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم ، فاللقى الماء الآن على أمر قد قدر ، وروى ابن أبى حاتم

أن ابن الكواء سأل علياً عن الهجرة فقال هي شرج السماء ومنها فتحت السماء بماء منهمر (وحملناه على ذات ألواح ودسر) قال ابن عباس وسعيد بن جبير والقرظي وقتادة وابن زيد هي السامير واختاره ابن جرير قال وواحد لها دسار ويقال دسركا يقال حييك وحيالك والجمع حبك ، وقال مجاهد الدسر أضلاع السفينة وقال عكرمة والحسن هو صدرها الذي يضرب به الموج . وقال الضحاك الدسر طرفاها وأصلها وقال العوفي عن ابن عباس هو كل كلها أي صدرها . وقوله (تجري بأعيننا) أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا (جزاء لمن كان كافر) أي جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارا لنوح عليه السلام . وقوله تعالى (ولقد تركناها آية) قال قتادة أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن كقوله تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك للشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) وقال تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) ولهذا قال ههنا (فهل من مذكر) أي فهل من يتذكر ويتعظ . قال الإمام أحمد حدثنا حجاج حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن الأسود عن ابن مسعود قال أقرأتني رسول الله ﷺ (فهل من مذكر) وهكذا رواه البخاري حدثنا يحيى حدثنا وكيع عن إسرائيل عن أبي إسحق عن الأسود بن يزيد عن عبد الله قال قرأت على النبي ﷺ (فهل من مذكر) وقال النبي صلى الله عليه وسلم (فهل من مذكر) وروى البخاري أيضا من حديث شعبة عن أبي إسحق عن الأسود عن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ (فهل من مذكر) . وقال حدثنا أبو نعيم حدثنا زهير عن أبي إسحق أنه مع رجلا سألا الأسود فهل من مذكر أو مذكر قال سمعت عبد الله يقرأ فهل من مذكر ؛ وقال سمعت رسول الله ﷺ يقرأها فهل من مذكر . دالا . وقد أخرج مسلم هذا الحديث وأهل السنن إلا ابن ماجه من حديث أبي إسحق . وقوله تعالى (فكيف كان عذابي ونذر) أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ولم يتعظ بما جاءت به نذري وكيف انتصرت لهم وأخذت لهم بالثأر (ولقد يسرنا القرآن للذكر) أي سهلنا لفظه ويسرنا معناه لمن أراد أن ليتذكر الناس كما قال (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) وقال تعالى (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا) قال مجاهد (ولقد يسرنا القرآن للذكر) يعني هونا قراءته وقال السدي يسرنا تلاوته على الألسن وقال الضحاك عن ابن عباس لولا أن الله يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عز وجل ، قلت ومن تيسيره تعالى على الناس تلاوة القرآن ما تقدم عن النبي ﷺ أنه قال « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » وأوردنا الحديث بطرقه وألفاظه بما أغنى عن إعادته ههنا والله الحمد والمنة ، وقوله (فهل من مذكر) أي فهل من متذكر بهذا القرآن الذي قد يسره الله حفظه ومعناه ؟ وقال محمد بن كعب القرظي فهل من منزجر عن المعاصي ؟ وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا الحسن بن رافع حدثنا ضمرة عن ابن شوذب عن مطر هو الوراق في قوله تعالى (فهل من مذكر) هل من طالب علم فيعان عليه وكذا علقه البخاري بصيغة الجزم عن مطر الوراق ورواه ابن جرير وروى عن قتادة مثله .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلَّذِينَ هُمْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴾

يقول تعالى خبرنا عن عاد قوم هود أنهم كذبوا رسولهم أيضا كما صنع قوم نوح وأنه تعالى أرسل (عليهم ريحا صرصرا) وهي الباردة الشديدة البرد (في يوم نحس) أي عليهم ، قاله الضحاك وقتادة والسدي (مستمرا) عليهم نحسه ودماره لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالآخروي وقوله تعالى (تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر) وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تلبيه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض فتشغل رأسه

فبقي جنة بلا رأس ولهذا قال (كانهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِمَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَلَدُلِّي الَّذِي كُرِيَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ * إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبَهُمْ وَأَصْطَبَرُوا * وَنَبَّيْنَاهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِي * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كُرِيَ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾

وهذا اخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحا (فقالوا أبشرا ممما واحدنا لو احد منا . ثم تعجبوا من القاء الوحي عليه خاصة من دونهم ثم رموه بالكذب فقالوا (بل هو كذاب أشير) أى متجاوز فى حد الكذب قال الله تعالى (سيعلمون غدا من الكذب الأشير) وهذاتهديد لهم شديد ووعد أكيد . ثم قال تعالى (إنا مرسلوا الناقة فتنه لهم) أى اختبارا لهم ، أخرج الله تعالى لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء طبق ماسألوا لتكون حجة الله عليهم فى تصديق صالح عليه السلام . فيما جاءهم به ثم قال تعالى أمرا لبعده ورسوله صالح (فارتبهم واصطبر) أى انتظر ما يؤول اليه أمرهم واصبر عليهم فان العاقبة لك والنصر فى الدنيا والآخرة (ونبئهم أن الماء قسمة بينهم) أى يوم لهم ويوم للناقة كقوله (قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم) وقوله تعالى (كل شرب محتضر) قال مجاهد إذا غابت حضروا الماء وإذا جاءت حضروا الابن ثم قال تعالى (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر) قال المفسرون هو عاقر الناقة واسمه قدار بن سالف وكان أشقى قومه كقوله (إذ انبعث أشقاها) (فتعاطى) أى حسر (فعقر * فكيف كان عذابي ونذر) أى فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى (إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر) أى فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقية وحمدوا وحمدوا كما يهدم يبيس الزرع والنبات قاله غير واحد من المفسرين ، والمحتظر قال السدى هو للرعى بالصحراء حين يبيس ويحترق وتسفيه الريح وقال ابن زيد كانت العرب يجعلون حظارا على الإبل والمواشى من يبيس الشوك فهو المراد من قوله (كهشيم المحتظر) وقال سعيد بن جبير هشيم المحتظر هو التراب التناثر من الحائط وهذا قول غريب والأول أقوى والله أعلم .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلَّذِي كُرِيَ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور وهى الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ولهذا أهلكهم الله هلاكهم أمة من الأمم فانه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسلها وأتبع بحجارة من سجيل منضود ولهذا قال همنا (إنا أرسلنا عليهم حاصبا) وهى الحجارة (إلا آل لوط نجيناهم بسحر) أى خرجوا من آخر الليل فنجوا بما

أصاب قومهم ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد حتى ولا امرأته أصابها ما أصاب قومها وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالما لم يمسه سوء ولهذا قال تعالى (كذلك نجزي من شكر * ولقد أنذرهم بطشتنا) أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه بل شكوا فيه وتماروا به (ولقد راودوه عن ضيفه) وذلك ليلة ورد عليه الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل في صور شباب مرد حسان محنة من الله بهم فاضافهم لوط عليه السلام وبعث امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط فاقبلوا يهرعون إليه من كل مكان فأغلق لوط دونهم الباب فجعلوا يحاولون كسر الباب وذلك عشية ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ويقول لهم (هؤلاء بناتي) يعني نسائهم (إن كنتم فاعلين * قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق) أي ليس لنا فيهن أرب (وإنك لتعلم ما نريد) فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم يقال إنها غارت من وجوههم وقيل إنه لم تبق لهم عيون بالكلية فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ويتعدون لوطا عليه السلام إلى الصباح . قال الله تعالى (ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر) أي لا عجد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه (فذوقوا عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر)

(وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ * أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بِرَأْيَةِ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ * سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلُّونَ الدُّبُرُ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدهَى وَأَمْرٌ)

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وقومه إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا والنذارة إن كفروا وأيدها بمعجزات عظيمة وآيات متعددة فكذبوا بها كلها فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر أي فأبادهم الله ولم يبق منهم خبر ولا عين ولا أثر . ثم قال تعالى (أ كفاركم) أي أيها المشركون من كفار قريش (خير من أولئك) يعني من الذين تقدم ذكرهم من أهل الكوا بسبب تكذيبهم الرسل وكفرهم بالكتب أأنتم خير من أولئك ؟ (أم لكم براءة في الزبر) أي أم معكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ؟ ثم قال تعالى مخبرا عنهم (أم يقولون نحن جميع منتصر) أي يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضا وأن جمعهم يعني عنهم من أرادهم بسوء قال الله تعالى (سيهزم الجمع ويولون الدبر) أي سيتفرق شملهم ويغلبون . قال البخاري حدثنا إسحاق حدثنا خالد عن خالد وقال أيضا حدثنا محمد بن عفان عن وهيب عن خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر « أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبدا » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه يده وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك فخرج وهو يثب في الدرع وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) وكذا رواه البخاري والنسائي في غير موضع من حديث خالد وهو ابن مهران الخداع به . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة قال لما نزلت (سيهزم الجمع ويولون الدبر) قال عمر أي جمع يهزم ؟ أي جمع يغلب ؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع وهو يقول « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ففرفت تأويلها يومئذ

وقال البخاري حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج أخبرهم أخبرني يوسف بن ماهك قال أني عند عائشة أم المؤمنين فقالت نزل على محمد ﷺ بمكة وإني لجارية ألب (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) هكذا رواه هنا مختصرا ، ورواه في فضائل القرآن مطولا ولم يخرج مسلم

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ * وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ قَبْلَ مِنْ مِثْلِكِ * وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾

يخبرنا تعالى عن المجرمين أنهم في ضلال عن الحق وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ثم قال تعالى (يوم يسحبون في النار على وجوههم) أي كما كانوا في سعر وشك وتردد أورثهم ذلك النار وكما كانوا ضلالا يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ويقال لهم تقريرا وتوبيخا (ذوقوا مس سقر) . وقوله تعالى (إنا كل شيء خلقناه بقدر) (وخلق كل شيء فقدره تقديرا) وكقوله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى) أي قدر قدرا وهدى الخلاق إليه ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة آئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لحلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابتها لها قبل برئها وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدسية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة وقد تكلمنا على هذا المقام مفصلا وماورد فيه من الأحاديث في شرح كتاب الايمان من صحيح البخاري رحمه الله ولندكرهنا الأحاديث المتعلقة بهذه الآية الكريمة . قال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان الثوري عن زياد بن إسماعيل السهمي عن محمد بن عباد بن جعفر عن أبي هريرة قال : جاء مشركو قريش الى النبي ﷺ يخاضمون في القدر فنزلت (يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر) وهكذا رواه مسلم والترمذي وابن ماجه من حديث وكيع عن سفيان الثوري به . وقال البرار حدثنا عمرو بن علي حدثنا الضحاك بن مخلد حدثنا يونس بن الحارث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال ما نزلت هذه الآيات (إن المجرمين في ضلال وسعر * يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر) الا في أهل القدر . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا سهل بن صالح الانطاكي حدثني قرة بن حبيب عن كنانة حدثني جرير بن حازم عن سعيد بن عمرو بن جمعة عن ابن زرارة عن أبيه عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية (ذوقوا مس سقره * إنا كل شيء خلقناه بقدر) قال « نزلت في أناس من أمي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله » . وحدثنا الحسن بن عرفة حدثنا مروان بن شجاع الجزري عن عبد الملك بن جريج عن عطاء بن أبي رباح قال : أنبت ابن عباس وهو ينزع من زمزم وقد ابتلت أسافل ثيابه فقلت له قد تكلم في القدر فقال أوقد فعلوها ! قلت : نعم ، قال فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم (ذوقوا مس سقر * إنا كل شيء خلقناه بقدر) أولئك شرار هذه الأمة فلا تعودوا مرضام ولا تصلوا على موتاهم إن رأيت أحدا منهم فقات عينيه بأصبعي هاتين . وقد رواه الامام أحمد من وجه آخر وفيه مرفوع فقال حدثنا أبو القيرة حدثنا الأوزاعي عن بعض اخوته عن محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن عباس قال قيل له ان رجلا قدم علينا يكذب بالقدر فقال دلوني عليه وهو أعمى قالوا وما تصنع به يا أبا عباس ! قال والذي بيده لئن استمكننت منه لأعضن أنه حتى أقطعه . ولئن وقت رقبته في يدي لأدقها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول « كأي بنساء بني فهر يظفن بالحزرج تصطلق ألياتهن مشركات ، هذا أول شرك هذه الأمة والذي نفسي بيده ليتبين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيرا كما أخرجوه من أن يكون قدر شرا » ثم رواه أحمد عن أبي القيرة عن الأوزاعي عن العلاء بن الحجاج عن محمد بن عبيد فذكر مثله لم يخرجوه وقال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا سعيد عن أبي أيوب حدثني أبو صخر عن نافع قال : كان لابن عمر صديق من أهل الشام يكتبه فكتب اليه عبد الله بن عمر إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر فإياك أن تكتب إلى فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « سيكون في أمي

أقوام يكذبون بالقدر» ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل به . وقال أحمد حدثنا أنس بن عياض حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال « لكل أمة مجوس ، ومجوس أمي الذين يقولون لا قدر إن مرضوا فلا تعودوهم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه وقال أحمد حدثنا قتيبة حدثنا رشدين عن أبي صخر حميد بن زياد عن نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « سيكون في هذه الأمة مسح ألا وذاك في المكذبين بالقدر والزنديقية » ورواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي صخر حميد بن زياد به وقال الترمذي حسن صحيح غريب . وقال الامام أحمد حدثنا إسحاق ابن الطباع أخبرني مالك عن زياد بن سعد عن عمرو بن مسلم عن طاوس اليماني قال سمعت ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « كل شيء بقدر حتى العجز والكيس » ورواه مسلم منفردا به من حديث مالك

وفي الحديث الصحيح « استعن بالله ولا تعجز فان أصابك أمر فقل قدر الله وما شاء فعل ولا تقل لو آتني فعلت لكان كذا فان لو تفتح عمل الشيطان » . وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك جفت الأقلام وطويت الصحف » وقال الامام أحمد حدثنا الحسن بن سوار حدثنا الليث عن معاوية عن أيوب بن زياد حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي قال دخلت على عباد وهو مريض آتخايل فيه الموت فقلت يا أبتاه أوصني واجتهد لي فقال أجلسوني فلما أجلسوه قال يا بني إنك لم تطعم الإيمان ولم تبلغ حق حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ، قلت يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره ؟ قال تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك ، يا بني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول ما خلق الله القلم ثم قال له اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن الى يوم القيامة » يا بني إن مت ولست على ذلك دخلت النار . ورواه الترمذي عن يحيى بن موسى البلخي عن أبي داود الطيالسي عن عبد الواحد بن سليم عن عطاء بن أبي رباح عن الوليد ابن عبادة عن أبيه به وقال حسن صحيح غريب . وقال سفيان الثوري عن منصور عن ربيع بن خراش عن رجل عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ « لا يؤمن أحد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وآتي رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر خيره وشره » وكذا رواه الترمذي من حديث النضر بن سمير عن شعبة عن منصور به ، ورواه من حديث أبي داود الطيالسي عن شعبة عن منصور عن ربيع عن علي فذكره وقال هذا عندي أصح وكذا رواه ابن ماجه من حديث شريك عن منصور عن ربيع عن علي به وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبد الله بن وهب وغيره عن أبي هانيء الخولاني عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب (وكان عرشه على الماء) ورواه الترمذي وقال حسن صحيح غريب

وقوله تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال (وما أمرنا إلا واحدة) أي إنما نأمر بالشئ مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد ثانية فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلًا موجودًا كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين ، وما أحسن ما قال بعض الشعراء :

إذا ما أراد الله أمرًا فأنما يقول له كن قوله فيكون

وقوله تعالى (ولقد أهلكنا أشياكم) يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسول (فهل من مذكر) أي فهل من منعتهم بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب كما قال تعالى (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل) . وقوله تعالى (وكل شيء فعلوه في الزبر) أي مكتوب عليهم في الكتب التي عليهم السلام (وكل صغير وكبير) أي من أعمالهم (مستطر) أي مجموع عليهم ومسطر في صحائفهم لا يعدر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . وقد قال الامام أحمد حدثنا أبو عامر حدثنا سعيد بن مسلم بن بانك سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير حدثني

عوف بن الحارث وهو ابن أخى عائشة لأمرها عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول « يا عائشة إياك وعفريات الذنوب فان لها من الله طالبا » ورواه النسائي وابن ماجه من طريق سعيد بن مسلم بن بانك اللدني ، وثقه أحمد وابن معين وأبو حاتم وغيرهم . وقد رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة سعيد بن مسلم هذا من وجه آخر . ثم قال سعيد فحدثت بهذا الحديث عامر بن هشام فقال لي ويحك يا سعيد بن مسلم لقد حدثني سليمان بن الليث أنه عمل ذنبا فاستغفره فأثابه آت في منامه فقال له يا سليمان :

لا تحقرن من الذنوب صغيرا	إن الصغير غدا يعود كبيرا
إن الصغير ولو تقادم عهده	عند الله مسطر تسطيرا
فأزجر هو الذنوب البطالة لا تكن	صعب القياد وفمرن تشميرا
إن المحب إذا أحب إلهه	طار الفؤاد وألهم التفكيرا
فأسأل هدايتك الله بنية	فكفي بربك هاديا ونصيرا

وقوله تعالى (إن المتقين في جنات ونهر) أى بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر والسحب في النار على وجوههم مع التوبيخ والتقريع والتهديد . وقوله تعالى (في مقعد صدق) أى في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه (عند ملك مقتدر) أى عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها . وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون . وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عمرو بن أوس عن عبد الله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » انفرد بإخراجه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة بإسناده مثله آخر تفسير سورة اقتربت والله الحمد ولله التوفيق والعصمة .

﴿ تفسير سورة الرحمن وهي مكية ﴾

قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد عن عاصم عن زر أن رجلا قال كيف تعرف هذا الحرف من ماء غير آسن أو أسن ؟ فقال كل القرآن قد قرأت قال إني لأقرأ للفصل في ركة واحدة فقال : أهذا كهذا الشعر لا أبالك ؟ قد علمت قرائن النبي ﷺ التي كان يقرن قريتين قريتين من أول الفصل وكان أول مفصل ابن مسعود (الرحمن) وقال أبو عيسى الترمذي حدثنا عبد الرحمن بن واقد أبو مسلم السعدي حدثنا الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عن محمد بن المنكدر عن جابر قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال لقد « قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن مردودا منك ، كنت كلما أتيت على قوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان) قالوا لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ثم قال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد ثم حكى عن الإمام أحمد أنه كان لا يعرفه ينكر رواية أهل الشام عن زهير بن محمد هذا ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عمرو بن مالك عن الوليد بن مسلم ، وعن عبد الله بن أحمد بن شبيب عن هشام ابن عمار كلاهما عن الوليد بن مسلم به ثم قال لا نعرفه يروى إلا من هذا الوجه وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا محمد ابن عباد بن موسى وعمرو بن مالك البصري قال حدثنا يحيى بن سليم عن إسماعيل بن أمية عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ سورة الرحمن أو قرئت عنده فقال « ما لي أسمع الجن أجوابا لربها منكم ؟ » قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال « ما أتيت على قول الله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان) ؟ إلا قالت الجن لا شيء من نعم ربنا نكذب » ورواه الحافظ البزار عن عمرو بن مالك به ثم قال لا نله يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه بهذا الاسناد

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * مُحْسِبَانِ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ